****

استعاذةٌ

التعريف :

١ – الاستعاذة لغةً : الالتجاء ، وقد عاذ به يعوذ : لاذ به ، ولجأ إليه ، واعتصم به ، وعذت بفلانٍ واستعذت به : أى لجأت إليه . ولا يختلف معناها اصطلاحاً عن المعنى اللّغوىّ ، فقد عرّفها البيجورىّ من الشّافعيّة بأنّها : الاستجارة إلى ذى منعةٍ على جهة الاعتصام به من المكروه . وقول القائل : أعوذ باللّه .. خبرٌ لفظاً دعاءٌ معنًى .

ولكن عند الإطلاق ، ولا سيّما عند تلاوة القرآن أو الصّلاة تنصرف إلى قول : (أعوذ باللّه من الشّيطان الرّجيم) وما بمنزلتها كما سيأتى .

الألفاظ ذات الصّلة :

أ – الدّعاء :

٢ – الدّعاء أعمّ من الاستعاذة ، فهو لجلب الخير أو دفع الشّرّ والاستعاذة دعاءٌ لدفع الشّرّ .

صفتها : حكمها التّكليفىّ :

٣ – الاستعاذة سنّةٌ عند أغلب الفقهاء ، وقال البعض بوجوبها عند قراءة القرآن ، وعند الخوف . وسيأتى تفصيل الحكم فى كلّ موطنٍ على حدةٍ .

حكمة تشريعها :

٤ – طلب اللّه سبحانه من عباده أن يستعيذوا به من كلّ ما فيه شرٌّ ، وشرعها سبحانه عند القيام ببعض الأعمال ، كقراءة القرآن فى الصّلاة وخارجها ، وغير ذلك .« واستعاذ الرّسول صلى الله عليه وسلم من الشّرّ كلّه ، بل إنّه استعاذ ممّا عوفى منه وعصم »، إظهاراً للعبوديّة ، وتعليماً لأمّته .

مواطن الاستعاذة :

أوّلاً : الاستعاذة لقراءة القرآن :

٥ – أجمع العلماء على أنّ الاستعاذة ليست من القرآن الكريم ، ولكنّها تطلب لقراءته ، لأنّ قراءته من أعظم الطّاعات ، وسعى الشّيطان للصّدّ عنها أبلغ . وأيضاً : القارئ يناجى ربّه بكلامه ، واللّه سبحانه يحبّ

القارئ الحسن التّلاوة ويستمع إليه ، فأمر القارئ بالاستعاذة لطرد الشّيطان عند استماع اللّه سبحانه وتعالى له .

حكمها :

٦ – ذهب جمهور الفقهاء إلى أنّها سنّةٌ ، وعن عطاءٍ والثّوريّ : أنّها واجبةٌ أخذاً بظاهر قوله تعالى : { فإذا قرأت القرآن فاستعذ باللّه } « ولمواظبته عليه الصلاة والسلام »، ولأنّها تدرأ شرّ الشّيطان ، وما لا يتمّ الواجب إلاّ به فهو واجبٌ . واحتجّ الجمهور بأنّ الأمر للنّدب ، وصرفه عن الوجوب إجماع السّلف على سنّيّته ،« ولما روى من ترك النّبيّ صلى الله عليه وسلم لها »، وإذا ثبت هذا كفى صارفاً .

محلّها :

٧ – للقرّاء والفقهاء فى محلّ الاستعاذة من القراءة ثلاثة آراءٍ :

أحدها : أنّها قبل القراءة ، وهو قول الجمهور ، وذكر ابن الجزريّ الإجماع على ذلك ، ونفى صحّة القول بخلافه . واستدلّوا على ذلك بما رواه أئمّة القرّاء مسنداً عن نافعٍ عن جبير بن مطعمٍ« أنّه صلى الله عليه وسلم كان يقول قبل القراءة : أعوذ باللّه من الشّيطان الرّجيم ». دلّ الحديث على أنّ التّقديم هو السّنّة ، فبقى سببيّة القراءة لها ،

والفاء فى (فاستعذ) دلّت على السّببيّة ، فلتقدّر (الإرادة) ليصحّ .

وأيضاً الفراغ من العمل لا يناسب الاستعاذة .

الثّانى : أنّها بعد القراءة ، وهو منسوبٌ إلى حمزة ، وأبى حاتمٍ ، ونقل عن أبى هريرة رضى الله عنه وابن سيرين ، وإبراهيم النّخعىّ ، وحكى عن مالكٍ ، عملاً بظاهر الآية { فإذا قرأت القرآن فاستعذ باللّه } . فدلّ على أنّ الاستعاذة بعد القراءة ، والفاء هنا للتّعقيب . وردّ صاحب كتاب النّشر صحّة هذا النّقل عمّن روى عنهم .

الثّالث : الاستعاذة قبل القراءة وبعدها ، ذكره الإمام الرّازىّ ، ونفى ابن الجزريّ الصّحّة عمّن نقل عنه أيضاً .

الجهر والإسرار بها :

٨ – للفقهاء والقرّاء فى الجهر بالاستعاذة ، أو الإسرار بها آراءٌ :

أوّلها : استحباب الجهر بها ، وهو قول الشّافعيّة ، وهو روايةٌ عن أحمد ، وهو المختار عند أئمّة القرّاء ، لم يخالف فى ذلك إلاّ حمزة ومن وافقه ، قال الحافظ أبو عمرٍو فى جامعه : لا أعلم خلافاً فى الجهر بالاستعاذة عند افتتاح القرآن ، وعند ابتداء كلّ قارئٍ بعرضٍ ، أو درسٍ ، أو تلقينٍ فى جميع القرآن ، إلاّ

ما جاء عن نافعٍ وحمزة . وقيّد الإمام أبو شامة إطلاق اختيار الجهر بما إذا كان ذلک بحضرة من يسمع قراءته ، لأنّ الجهر بالتّعوّذ إظهارٌ لشعائر القراءة كالجهر بالتّلبية وتكبيرات العيد ، ومن فوائده أنّ السّامع ينصت للقراءة من أوّلها لا يفوته منها شيءٌ ، وإذا أخفى التّعوّذ لم يعلم السّامع بالقراءة إلاّ بعد أن يفوته من المقروء شيءٌ ، وهذا المعنى هو الفارق بين القراءة خارج الصّلاة وفى الصّلاة ، فإنّ المختار فى الصّلاة الإخفاء ، لأنّ المأموم منصتٌ من أوّل الإحرام بالصّلاة .

الثّانى : التّخيير بين الجهر والإسرار ، وهو الصّحيح عند الحنفيّة ، قال ابن عابدين : لكنّه يتّبع إمامه من القرّاء ، وهم يجهرون بها إلاّ حمزة فإنّه يخفيها ، وهو قول الحنابلة .

الثّالث : الإخفاء مطلقاً ، وهو قولٌ للحنفيّة ، وروايةٌ للحنابلة ، وهو روايةٌ عن حمزة . الرّابع : الجهر بالتّعوّذ فى أوّل الفاتحة فقط ، والإخفاء فى سائر القرآن ، وهو روايةٌ ثانيةٌ عن حمزة . ولم أقف على رأى المالكيّة فى مسألة الاستعاذة خارج الصّلاة ، لكن يستأنس بما روى عن ابن المسيّب أنّه سئل عن استعاذة أهل المدينة أيجهرون بها أم يخفونها ؟ قال :(ما كنّا نجهر ولا نخفى ، ما كنّا نستعيذ ألبتّة).

بعض المواضع الّتى يستحبّ فيها الإسرار :

٩ – ذكر ابن الجزرىّ بعض المواضع الّتى يستحبّ فيها الإسرار بالاستعاذة ، منها ما إذا قرأ خالياً ، سواءٌ أقرأ جهراً أمّ سرّاً ، ومنها ما إذا قرأ سرّاً ، ومنها ما إذا قرأ فى الدّور ولم يكن فى قراءته مبتدئاً يسرّ بالتّعوّذ ، لتتّصل القراءة ، ولا يتخلّلها أجنبىٌّ ، فإنّ المعنى الّذى من أجله استحبّ الجهر – وهو الإنصات – فقد فى هذه المواضع .

المراد بالإخفاء :

١٠ – ذكر ابن الجزرىّ اختلاف المتأخّرين فى المراد بالإخفاء ، فقال : إنّ كثيراً منهم قالوا : هو الكتمان ، وعليه حمل كلام الشّاطبىّ أكثر الشّرّاح ، فعلى هذا يكفى فيه الذّكر فى النّفس من غير تلفّظٍ . وقال الجمهور : المراد به الإسرار وعليه حمل الجعبرىّ كلام الشّاطبىّ ، فلا يكفى فيه إلاّ التّلفّظ وإسماع نفسه ، وهذا هو الصّواب ، لأنّ نصوص المتقدّمين كلّها على جعله ضدّاً للجهر ، وكونه ضدّاً للجهر يقتضى الإسرار به .

صيغ الاستعاذة وأفضلها :

١١ – وردت صيغتان للاستعاذة عند القرّاء والفقهاء ،

إحداهما :" أعوذ باللّه من الشّيطان الرّجيم " كما ورد فى سورة النّحل من قوله تعالى { فإذا قرأت القرآن فاستعذ باللّه من الشّيطان الرّجيم } . وهذا اختيار أبى عمرٍو وعاصمٍ وابن كثيرٍ رحمهم الله . قال

ابن الجزرىّ : إنّه المختار لجميع القرّاء من حيث الرّواية ، وقال أبو الحسن السّخاوىّ فى كتابة (جمال القرّاء) : إنّ إجماع الأمّة عليه . قال فى النّشر :« وقد تواتر عن النّبىّ صلى الله عليه وسلم التّعوّذ به للقراءة ولسائر تعوّذاته »، وقال أبو عمرٍو الدّانىّ : هو المأخوذ به عند عامّة الفقهاء ، كأبى حنيفة ، والشّافعىّ ، وأحمد وغيرهم . وفى الصّحيحين وغيرهما قوله صلى الله عليه وسلم فى إذهاب الغضب : « لو قال : أعوذ باللّه من الشّيطان الرّجيم لذهب عنه ما يجد » وفى غير الصّحيح « أنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم قرأ أمامه عبد اللّه بن مسعودٍ فقال : أعوذ باللّه السّميع العليم فقال : قل : أعوذ باللّه من الشّيطان الرّجيم وهكذا أخذته عن جبريل عن ميكائيل عن اللّوح المحفوظ » .

الثّانية : " أعوذ باللّه من الشّيطان الرّجيم إنّ اللّه هو السّميع العليم " ، حكى عن أهل المدينة ، ونقله الرّازىّ فى تفسيره عن أحمد ، لقوله تعالى { وإمّا ينزغنّک من الشّيطان نزغٌ فاستعذ باللّه إنّه هو السّميع العليم } وروى عن عمر بن الخطّاب ، ومسلم بن يسارٍ ، وابن سيرين ، والثّورىّ ، وهو اختيار نافعٍ ، وابن عامرٍ ، والكسائىّ .

الثّالثة : أن يقول : " أعوذ بالسّميع العليم من الشّيطان الرّجيم " ، قاله ابن سيرين كما فى النّشر .

الرّابعة : أن يقول : « اللّهمّ إنّى أعوذ بک من الشّيطان الرّجيم » رواه ابن ماجه بإسنادٍ صحيحٍ عن عبد اللّه بن مسعودٍ مرفوعاً ، ورواه أبو داود كما فى النّشر .

وهناک صيغٌ أخرى أوردها صاحب النّشر .

الوقف على الاستعاذة :

١٢ – يجوز الوقف عليها والابتداء بما بعدها ، بسملةً كانت أو غيرها ، ويجوز وصلها بما بعدها ، والوجهان صحيحان ، وظاهر كلام الدّانىّ أنّ الأولى وصلها بالبسملة ، ولم يذكر ابن شيطا وأكثر العراقيّين سوى وصل الاستعاذة بالبسملة .

فأمّا من لم يسمّ فالأشبه السّكوت عليها ، ويجوز وصلها .

إعادة الاستعاذة عند قطع القراءة :

١٣ – إذا قطع القارئ القراءة لعذرٍ ، من سؤالٍ أو كلامٍ يتعلّق بالقراءة ، لم يعد التّعوّذ لأنّها قراءةٌ واحدةٌ . وفى (مطالب أولى النّهى) : العزم على الإتمام بعد زوال العذر شرطٌ لعدم الاستعاذة . أمّا إذا كان الكلام أجنبيّاً ، أو كان القطع قطع تركٍ وإهمالٍ فإنّه يعيد التّعوّذ ،

قال النّووىّ : يعتبر السّكوت والكلام الطّويل سبباً للإعادة .

الاستعاذة لدخول الخلاء :

١٤ – تستحبّ الاستعاذة عند دخول الخلاء ، ويجمع معها التّسمية ، ويبدأ بالتّسمية باتّفاق المذاهب الأربعة . أمّا بعد الدّخول فلا يقولها عند الحنفيّة والشّافعيّة والحنابلة ، ويوافقهم المالكيّة إن كان المحلّ معدّاً لذلک .

وقيل يتعوّذ وإن كان معدّاً لذلک . ونسبه العينىّ إلى مالکٍ .

صيغ الاستعاذة لدخول الخلاء :

١٥ – يرى الحنفيّة والمالكيّة والشّافعيّة – وهو المذهب عند الحنابلة – أنّ صيغة الاستعاذة لدخول الخلاء هى :" بسم اللّه اللّهمّ إنّى أعوذ بک من الخبث والخبائث "، لما روى أنسٌ رضى الله عنه « أنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل الخلاء يقول : اللّهمّ إنّى أعوذ بک من الخبث والخبائث » . وروى أيضاً عن أحمد أنّه يقول الرّجل إذا دخل الخلاء : أعوذ باللّه من الخبث والخبائث ، ولم يذكر التّسمية فى هذه الرّواية .وزاد الغزالىّ : اللّهمّ إنّى أعوذ بک من الرّجس النّجس الخبيث المخبث الشّيطان الرّجيم ، لما روى عن أبى أمامة أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال : « لا يعجز أحدكم إذا دخل مرفقه أن يقول : اللّهمّ إنّى أعوذ بک من الرّجس النّجس الخبيث المخبث الشّيطان الرّجيم » . والخبث بضمّ الباء : ذكران الشّياطين ، والخبائث : إناثهم ، وقال أبو عبيدٍ : الخبث بإسكان الباء : الشّرّ ، والخبائث : الشّياطين . قال الحطّاب : وخصّ هذا الموضع بالاستعاذة لوجهين .

الأوّل : بأنّه خلاءٌ ، وللشّياطين بقدرة اللّه تعالى تسلّطٌ بالخلاء ما ليس لهم فى الملأ . الثّانى : أنّ موضع الخلاء قذرٌ ينزّه ذكر اللّه تعالى فيه عن جريانه على اللّسان ، فيغتنم الشّيطان عدم ذكره ، لأنّ ذكر اللّه تعالى يطرده ، فأمر بالاستعاذة قبل ذلک ليعقدها عصمةً بينه وبين الشّيطان حتّى يخرج .

الاستعاذة للتّطهّر :

١٦ – عند الحنفيّة ، قال الطّحاوىّ : يأتى بها قبل التّسمية ، غير أنّه لم يوضّح حكمها . وتستحبّ الاستعاذة للوضوء سرّاً عند الشّافعيّة قبل التّسمية ، قال الشّروانىّ : وأن يزيد بعدها : الحمد للّه الّذى جعل الماء طهوراً ، والإسلام نوراً ، { ربّ أعوذ بک من همزات الشّياطين ، وأعوذ بک ربّ أن يحضرون } . ولم يثبت عند المالكيّة من الأذكار فى الوضوء إلاّ التّشهّدان آخره ، والتّسمية أوّله . ولم نقف للحنابلة على نصٍّ صريحٍ فيها . ولم يتعرّض الفقهاء فيما اطّلعنا عليه للاستعاذة عند الغسل والتّيمّم ، إلاّ أنّهم متّفقون على أنّ الوضوء قبل الغسل مندوبٌ ، فيجرى عليه ما تقدّم من أحكام الاستعاذة عند الوضوء . وما أحسن ما جاء فى الفروع لابن مفلحٍ : أنّ التّعوّذ يستحبّ عند كلّ قربةٍ فيدخل فيها هذا وما كان مثله .

الاستعاذة عند دخول المسجد والخروج منه :

١٧ – نصّ المالكيّة ، والشّافعيّة ، والحنابلة على ندب الاستعاذة عند دخول المسجد ، وقد وردت صيغة الاستعاذة لدخول المسجد فيما ورد : « أعوذ باللّه العظيم ، وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم من الشّيطان الرّجيم » الحمد للّه، اللّهمّ صلّ وسلّم على محمّدٍ وعلى آل محمّدٍ . اللّهمّ اغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب رحمتك ، ثمّ يقول : باسم اللّه ، ويقدّم اليمنى فى الدّخول ، ويقدّم اليسرى فى الخروج ويقول جميع ما ذكرناه إلاّ أنّه يقول : أبواب فضلك بدل رحمتك . وأمّا الحنفيّة فلم نقف لهم على قولٍ فى ذلك .

أمّا عند الخروج من المسجد ، فقد نصّ الشّافعيّة ، والحنابلة على ندب الاستعاذة حينئذٍ . قال الشّافعيّة : يستعيذ بما استعاذ به عند الدّخول ، وقد أخذ الحنابلة فى ذلك بما ورد من حديث « اللّهمّ إنّى أعوذ بك من إبليس وجنوده » . ولم يوقف للحنفيّة ، والمالكيّة على شىءٍ فى ذلك ، غير أنّ الحنفيّة ذكروا الاستعاذة عند الخروج من المسجد الحرام .

الاستعاذة فى الصّلاة :حكمها :

١٨ – الاستعاذة فى الصّلاة سنّةٌ عند الحنفيّة والشّافعيّة ، وهو المذهب عند الحنابلة ، وعن أحمد روايةٌ أخرى أنّه واجبٌ . أمّا المالكيّة فقالوا : إنّها جائزةٌ فى النّفل ، مكروهةٌ فى الفرض . ويكتفى فى الاستدلال على هذه الأقوال بما تقدّم فى الاستدلال على أحكامها فى قراءة القرآن ، فيما عدا دليل المالكيّة على الكراهة ، وحجّتهم أنّ الشّيطان يدبر عند الأذان والتّكبير ، كما استدلّوا بما روى عن أنسٍ قال :« صلّيت خلف رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وخلف أبى بكرٍ وعمر وكانوا يستفتحون القراءة بالحمد للّه ربّ العالمين . »

محلّ الاستعاذة فى الصّلاة :

١٩ – تكون الاستعاذة قبل القراءة عند الحنفيّة ، والشّافعيّة ، والحنابلة ، وهو قولٌ عند المالكيّة ، وهو ظاهر المدوّنة ، والقول الآخر للمالكيّة محلّها بعد أمّ القرآن ، كما فى المجموعة . ويستدلّ على ذلك بما تقدّم فى محلّ الاستعاذة عند قراءة القرآن (ف ٧) .

تبعيّة الاستعاذة فى الصّلاة :

٢٠ – الاستعاذة إمّا أن تكون تابعةً لدعاء الاستفتاح (الثّناء) أو للقراءة ، وتبعيّتها للقراءة قال به أبو حنيفة ومحمّدٌ والمالكيّة والشّافعيّة والحنابلة ، ودليلهم على ذلك أنّها سنّة القراءة فيأتى بها كلّ قارئٍ ، لأنّها شرعت صيانةً عن وساوس الشّيطان فى القراءة .

وقال أبو يوسف : إنّها تبعٌ للثّناء ، لأنّها لدفع الوسواس فى الصّلاة مطلقاً . وليس للخلاف ثمرةٌ إلاّ بين أبى حنيفة ومحمّدٍ ، وبين أبى يوسف ، وتظهر فى مسائل منها : أنّه لا يأتى بها المقتدى عند أبى حنيفة ومحمّدٍ ، لأنّه لا قراءة عليه ، ويأتى بها عند أبى يوسف ، لأنّه يأتى بالثّناء وهى تابعةٌ له .

فوات التّعوّذ :

٢١ – يفوت التّعوّذ بالشّروع فى القراءة عند الحنفيّة والشّافعيّة والحنابلة ، وذلك لفوات المحلّ ، وترك الفرض لأجل السّنّة مرفوضٌ . ومقتضى قواعد المالكيّة كذلك فى النّفل ، فهى سنّةٌ قوليّةٌ لا يعود إليها .

الإسرار والجهر بالاستعاذة فى الصّلاة :

٢٢ – للفقهاء فى ذلك ثلاثة آراءٍ :

الأوّل : استحباب الإسرار ، وبه قال الحنفيّة ، وفى الفتاوى الهنديّة : أنّه المذهب ، ومعهم فى هذا الحنابلة ، إلاّ ما استثناه ابن قدامة ، وعلى هذا أيضاً المالكيّة فى أحد قوليهم ، وهو الأظهر عند الشّافعيّة . والدّليل على استحباب الإسرار قول ابن مسعودٍ رضى الله عنه أربعٌ يخفيهنّ الإمام ، وذكر منها : التّعوّذ والتّسمية وآمين ، ولأنّه لم ينقل عن النّبىّ صلى الله عليه وسلم الجهر .

الرّأى الثّانى : استحباب الجهر ، وهو قول المالكيّة فى ظاهر المدوّنة ، ومقابل الأظهر عند الشّافعيّة ، ويجهر فى بعض الأحيان فى الجنازة ونحوها ممّا يطلب الإسرار فيه تعليماً للسّنّة ، ولأجل التّأليف ، واستحبّها ابن قدامة وقال : اختار ذلك ابن تيميّة . وقال فى الفروع : إنّه المنصوص عن أحمد ، وسندهم فى الجهر قياس الاستعاذة على التّسمية وآمين .

الرّأى الثّالث : التّخيير بين الإسرار والجهر ، وهو قولٌ للشّافعيّة ، جاء فى الأمّ : كان ابن عمر رضى الله عنهما يتعوّذ فى نفسه ، وأبو هريرة رضى الله عنه يجهر به .

تكرار الاستعاذة فى كلّ ركعةٍ :

٢٣ – الاستعاذة مشروعةٌ فى الرّكعة الأولى باتّفاقٍ ، أمّا تكرارها فى بقيّة الرّكعات فإنّ الفقهاء يختلفون فيه على رأيين :

الأوّل : استحباب التّكرار فى كلّ ركعةٍ ، وهو قول ابن حبيبٍ من المالكيّة ، ولم ينقل أنّ أحداً منهم خالفه ، وهو المذهب عند الشّافعيّة ، وهو روايةٌ عن أحمد صحّحها صاحب الإنصاف بل قال ابن الجوزىّ : روايةٌ واحدةٌ . والدّليل على ذلك قول اللّه سبحانه وتعالى : { فإذا قرأت القرآن فاستعذ باللّه من الشّيطان الرّجيم } وقد وقع الفصل بين القراءتين ، فأشبه ما لو قطع القراءة خارج الصّلاة بشغلٍ ، ثمّ عاد إليها يستحبّ له التّعوّذ ، ولأنّ الأمر معلّقٌ على شرطٍ فيتكرّر بتكرّره ، كما فى قوله تعالى { وإن كنتم

جنباً فاطّهّروا } وأيضاً إن كانت مشروعةً فى الرّكعة الأولى فهى مشروعةٌ فى غيرها من الرّكعات قياساً ، للاشتراك فى العلّة . الثّانى : كراهية تكرار الاستعاذة فى الرّكعة الثّانية وما بعدها عند الحنفيّة ، وقولٌ للشّافعيّة ، وهو المذهب عند الحنابلة . وحجّتهم أنّه كما لو سجد للتّلاوة فى قراءته ثمّ عاد إليها لا يعيد التّعوّذ ، وكأنّ رابطة الصّلاة تجعل الكلّ قراءةً واحدةً ، غير أنّ المسبوق إذا قام للقضاء يتعوّذ عند أبى يوسف .

صيغة الاستعاذة فى الصّلاة :

٢٤ – تحصل الاستعاذة فى الصّلاة بكلّ ما اشتمل على التّعوّذ من الشّيطان عند الشّافعيّة ، وقيّده البيجوريّ بما إذا كان وارداً . وعلى هذا الحنابلة ، فكيفما تعوّذ من الذّكر الوارد فحسنٌ . واقتصر الحنفيّة على " أعوذ " أو " أستعيذ " . ولم نجد للمالكيّة نصّاً فى هذه المسألة . وأفضل الصّيغ على الإطلاق عند الشّافعيّة " أعوذ باللّه من الشّيطان الرّجيم " وهو المختار عند الحنفيّة ، وقول الأكثر من الأصحاب منهم ومن الحنابلة ، لأنّه المنقول من استعاذته عليه الصلاة والسلام ، قال ابن المنذر : جاء عن النّبىّ صلى الله عليه وسلم « أنّه كان يقول قبل القراءة : أعوذ باللّه من الشّيطان الرّجيم » . وجاء عن أحمد أنّه يقول : « أعوذ باللّه السّميع العليم من الشّيطان الرّجيم » لحديث أبى سعيدٍ فإنّه متضمّنٌ لهذه الزّيادة . ونقل حنبلٌ عنه أنّه يزيد بعد ذلك " إنّ اللّه هو السّميع العليم " .

وفى فتح القدير لا ينبغى أن يزيد عليه " إنّ اللّه هو السّميع العليم " .

استعاذة المأموم :

٢٥ – لا يختلف حكم الاستعاذة بالنّسبة للإمام عمّا لو كان منفرداً . أمّا المأموم فتستحبّ له عند الشّافعيّة سواءٌ أكانت الصّلاة سرّيّةً أم جهريّةً ، ومعهم أبو يوسف من الحنفيّة ، لأنّ التّعوّذ للثّناء عنده ، وهو إحدى روايات ٍ ثلاث ٍ عن أحمد .

وتكره للمأموم تحريماً عند أبى حنيفة ومحمّدٍ ، لأنّها تابعةٌ للقراءة ، ولا قراءة على المأموم ، لكن لا تفسد صلاته إذا استعاذ فى الأصحّ ، وعلى هذا الرّواية الثّانية عن أحمد ، أمّا الرّواية الثّالثة عنه فهى إن سمع الإمام كرهت وإلاّ فلا ، وذهب المالكيّة إلى جوازها للإمام والمأموم فى النّفل . أمّا فى الفرض فمكروهةٌ لهما كما سبق .

الاستعاذة فى خطبة الجمعة :

٢٦ – من سنن خطبة الجمعة عند الحنفيّة : أن يستعيذ فى الخطبة الأولى فى نفسه سرّاً قبل الحمد . ويستدلّ لهم بما قال سويدٌ : سمعت أبا بكرٍ الصّدّيق رضى الله عنه يقول على المنبر : أعوذ باللّه من الشّيطان الرّجيم . ولم نجد عند بقيّة المذاهب كلاماً فى ذلک .

محلّ الاستعاذة فى صلاة العيد :

٢٧ – يستعيذ بعد تكبيرات الزّوائد عند أبى حنيفة ومحمّدٍ ، وكذلک عند الشّافعيّة تكون بعد التّكبير ، وهو قولٌ عن أحمد ، لأنّها تبعٌ للقراءة . وتكون قبل تكبيرات الزّوائد عند المالكيّة ، وأبى يوسف من الحنفيّة ، لأنّها تبعٌ للثّناء ، وهو إحدى الرّوايات عن أحمد .

حكمها ، ومحلّها فى صلاة الجنازة :

٢٨ – لا يختلف حكم الاستعاذة فى الجنازة عن حكمها فى الصّلاة المطلقة ، ويجرى فيها الخلاف الّذى جرى فى الصّلاة المطلقة .

المستعاذ به :

٢٩ – الاستعاذة تكون باللّه تعالى ، وأسمائه ، وصفاته ، وقال البعض : لا بدّ فيما يقرأ من القرآن للتّعوّذ أن يكون ممّا يتعوّذ به ، لا نحو آية الدّين . ويجوز الاستعاذة بالإنسان فيما هو داخلٌ تحت قدرته الحادثة ، كأن يستجير به من حيوانٍ مفترسٍ ، أو من إنسانٍ يريد الفتک به . ويحرم الاستعاذة بالجنّ والشّياطين ، لأنّ اللّه تعالى أخبر أنّ من استعاذ بهم زادوه رهقاً ، كما فى قوله تعالى { وأنّه كان رجالٌ من الإنس يعوذون برجالٍ من الجنّ فزادوهم رهقاً }

المستعاذ منه :

٣٠ – يصعب ذكر المستعاذ منه تفصيلاً ، وقد عنيت كتب التّفسير ، والحديث ، والأذكار بكثيرٍ من هذه الأمور ، وتكفى الإشارة إلى بعض أنواع المستعاذ منه على سبيل التّمثيل . من ذلک : الاستعاذة من بعض صفات اللّه ببعض صفاته سبحانه . ومنه الاستعاذة من الشّرّ كلّه – شرّ النّفس والحواسّ ، والأماكن والرّيح وغير ذلک . ومن ذلک : الاستعاذة من الهرم وكآبة المنقلب ، ومن الشّقاق ، والنّفاق ، وسوء الأخلاق ، ومن الجبن والبخل .

إجابة المستعيذ :

٣١ – يندب للإنسان إجابة من استعاذ به فى أمرٍ مقدورٍ له ، وقد تكون الإعاذة واجباً كفائيّاً أو عينيّاً ، لما روى عن عبد اللّه بن عمر رضى الله عنهما« من استعاذكم باللّه فأعيذوه ، ومن سألكم باللّه فأعطوه ،

ومن دعاكم فأجيبوه ، ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه إلخ ». وقد يكون المستعيذ باللّه مستغيثاً ، فيكون تفصيل الحكم فى مصطلح (استغاثةٌ) أولى .

تعليق التّعويذات :

يرجع فى حكم تعليق التّعويذات إلى مصطلح (تميمةٌ) .

استعارةٌ ❊

التعريف :

١ – الاستعارة هى : طلب الإعارة ، والإعارة تمليك المنفعة بلا عوضٍ .

صفتها : حكمها التّكليفىّ :

٢ – الأصل أنّ من أبيح له أخذ شىءٍ أبيح له طلبه ، ومن لا فلا . ويختلف حكمها بحسب الحالة الّتى يتمّ فيها الطّلب . فقد تكون الاستعارة واجبةً إذا توقّف عليها إحياء نفسٍ ، أو حفظ عرضٍ ، أو نحو ذلك من الأمور الضّروريّة ، لأنّ سدّ الضّرورات واجبٌ لا يجوز التّساهل فيه ، وما لا يتمّ الواجب إلاّ به فهو واجبٌ .

وقد تكون مندوبةً ليستعين بها على الخير كاستعارة الكتب النّافعة . وتكون الاستعارة مكروهةً ، عندما يكون فيها منّةٌ ، ولحاجةٍ له مندوحةٌ عنها ، وقد عدّ الفقهاء من ذلك استعارة الفرع أصله لخدمته ، لما فى ذلك من ذلّ الخدمة الّتى يجب أن ينزّه عنها الآباء . وقد تكون الاستعارة محرّمةً ، كما لو استعار شيئاً ليتعاطى به تصرّفاً محرّماً ، كاستعارته سلاحاً ليقتل به بريئاً ، أو آلة لهوٍ ليجمع عليها الفسّاق ونحو ذلك .

آداب الاستعارة :

٣ – من آدابها :

أ – ألا يذلّ نفسه ، بل إن استعار استعار بعزٍّ ، والفرق بين الاستعارة والاستجداء : أنّ الاستجداء يكون مع الذّلّ ، والاستعارة تكون مع العزّ ، ولذلك كان عليه أن يترك الاستعارة ممّن يمنّ عليه طالما له مندوحةٌ عن ذلك كما تقدّم .

ب – وألاّ يلحف فى طلب الإعارة ، والإلحاف هو إعادة السّؤال بعد الرّدّ ، وقد ذمّ اللّه الملحفين بالسّؤال بقوله تعالى { تعرفهم بسيماهم لا يسألون النّاس إلحافاً } وإنّما نهى عنه لأنّ هذا الإلحاف قد يخرج المعير عن طوره ، فيقع فى شىءٍ من المحظورات ، كالكلام البذىء ونحو ذلك ، وهو أذًى ينزله المستعير

بالمعير ، قال عليه الصلاة والسلام : « لا تلحفوا فى المسألة » . ولكن يجوز التّكرار لبيان مسيس الحاجة إلى الاستعارة .

ج – وأن يقدّم الاستعارة من الرّجل الصّالح على الاستعارة من غيره ، لما يتحرّاه الصّالحون من المال الحلال ، ولما يحملونه من نفوسٍ طيّبةٍ تجود بالخير .

قال النّبىّ عليه الصلاة والسلام : « إن كنت سائلاً لا بدّ فاسأل الصّالحين » .

د – وألاّ يسأل بوجه اللّه ، ولا بحقّ اللّه ، كقوله : أسألك بوجه اللّه ، أو بحقّ اللّه أن تعيرنى كذا ، لما فيه من اتّخاذ اسم اللّه تعالى آلةً .

قال عليه الصلاة والسلام : « لا يسأل بوجه اللّه إلاّ الجنّة » وقال : « ملعونٌ من سأل بوجه اللّه » .

وللتّفصيل يرجع إلى (إعارةٌ) .

استعانةٌ ❊

التعريف :

١ – الاستعانة مصدر استعان ، وهى : طلب العون ، يقال : استعنته واستعنت به فأعاننى والمعنى الاصطلاحىّ لا يخرج عن المعنى اللّغوىّ .

الحكم الإجمالىّ :

٢ – تنقسم الاستعانة إلى استعانةٍ باللّه ، واستعانةٍ بغيره . فالاستعانة باللّه سبحانه وتعالى مطلوبةٌ فى كلّ شىءٍ : مادّىٍّ مثل قضاء الحاجات ، كالتّوسّع فى الرّزق ، ومعنوىٍّ مثل تفريج الكروب ، مصداقاً لقوله تعالى : { إيّاك نعبد وإيّاك نستعين } . وقوله تعالى : { قال موسى لقومه : استعينوا باللّه واصبروا } . وتكون الاستعانة بالتّوجّه إلى اللّه تعالى بالدّعاء ، كما تكون بالتّوجّه إليه تعالى بفعل الطّاعات ، لقوله تعالى : { واستعينوا بالصّبر والصّلاة } .

٣ – أمّا الاستعانة بغير اللّه ، فإمّا أن تكون بالإنس أو بالجنّ . فإن كانت الاستعانة بالجنّ فهى ممنوعةٌ ، وقد تكون شركاً وكفراً ، لقوله تعالى : { وأنّه كان رجالٌ من الإنس يعوذون برجالٍ من الجنّ فزادوهم رهقاً } .

٤ – وأمّا الاستعانة بالإنس فقد اتّفق الفقهاء على أنّها جائزةٌ فيما يقدر عليه من خيرٍ ، لقوله تعالى : { وتعاونوا على البرّ والتّقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان } وقد يعتريها الوجوب عند الاضطرار ، كما لو وقع فى تهلكةٍ وتعيّنت الاستعانة طريقاً للنّجاة ، لقوله تعالى : { ولا تلقوا بأيديكم إلى التّهلكة } .

استعانة المسلم بغير المسلم فى القتال :

٥ – أجاز الحنفيّة والحنابلة استعانة المسلم بغيره فى القتال عند الضّرورة ، والشّافعيّة بشروطٍ ، والمالكيّة بشرط رضاه وتفصيل ذلك فى مصطلح (جهادٌ)

الاستعانة بغير المسلمين فى غير القتال :

٦ – تجوز الاستعانة فى الجملة بغير المسلم ، سواءٌ أكان من أهل الكتاب أم من غيرهم فى غير القربات ، كتعليم الخطّ والحساب والشّعر المباح ، وبناء القناطر والمساكن والمساجد وغيرها فيما لا يمنع من مزاولته شرعاً . ولا تجوز الاستعانة به فى القربات كالأذان والحجّ وتعليم القرآن ، وفى الأمور الّتى يمنع من مزاولتها شرعاً ، كاتّخاذه فى ولايةٍ على المسلمين ، أو على أولادهم . وقد تباح الاستعانة بأهل الكتاب ، دون غيرهم من المشركين والمجوس ومن على شاكلتهم فى بعض الأمور ، مثل الصّيد والذّبح ، أمّا المشرك والمجوسىّ فلا يتولّى الاصطياد والذّبح لمسلمٍ ، وتفصيل ذلك يرجع إليه فى مصطلح (إجارةٌ) (وصيدٌ) (وذبائح) (وأطعمةٌ) (ووكالةٌ) .

الاستعانة بأهل البغى ، وعليهم :

٧ – قال الحنفيّة والمالكيّة والشّافعيّة والحنابلة : يجوز الاستعانة بأهل البغى على الكفّار ، ولم يجز الاستعانة بالكفّار عليهم إلاّ الحنفيّة . ولتفصيل ذلك ينظر إلى مصطلح (بغاةٌ)

الاستعانة بالغير فى العبادة :

٨ – الاستعانة بالغير فى أداء العبادة جائزةٌ ، ولكن هل يعتبر ذلك قدرةً ملزمةً لمن لا يستطيع الأداء إلاّ بها ؟ قال بعض الحنفيّة ، ووافقهم الشّافعيّة والحنابلة : يعتبر الإنسان قادراً ، إذا وجد من يعينه على العبادة ، مثل الوضوء ، أو القيام فى الصّلاة .

وقال بعض الحنفيّة ، وهو المفهوم عند المالكيّة : لا يصير قادراً بإعانة غيره ، لأنّ المعونة تعتبر له نافلةً .

استعطاءٌ ❊

انظر : (عطاءٌ) ، (عطيّةٌ) .

استعلاءٌ ❊

التعريف :

١ – الاستعلاء فى اللّغة : استفعالٌ من العلوّ ، وهو السّموّ والارتفاع . والمستعلى من الحروف : المفخّم منها ، ومعنى استعلائها : أنّها تتصعّد فى الحنك الأعلى ، واستعلى على النّاس : غلبهم وقهرهم وعلاهم .

وفى اصطلاح علماء الأصول يستعمل الاستعلاء بمعنى إظهار العلوّ ، سواءٌ أكان هناك علوٌّ فى الواقع أم لا وتفصيل ذلك فى مصطلح (أمرٌ) .

الألفاظ ذات الصّلة :

٢ – التّكبّر : هو إظهار الكبر أى العظمة . وتعريفه شرعاً : بطر الحقّ وغمط النّاس ، كما جاء فى الحديث . وهو فى صفات اللّه تعالى مدحٌ ، لأنّ شأنه عظيمٌ ، وفى صفاتنا ذمٌّ ، لأنّ شأننا صغيرٌ ، وهو أهلٌ للعظمة ولسنا بأهلٍ لها .

الحكم الإجمالىّ :

٣ – يرى جمهور الأصوليّين أنّ الاستعلاء شرطٌ فى الأمر ، وذلك احترازاً عن الدّعاء والالتماس .

مواطن البحث :

٤ – الاستعلاء كشرطٍ فى الأمر يبحثه الأصوليّون فى مسألة الأمر عند الحديث عن شروطه ، ودلالة حرف " على " الاستعلاء يبحث فى مسائل حروف الجرّ ، عند الحديث عن حرف الجرّ " على " وتفصيل ذلك فى المصطلح الأصولىّ .

استعمالٌ ❊

التعريف :

١ – الاستعمال فى اللّغة : طلب العمل ، أو توليته ، واستعمله : عمل به ، واستعمل فلانٌ : ولى عملاً من أعمال السّلطة ، وحبلٌ مستعملٌ : قد عمل به ومهن .

والاستعمال فى عرف الفقهاء لا يخرج عن معناه اللّغوىّ ، حيث عبّر الفقهاء عنه بمعانيه اللّغويّة الواردة فى التعريف كما سيأتى بعد ، ومن ذلك قولهم الماء المستعمل .

الألفاظ ذات الصّلة :

استئجارٌ :

٢ – الاستئجار استفعالٌ من الإجارة ، واستأجره : اتّخذه أخيراً على العمل بأجرٍ . فالاستعمال أعمّ ، لأنّه قد يكون بأجرٍ ، وقد يكون بغير أجرٍ .

الحكم الإجمالىّ :

٣ – يختلف حكم الاستعمال بحسب نوعه ، وللاستعمال أنواعٌ مختلفةٌ : ومنها استعمال الآلات ، واستعمال الموادّ ، ومنها استعمال الأشخاص .

استعمال الموادّ ، ومن صوره :

أ – استعمال الماء :

٤ – إذا استعمل الماء المطلق للطّهارة من أحد الحدثين امتنع إطلاق اسم الماء عليه دون قيدٍ ، وصار له حكمٌ آخر من حيث الطّهوريّة . فيقرّر الحنفيّة والشّافعيّة والحنابلة : أنّه طاهرٌ فى نفسه غير مطهّرٍ لغيره ، وخالف فى هذا المالكيّة ، حيث أجازوا التّطهّر به مع الكراهة إن وجد غيره ، وإلاّ فلا كراهة ، وتفصيل ذلك فى بحث المياه من كتب الفقه .

ب – استعمال الطّيب :

٥ – استعمال الطّيب مستحبٌّ فى الجملة ، إلاّ فى الإحرام ، أو الإحداد ، أو خوف الفتنة بالنّساء عند الخروج من البيوت . ولتفصيل ذلك ينظر مصطلح : (إحرامٌ) (وإحدادٌ) .

ج – استعمال جلود الميتة :

٦ – استعمال جلود الميتة عند المالكيّة والحنابلة غير جائزٍ فى الجملة ، وكذلك عند الشّافعيّة قبل الدّبغ ، وقد أجاز ذلك الحنفيّة بعد قطع الرّطوبة بالتّشميس أو التّتريب . ولتفصيل ذلك يرجع إلى مصطلح : (دباغةٌ) .

د – استعمال أوانى الذّهب والفضّة :

٧ – منع العلماء استعمال أوانى الذّهب والفضّة فى الأكل والشّرب ، لما ورد فيها من نصوصٍ منها : قول الرّسول صلى الله عليه وسلم : « لا تشربوا فى آنية الذّهب والفضّة ، ولا تأكلوا فى صحافها ، فإنّها لهم فى الدّنيا ولكم فى الآخرة » .

ولتفصيل ذلك يرجع إلى مصطلح : (آنيةٌ) .

الاستعمال الموجب للضّمان :

٨ – قرّر الفقهاء فى الجملة أنّ استعمال المرهون الوديعة يعتبر تعدّياً يضمن بموجبه ، لأنّ التّعدّى سببٌ للضّمان مطلقاً ، ولتفصيل ذلك يرجع إلى مصطلح : (رهنٌ) (ووديعةٌ) (وضمانٌ) .

استعمال الإنسان :

٩ – يجوز استعمال الإنسان متطوّعاً وبأجرٍ ، مثل الاستعمال على الإمامة والقضاء بشروطٍ معيّنةٍ ، يرجع فى تفصيلها إلى الولاية والإمامة والقضاء فى كتب الفقه .

وكذا استعمال الإنسان فى الصّناعة والخدمة والتّجارة . ومنه قول العبّاس بن سهلٍ السّاعدىّ فى صنع المنبر النّبوىّ : " فذهب أبى ، فقطع عيدان المنبر من الغابة ، قال : فما أدرى عملها أبى أو استعملها " .

ويرجع فى تفصيل ذلك إلى مصطلح (استصناعٌ) (وإجارةٌ) (ووكالةٌ)

استغاثةٌ ❊

التعريف :

١ – الاستغاثة لغةً : طلب الغوث والنّصر . والاستغاثة شرعاً : لا تخرج فى المعنى عن التعريف اللّغوىّ ، حيث تكون للعون ، وتفريج الكروب .

الألفاظ ذات الصّلة :

الاستخارة :

٢ – الاستخارة لغةً : طلب الخيرة فى الشّىء . واصطلاحاً : طلب صرف الهمّة لما هو المختار عند اللّه ، والأولى بالصّلاة والدّعاء .

فالاستخارة أخصّ ، لأنّها لا تطلب إلاّ من اللّه .

الاستعانة :

٣ – الاستعانة : طلب العون . استعنت بفلانٍ طلبت معونته فأعاننى ، وعاوننى . وتكون من العباد فيما يقدرون عليه ، ومن اللّه { إيّاك نعبد وإيّاك نستعين } فالفرق أنّ الاستغاثة لا تكون إلاّ فى الشّدّة .

حكم الاستغاثة :

٤ – للاستغاثة أربعة أحكامٍ :

الأوّل : الإباحة ، وذلك فى طلب الحوائج من الأحياء ، إذا كانوا يقدرون عليها – ومن ذلك الدّعاء فإنّه يباح طلبه من كلّ مسلمٍ ، بل يحسن ذلك – فله أن يستغيث بالمخلوقين أو لا يستغيث ، ولكن لا يجب أن يطلب منهم على جهة السّؤال والذّلّ والخضوع والتّضرّع لهم كما يسأل اللّه تعالى ، لأنّ مسألة المخلوقين فى الأصل محرّمةٌ ، ولكنّها أبيحت عند الحاجة والضّرورة ، والأفضل الاستعفاف عنها إلاّ إذا ترتّب على ترك الاستغاثة هلاكٌ ، أو حدٌّ ، أو ضمانٌ ، فإنّه يجب عليه أن يدفع بالاستغاثة أوّلاً . فإن لم يفعل أثم وترتّب عليه سبق ضمانٍ للدّماء والحقوق على تفصيلٍ سيأتى .

الثّانى : النّدب ، وذلك إذا استغاث باللّه ، أو بصفةٍ من صفاته فى الشّدّة والكرب { أمّن يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السّوء } .

الثّالث : الوجوب ، وذلك إذا ترتّب على ترك الاستغاثة هلاكٌ أو ضمانٌ ، فإن تركه مع وجوبه أثم .

الرّابع : التّحريم ، وذلک إذا استغاث بمن لا يملک فی الأمور المعنويّة بالقوّة أو التّأثير ، سواءٌ كان المستغاث به إنساناً ، أو جنّاً ، أو ملكاً ، أو نبيّاً ، فی حياته ، أو بعد مماته { ولا تدع من دون اللّه ما لا ينفعک ولا يضرّک } .

الاستغاثة باللّه :

٥ – أ – فی الأمور العادية : أجمع علماء الأمّة على استحباب الاستغاثة باللّه تبارک وتعالى ، سواءٌ أكان ذلک من قتال عدوٍّ أم اتّقاء سبعٍ أم نحوه . لاستغاثة الرّسول صلى الله عليه وسلم باللّه فی موقعة بدرٍ ، وقد أخبرنا القرآن بذلک . قال اللّه تعالى : { إذ تستغيثون ربّكم فاستجاب لكم أنّى ممدّكم بألفٍ من الملائكة مردفين } ، ولما روى عن خولة بنت حكيم بن حزامٍ رضى الله عنها قالت : سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يقول : « من نزل منزلاً ثمّ قال : أعوذ بكلمات اللّه التّامّات من شرّ ما خلق لم يضرّه شیءٌ حتّى يرتحل من منزله » .

ب – وتستحبّ أيضاً الاستغاثة باللّه فی الأمور المعنويّة بالقوّة والتّأثير ، وفيما لا يقدر عليه إلاّ اللّه سبحانه وتعالى . مثل إنزال المطر ، وكشف الضّرّ ، وشفاء المرض ، وطلب الرّزق ، ونحو ذلک ممّا لا يقدر عليه إلاّ اللّه تبارک وتعالى ، لقوله تعالى : { ولا تدع من دون اللّه ما لا ينفعک ولا يضرّک فإن فعلت فإنّک إذاً من الظّالمين } وقوله تعالى : { وإن يمسسک اللّه بضرٍّ فلا كاشف له إلاّ هو } .

ويستغاث باسم اللّه أو بصفةٍ من صفاته ، لما روى عن أنس بن مالکٍ : قال : « كان النّبیّ صلى الله عليه وسلم إذا كربه أمرٌ قال : يا حیّ يا قيّوم برحمتک أستغيث »

الاستغاثة بالرّسول صلى الله عليه وسلم .

٦ – الاستغاثة بالرّسول أقسامٌ :

القسم الأوّل : الاستغاثة بالرّسول فيما يقدر عليه .

اتّفق الفقهاء على جواز الاستغاثة برسول اللّه صلى الله عليه وسلم وبكلّ مخلوقٍ حال حياته فيما يقدر عليه ، لقوله تعالى : { وإن استنصروكم فی الدّين فعليكم النّصر } ولقوله : { فاستغاثه الّذى من شيعته على الّذى من عدوّه } وهى من قبيل العون والنّجدة ، كما قال تعالى : { وتعاونوا على البرّ والتّقوى } .

القسم الثّانى :الاستغاثة بالرّسول صلى الله عليه وسلم بعد موته ، وسيأتى الكلام عليها والخلاف فيها .

القسم الثّالث : أن يستغيث العبد باللّه تعالى متقرّباً برسوله صلى الله عليه وسلم ، كأن يقول : اللّهمّ إنّى أتوجّه إليک بنبيّنا محمّدٍ صلى الله عليه وسلم أن تفعل كذا كما سيأتى .

القسم الرّابع : الاستغاثة بذات الرّسول صلى الله عليه وسلم كما سيأتى .

أنواع الاستغاثة بالخلق :

٧ – والاستغاثة بالخلق – فيما لا يقدرون عليه – تكون على أربع صورٍ :

أوّلها : أن يسأل اللّه بالمتوسّل به تفريج الكربة ، ولا يسأل المتوسّل به شيئاً ، كقول القائل : اللّهمّ بجاه رسولک فرّج كربتى . وهو على هذا سائلٌ للّه وحده ، ومستغيثٌ به ، وليس مستغيثاً بالمتوسّل به . وقد اتّفق الفقهاء على أنّ هذه الصّورة ليست شركاً ، لأنّها استغاثةٌ باللّه تبارک وتعالى ، وليست استغاثةً بالمتوسّل به ؛ ولكنّهم اختلفوا فى المسألة من حيث الحلّ والحرمة على ثلاثة أقوالٍ :

٨ – القول الأوّل : جواز التّوسّل بالأنبياء والصّالحين حال حياتهم وبعد مماتهم . قال به مالكٌ ، والسّبكىّ ، والكرمانىّ ، والنّووىّ ، والقسطلاّنىّ ، والسّمهودىّ ، وابن الحاجّ ، وابن الجزرىّ .

٩ – واستدلّ القائلون بجواز الاستغاثة بالأنبياء والصّالحين بأدلّةٍ كثيرةٍ ، منها ما ورد من الأدعية المأثورة عن النّبىّ صلى الله عليه وسلم مثل « أسألک بحقّ السّائلين عليک ، وبحقّ ممشاى هذا إليک » . ومنها ما قاله الرّسول صلى الله عليه وسلم فى الدّعاء لفاطمة بنت أسدٍ « اغفر لأمّى فاطمة بنت أسدٍ ، ووسّع عليها مدخلها ، بحقّ نبيّک والأنبياء الّذين من قبلى ، فإنّک أرحم الرّاحمين » . ومن الأدلّة حديث رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : « من زار قبرى وجبت له شفاعتى » . وما ورد من حديث المعراج « أنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم مرّ على موسى وهو قائمٌ يصلّى فى قبره » والصّلاة تستدعى حياة البدن . وعن ابن عبّاسٍ رضى الله عنهما عند قوله تعالى { وكانوا من قبل يستفتحون على الّذين كفروا } أنّه قال : كان أهل خيبر تقاتل غطفان ، كلّما التقتا هزمت غطفان اليهود ، فدعت اليهود بهذا الدّعاء : اللّهمّ إنّا نسألک بحقّ الّذى وعدتنا أن تخرجه لنا إلاّ نصرتنا عليهم . فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدّعاء فتهزم اليهود غطفان . وقوله تعالى : { ولو أنّهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوک فاستغفروا اللّه واستغفر لهم الرّسول لوجدوا اللّه توّاباً رحيماً } .

وهذا تفخيمٌ للرّسول صلى الله عليه وسلم وتعظيمه صلى الله عليه وسلم لا ينقطع بموته . ويستدلّون« بحديث الأعمى المتوسّل برسول اللّه فى ردّ بصره ».

١٠ – القول الثّانى : أجاز العزّ بن عبد السّلام وبعض العلماء الاستغاثة باللّه متوسّلاً بالنّبىّ صلى الله عليه وسلم والصّالحين حال حياتهم . وروى عنه أنّه قصر ذلک على النّبىّ صلى الله عليه وسلم وحده .

واستشهد لهذا بحديث الأعمى الّذى دعا اللّه سبحانه متوسّلاً برسول اللّه فردّ اللّه عليه بصره . فعن عثمان بن حنيفٍ أنّ « رجلاً ضريراً أتاه عليه الصلاة والسلام . فقال : ادع اللّه تعالى أن يعافينى ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن شئت أخّرت وهو خيرٌ ، وإن شئت دعوت . فقال : ادع قال : فأمره أن يتوضّأ ويحسن

وضوءه ويدعو بهذا الدّعاء : اللّهمّ إنّى أسألک وأتوجّه إليک بحبيبک محمّدٍ نبىّ الرّحمة ، يا محمّد ، إنّى أتوجّه بک إلى ربّک فى حاجتى لتقضى . اللّهمّ شفّعه فى » وصحّحه البيهقىّ وزاد : فقام ، وقد أبصر .

١١ – القول الثّالث : عدم جواز الاستغاثة إلاّ باللّه سبحانه وتعالى ، ومنع التّوسّل فى تلک الاستغاثة بالأنبياء والصّالحين ، أحياءً كانوا أو أمواتاً .

وصاحب هذا الرّأى ابن تيميّة ، ومن سار على نهجه من المتأخّرين . واستدلّوا بقوله تعالى : { ومن أضلّ ممّن يدعو من دون اللّه من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون } . وبما رواه الطّبرانىّ بسنده عن عبادة بن الصّامت رضى الله عنه ، أنّه « كان فى زمن النّبىّ صلى الله عليه وسلم منافقٌ يؤذى المؤمنين ، فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول اللّه صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق ، فقال النّبىّ صلى الله عليه وسلم : إنّه لا يستغاث بى وإنّما يستغاث باللّه » .

الصّورة الثّانية :

١٢ – استغاثةٌ باللّه واستغاثةٌ بالشّفيع أن يدعو اللّه له : وهو أن يسأل اللّه ، ويسأل المتوسّل به أن يدعو له ،« كما كان يفعل الصّحابة ، ويستغيثون ويتوسّلون بالنّبىّ صلى الله عليه وسلم فى الاستسقاء ، ثمّ من بعده بعمّه العبّاس »، ويزيد بن الأسود الجرشىّ رضى الله عنهما ، فهو استغاثةٌ باللّه ، واستغاثةٌ بالشّفيع أن يسأل اللّه له . فهو متوسّلٌ بدعائه وشفاعته ، وهذا مشروعٌ فى الدّنيا والآخرة فى حياة الشّفيع ، ولا يعلم فيه خلافٌ . فقد روى البخارىّ عن النّبىّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال : « ألا أخبركم بأهل الجنّة ، كلّ ضعيفٍ مستضعفٍ ، لو أقسم على اللّه لأبرّه » قال العلماء : معناه لو حلف على اللّه ليفعلنّ كذا لأوقع مطلوبه ، فيبرّ بقسمه إكراماً له ، لعظم منزلته عنده . فدلّ ذلک على أنّ بعض ، النّاس خصّه اللّه بإجابة الدّعوة ، فلا بأس أن يسأل فيدعو للمستغيث ، وقد ورد هذا فى آثارٍ كثيرةٍ عن الرّسول صلى الله عليه وسلم والصّحابة .

الصّورة الثّالثة : استغاثةٌ فى سؤال اللّه :

١٣ – وهى أن يستغيث الإنسان بغيره فى سؤال اللّه له تفريج الكرب ، ولا يسأل اللّه هو لنفسه . وهذا جائزٌ لا يعلم فيه خلافٌ . ومنه قول النّبىّ صلى الله عليه وسلم : « وهل تنصرون وترزقون إلاّ بضعفائكم » أى بدعائهم ، وصلاتهم ، واستغفارهم . ومن هذا أنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم « كان يستفتح بصعاليک المهاجرين » . أى يستنصر بهم . فالاستنصار والاسترزاق يكون بالمؤمنين بدعائهم ، مع أنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم أفضل منهم . لكنّ دعاءهم وصلاتهم من جملة الأسباب ، ويقتضى أن يكون للمستنصر به والمسترزق به مزيّةً على غيره من النّاس . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « إنّ من عباد اللّه من لو أقسم على اللّه لأبرّه . منهم البراء بن مالکٍ » . وقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث أويسٍ القرنىّ : «

فإن استطعت أن يستغفر لک فافعل » وقول الرّسول صلى الله عليه وسلم لعمر لمّا ودّعه للعمرة : « لا تنسنا من دعائک » .

الصّورة الرّابعة :

١٤ – أن يسأل المستغاث به ما لا يقدر عليه ، ولا يسأل اللّه تبارک وتعالى ، كأن يستغيث به أن يفرّج الكرب عنه ، أو يأتى له بالرّزق . فهذا غير جائزٍ وقد عدّه العلماء من الشّرک ،" لقوله تعالى { ولا تدع من دون اللّه ما لا ينفعک ولا يضرّک فإن فعلت فإنّک إذاً من الظّالمين . وإن يمسسک اللّه بضرٍّ فلا كاشف له إلاّ هو وإن يردک بخيرٍ فلا رادّ لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرّحيم } . وفى الصّحيح عن أنسٍ رضى الله عنه قال : « شجّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم يوم أحدٍ وكسرت رباعيته ، فقال : كيف يفلح قومٌ شجّوا نبيّهم ؟ فنزلت { ليس لک من الأمر شىءٌ } » ، فإذا نفى اللّه تعالى عن نبيّه ما لا قدرة له عليه من جلب نفع أو دفع ضرٍّ ، فغيره أولى .

الاستغاثة بالملائكة :

١٥ – الاستغاثة بهم استغاثةٌ بغير اللّه تعالى ، وكلّ استغاثةٍ بغير اللّه ممنوعةٌ ، لحديث رسول اللّه صلى الله عليه وسلم . « إنّه لا يستغاث بى ، ولكن يستغاث باللّه »

ولحديثه أيضاً عليه السلام « لمّا ألقى إبراهيم فى النّار اعترضه جبريل ، فقال له : ألک حاجةٌ ؟ فقال : أمّا إليک فلا » .

الاستغاثة بالجنّ :

١٦ – الاستغاثة بالجنّ محرّمةٌ ، لأنّها استغاثةٌ بمن لا يملک ، وتؤدّى إلى ضلالٍ ، وقد بيّن اللّه تعالى ذلک بقوله { وأنّه كان رجالٌ من الإنس يعوذون برجالٍ من الجنّ فزادوهم رهقاً } ويعتبر هذا من السّحر .

المستغيث وأنواعه :

١٧ – إذا استغاث المسلم لدفع شرٍّ وجبت إغاثته ، لقول رسول اللّه صلى الله عليه وسلم « وتغيثوا الملهوف وتهدوا الضّالّ » وقوله عليه السلام « من نفّس عن مؤمنٍ كربةً من كرب الدّنيا نفّس اللّه عنه كربةً من كرب يوم القيامة » وهذا إذا لم يخش المغيث على نفسه ضرّاً ، لأنّ له الإيثار بحقّ نفسه دون حقّ غيره ، وهذا فى غير النّبىّ صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى { النّبىّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم } . أمّا الإمام ونوّابه فإنّه يجب عليهم الإغاثة ، ولو مع الخشية على النّفس ، لأنّ ذلک مقتضى وظائفهم .

١٨ – وإذا استغاث الكافر فإنّه يغاث لأنّه آدميٌّ ، ولأنّه يجب الدّفع عن الغير إذا كان آدميّاً محترماً ، ولم يخش المغيث على نفسه هلاكاً ، لأنّ له الإيثار بحقّ نفسه دون حقّ غيره ولحديث رسول اللّه صلى الله عليه وسلم « إنّ اللّه يحبّ إغاثة الملهوف » ولقوله صلى الله عليه وسلم « لا تنزع الرّحمة إلاّ من شقيٍّ » . وكذلك إذا كان الكافر حربيّاً واستغاث ، فإنّه يجاب إلى طلبه ، لعلّه يسمع كلام اللّه ، أو يرجع عمّا فى نفسه من شرٍّ ويأسره المعروف . لقوله تعالى { وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتّى يسمع كلام اللّه ثمّ أبلغه مأمنه } " أى فأجره ، وأمّنه على نفسه وأمواله ، فإن اهتدى وآمن عن علمٍ واقتناعٍ فذاك ، وإلاّ فالواجب أن تبلغه المكان الّذى يأمن به على نفسه ، ويكون حراً فى عقيدته .

الاستعانة بالكافر فى حرب الكفّار :

١٩ – اتّفق العلماء على أنّ الاستغاثة لدفع شرٍّ ، أو جلب نفعٍ ممّا يملكه المخلوق تجوز بالمخلوقين مطلقاً ، فيستغاث بالمسلم والكافر ، والبرّ والفاجر ، كما يستغاث بالنّبىّ صلى الله عليه وسلم ويستنصر به كما قال النّبىّ صلى الله عليه وسلم : « إنّ اللّه يؤيّد هذا الدّين بالرّجل الفاجر » فلم تكن الإغاثة من خصائص المؤمنين فضلاً عن أن تكون من خصائص النّبيّين أو المرسلين ، وإنّما هى وصفٌ مشتركٌ بين جميع الآدميّين .

استغاثة الحيوان :

٢٠ – يجب إغاثة الحيوان ، لما روى من الأحاديث عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : « أنّ رجلاً دنا إلى بئرٍ فنزل ، فشرب منها وعلى البئر كلبٌ يلهث ، فرحمه ، فنزع أحد خفّيه فسقاه ، فشكر اللّه له فأدخله الجنّة » .

حالة المستغيث :

٢١ – إذا كان المستغيث على حقٍّ وجبت إغاثته ، لما تقدّم من وجوب إغاثة المسلم ، لقوله تعالى : { وإن استنصروكم فى الدّين فعليكم النّصر إلاّ على قومٍ بينكم وبينهم ميثاقٌ } " أى إن استنقذوكم فأعينوهم بنفيرٍ أو مالٍ ، فذلك فرضٌ عليكم ، فلا تخذلوهم إلاّ أن يستنصروكم على قومٍ كفّارٍ بينكم وبينهم ميثاقٌ فلا تنصروهم عليهم . إلاّ أن يكونوا أسرى مستضعفين ، فإنّ الولاية معهم قائمةٌ ، والنّصرة لهم واجبةٌ ، حتّى لا تبقى منّا عينٌ تطرف ، حتّى نخرج إلى استنقاذهم إن كان عددنا يحتمل ذلك ، أو نبذل جميع أموالنا فى استخراجهم حتّى لا يبقى لأحدٍ درهمٌ ، كذلك قال مالكٌ وجميع العلماء ولحديث رسول اللّه صلى الله عليه وسلم « من أذلّ عنده مؤمنٌ فلم ينصره ، وهو قادرٌ على أن ينصره ، أذلّه اللّه عزّ وجلّ على رؤوس الخلائق يوم القيامة » .

٢٢ – أمّا إن كان المستغيث على باطلٍ ، فإن أراد النّزوع عنه وأظهر ذلك استنقذ ، وإن كان يريد البقاء على باطله فلا . وكذلك كلّ ظالمٍ فإن نصرته محرّمةٌ ، لحديث رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : « مثل الّذى يعين قومه على غير الحقّ كمثل بعيرٍ تردّى فى بئرٍ فهو ينزع بذنبه » . وقوله : « من حالت شفاعته دون حدٍّ من حدود اللّه فقد ضادّ اللّه فى ملكه ، ومن أعان على خصومةٍ لا يعلم أحقٌّ أو باطلٌ فهو فى سخط اللّه حتّى ينزع » . وقال سفيان الثّورىّ : إذا استغاث الظّالم وطلب شربة ماءٍ فأعطيته إيّاها كان ذلك إعانةً له على ظلمه .

ضمان هلاك المستغيث :

٢٣ – ذهب المالكيّة والشّافعيّة إلى أنّ منع المستغيث عمّا ينقذ حياته – مع القدرة على إغاثته بلا ضررٍ يلحقه ، والعلم بأنّه يموت إن لم يغثه – يستوجب القصاص ، وإن لم يباشر قتله بيده . وذهب الحنابلة وأبو يوسف ومحمّدٌ إلى أنّ فيه الضّمان (الدّية) ، وسوّى أبو الخطّاب بين طلب الغوث ، أو رؤية من يحتاج للغوث بلا طلبٍ .

وقال أبو حنيفة : لا ضمان ، لأنّه لم يباشر الفعل القاتل .

حكم من أحجم عن إجابة المستغيث :

الاستغاثة عند الإشراف على الهلاك :

٢٤ – إذا استغاث المشرف على الهلاك من الجوع أو العطش وجبت إغاثته ، فإن منع حتّى أشرف على الهلاك ففى المسألة رأيان :

الأوّل قال به الحنفيّة : للمستغيث أن يقاتل بالسّلاح ، إن كان الماء غير محرّزٍ فى إناءٍ ، لما ورد عن الهيثم أنّ قوماً وردوا ماءً فسألوا أهله واستغاثوا بهم أن يدلّوهم على بئرٍ فأبوا ، فسألوهم أن يعطوهم دلواً فأبوا ، فقالوا لهم : إنّ أعناقنا وأعناق مطايانا قد كادت أن تقطع ، فأبوا أن يعطوهم ، فذكروا ذلك لعمر رضى الله عنه ، فقال لهم عمر : فهلاّ وضعتم فيهم السّلاح . فيه دليلٌ على أنّ لهم فى الماء حقّ الشّفة . فإذا منع المستغاث بهم حقّ المستغيثين بقصد إتلافهم كان للمستغيثين أن يقاتلوهم عن أنفسهم . فأمّا إذا كان الماء محرّزاً ، فليس للّذى يخاف الهلاك من العطش أن يقاتل صاحب الماء بالسّلاح ، بل له أن يقاتله بغير سلاحٍ ، وكذلك فى الطّعام ، لأنّه ملكٌ محرّزٌ لصاحبه ، ولهذا كان الآخذ ضامناً . وقال المالكيّة والشّافعيّة والحنابلة : يقاتل بالسّلاح ، ويكون دم المانع هدراً .

الاستغاثة عند إقامة الحدّ :

٢٥ – لإغاثة من سيتعرّض للحدّ حالتان :

الأولى : قبل أن يصل أمره إلى الإمام ، أو الحاكم ، يستحبّ إغاثته بالعفو عنه والشّفاعة له عند صاحب الحقّ ، وعدم رفع أمره للحاكم . لما روى عن « صفوان بن أميّة أنّ رجلاً سرق برده فرفعه إلى النّبىّ صلى الله عليه وسلم فأمر بقطعه ، فقال : يا رسول اللّه قد تجاوزت عنه ، قال : فلولا كان هذا قبل أن تأتينى به يا أبا وهبٍ فقطعه رسول اللّه صلى الله عليه وسلم » .

والثّانية : إذا وصل أمره إلى الحاكم ، فلا إغاثة ولا شفاعة . لما روت عائشة رضى الله عنها : « أنّ قريشاً أهمّتهم المرأة المخزوميّة الّتى سرقت ، فقالوا : من يكلّم فيها رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ومن يجترئ عليه إلاّ أسامة حبّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ؟ فكلّم رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فقال : أتشفع فى حدٍّ من حدود اللّه ؟ ، ثمّ قام فخطب ، قال : يا أيّها النّاس إنّما ضلّ من كان قبلكم أنّهم كانوا إذا سرق فيهم الشّريف تركوه ، وإذا سرق الضّعيف فيهم أقاموا عليه الحدّ ، وأيم اللّه لو أنّ فاطمة بنت محمّدٍ سرقت لقطع محمّدٌ يدها » .

الاستغاثة عند الغصب :

٢٦ – اتّفقت المذاهب على أنّ المغصوب منه والمسروق منه يجب عليه أن يستغيث أوّلاً ، وأن يدفع الصّائل أو السّارق بغير القتل . فإذا لم يندفع ، أو كان ليلاً ، أو لم يغثه أحدٌ ، أو منعه الصّائل ، أو السّارق من الاستغاثة ، أو عاجله ، فله دفعه عن نفسه وعرضه وماله – وإن كان قليلاً – ولو بالقتل ، لحديث رسول اللّه صلى الله عليه وسلم « من قتل دون ماله فهو شهيدٌ ، ومن قتل دون عرضه فهو شهيدٌ » وقد روى أنّ ابن عمر رأى لصّاً فأصلت عليه السّيف قال : فلو تركناه لقتله . وجاء رجلٌ إلى الحسن فقال : لصٌّ دخل بيتى ومعه حديدةٌ ، أقتله ؟ قال : نعم بأىّ شىءٍ قدرت .

٢٧ – فإذا قتل المغصوب منه الغاصب ، أو المسروق منه السّارق بدون استغاثةٍ واستعانةٍ مع قدرته عليها ، وإمكان دفعه بما هو دون القتل ، ففى المسألة رأيان :

الأوّل للحنفيّة : يجب القود .

الثّانى للمالكيّة والشّافعيّة والحنابلة : يضمن القاتل ، لأنّه يمكن دفعه بغير القتل ، لأنّ المقصود دفعه فإذا اندفع بقليلٍ فلا يلزم أكثر منه ، وإن ذهب مولّياً لم يكن له قتله كأهل البغى . فإن فعل غير ذلك كان متعدّياً .

الاستغاثة فى الإكراه على الفاحشة :

٢٨ – اتّفق الفقهاء على أنّ الاستغاثة عند الفاحشة علامةٌ من علامات الإكراه الّتى تسقط الحدّ عن المكرهة الأنثى ، لقول رسول اللّه صلى الله عليه وسلم « عفى عن أمّتى الخطأ والنّسيان وما استكرهوا عليه » .

استغراقٌ ❊

التعريف :

١ – الاستغراق لغةً : الاستيعاب والشّمول .

واصطلاحاً : هو استيفاء شيءٍ بتمام أجزائه وأفراده .

٢ – وقد قسّم صاحب دستور العلماء استغراق اللّفظ إلى : استغراقٍ حقيقيٍّ ، واستغراقٍ عرفيٍّ .

أ – فالاستغراق الحقيقيّ : هو أن يراد باللّفظ كلّ فردٍ ممّا يتناوله بحسب اللّغة ، أو الشّرع ، أو العرف الخاصّ ، مثل قوله تعالى : { عالم الغيب والشّهادة } .

ب – والاستغراق العرفيّ : هو أن يراد باللّفظ كلّ فردٍ ممّا يتناوله بحسب متفاهم العرف ، مثل جمع الأمير الصّاغة ، أى كلّ صاغة بلده .

٣ – أمّا الكفويّ (أبو البقاء) فقد قسّمه إلى ثلاثة أقسامٍ :

أ – استغراقٌ جنسيٌّ مثل : لا رجل فى الدّار .

ب – استغراقٌ فرديٌّ مثل : لا رجل فى الدّار .

ج – استغراقٌ عرفيٌّ : وهو ما يكون المرجع فى شموله وإحاطته إلى حكم العرف مثل : جمع الأمير الصّاغة .

الحكم الإجمالىّ ومواطن البحث :

٤ – ذكر الأصوليّون الاستغراق أثناء الكلام على تعريف العامّ ، فقالوا : العامّ هو اللّفظ المستغرق لجميع ما يصلح له ، أى يتناوله دفعةً واحدةً من غير حصرٍ . واعتبار الاستغراق فى العامّ إنّما هو رأى الشّافعيّة وبعض الحنفيّة . أمّا عند عامّتهم فيكفى فى العموم انتظام جمعٍ من المسمّيات ، كما صرّح به فخر الإسلام وغيره . وعلى هذا يكون الاستغراق أشمل من العموم . فلفظ الأسد يصدق أن يقال : إنّه مستغرقٌ لجميع ما يصلح له ، وليس بعامٍّ .

الألفاظ الدّالّة على الاستغراق :

٥ – هناك بعض الألفاظ تدلّ على الاستغراق ، كلفظ كلٍّ ، فإنّه يفيد استغراق أفراد المضاف إليه المنكّر ، مثل { كلّ نفسٍ ذائقة الموت } كما أنّها تفيد استغراق أجزاء المضاف إليه المفرد المعرفة ، نحو : كلّ زيدٍ حسنٌ ، أى كلّ أجزائه .

كذلك الجمع المحلّى بالألف واللاّم يفيد الاستغراق : نحو : « ما رآه المسلمون حسناً » .

٦ – وفى الموضوع تفصيلاتٌ كثيرةٌ تنظر فى العموم فى الملحق الأصولىّ .

٧ – أمّا الفقهاء فيستعملون الاستغراق أيضاً بمعنى الاستيعاب والشّمول .

ومن ذلک قولهم فى الزّكاة : استغراق الأصناف الثّمانية فى صرف الزّكاة عند البعض ، وللتّفصيل ينظر باب الزّكاة .

استغفارٌ ❊

التعريف :

١ – الاستغفار فى اللّغة : طلب المغفرة بالمقال والفعال .

وعند الفقهاء : سؤال المغفرة كذلک ، والمغفرة فى الأصل : السّتر ، ويراد بها التّجاوز عن الذّنب وعدم المؤاخذة به ، وأضاف بعضهم : إمّا بترک التّوبيخ والعقاب رأساً ، أو بعد التّقرير به فيما بين العبد وربّه . ويأتى الاستغفار بمعنى الإسلام .

قال اللّه تعالى : { وما كان اللّه معذّبهم وهم يستغفرون } أى يسلمون قاله مجاهدٌ وعكرمة . كذلک يأتى الاستغفار بمعنى الدّعاء والتّوبة ، وستأتى صلته بهذه الألفاظ .

الألفاظ ذات الصّلة :

أ – التّوبة :

٢ – الاستغفار والتّوبة يشتركان فى أنّ كلاًّ منهما رجوعٌ إلى اللّه سبحانه ، كذلک يشتركان فى طلب إزالة ما لا ينبغى ، إلاّ أنّ الاستغفار طلبٌ من اللّه لإزالته .

والتّوبة سعىٌ من الإنسان فى إزالته . وعند الإطلاق يدخل كلٌّ منهما فى مسمّى الآخر ، وعند اقترانهما يكون الاستغفار طلب وقاية شرّ ما مضى والتّوبة الرّجوع وطلب وقاية شرّ ما يخافه فى المستقبل من سيّئات أعماله ، ففى التّوبة أمران لا بدّ منهما : مفارقة شىءٍ ، والرّجوع إلى غيره ، فخصّت التّوبة بالرّجوع والاستغفار بالمفارقة ، وعند إفراد أحدهما يتناول كلٌّ منهما الآخر . وعند المعصية يكون الاستغفار المقرون بالتّوبة عبارةٌ عن طلب المغفرة باللّسان ، والتّوبة عبارةٌ عن الإقلاع عن الذّنب بالقلب والجوارح .

ب – الدّعاء :

٣ – كلّ دعاءٍ فيه سؤال الغفران فهو استغفارٌ . إلاّ أنّ بين الاستغفار والدّعاء عموماً وخصوصاً من وجهٍ ، يجتمعان فى طلب المغفرة ، وينفرد الاستغفار إن كان بالفعل لا بالقول ، كما ينفرد الدّعاء إن كان بطلب غير المغفرة .

الحكم التّكليفىّ للاستغفار :

٤ – الأصل فى الاستغفار أنّه مندوبٌ إليه ، لقول اللّه سبحانه . { واستغفروا اللّه إنّ اللّه غفورٌ رحيمٌ } يحمل على النّدب ، لأنّه قد يكون من غير معصيةٍ ، لكنّه قد يخرج عن النّدب إلى الوجوب كاستغفار النّبىّ صلى الله عليه وسلم وكالاستغفار من المعصية .

وقد يخرج إلى الكراهة كالاستغفار للميّت خلف الجنازة ، صرّح بذلك المالكيّة .

وقد يخرج إلى الحرمة ، كالاستغفار للكفّار .

الاستغفار المطلوب :

٥ – الاستغفار المطلوب هو الّذى يحلّ عقدة الإصرار ، ويثبت معناه فى الجنان ، لا التّلفّظ باللّسان ، فإن كان باللّسان – وهو مصرٌّ على المعصية – فإنّه ذنبٌ يحتاج إلى استغفارٍ . كما روى : « التّائب من الذّنب ، كمن لا ذنب له ، والمستغفر من الذّنب وهو مقيمٌ عليه كالمستهزئ بربّه » ويطلب للمستغفر بلسانه أن يكون ملاحظاً لهذه المعانى بجنانه ، ليفوز بنتائج الاستغفار ، فإن لم يتيسّر له ذلك فيستغفر بلسانه ، ويجاهد نفسه على ما هنالك ، فالميسور لا يسقط بالمعسور .

فإن انتفى الإصرار ، وكان الاستغفار باللّسان مع غفلة القلب ، ففيه رأيان :

الأوّل : وصفه بأنّه توبة الكذّابين ، وهو قول المالكيّة ، وقولٌ للحنفيّة والشّافعيّة ، إلاّ أنّ المالكيّة جعلوه معصيةً لاحقةً بالكبائر ، وقال الآخرون : بأنّه لا جدوى منه فقط .

الثّانى : اعتباره حسنةً وهو قول الحنابلة ، وقولٌ للحنفيّة والشّافعيّة ، لأنّ الاستغفار عن غفلةٍ خيرٌ من الصّمت وإن احتاج إلى استغفارٍ ، لأنّ اللّسان إذا ألف ذكراً يوشك أن يألفه القلب فيوافقه عليه ، وترك العمل للخوف منه من مكايد الشّيطان .

صيغ الاستغفار :

٦ – ورد الاستغفار بصيغٍ متعدّدةٍ ، والمختار منها ما رواه البخارىّ عن شدّاد بن أوسٍ رضى الله عنه عن النّبىّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال : « سيّد الاستغفار أن تقول : اللّهمّ أنت ربّى لا إله إلاّ أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شرّ ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنّه لا يغفر الذّنوب إلاّ أنت » .

٧ – ومن أفضل أنواع الاستغفار أن يقول العبد : « أستغفر اللّه الّذى لا إله إلاّ هو الحىّ القيّوم وأتوب إليه » . وهذا على سبيل المثال وليس الحصر كما أنّ بعض الأوقات وبعض العبادات تختصّ بصيغٍ مأثورةٍ تكون أفضل من غيرها وينبغى التّقيّد بألفاظها ، وموطن بيانها غالباً كتب السّنّة والأذكار والآداب ، فى أبواب الدّعاء والاستغفار والتّوبة .

وإذا كانت صيغ الاستغفار السّابقة مطلوبةً فإنّ بعض صيغه منهيٌّ عنها ، ففى الصّحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال : « لا يقولنّ أحدكم : اللّهمّ اغفر لى إن شئت ، اللّهمّ ارحمنى إن شئت ، ليعزم المسألة فإنّ اللّه لا مستكره له »

استغفار النّبىّ صلى الله عليه وسلم :

٨ – استغفار النّبىّ عليه الصلاة والسلام واجبٌ عليه ، لقوله تعالى : { فاعلم أنّه لا إله إلاّ اللّه واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات } ، وقد ذكر الفقهاء والمفسّرون وجوهاً عديدةً فى استغفاره صلى الله عليه وسلم منها : أنّه يراد به ما كان من سهوٍ أو غفلةٍ ، أو أنّه لم يكن عن ذنبٍ ، وإنّما كان لتعليم أمّته ، ورأى السّبكىّ : أنّ استغفار النّبىّ صلى الله عليه وسلم لا يحتمل إلاّ وجهاً واحداً ، وهو : تشريفه من غير أن يكون ذنبٌ ، لأنّه صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى . وقد ثبت« أنّه صلى الله عليه وسلم كان يستغفر فى اليوم الواحد سبعين مرّةً ، ومائة مرّةٍ »، بل كان أصحابه يعدّون له فى المجلس الواحد قبل أن يقوم :

« ربّ اغفر لى وتب علىّ إنّك أنت التّوّاب الغفور مائة مرّةٍ » .

الاستغفار فى الطّهارة :

أوّلاً : الاستغفار عقب الخروج من الخلاء :

٩ – يندب الاستغفار بعد قضاء الحاجة ، وعند الخروج من الخلاء . روى التّرمذىّ أنّه « كان النّبىّ صلى الله عليه وسلم إذا خرج من الخلاء قال : غفرانك » .

ووجه سؤال المغفرة هنا كما قال ابن العربىّ – هو العجز عن شكر النّعمة فى تيسير الغذاء ، وإيصال منفعته ، وإخراج فضلته .

ثانياً : الاستغفار بعد الوضوء :

١٠ – يسنّ الاستغفار ضمن الذّكر الوارد عند إتمام الوضوء روى أبو سعيدٍ الخدرىّ رضى الله تعالى عنه أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال : « من توضّأ فقال : سبحانك اللّهمّ ، وبحمدك أشهد أن لا إله إلاّ أنت أستغفرك ، وأتوب إليك ، كتب فى رقٍّ ، ثمّ جعل فى طابعٍ ، فلم يكسر إلى يوم القيامة » وقد وردت صيغٌ أخرى تتضمّن الاستغفار عقب الانتهاء من الوضوء وأثناءه يذكرها الفقهاء فى سنن الوضوء .

الاستغفار عند دخول المسجد والخروج منه :

١١ – يستحبّ عند المالكيّة ، والشّافعيّة ، والحنابلة ، الاستغفار عند دخول المسجد وعند الخروج منه . لما ورد عن فاطمة بنت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قالت : « كان رسول اللّه إذا دخل المسجد صلّى

على محمّدٍ وسلّم ، وقال : ربّ اغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب رحمتك ، وإذا خرج صلّى على محمّدٍ وسلّم ، وقال : ربّ اغفر لى ، وافتح لى أبواب فضلك » والوارد فى كتب الحنفيّة أنّ المصلّى يقول عند دخول المسجد : « اللّهمّ افتح لى أبواب رحمتك » وعند خروجه : « اللّهمّ إنّى أسألك من فضلك » .

الاستغفار فى الصّلاة :

أوّلاً – الاستغفار فى افتتاح الصّلاة :

١٢ – جاء الاستغفار فى بعض الرّوايات الّتى وردت فى دعاء الافتتاح فى الصّلاة ،

وأخذ بذلك الشّافعيّة مطلقاً ، والحنفيّة والحنابلة فى صلاة اللّيل ، منها ما رواه أبو بكرٍ الصّدّيق رضى الله عنه عن النّبىّ عليه الصلاة والسلام : « اللّهمّ إنّى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذّنوب إلاّ أنت فاغفر لى مغفرةً من عندك ، وارحمنى إنّك أنت التّوّاب الرّحيم » . ويكره الافتتاح فى المكتوبة عند المالكيّة ومحلّ الاستغفار فى دعاء الافتتاح يذكره الفقهاء فى سنن الصّلاة ، أو فى كيفيّة الصّلاة .

ثانياً : الاستغفار فى الرّكوع والسّجود والجلوس بين السّجدتين :

١٣ يسنّ الدّعاء بالمغفرة فى الرّكوع عند الشّافعيّة ، والحنابلة . روت عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : سبحانك اللّهمّ وبحمدك اللّهمّ اغفر لى يتأوّل القرآن »، أى يحقّق قوله تعالى : { فسبّح بحمد ربّك واستغفره } » متّفقٌ عليه . إلاّ أنّ الشّافعيّة يجعلون ذلك للمنفرد ، ولإمام قومٍ محصورين رضوا بالتّطويل . ولا يأتى بغير التّسبيح فى الرّكوع عند الحنفيّة ، والمالكيّة ، غير أنّ الحنفيّة يجيزون الاستغفار عند الرّفع من الرّكوع .

١٤ – وفى السّجود يندب الدّعاء بالمغفرة كذلك عند المالكيّة ، والشّافعيّة ، والحنابلة ، لحديث عائشة السّابق .

١٥ – وفى الجلوس بين السّجدتين يسنّ الاستغفار عند الحنفيّة ، والمالكيّة ، والشّافعيّة ، وهو قولٌ عن أحمد ، والأصل فى هذا ما روى حذيفة « أنّه صلّى مع النّبىّ صلى الله عليه وسلم فكان يقول بين السّجدتين : ربّ اغفر لى ، ربّ اغفر لى » . وإنّما لم يجب الاستغفار ، لأنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم لم يعلّمه المسىء صلاته . والمشهور عند الحنابلة أنّه واجبٌ ، وهو قول إسحاق وداود ، وأقلّه مرّةً واحدةً ، وأقلّ الكمال ثلاثٌ ، والكمال للمنفرد ما لا يخرجه إلى السّهو ، وبالنّسبة للإمام : ما لا يشقّ على المصلّين .

الاستغفار فى القنوت :

١٦ – جاء الاستغفار فى ألفاظ القنوت ، قنوت النّبىّ صلى الله عليه وسلم وقنوت عمر ، وألفاظه كبقيّة الألفاظ الواردة ، ولم نقف على أمرٍ يخصّه ، إلاّ ما ذكره المالكيّة والحنفيّة بأنّ الدّعاء بالمغفرة يقوم مقام القنوت عند العجز عنه .

الاستغفار بعد التّشهّد الأخير :

١٧ – يندب الاستغفار بعد التّشهّد الأخير ، ورد فى السّنّة « اللّهمّ إنّى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ، وإنّه لا يغفر الذّنوب إلاّ أنت ، فاغفر لى مغفرةً من عندك ، وارحمنى إنّك أنت الغفور الرّحيم » متّفقٌ عليه . كذلك ورد « اللّهمّ اغفر لى ما قدّمت وما أخّرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به منّى أنت المقدّم وأنت المؤخّر لا إله إلاّ أنت »

الاستغفار عقب الصّلاة :

١٨ – يسنّ الاستغفار عقب الصّلاة ثلاثاً ، لما روى عن عبد اللّه بن مسعودٍ رضى الله عنه قال :« من قال أستغفر اللّه العظيم الّذى لا إله إلاّ هو الحىّ القيّوم وأتوب إليه ، ثلاث مرّاتٍ ، غفر اللّه ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر »

ووردت رواياتٌ أخرى يذكرها الفقهاء فى الذّكر الوارد عقب الصّلاة ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : « من استغفر اللّه تعالى فى دبر كلّ صلاةٍ ثلاث مرّاتٍ فقال : أستغفر اللّه الّذى لا إله إلاّ هو الحىّ القيّوم وأتوب إليه غفر اللّه عزّ وجلّ ذنوبه وإن كان قد فرّ من الزّحف »

الاستغفار فى الاستسقاء :

١٩ – لا خلاف بين الفقهاء فى أنّه يحصل الاستسقاء بالاستغفار وحده .

غير أنّ أبا حنيفة يقصره على ذلك ، مستدلاًّ بقول اللّه سبحانه { فقلت استغفروا ربّكم إنّه كان غفّاراً يرسل السّماء عليكم مدراراً } لأنّ الآية دلّت على أنّ الاستغفار وسيلةٌ للسّقيا . بدليل { يرسل السّماء عليكم مدراراً } ولم تزد الآية الكريمة على الاستغفار ، وروى عن عمر رضى الله عنه أنّه خرج إلى الاستسقاء ولم يصلّ بجماعةٍ ، بل صعد المنبر ، واستغفر اللّه ، وما زاد عليه ، فقالوا : ما استسقيت يا أمير المؤمنين ، فقال : لقد استسقيت بمجاديح السّماء الّتى بها يستنزل الغيث .

٢٠ – وبقيّة الفقهاء والقائلون بندب صلاة الاستسقاء والخطبتين ، أو الخطبة الواحدة ، يسنّ عندهم الإكثار من الاستغفار فى الخطبة ، وتبدّل تكبيرات الافتتاح الّتى فى خطبتى العيدين بالاستغفار فى خطبتى الاستسقاء عند المالكيّة ، والشّافعيّة ، وصيغته كما أوردها النّووىّ فى مجموعه " أستغفر اللّه الّذى لا إله

إلاّ هو الحىّ القيّوم وأتوب إليه " . ويكبّر كخطبتى العيدين عند الحنابلة ، ونفى الحنفيّة التّكبير ولم يتعرّضوا للاستغفار فى الخطبة .

الاستغفار للأموات :

٢١ – الاستغفار عبادةٌ قوليّةٌ يصحّ فعلها للميّت . وقد ثبت فى السّنّة الاستغفار للأموات ، ففى صلاة الجنازة ورد الدّعاء للميّت بالمغفرة ، لكن لا يستغفر لصبىٍّ ونحوه .

وتفصيل أحكامه يذكرها الفقهاء فى صلاة الجنازة . وعقب الدّفن يندب أن يقف جماعةٌ يستغفرون للميّت ، لأنّه حينئذٍ فى سؤال منكرٍ ونكيرٍ ، روى أبو داود بإسناده عن عثمان قال : « كان النّبىّ صلى الله عليه وسلم إذا دفن الرّجل وقف عليه وقال : استغفروا لأخيكم واسألوا له التّثبّت فإنّه الآن يسأل » وصرّح بذلك جمهور الفقهاء .

٢٢ – ومن آداب زيارة القبور عند الحنفيّة والمالكيّة ، والشّافعيّة ، الدّعاء بالمغفرة لأهلها عقب التّسليم عليهم ، واستحسن ذلك الحنابلة .

٢٣ – وهذا كلّه يخصّ المؤمن ، أمّا الكافر الميّت فيحرم الاستغفار له بنصّ القرآن والإجماع .

الاستغفار عن الغيبة :

٢٤ – اختلف العلماء فى حقّ الّذى اغتاب ، هل يلزمه استحلال من اغتيب ، مع الاستغفار له ، أم يكفيه الاستغفار ؟ .

الأوّل : إذا لم يعلم من اغتيب فيكفى الاستغفار ، وهو مذهب الشّافعيّة ، والحنابلة ، وقولٌ للحنفيّة ، ولأنّ إعلامه ربّما يجرّ فتنةً ، وفى إعلامه إدخال غمٍّ عليه . لما روى الخلاّل بإسناده عن أنسٍ مرفوعاً « كفّارة من اغتيب أن يستغفر له » . فإن علم فلا بدّ من استحلاله مع الاستغفار له .

الثّانى : يكفى الاستغفار سواءٌ علم الّذى اغتيب أم لم يعلم ، ولا يجب استحلاله ، وهو قول الطّحاوىّ من الحنفيّة . والمالكيّة على أنّه لا بدّ من استحلال المغتاب إن كان موجوداً ، فإن لم يجده ، أو أحداً من ورثته استغفر له .

وفى استحلال الورثة خلافٌ بين الفقهاء يذكر فى التّوبة .

الاستغفار للمؤمنين :

٢٥ – اتّفق الفقهاء على أنّه يسنّ التّعميم فى الدّعاء بالمغفرة للمؤمنين والمؤمنات ، لخبر « ما من دعاءٍ أحبّ إلى اللّه تعالى من أن يقول العبد : اللّهمّ اغفر لأمّة محمّدٍ مغفرةً عامّةً » وفى روايةٍ أنّه « قام رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فى صلاةٍ ، وقمنا معه ، فقال أعرابىٌّ وهو فى الصّلاة : اللّهمّ ارحمنى ومحمّداً ،

ولا ترحم معنا أحداً ، فلمّا سلّم النّبىّ صلى الله عليه وسلم قال للأعرابىّ : لقد حجّرت واسعاً » . ولا بأس أن يخصّ الإنسان نفسه بالدّعاء ، لحديث أبى بكرة ، وأمّ سلمة ، وسعد بن أبى وقّاصٍ : « اللّهمّ إنّى أعوذ بك ، وأسألك ... » إلخ وهذا يخصّ نفسه الكريمة ، ذلك ما لم يكن فى القنوت ، وخلفه من يؤمّن ، لخبر ثوبان « لا يؤمّ رجلٌ قوماً فيخصّ نفسه بدعوةٍ دونهم ، فإن فعل فقد خانهم »

الاستغفار للكافر :

٢٦ – اتّفق الفقهاء على أنّ الاستغفار للكافر محظورٌ ، بل بالغ بعضهم فقال : إنّ الاستغفار للكافر يقتضى كفر من فعله ، لأنّ فيه تكذيباً للنّصوص الواردة الّتى تدلّ على أنّ اللّه تعالى لا يغفر أن يشرك به ، وأنّ من مات على كفره فهو من أهل النّار .

٢٧ – وأمّا من استغفر للكافر الحىّ رجاء أن يؤمن فيغفر له ، فقد صرّح الحنفيّة بإجازة ذلك ، وجوّز الحنابلة الدّعاء بالهداية ، ولا يستبعد ذلك من غيرهم ، كذلك استظهر بعضهم جواز الدّعاء لأطفال الكفّار بالمغفرة ، لأنّ هذا من أحكام الآخرة .

تكفير الذّنوب بالاستغفار :

٢٨ – الاستغفار إن كان بمعنى التّوبة فإنّه يرجى أن يكفّر به الذّنوب إن توافرت فيه شروط التّوبة ، يقول اللّه سبحانه : { ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثمّ يستغفر اللّه يجد اللّه غفوراً رحيماً } ويقول صلى الله عليه وسلم رسول اللّه : « من استغفر اللّه تعالى فى دبر كلّ صلاةٍ ثلاث مرّاتٍ ، فقال : أستغفر اللّه الّذى لا إله إلاّ هو الحىّ القيّوم وأتوب إليه ، غفر له وإن كان قد فرّ من الزّحف » وقد قيل : لا صغيرة مع الإصرار ، ولا كبيرة مع الاستغفار فالمراد بالاستغفار هنا التّوبة .

٢٩ – فإن كان الاستغفار على وجه الافتقار والانكسار دون تحقّق التّوبة ،

فقد اختلف الفقهاء فى ذلك ، فالشّافعيّة قالوا : إنّه يكفّر الصّغائر دون الكبائر ، وقال المالكيّة والحنابلة : إنّه تغفر به الذّنوب ، ولم يفرّقوا بين صغيرةٍ وكبيرةٍ ، وهو ما صرّحت به بعض كتب الحنفيّة . لقوله صلى الله عليه وسلم : « الاستغفار ممحاةٌ للذّنوب » .

الاستغفار عند النّوم :

٣٠ – يستحبّ الاستغفار عند النّوم مع بعض الأدعية الأخرى ، ليكون الاستغفار خاتمة عمله إذا رفعت روحه ، روى التّرمذىّ عن أبى سعيدٍ : « من قال حين يأوى إلى فراشه أستغفر اللّه الّذى لا إله إلاّ هو الحىّ القيّوم وأتوب إليه ثلاث مرّاتٍ غفر اللّه له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر » .

الدّعاء بالمغفرة للمشمّت :

٣١ – يسنّ للعاطس أن يدعو بالمغفرة لمن شمّته بقوله : " يرحمک اللّه " فيقول له العاطس : " يغفر اللّه لنا ولکم " أو يقول له : " يهديکم اللّه ويصلح بالکم " أو يقول : " يرحمنا اللّه وإيّاکم ويغفر لنا ولکم " ، لما فى الموطّأ عن نافعٍ أنّ ابن عمر كان إذا عطس فقيل له : يرحمک اللّه ، قال : يرحمنا اللّه وإيّاکم ويغفر لنا ولكم .

اختتام الأعمال بالاستغفار :

٣٢ – المتتبّع للقرآن الكريم والأذكار النّبويّة يجد اختتام كثيرٍ من الأعمال بالاستغفار ، فقد أمر النّبىّ صلى الله عليه وسلم فى آخر حياته بالاستغفار بقوله تعالى : { فسبّح بحمد ربّک واستغفره إنّه كان توّاباً } .

٣٣ – وفى اختتام الصّلاة ، وتمام الوضوء يندب الاستغفار كما تقدّم .

٣٤ – والاستغفار فى نهاية المجلس كفّارةٌ لما يقع فى المجلس من لغطٍ ، روى أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : « من جلس مجلساً فكثر فيه لغطه ، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلک : سبحانک اللّهمّ وبحمدک أشهد أن لا إله إلاّ أنت أستغفرک وأتوب إليک ، إلاّ غفر له ما كان فى مجلسه ذلک » .

٣٥ – ومن آكد أوقات الاستغفار : السّحر – آخر اللّيل – لقوله تعالى : { وبالأسحار هم يستغفرون } وللخبر الصّحيح : « ينزل ربّنا تبارک وتعالى كلّ ليلةٍ إلى سماء الدّنيا حين يبقى ثلث اللّيل الأخير ، فيقول : من يدعونى فأستجيب له ؟ من يسألنى فأعطيه ؟ من يستغفرنى فأغفر له ؟ » .

استغلالٌ ❊

انظر : استثمارٌ .

استفاضةٌ ❊

التعريف :

١ – الاستفاضة فى اللّغة : مصدر استفاض . يقال : استفاض الحديث والخبر وفاض بمعنى : ذاع وانتشر . ولا يخرج استعمال الفقهاء والمحدّثين له عن المعنى اللّغوىّ .

الحكم الإجمالىّ :

٢ – الاستفاضة مستندٌ للشّهادة ، يستند إليها الشّاهد فى شهادته ، فتقوم مقام المعاينة فى أمورٍ معيّنةٍ يأتى بيانها . ولذلک يطلق عليها الفقهاء " الشّهادة بالاستفاضة " ويطلقون عليها أيضاً " الشّهادة بالسّماع " أو

بالتّسامع ، أو بالشّهرة ، أو بالاشتهار ، وهم فى كلّ ذلک يقصدون الشّهادة بسماع ما شاع واشتهر بين النّاس .

ويقول عنها ابن عرفة المالكىّ : " شهادة السّماع " لقبٌ لما يصرّح الشّاهد فيه بإسناد شهادته لسماع غير معيّنٍ . ويقول عنها بعض الحنفيّة : الشّهرة الشّرعيّة .

٣ – هذا وإنّ شهادة الاستفاضة تكون فى الأمور الّتى مبناها على الاشتهار ، كالموت ، والنّكاح ، والنّسب ، لأنّه يتعذّر العلم غالباً بدون الاستفاضة ، ولأنّه يختصّ بمعاينة أسبابها خواصّ من النّاس ، فلو لم تقبل فيها الشّهادة بالتّسامع لأدّى إلى الحرج وتعطيل الأحكام ، كما يقول الفقهاء .

٤ – والفقهاء جميعاً متّفقون على جواز الشّهادة بالاستفاضة . إلاّ أنّهم يختلفون فى أمورٍ :

٥ – أ – شرط التّسامع . وهو الشّهادة بالتّسامع من جماعةٍ يؤمن تواطؤهم على الكذب ، وذلک عند الشّافعيّة ، والمالكيّة ، والحنابلة ، ومحمّدٍ من الحنفيّة . وقيل : يكفى رجلان عدلان ، أو رجلٌ وامرأتان ، وهو قول الخصّاف من الحنفيّة ، والقاضى من الحنابلة ، وبعض الشّافعيّة . مع تفصيلٍ للفقهاء فى ذلک ينظر فى (شهادةٌ) .

٦ – ب – الأمور الّتى تثبت بها الشّهادة بالتّسامع . وقد اختلفت أقوال الفقهاء فى ذلک ، لكنّهم يتّفقون فى جوازها : فى الموت ، والنّكاح ، والنّسب ، وعدّ ابن عابدين من الحنفيّة عشرة أمورٍ تجوز فيها الشّهادة بالاستفاضة ، وفى مغنى المحتاج للشّافعيّة أكثر من عشرةٍ ، ومثلها عند الحنابلة . وقد توسّع المالكيّة فى ذلک فعدّوا أشياء كثيرةً تثبت بالسّماع الفاشى ، كالملک ، والوقف ، وعزل القاضى ، والجرح ، والتّعديل ، والكفر ، والإسلام ، والسّفه ، والرّشد ، والهيئة ، والصّدقة ، والولادة ، والحرابة . وغير ذلک (ر : شهادةٌ) .

٧ – ج – وهل إذا صرّح بأنّه بنى شهادته على السّماع تقبل أو تردّ ؟

فيه خلافٌ بين المذاهب ينظر فى مصطلح (شهادةٌ) كذلک .

الحديث المستفيض :

٨ – الحديث المستفيض اسمٌ من أسماء الحديث (المشهور) وهو من الآحاد ، إلاّ أنّه ممّا يقيّد به المطلق ، يخصّص به العامّ عند الحنفيّة ، وغيرهم . وتعريفه عند الحنفيّة : أنّه ما رواه عن النّبىّ صلى الله عليه وسلم واحدٌ أو اثنان من الصّحابة ، أو يرويه عن الصّحابىّ واحدٌ أو اثنان ، ثمّ ينتشر بعد ذلک ، فيرويه قومٌ يؤمن تواطؤهم على الكذب . ويفيد اليقين ، ولكنّه أضعف ممّا لا يفيده الخبر المتواتر . وعند غير الحنفيّة : كلّ حديثٍ لا يقلّ عدد رواته عن ثلاثةٍ فى أىّ طبقةٍ من طبقات السّند ، ولم يبلغ مبلغ التّواتر .

٩ – وأمّا ذيوع الحدث ، كرؤية الهلال فإنّه يترتّب عليه لزوم الصّوم فى رمضان ، ووجوب الفطر فى أوّل شوّالٍ ، والوقوف بعرفة فى شهر ذى الحجّة ، على تفصيلٍ يرجع إليه فى موطنه من كتب الفقه .

مواطن البحث :

١٠ – مواطن البحث فى الاستفاضة ينظر فى الشّهادة بالاستفاضة فى باب الشّهادة عند الفقهاء ، وفى الصّوم عند الكلام عن رؤية الهلال ، ويرجع إلى الملحق الأصوليّ فيما يتعلّق بالحديث المستفيض .

استفتاءٌ ❊

انظر : فتوى .

استفتاحٌ ❊

التعريف : المعنى اللّغويّ :

١ – الاستفتاح : طلب الفتح ، والفتح نقيض الإغلاق . ومنه فتح الباب ، واستفتحه : إذا طرقه ليفتح له . ويكون الفتح أيضاً بمعنى القضاء والحكم ، ومنه قول اللّه تعالى مخبراً عن شعيبٍ : { ربّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحقّ وأنت خير الفاتحين } . وفى حديث ابن عبّاسٍ : ما كنت أدرى ما قول اللّه تعالى : { ربّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحقّ } حتّى سمعت بنت ذى يزن تقول لزوجها : تعال أفاتحك ، أى أحاكمك . والاستفتاح طلب القضاء . ويكون الفتح بمعنى النّصر ، واستفتح : طلب النّصر . ومنه الآية : { إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح } . وفى تاج العروس : فى المستدرك على ما قاله الفيروز آباديّ : إنّ فتح عليه يكون بمعنى عرّفه وعلّمه . قال : وقد فسّر به قوله تعالى : { قالوا أتحدّثونهم بما فتح اللّه عليكم ليحاجّوكم به عند ربّكم } .

المعنى الاصطلاحىّ :

٢ – يستعمل الفقهاء الاستفتاح بمعانٍ :

الأوّل : استفتاح الصّلاة ، وهو الذّكر الّذى الّذى تبدأ به الصّلاة بعد التّكبير . وقد يقال له : دعاء الاستفتاح . وإنّما سمّى بذلك لأنّه أوّل ما يقوله المصلّى بعد التّكبير ، فهو يفتتح به صلاته ، أى يبدؤها به .

الثّانى : استفتاح القارئ إذا ارتجّ عليه ، أى استغلق عليه باب القراءة ، فلم يتمكّن منها ، فهو يعيد الآية ويكرّرها ليفتح عليه من يسمعه .

الثّالث : طلب النّصرة .

استفتاح الصّلاة :

٣ – يعبّر عنه بعض الفقهاء أيضاً بدعاء الاستفتاح ، وبالافتتاح ، وبدعاء الافتتاح . إلاّ أنّ الأكثر يقولون : الاستفتاح . واستفتح : أى قال الذّكر الوارد فى موضعه بعد التّكبير .

الألفاظ ذات الصّلة :

الثّناء :

٤ – الثّناء لغةً : المدح ، وفى الاصطلاح : ما كان من ذكر اللّه تعالى وصفاً له بأوصافه الحميدة ، وشكراً له على نعمه الجليلة ، سواءٌ كان بالصّيغة الواردة : " سبحانک اللّهمّ وبحمدک ... إلخ " ، أو غيرها ممّا يدلّ على المعنى المذكور .

أمّا الدّعاء فليس ثناءً . وهذا هو الجارى مع الاستعمال اللّغوىّ .

وفى اصطلاحٍ آخر : الثّناء لكلّ ما يستفتح به ولو كان دعاءً . قال الإمام الرّافعىّ : وكلّ واحدٍ من هذين الذّكرين ، أعنى " وجّهت وجهى ... " وسبحانک اللّهمّ ... " يسمّى دعاء الاستفتاح وثناءه . وعلى ذلک فالاستفتاح أخصّ من الثّناء .

حكم الاستفتاح :

٥ – قال جمهور الفقهاء : الاستفتاح سنّةٌ ، لما ورد فى الأحاديث الّتى سيأتى ذكرها فى الصّيغ المأثورة فى الاستفتاح . وذهبت طائفةٌ من أصحاب الإمام أحمد إلى وجوب الذّكر الّذى هو ثناءٌ ، كالاستفتاح بنحو " سبحانک اللّهمّ وبحمدک ... " وهو اختيار ابن بطّة وغيره ، وذكر هذا روايةً عن أحمد . وخالف فى ذلک مالكٌ ، ففى المدوّنة قال ابن القاسم : كان مالكٌ لا يرى هذا الّذى يقول النّاس " سبحانک اللّهمّ وبحمدک ، وتبارک اسمک ، وتعالى جدّک ، ولا إله غيرک " . وكان لا يعرفه . ثمّ نقل من رواية ابن وهبٍ بسنده إلى أنس بن مالكٍ « أنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم وأبا بكرٍ وعمر وعثمان كانوا يفتتحون الصّلاة بالحمد للّه ربّ العالمين » : قال : وقال مالكٌ : من كان وراء الإمام ، ومن هو وحده ، ومن كان إماماً فلا يقل : " سبحانک اللّهمّ وبحمدک ، وتبارک اسمک ... إلخ " . ولكن يكبّرون ثمّ يبتدئون القراءة . وقد صرّح فقهاء المالكيّة بأنّ الحكم كراهة الفصل بين التّكبير والقراءة بدعاءٍ . سواءٌ أكان دعاء الاستفتاح أو غيره . إلاّ أنّ فى كفاية الطّالب : أنّ هذا هو المشهور عن مالكٍ ، ثمّ قال : واستحبّ بعضهم الفصل بينهما بلفظ : " سبحانک اللّهمّ وبحمدک ... إلخ " .

وقال العدوىّ معلّقاً على ذلک : فى قوله والمشهور عن مالكٍ إلخ إشارةً إلى أنّ هذا القول لمالكٍ " إلاّ أنّه ليس مشهوراً عنه . ثمّ قد جاء فى جواهر الإكليل تعليقاً على قول خليلٍ بالكراهة : أى يكره على المشهور للعمل ، وإن صحّ الحديث به – يعنى ما قاله الدّسوقىّ : لأنّه لم يصحبه عملٌ – ثمّ قال : وعن مالكٍ ندب قوله قبلها – أى قبل تكبيرة الإحرام – : سبحانک اللّهمّ وبحمدک ... إلخ ، وجّهت وجهى ... إلخ ، اللّهمّ باعد ... إلخ . قال ابن حبيبٍ : يقوله بعد الإقامة وقبل الإحرام . قال فى البيان : وذلک حسنٌ .. ا هـ . وكذلک نقل الرّافعىّ من الشّافعيّة عن مالكٍ قوله : لا يستفتح بعد التّكبير إلاّ بالفاتحة ، والدّعاء والتّعوّذ يقدمهما على التّكبير . فكأنّ خلاف المالكيّة فى الاستفتاح راجعٌ إلى موضعه ، فعندهم يكون قبل

التّكبير ، وعند غيرهم بعده . هذا وقد استثنى الشّافعيّة حالة خشية خروج الوقت قبل تمام الصّلاة ، فلا يأتى بدعاء الاستفتاح إلاّ حيث لم يخف خروج شيءٍ من الصّلاة عن وقتها ، فإن خاف خروج شيءٍ من الصّلاة عن الوقت حرم الإتيان بدعاء الاستفتاح . وهو فى هذا مخالفٌ لبقيّة سنن الصّلاة ، فإنّ السّنن يأتى بها إذا أحرم فى وقتٍ يسعها وإن لزم صيرورتها قضاءً ، قال الشبراملسى : ويمكن الفرق بين الافتتاح وبقيّة السّنن بأنّه عهد طلب ترك دعاء الافتتاح فى الجنازة ، وفيما لو أدرك الإمام فى ركوعٍ أو اعتدالٍ ، فانحطّت رتبته عن بقيّة السّنن . أو بأنّ السّنن شرعت مستقلّةً وليست مقدّمةً لشيءٍ ، بخلاف دعاء الافتتاح ، فإنّه شرع مقدّمةً لغيره ، يعنى للقراءة . قالوا : ولو خشى إن اشتغل بدعاء الاستفتاح فوت الصّلاة لهجوم الموت عليه فيها ، أو خشيت طروّ دم الحيض ، فلا يشتغل به كذلك .

صيغ الاستفتاح المأثورة :

٦ – ورد فى الحديث عن النّبىّ صلى الله عليه وسلم استفتاح الصّلاة بصيغٍ مختلفةٍ أشهرها ثلاثٌ :

الأولى : عن عائشة رضى الله عنها " قالت : « كان رسول اللّه صلى الله عليه وسلم إذا افتتح الصّلاة قال : سبحانك اللّهمّ وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدّك ، ولا إله غيرك » . وصحّ عن عمر أنّه استفتح به . وجمهور الفقهاء لم يذكروا فى هذه الصّيغة " وجلّ ثناؤك " ، وذكرها الحنفيّة . ففى شرح منية المصلّى : إن زاد فى دعاء الاستفتاح بعد قوله : وتعالى جدّك " وجلّ ثناؤك " لا يمنع من زيادته ، وإن سكت عنه لا يؤمر به ، لأنّه لم يذكر فى الأحاديث المشهورة . وقد روى عن بعض الصّحابة من قولهم .

الثّانية : عن علىٍّ رضى الله عنه « أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم كان إذا قام إلى الصّلاة قال : وجّهت وجهى للّذى فطر السّموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين . إنّ صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى للّه ربّ العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا من المسلمين » – وفى روايةٍ : « وأنا أوّل المسلمين – اللّهمّ أنت الملك لا إله إلاّ أنت ، أنت ربّى ، وأنا عبدك ، ظلمت نفسى ، واعترفت بذنبى ، فاغفر لى ذنوبى جميعاً ، إنّه لا يغفر الذّنوب إلاّ أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلاّ أنت ، واصرف عنّى سيّئها لا يصرف عنّى سيّئها إلاّ أنت ، لبّيك وسعديك ، والخير كلّه فى يديك ، والشّرّ ليس إليك ، أنا بك وإليك ، تباركت وتعاليت ، أستغفرك وأتوب إليك » .

هل يقول (وأنا من المسلمين) أو (أوّل المسلمين) ؟ :

٧ – ودعاء التّوجّه الّذى تضمّنه حديث علىٍّ رضى الله عنه ، وردت فيه هذه الكلمة بروايتين : الأولى " وأنا من المسلمين " والثّانية " وأنا أوّل المسلمين " وكلتا الرّوايتين صحيحتان . فلو قال المستفتح : " وأنا من المسلمين "– وهو الأولى– فهو موافقٌ للسّنّة ، ولا خلاف فى ذلك . وإن قال : " وأنا أوّل

المسلمين " ففى قولٍ عند الحنفيّة : تفسد صلاته ، لأنّ قوله هذا كذبٌ ، فليس هو أوّل المسلمين من هذه الأمّة ، بل أوّلهم محمّدٌ صلى الله عليه وسلم . والأصحّ عندهم أنّ صلاته لا تفسد ، لأنّه تالٍ للآية وحاكٍ لا مخبرٌ . ومن أجل ذلك إذا قصد الإخبار كان كاذباً ، وتفسد صلاته قطعاً . وكذا قال الإمام الشّافعىّ فى الأمّ : يجعل مكان " وأنا أوّل المسلمين : وأنا من المسلمين " . وقال البيجورىّ : أو يقول وأنا أوّل المسلمين ، نظراً للفظ الآية ، ولا يقصد بذلك أنّه أوّل المسلمين حقيقةً وإلاّ كفر . أى لإنكاره إسلام المسلمين قبله . وقال ابن علاّن : ظاهر كلام أئمّتنا أنّ المرأة تقول : " وما أنا من المشركين " ، وتقول : " وأنا من المسلمين " ، لأنّ مثل ذلك سائغٌ لغةً ، شائعٌ استعمالاً .

وفى التّنزيل { وكانت من القانتين } . وقد « لقّن النّبىّ صلى الله عليه وسلم وأنا من المسلمين وما أنا من المشركين فاطمة رضى الله عنها فى ذبح الأضحيّة » . قال : وقياس ذلك أن تأتى المرأة أيضاً بـ (حنيفاً مسلماً) بالتّذكير ، على إرادة الشّخص ، محافظةً على الوارد ما أمكن ، فهما حالان من الفاعل أو المفعول .

الثّالثة : حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : « كان رسول اللّه صلى الله عليه وسلم إذا كبّر فى الصّلاة سكت هنيهةً قبل القراءة . فقلت يا رسول اللّه : بأبى أنت وأمّى يا رسول اللّه ، فى إسكاتك بين التّكبير والقراءة ما تقول ؟ قال : أقول : اللّهمّ باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب . اللّهمّ نقّنى من خطاياى كما ينقّى الثّوب الأبيض من الدّنس . اللّهمّ اغسلنى من خطاياى بالثّلج وبالماء والبرد » .

مذاهب الفقهاء فى الصّيغة المختارة :

٨ – اختلف الفقهاء فيما يختارونه من الصّيغ المأثورة على أقوالٍ :

الأوّل : قال جمهور الحنفيّة ، والحنابلة : يستفتح ب (سبحانك اللّهمّ وبحمدك ... إلخ) مقتصراً عليه ، فلا يأتى ب (وجّهت وجهى ... إلخ) ولا غيره فى الفريضة .

الثّانى : مذهب الشّافعيّة فى معتمدهم ، وقول الآجرّىّ من الحنابلة : اختيار الاستفتاح بما فى خبر علىٍّ " وجّهت وجهى ... " . قال النّووىّ من الشّافعيّة : والّذى يلى هذا الاستفتاح فى الفضل حديث أبى هريرة يعنى " اللّهمّ باعد ... إلخ " .

الثّالث : مذهب أبى يوسف صاحب أبى حنيفة ، وجماعةٍ من الشّافعيّة ، منهم أبو إسحاق المروزىّ ، والقاضى أبو حامدٍ ، وهو اختيار الوزير ابن هبيرة من أصحاب الإمام أحمد : أن يجمع بين الصّيغتين الواردتين " سبحانك اللّهمّ وبحمدك ... " " ووجّهت وجهى ... " ونسبه صاحب الإنصاف إلى ابن تيميّة

هذا ، وقد استحبّ النّوويّ أيضاً أن يكون الاستفتاح بمجموع الصّيغ الواردة كلّها لمن صلّى منفرداً ، وللإمام إذا أذن له المأمومون وجميع الآراء السّابقة إنّما هى بالنّسبة للفريضة .

أمّا فى النّافلة ، وخاصّةً فى صلاة اللّيل ، فقد اتّفق الحنفيّة والشّافعيّة والحنابلة على الجمع بين الثّناء ودعاء التّوجّه . قال ابن عابدين : لحمل ما ورد من الأخبار عليها ، فيقوله – أى التّوجّه – فى صلاة اللّيل ، لأنّ الأمر فيها واسعٌ . وفى صحيح مسلمٍ « أنّه صلى الله عليه وسلم كان إذا قام إلى الصّلاة » – وفى روايةٍ « إذا استفتح الصّلاة – كبّر ثمّ قال : وجّهت وجهى للّذى فطر السّماوات والأرض حنيفاً ... » وكذا قال أحمد عن سائر الأخبار فى الاستفتاح سوى " سبحانك اللّهمّ وبحمدك ... " : إنّما هى عندى فى التّطوّع .

كيفيّة الإتيان بدعاء الاستفتاح ، وموضعه :

الإسرار بدعاء الاستفتاح :

٩ – اتّفق القائلون بسنّيّة الاستفتاح ، على أنّ سنّته أن يقوله المصلّى سرّاً ، سواءٌ أكان إماماً أم مأموماً أم منفرداً ، ودليله حديث أبى هريرة المتقدّم . وأمّا ما ورد من فعل عمر رضى الله عنه أنّه كان يجهر بهذه الكلمات : " سبحانك اللّهمّ وبحمدك ... " فقد حمله الفقهاء على قصد تعليمه النّاس . قال النّوويّ من الشّافعيّة : السّنّة فيه الإسرار ، فلو جهر به كان مكروهاً ، ولا تبطل صلاته .

موضع الاستفتاح من الصّلاة :

١٠ – تقدّم أنّ المالكيّة يخالفون فى موضع الاستفتاح ، فيمنعون وقوعه بين التّكبير والقراءة ، وأنّ ابن حبيبٍ منهم صرّح بأنّه يأتى به قبل تكبيرة الإحرام (ف ٥) .

أمّا جمهور الفقهاء غير المالكيّة فعندهم أنّ الاستفتاح فى الرّكعة الأولى ، بعد تكبيرة الإحرام ، وقبل التّعوّذ والشّروع فى القراءة . وبعض من اختار منهم الاستفتاح " بسبحانك اللّهمّ وبحمدك ... " أجاز أن يقول دعاء التّوجّه قبل تكبيرة الإحرام والنّيّة (ف ٥) وقد سبق ما يتّصل بموضع الاستفتاح عند الفقهاء .

ويتعلّق بهذا الأمر مسألتان :

الأولى : عند الشّافعيّة والحنابلة سنّته أن يتّصل بتكبيرة الإحرام ، بمعنى ألاّ يفصل بين تكبيرة الإحرام وبين الاستفتاح تعوّذٌ أو دعاءٌ ، أو قراءةٌ . واستثنى الشّافعيّة – كما فى حاشية القليوبىّ – تكبيرات العيد فلا يفوت الاستفتاح بقولها ، لندرتها . أمّا لو كبّر تكبيرة الإحرام ، ثمّ سكت ، ثمّ استفتح فلا بأس . فلو كبّر ، ثمّ تعوّذ سهواً أو عمداً لم يعد إلى الاستفتاح ، لفوات محلّه ، ولا يتداركه فى باقى الرّكعات . قال النّوويّ من الشّافعيّة : وهذا هو المذهب ، ونصّ عليه الشّافعىّ فى الأمّ ، وقال الشّيخ أبو حامدٍ فى تعليقه :

إذا تركه وشرع فى التّعوّذ يعود إليه . وقال النّووىّ : لكن لو خالف . وأتى به بعد التّعوّذ كره ، ولم تبطل صلاته ، لأنّه ذكرٌ ، كما لو دعا أو سبّح فى غير موضعه . وسيأتى لهذا المعنى تكميلٌ واستثناءٌ عن الحنابلة فى مسألة استفتاح المسبوق .

الثّانية : لا يشرع لترك الاستفتاح عمداً أو سهواً ، أو لجهر الإمام به أو لغير ذلك سجود سهوٍ . وهذا عند كلّ من يرى أنّ الاستفتاح مستحبٌّ ، وهو قول جمهور الحنابلة . أمّا من قال بأنّه واجبٌ – كما تقدّم نقله عن بعض الحنابلة – فينبغى إذا نسيه أن يسجد للسّهو . والعلّة لترك سجود السّهو أنّ السّجود زيادةٌ فى الصّلاة ، فلا يجوز إلاّ بتوقيفٍ .

استفتاح المأموم :

١١ – لا إشكال فى مشروعيّة استفتاح كلٍّ من الإمام والمنفرد ، إلاّ من حيث إنّ الإمام يراعى من خلفه ، من حيث التّطويل والاختصار فيما يستفتح به .

أمّا المأموم فيتعلّق باستفتاحه مسألتان :

الأولى : يستفتح المأموم سواءٌ استفتح إمامه أم لم يستفتح . قال فى شرح منية المصلّى من كتب الحنفيّة : تسعة أشياء إذا لم يفعلها الإمام لا يتركها القوم ، فذكر منها : الاستفتاح . وهو يفهم أيضاً من كلام الشّافعيّة والحنابلة .

الثّانية : إذا لم يستفتح المأموم حتّى شرع الإمام فى القراءة ، فقد اختلف الفقهاء فى هذا على آراءٍ : الأوّل : قال الحنفيّة : لا يأتى المأموم بدعاء الاستفتاح إذا شرع الإمام فى القراءة ، سواءٌ أكان الإمام يجهر بقراءته أم يخافت . وفى قولٍ عندهم : يستفتح المأموم إن كان الإمام يخافت بقراءته قال ابن عابدين : وهذا هو الصّحيح ، وعليه الفتوى . وعلّله فى الذّخيرة بما حاصله أنّ الاستماع فى غير حالة الجهر ليس بفرضٍ ، بل يسنّ .

الثّانى . قال الشّافعيّة : يسنّ للمأموم أن يستفتح ، ولو كان الإمام يجهر والمأموم يسمع قراءته . وفرّقوا بينه وبين قراءة المأموم للسّورة بعد الفاتحة – فإنّه يسنّ للمأموم الإنصات لها – وبين الافتتاح – فيسنّ أن يقرأه – بأنّ قراءة الإمام تعدّ قراءةً للمأموم ، فأغنت عن قراءته ، وسنّ استماعه لها ، ولا كذلك الافتتاح ، فإنّ المقصود منه الدّعاء للإمام ، ودعاء الشّخص لنفسه لا يعدّ دعاءً لغيره . ومع هذا فقد قالوا : يسنّ له الإسراع به إذا كان يسمع قراءة إمامه .

الثّالث : قال الحنابلة : يستحبّ للمأموم أن يستفتح فى الصّلوات الّتى يسرّ فيها الإمام ، أو الّتى فيها سكتاتٌ يمكن فيها القراءة . وفى كشّاف القناع : أنّ المأموم يستفتح أيضاً ولو كان الإمام يجهر ، إذا كان المأموم لا يسمع قراءته . قالوا : أمّا إن لم يسكت الإمام أصلاً فلا يستفتح المأموم . وإن سكت الإمام

قدراً يتّسع للاستفتاح استفتح المأموم على الصّحيح ، فإن كان المأموم ممّن يرى القراءة خلف الإمام استفتح .

استفتاح المسبوق :

١٢ – عند الحنفيّة : لا يستفتح المسبوق إذا أدرك الإمام حال القراءة ، وفى قولٍ : يستفتح إن كان الإمام يخافت . ثمّ إنّه إذا قام يقضى ما فاته يستفتح مرّةً أخرى . ووجهه : أنّ القيام إلى قضاء ما سبق يعتبر كتحريمةٍ أخرى ، للخروج به من حكم الاقتداء إلى حكم الانفراد . أمّا إن أدركه فى الرّكوع أو فى السّجدة الأولى من الرّكعة فإنّه يتحرّى فى الإتيان بالثّناء (الاستفتاح) ، فإن كان أكبر رأيه أنّه لو أتى به يدرك الإمام فى شيءٍ من الرّكوع فإنّه يأتى به قائماً ثمّ يركع ، لإمكان إحراز الفضيلتين معاً ، فلا يفوت إحداهما . ومحلّ الاستفتاح هو القيام ، فيفعله فيه . أمّا إن كان أكبر رأيه أنّه لو اشتغل بالاستفتاح لا يدرك الإمام فى شيءٍ من الرّكوع ، أو السّجدة الأولى من الرّكعة ، فإنّه يركع ، أو يسجد مع الإمام لئلاّ تفوته فضيلة الجماعة فى الرّكعة أو السّجدتين ، وذلك أولى من إحراز فضيلة الثّناء ، لأنّ سنّيّة الجماعة آكد وأقوى من سنّيّته . وعند الشّافعيّة : يستفتح المأموم إذا أدرك الإمام فى قيام الرّكعة الأولى أو غيرها ، وغلب على ظنّه أنّه مع اشتغاله به يدرك الفاتحة قبل ركوع إمامه . فإن خاف ألاّ يدرك الفاتحة ، فإنّه يشتغل بها ويترك الاستفتاح ، لأنّها واجبةٌ والاستفتاح سنّةٌ . أمّا لو أدرك المسبوق الإمام فى غير القيام : إمّا فى الرّكوع ، وإمّا فى السّجود ، وإمّا فى التّشهّد ، فإنّه يحرم معه ، ويأتى بالذّكر الّذى يأتى به الإمام ، ولا يأتى بدعاء الاستفتاح فى الحال ولا فيما بعد . واستثنوا من ذلك حالتين . قال النّوويّ : لو أدرك الإمام فى القعود الأخير ، فكبّر للإحرام ، فسلّم الإمام قبل قعوده لا يقعد ، ويأتى بدعاء الاستفتاح . فإن قعد قبل أن يستفتح فسلّم الإمام فقام ، فإنّه لا يأتى بدعاء الاستفتاح . وكذلك قالوا : لو أمّن الإمام يؤمّن المسبوق ، ثمّ يأتى بالاستفتاح ، لأنّ التّأمين فاصلٌ يسيرٌ . وعند الحنابلة : إذا أدرك المسبوق الإمام فيما بعد الرّكعة الأولى لم يستفتح ، بناءً على الرّواية المعتمدة من أنّ ما يدركه المسبوق مع إمامه هو آخر صلاته لا أوّلها ، فإذا قام للقضاء استفتح . نصّ عليه أحمد . أمّا على الرّواية الأخرى عن أحمد – أنّ ما يدركه المسبوق مع إمامه هو أوّل صلاته – فإنّه يستفتح بعد تكبيرة الإحرام . أمّا إذا أدركه فى قيام الرّكعة الأولى ، فكما تقدّم فى استفتاح المأموم (ف ٩) .

الصّلوات الّتى يدخلها الاستفتاح والّتى لا يدخلها :

١٣ – الاستفتاح – عند غير المالكيّة – سنّةٌ فى كلّ الصّلوات وفى جميع الأحوال .

قال النّووىّ : الاستفتاح مستحبٌّ لكلّ مصلٍّ ، من إمامٍ ، ومأمومٍ ، ومنفردٍ ، وامرأةٍ ، وصبىٍّ ، ومسافرٍ ، ومفترضٍ ، ومتنفّلٍ ، وقاعدٍ ، ومضطجعٍ ، وغيرهم . قال : ويدخل فيه النّوافل المرتّبة والمطلقة ، والعيد ، والكسوف فى القيام الأوّل ، والاستسقاء .

غير أنّ بعضهم استثنى صلاة الجنازة . وفيها – وفى الاستفتاح فى صلاة العيدين ، وصلاة قيام اللّيل – كلامٌ نورده فيما يلى :

أوّلاً : الاستفتاح فى صلاة الجنازة :

١٤ – اختلف الفقهاء فى الاستفتاح فى صلاة الجنازة على أقوالٍ :

القول الأوّل . قول الحنفيّة : إنّ الاستفتاح فيها سنّةٌ بعد التّكبيرة الأولى ، ويقتصر عليه ، فلا يقرأ الفاتحة ، إذ لا تشرع القراءة عندهم فى صلاة الجنازة . قالوا : إلاّ أن يقرأ الفاتحة بنيّة الثّناء ، لا بنيّة القراءة ، ولا يكره ذلك . وقالوا : يقدّم الثّناء على اللّه (أى بعد التّكبيرة الأولى) والصّلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم (أى بعد التّكبيرة الثّانية) على الدّعاء ، لأنّ سنّة الدّعاء أن يتقدّم عليه حمد اللّه والصّلاة على رسوله .

والقول الثّانى ، وهو أصحّ قولى الشّافعيّة ، والرّواية المعتمدة عند الحنابلة : أنّ صلاة الجنازة مستثناةٌ فلا يشرع فيها استفتاحٌ أصلاً ، قال الشّافعيّة : ولو على غائبٍ أو قبرٍ ، قالوا : لأنّها مبنيّةٌ على التّخفيف والاختصار . ولذلك لم يشرع فيها قراءة سورةٍ بعد الفاتحة . والقول الآخر للشّافعيّة ، والرّواية الأخرى عن الإمام أحمد : أنّه يستحبّ الاستفتاح فيها كغيرها من الصّلوات .

ثانياً : الاستفتاح فى صلاة العيد :

١٥ – مذهب الحنفيّة ، والشّافعيّة ، والمقدّم عند الحنابلة : أنّ الاستفتاح فى صلاة العيد بعد تكبيرة الإحرام وقبل التّكبيرات الأخرى (الزّوائد) فى أوّل الرّكعة . فيكبّر للإحرام ، ثمّ يثنى ، ثمّ يكبّر التّكبيرات ، ثمّ يقرأ الفاتحة . وفى روايةٍ أخرى عن أحمد : يستفتح بعد التّكبيرات الزّوائد ، وقبل القراءة ونقله الكاسانىّ عن ابن أبى ليلى .

ثالثاً : الاستفتاح فى النّوافل :

١٦ – يرى الحنابلة : أنّ صلاة النّافلة إذا كانت بأكثر من سلامٍ واحدٍ كما فى التّراويح ، والضّحى ، وصلاة السّنّة الرّاتبة ، إذا كانت أربعاً وصلاّها بسلامين ، فإنّه يستفتح فى كلّ ركعتين على الأصل ، لأنّ كلّ ركعتين صلاةٌ مستقلّةٌ . وفى قولٍ آخر عندهم : يكتفى باستفتاح واحدٍ فى أوّل صلاته . وإن صلّى النّافلة الرّباعيّة بسلامٍ واحدٍ ، فقد قال الحنفيّة : إنّ النّافلة الرّباعيّة نوعان : النّوع الأوّل : شبّهوه بالفريضة لتأكّده ،

وهو الأربع قبل صلاة الظّهر ، والأربع قبل صلاة الجمعة ، والأربع بعد صلاة الجمعة ، فهذا النّوع ليس فيه إلاّ استفتاحٌ واحدٌ فقط ، وهو ما يقوله فى أوّل الرّكعة الأولى .

والنّوع الثّانى : ما عدا ذلک من النّوافل ، وفى هذا النّوع استفتاحٌ آخر يقوله فى أوّل القيام فى الرّكعة الثّالثة . قالوا : وهكذا الحكم لو نذر أن يصلّى أربعاً . ووجّهوه بأنّه وإن كان فرضاً ، إلاّ أنّه فى الأصل نفلٌ عرض له الافتراض . قالوا : يستفتح المرّة الأخرى ، لأنّ كلّ اثنتين من الأربع صلاةٌ على حدةٍ ، أى من بعض الأوجه . قال ابن عابدين : وهذه المسألة ليست مرويّةً عن المتقدّمين . وإنّما هى اختيار بعض المتأخّرين . قال : وفى المسألة قولٌ ثانٍ : أنّه يستفتح مرّةً واحدةً فقط كالنّوع الأوّل .

استفتاح القارئ :

١٧ – الاستفتاح أن يطلب القارئ بقوله أو حالة الفتح إذا ارتجّ عليه ، فلم يعلم ما يقرأ ، سواءٌ أكان فى قراءةٍ فنسى ما بعد الآية الّتى يقرؤها ، أم أراد ابتداء القراءة فلم يعلم ما يقول . والفتح عليه أن تخبره بما نسيه . وقد ذكر ابن عابدين أنّه يكره للإمام أن يلجئ المأموم إلى الفتح عليه . وللإمام بدل ذلک أن يركع إذا قرأ قدر الفرض . وإن لم يقرأ قدر الفرض فإنّه يستخلف . وانظر تفصيل ذلک فى (إمامةٌ) (وفتحٌ على الإمام) .

الاستفتاح (بمعنى الاستنصار) :

١٨ – يستحبّ عند القتال أن يدعو المسلمون اللّه تعالى أن يفتح عليهم ، وأن ينصرهم على عدوّهم . وقد روى من ذلک عن النّبىّ صلى الله عليه وسلم أذكارٌ معيّنةٌ فى وقائع مختلفةٍ ر : (دعاءٌ) و (جهادٌ) .

الاستفتاح (بمعنى طلب العلم بالمغيب) :

١٩ – تقدّم أوّل هذا البحث أنّ استعمال هذه الكلمة بهذا المعنى دائرٌ فى كلام العوّام . وأنّه يقلّ فى كلام الفقهاء . وفى حكمه قولان للفقهاء فى استفتاح الفأل فى المصحف :

الأوّل : أنّه حرامٌ . نقل عن ابن العربىّ المالكىّ ، وهو ظاهر ما نقله البهوتىّ عن الشّيخ (ابن تيميّة) . وصرّح به القرافىّ والطّرطوشىّ من المالكيّة ، قال الطّرطوشىّ : لأنّه من باب الاستقسام بالأزلام ، لأنّ المستقسم يطلب قسمه من الغيب ، وكذلک من أخذ الفأل من المصحف أو غيره إنّما يعتقد هذا المقصد إن خرج جيّداً اتّبعه ، أو رديّاً اجتنبه ، فهو عين الاستقسام بالأزلام الّذى ورد القرآن بتحريمه فيحرم .

الثّانى : أنّه مكروهٌ ، وهو ظاهر كلام الشّافعيّة .

الثّالث : الجواز ، ونقل فعله عن ابن بطّة من الحنابلة .

استفراشٌ ❊

التعريف :

١ – يقول أهل اللّغة : إذا اتّخذ الرّجل امرأةً للذّةٍ " افترشها " ولم أجد من قال : " استفرشها " . ولكنّ الفقهاء يعبّرون عن ذلک بالاستفراش ، ويقولون عن المرأة : مستفرشةٌ ، ولا يكون ذلک إلاّ فى الحلّ . ولا يرد ذكر الاستفراش فى كلام الفقهاء – فيما نعلم – إلاّ فى موضعين : الأوّل : فى الكفّارة فى النّكاح . والثّانى : للتّعبير عن التّسرّى .

الألفاظ ذات الصّلة :

الاستمتاع :

٢ – الاستمتاع : أعمّ من الاستفراش مطلقاً ، إذ يدخل فى الاستمتاع بالحلال والحرام ، ومتعة الحجّ وغيرها .

الحكم الإجمالىّ ومواطن البحث :

٣ – الأصل فى الاستفراش الإباحة ، وتفصيله فى مصطلحى (نكاحٌ) (وتسرّى) .

استفسارٌ ❊

التعريف :

١ – الاستفسار فى اللّغة : مصدر استفسرته كذا إذا سألته أن يفسّره لى . ولا يختلف معناه فى الفقه عنه فى اللّغة . وهو عند الأصوليّين : طلب ذكر معنى اللّفظ ، حين تكون فيه غرابةٌ أو إجمالٌ . فالاستفسار عند الأصوليّين أخصّ منه عند أهل اللّغة وأهل الفقه .

الألفاظ ذات الصّلة :

أ – السّؤال :

٢ – السّؤال هو : الطّلب ، وهو أعمّ من أن يكون طلب توضيحٍ أو غيره ، كقولک : سألته عن كذا ، وسألت اللّه العافية . أمّا الاستفسار فهو خاصٌّ بطلب التّوضيح .

ب – الاستفصال :

٣ – الاستفصال هو طلب التّفصيل (ر : استفصالٌ) ، فهو أخصّ من الاستفسار ، لأنّ التّفسير قد يكون بغير التّفصيل ، كما فى تفسير اللّفظ بمرادفه .

الحكم الإجمالىّ :

٤ – حكمه عند الأصوليّين : الاستفسار من آداب المناظرة ، فإذا خفى على المناظر مفهوم كلام المستدلّ لإجمالٍ أو غرابةٍ فى الاستعمال استفسره ، وعلى المستدلّ بيان مراده عند الاستفسار ، حتّى لا يكون هناك لبسٌ ولا إيهامٌ ، وحتّى تجرى المناظرة على خير الوجوه . مثال الإجمال : أن يقول المستدلّ : يلزم المطلّقة أن تعتدّ بالأقراء ، فيطلب المناظر تفسير القرء ، لأنّه يطلق على الطّهر ، كما يطلق على الحيض . ومثال الغرابة قوله : لا يحلّ السّيّد (بكسر السّين وسكون الياء) فيستفسر المناظر معناه ، فيجيبه بأنّه الذّئب .

هذا ، ويعدّ الأصوليّون الاستفسار من جملة الاعتراضات بمعنى القوادح ، ويرتّبونه فى أوّلها ، وموطن استيفائه الملحق الأصولىّ .

حكمه عند الفقهاء :

٥ – على القاضى أن يستفسر ذوى العلاقة الأمور الغامضة ، ليكون فى حكمه على بصيرةٍ ، كاستفساره من أقرّ بشىءٍ مبهمٍ ، واستفساره الشّاهد السّبب ، كما إذا شهدا أنّ بينهما رضاعاً ، فالجمهور على أنّه لا بدّ من التّفصيل .

٦ – وقد لا يجب الاستفسار لاعتباراتٍ خاصّة ، كاستفسار من أكره على شرب المسكر ، فإنّه يصدق بيمينه ، ولا يستفسر كيفيّة حصول الإكراه ، درءاً للحدود ما أمكن ، خلافاً للأذرعىّ من الشّافعيّة القائل بوجوب الاستفسار .

مواطن البحث :

٧ – بعض الأصوليّين أوردوا المبادئ المنطقيّة ، كمقدّمةٍ لعلم الأصول ، وذكروا الاستفسار ضمنها ، وبعضهم يذكره فى مباحث القوادح فى الدّليل . كما يذكره الفقهاء فى كتاب الإقرار ، حين الكلام على الإقرار بمبهمٍ ، وفى بحث طلاق المكره من كتاب الطّلاق ، بمناسبة كلامهم على من أكره على شرب المسكر ، هل يستفسر ؟ وفى كتاب الشّهادات ، عند الكلام على ما يجب فيه ذكر سبب الشّهادة ، وفى كتاب القضاء كذلك .

استفصالٌ ❊

التعريف :

١ – يستفاد من سياق عبارات الأصوليّين والفقهاء أنّ الاستفصال : طلب التّفصيل . ولم ترد هذه الكلمة فى المعاجم اللّغويّة الّتى بين أيدينا ، وهى مع ذلک صحيحةٌ ، وقد وردت فى كلام الشّافعىّ ، وكفى به حجّةً فى لغة العرب .

الألفاظ ذات الصّلة :

أ – الاستفسار :

٢ – الاستفسار عند الأصوليّين : طلب ذكر معنى اللّفظ حين تكون فيه غرابةٌ أو خفاءٌ ، وهو عند الفقهاء : طلب التّفسير مطلقاً .

ب – السّؤال :

٣ – السّؤال : الطّلب ، وهو أعمّ من أن يكون طلب تفصيلٍ أو غيره .

الحكم الإجمالىّ :

حكمه عند الأصوليّين :

٤ – ذهب الشّافعيّة إلى أنّ ترک الاستفصال فى حكاية الحال ، مع قيام الاحتمال ، ينزل منزلة العموم فى المقال . ومثاله « أنّ غيلان الثّقفىّ أسلم على عشر نسوةٍ ، فقال النّبىّ صلى الله عليه وسلم : أمسک منهنّ أربعاً ، وفارق سائرهنّ » ولم يسأل عن كيفيّة ورود عقده عليهنّ ، أكان مرتّباً أم فى وقتٍ واحدٍ ؟ فكان إطلاق القول ، دالاًّ على أنّه لا فرق بين الحالين .

وفى دلالة ذلک على العموم وعدمه خلافٌ ينظر فى الملحق الأصولىّ .

حكمه عند الفقهاء :

٥ – يجب على القاضى أن يستفصل فى الأمور الأساسيّة المجملة الّتى يتوقّف الحكم الصّحيح على معرفتها ، حتّى يكون مبنيّاً على أمورٍ واضحةٍ لا لبس فيها ولا غموض . كما ورد فى حديث ماعزٍ إذ أقرّ بالزّنا ، فلم يرجمه النّبىّ صلى الله عليه وسلم إلاّ بعد أن استفصل منه فقال : « لعلّک قبّلت أو غمزت أو نظرت ؟ قال : لا يا رسول اللّه . قال : أنكتها لا يكنى قال فعند ذلک أمر برجمه » . فلم يترک النّبىّ صلى الله عليه وسلم مجالاً لاحتمال التّجوّز .

٦ – وهناک أمورٌ ليست بهذه الأهمّيّة فيندب فيها للحاكم الاستفصال ولا يجب ، كما إذا لم يبيّن فى الشّهادة على الشّهادة جهة تحمّلها ، ووثق القاضى بمعرفة الشّاهد على الشّاهد بشرائط التّحمّل ، وكان موافقاً للقاضى فى تلک المسألة ، فيندب له أن يستفصله ، فيسأله : بأىّ سببٍ ثبت هذا المال ؟ وهل

أخبرک به الأصل (الشّاهد الأصليّ) أوّلاً وكما إذا شهد المغفّل الّذى لا يضبط دائماً أو غالباً ، وبيّن سبب الشّهادة ، كأشهد أنّ لفلانٍ على فلانٍ ألفاً قرضاً ، فيندب للحاكم استفصاله فيه .

٧ – على أنّه قد يمتنع الاستفصال لاعتباراتٍ خاصّة ، كما إذا ادّعى السّارق أنّ المسروق ملكٌ له ، أو ادّعى أنّه أخذ من غير حرزٍ ، أو أنّه دون نصابٍ ، أو أنّ المالک أذن له فى الأخذ ، لم يقطع ، ولا يستفصل فى دعواه بشيءٍ من ذلک وإن علم كذبه ، نظراً إلى أنّ الحدود تدرأ بالشّبهات .

مواطن البحث :

٨ – يذكر الأصوليّون الاستفصال فى مباحث العامّ مع صيغ العموم . كما يذكره الفقهاء فى أبواب : القذف واللّعان ، والسّرقة ، والشّهادات على النّحو الّذى تقدّم .

استقاءةٌ ❊

التعريف :

١ – الاستقاءة : طلب القيء ، وهو استخراج ما فى الجوف عمداً .

ولا يخرج استعمال الفقهاء عن هذا المعنى اللّغويّ . فإن ذرعه القيء أى : غلبه وسبقه فهو يختلف عن الاستقاءة الّتى بها طلبٌ واستدعاءٌ .

الحكم الإجماليّ :

٢ – الاستقاءة الواردة عند الفقهاء أكثر ما يكون ورودها فى الصّيام ، لتأثيرها فيه .

ويرى جمهور الفقهاء أنّ الصّائم إذا استقاء متعمّداً أفطر ، لقول النّبىّ صلى الله عليه وسلم : « من ذرعه القيء وهو صائمٌ فليس عليه قضاءٌ ، ومن استقاء فليقض » .

وعند الحنفيّة : إن استقاء عامداً ملء الفم أفطر ، لأنّ ما دون ملء الفم تبعٌ للرّيق .

مواطن البحث :

٣ – يأتى الكلام عن الاستقاءة فى الغالب فى باب الصّوم ، عند الكلام عمّا يفسد الصّيام . كما ترد فى نواقض الوضوء .

استقبالٌ ❊

التعريف :

١ – الاستقبال فى اللّغة : مصدر استقبل الشّىء إذا واجهه ، والسّين والتّاء فيه ليستا للطّلب ، فاستفعل هنا بمعنى فعل ، كاستمرّ واستقرّ ومثله المقابلة . ويقابله بهذا المعنى الاستدبار . ويرد الاستقبال فى اللّغة أيضاً

بمعنى : الاستئناف ، يقال اقتبل الأمر واستقبله : إذا استأنفه . وقد استعمله الفقهاء بهذين الإطلاقين فيقولون : استقبال القبلة أى مقابلتها ويقولون : استقبل حول الزّكاة أى : ابتدأه واستأنفه . وزاد الشّافعيّة إطلاقه على طلب القبول الّذى يقابل الإيجاب فى العقود ، فقالوا : يصحّ البيع بالاستقبال ، ومثّلوا له بنحو : اشتر منّى ، فإنّه استقبالٌ قائمٌ مقام الإيجاب ، ومثل البيع الرّهن ، فيصحّ بنحو : ارتهن دارى بكذا .

الألفاظ ذات الصّلة :

أ – الاستئناف :

٢ – الاستئناف : ابتداء الأمر ، وعليه فهو مرادفٌ للاستقبال فى أحد إطلاقاته .

ب – المسامتة :

٣ – المسامتة بمعنى : المقابلة والموازاة ، وهى مرادفةٌ للاستقبال عند الّذين فسّروا الاستقبال بمعنى التّوجّه إلى الشّىء بعينه بلا انحرافٍ يمنةً ولا يسرةً .

وأمّا الّذين لم يشترطوا فى الاستقبال هذا الشّرط كالمالكيّة فإنّهم فرّقوا بينهما ، فخصّوا المسامتة باستقبال عين الشّىء تماماً بجميع البدن ، وجعلوا الاستقبال أعمّ من ذلك ، لصدقه بخروج شىءٍ من البدن عن محاذاة العين .

ج – المحاذاة :

٤ – المحاذاة بمعنى : الموازاة . وما قيل فى المسامتة يقال هنا أيضاً .

د – الالتفات :

٥ – الالتفات صرف الوجه ذات اليمين أو الشّمال . وقد يراد به الانحراف بالوجه والصّدر أيضاً كما ورد فى مسند الإمام أحمد : « فجعلت تلتفت خلفها » ومعلومٌ أنّ التّحوّل إلى خلفٍ لا يكون إلاّ بالوجه والصّدر .

٦ – هذا والاستقبال عند الفقهاء قد يكون إلى القبلة ، وقد يكون إلى غير القبلة .

واستقبال القبلة قد يكون فى الصّلاة ، وقد يكون فى غيرها وسيأتى بيان هذه الأقسام واحداً بعد الآخر .

استقبال القبلة فى الصّلاة :

٧ – المراد بالقبلة موضع الكعبة ، لأنّه لو نقل بناؤها إلى موضعٍ آخر وصلّى إليه لم يجز . وسمّيت بذلك لأنّ النّاس يقابلونها فى صلاتهم .

وما فوق الكعبة إلى السّماء يعدّ قبلةً ، وهكذا ما تحتها مهما نزل ، فلو صلّى فى الجبال العالية والآبار العميقة جاز ما دام متوجّهاً إليها ، لأنّها لو زالت صحّت الصّلاة إلى موضعها ، ولأنّ المصلّى على الجبل يعدّ مصلّياً إليها .

استقبال الحجر :

٨ – ذكر الحنفيّة والمالكيّة أنّه لو استقبل المصلّى الحجر دون الكعبة لم يجزه ، لأنّ كونه من البيت مظنونٌ لا مقطوعٌ به ، وهو لا يكتفى به فى القبلة احتياطاً ، وهذا هو الصّحيح عند الشّافعيّة . وذهب الحنابلة واللّخمىّ من المالكيّة إلى جواز الصّلاة إلى الحجر ، لأنّه من البيت ، للحديث الصّحيح أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال : « الحجر من البيت » .

وفى روايةٍ : « ستّ أذرعٍ من الحجر من البيت » ولأنّه لو طاف فيه لم يصحّ طوافه . وهو وجهٌ مشهورٌ عند الشّافعيّة ، وإن كان خلاف الأصحّ فى مذهبهم ، وقدّره الحنابلة بستّ أذرعٍ وشىءٍ ، فمن استقبل عندهم ما زاد على ذلك لم تصحّ صلاته ألبتّة . على أنّ هذا التّقدير بالنّسبة لغير الطّواف ، أمّا بالنّسبة له فلا بدّ من خروجه عن جميعه احتياطاً .

حكم استقبال القبلة فى الصّلاة :

٩ – لا خلاف فى أنّ من شروط صحّة الصّلاة استقبال القبلة ، لقوله تعالى : { فولّ وجهک شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره } أى جهته .

ويستثنى من ذلک أحوالٌ لا يشترط فيها الاستقبال ، كصلاة الخوف ، والمصلوب ، والغريق ، ونفل السّفر المباح وغيرها ، ونصّوا على أنّ نيّة الاستقبال ليست بشرطٍ على الرّاجح ، انظر الكلام على النّيّة فى الصّلاة .

ترک الاستقبال :

١٠ – ذكر الحنفيّة أنّ من مفسدات الصّلاة تحويل المصلّى صدره عن القبلة بغير عذرٍ اتّفاقاً ، وإن تعمّد الصّلاة إلى غير القبلة على سبيل الاستهزاء يكفر ، وهذا متّفقٌ مع القواعد العامّة للشّريعة . وفصّل الحنفيّة فيما إذا صلّى بلا تحرٍّ فظهر أنّه أصاب القبلة أثناء الصّلاة بطلت صلاته ، لبناء القوىّ على الضّعيف ، فإن ظهر ذلک بعد الصّلاة صحّت صلاته ، لأنّ ما فرض لغيره – كالاستقبال المشروط لصحّة الصّلاة – يشترط حصوله لا تحصيله ، وقد حصل وليس فيه بناء القوىّ على الضّعيف .

وقال المالكيّة : إن أدّاه اجتهاده لجهةٍ فخالفها وصلّى متعمّداً بطلت صلاته وإن صادف القبلة ، ويعيد أبداً . وأمّا لو صلّى لغيرها ناسياً وصادف القبلة فهل يجرى فيه من الخلاف ما يجرى فى النّاسى إذا أخطأ ، أو يجزم بالصّحّة لأنّه صادف وهو الظّاهر ؟ .

وذكر الشّافعيّة أنّه لا يسقط استقبالها بجهلٍ ولا غفلةٍ ولا إكراهٍ ولا نسيانٍ ، فلو استدبر ناسياً لم يضرّ لو عاد عن قربٍ . ويسنّ عند ذلك أن يسجد للسّهو لأنّ تعمّد الاستدبار مبطلٌ . وهذا بخلاف ما لو أميل عنها قهراً فإنّها تبطل ، وإن قلّ الزّمن لندرة ذلك . ولو دخل فى الصّلاة باجتهادٍ ثمّ ظهر الخطأ بطلت صلاته .

وأطلق الحنابلة القول بأنّ من مبطلات الصّلاة استدبار القبلة حيث شرط استقبالها . كما نصّوا فى باب شروط الصّلاة على أنّ هذه الشّروط لا تسقط عمداً أو سهواً أو جهلاً . هذا ، ولا بدّ من القول أنّ المالكيّة والحنابلة نصّوا على أنّ المصلّى إذا حوّل وجهه وصدره عن القبلة لم تفسد صلاته ، حيث بقيت رجلاه إلى القبلة . ونصّ المالكيّة على أنّه يكره له ذلك بلا ضرورةٍ ، وقالوا : إنّ هذه الكراهة فى حقّ معاين الكعبة حيث لم يخرج شىءٌ من بدنه ، فإن خرج منه شىءٌ ولو أصبعاً من سمتها بطلت صلاته .

ما يتحقّق به استقبال القبلة فى الصّلاة :

١١ – ذهب الحنفيّة والشّافعيّة إلى أنّه يشترط فى استقبال القبلة فى الصّلاة أن يكون بالصّدر لا بالوجه ، خلافاً لما قد يتوهّم من ظاهر قوله تعالى : { فولّ وجهك شطر المسجد الحرام } لأنّ المراد بالوجه هنا الذّات ، والمراد من الذّات بعضها وهو الصّدر فهو مجازٌ مبنىٌّ على مجازٍ . ونصّ الشّافعيّة على أنّه لا يشترط الاستقبال بالقدمين .

أمّا الاستقبال بالوجه فهو سنّةٌ ، وتركه مكروهٌ عند الأئمّة الأربعة . وهذا فى حقّ القائم والقاعد . أمّا الّذى يصلّى مستلقياً أو مضطجعاً لعجزه فيجب عليهما الاستقبال بالوجه ، على تفصيلٍ يذكر فى صلاة المريض . وذهب المالكيّة والحنابلة إلى أنّه لا يشترط فى الاستقبال التّوجّه بالصّدر أيضاً ، وإنّما الّذى لا بدّ منه فهو التّوجّه بالرّجلين . على أنّ الفقهاء تعرّضوا لأعضاءٍ أخرى يستقبل بها المصلّى القبلة فى مناسباتٍ كثيرةٍ فى كتاب الصّلاة ، نكتفى بالإشارة إلى بعضها دون تفصيلٍ لكونها بتلك المواطن ألصق ، ولسياق الفقهاء أنسب من جهةٍ ، وتفادياً للتّكرار من جهةٍ أخرى . ومن ذلك : استحباب الاستقبال ببطون أصابع اليدين فى تكبيرة الإحرام وباليدين وبأصابع الرّجلين فى السّجود ، وبأصابع يسراه فى التّشهّد . وذلك حين الكلام على " صفة الصّلاة " . فمن أرادها بالتّفصيل فليرجع إلى مواطنها هناك .

استقبال المكّىّ للقبلة :

استقبال المكّىّ المعاين :

١٢ – لا خلاف بين المذاهب الأربعة فى أنّ من كان يعاين الكعبة فعليه إصابة عينها فى الصّلاة ، أى مقابلة ذات بناء الكعبة يقيناً ، ولا يكفى الاجتهاد ولا استقبال جهتها ، لأنّ القدرة على اليقين والعين تمنع من الاجتهاد والجهة المعرّضين للخطأ . وأيضاً فإنّ من انحرف عن مقابلة شىءٍ فهو ليس متوجّهاً نحوه . وذكر المالكيّة والشّافعيّة وابن عقيلٍ من الحنابلة – وأقرّوه – أنّ المصلّى فى مكّة وما فى حكمها ممّن تمكنه المسامتة لو استقبل طرفاً من الكعبة ببعض بدنه وخرج باقيه – لو عضواً واحداً – عن استقبالها لم تصحّ صلاته . وفى قولٍ عند الشّافعيّة والحنابلة يكفى التّوجّه ببعض بدنه .

صلاة الجماعة قرب الكعبة :

١٣ – ذكر الحنفيّة والمالكيّة والشّافعيّة – وهو ما يستفاد من كلام الحنابلة – أنّه إن امتدّ صفٌّ طويلٌ بقرب الكعبة وخرج بعضهم عن المحاذاة بطلت صلاته ، لعدم استقبالهم لها ، بخلاف البعد عنها ، فيصلّون فى حالة القرب دائرةً أو قوساً إن قصروا عن الدّائرة ، لأنّ الصّلاة بمكّة تؤدّى هكذا من لدن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا .

استقبال المكّىّ غير المعاين :

١٤ – ذهب الحنفيّة إلى أنّ من بينه وبين الكعبة حائلٌ فهو كالغائب على الأصحّ ، فيكفيه استقبال الجهة ، وسيأتى تفصيل مذهبهم فى إصابة الجهة فى " استقبال البعيد عن مكّة " . وذهب المالكيّة والحنابلة إلى أن من لم يصلّ بالمسجد من أهل مكّة ومن ألحق بهم عليه إصابة العين ، وهو قولٌ ضعيفٌ عند الحنفيّة . وتفصيل مذهب الحنابلة أنّهم أوجبوا إصابة العين يقيناً على من كان من أهل مكّة أو ناشئاً بها من وراء حائلٍ محدثٍ كالحيطان .

وأمّا من لم يكن من أهلها وهو غائبٌ عن الكعبة ففرضه الخبر ، كما إذا وجد مخبراً يخبره عن يقينٍ ، أو كان غريباً نزل بمكّة فأخبره أهل الدّار بها .

وعند الشّافعيّة يجب على من نشأ بمكّة وهو غائبٌ عن الكعبة إصابة العين إن تيقّن إصابتها ، وإلاّ جاز له الاجتهاد لما فى تكليفه المعاينة من المشقّة إذا لم يجد ثقةً يخبره عن علمٍ .

الاستقبال عند صلاة الفريضة فى الكعبة :

١٥ –ذهب جمهور العلماء إلى صحّة صلاة الفريضة داخل الكعبة . منهم الحنفيّة ، والشّافعيّة ، والثّورىّ ، لحديث بلالٍ « أنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم صلّى فى الكعبة » . قال الحنفيّة : ولأنّ الواجب استقبال جزءٍ منها غير معيّنٍ ، وإنّما يتعيّن الجزء قبلةً بالشّروع فى الصّلاة والتّوجّه إليه . ومتى صار قبلةً فاستدبار

غيره لا يكون مفسداً . وعلى هذا ينبغى أنّه لو صلّى ركعةً إلى جهةٍ أخرى لم يصحّ ، لأنّه صار مستدبراً الجهة الّتى صارت قبلةً فى حقّه بيقينٍ بلا ضرورةٍ . ومذهب المالكيّة والحنابلة لا تصلّى الفريضة والوتر فى الكعبة ، لأنّها من المواطن السّبع الّتى نهى عنها رسول اللّه صلى الله عليه وسلم كما سيأتى قريباً ، ولما فى ذلك من الإخلال بالتّعظيم ، ولقوله تعالى : { وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره } قالوا : والشّطر : الجهة . ومن صلّى فيها أو على سطحها فهو غير مستقبلٍ لجهتها ، ولأنّه قد يكون مستدبراً من الكعبة ما لو استقبله منها وهو فى خارجها صحّت صلاته ، ولأنّ النّهى عن الصّلاة على ظهرها قد ورد صريحاً فى حديث عبد اللّه بن عمر أنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « سبع مواطن لا تجوز فيها الصّلاة : ظهر بيت اللّه والمقبرة » ... إلخ ، وفيه تنبيهٌ على النّهى عن الصّلاة فيها لأنّها سواءٌ فى المعنى . وتوجّه المصلّى فى داخلها إلى الجدار لا أثر له ، إذ المقصود البقعة ، بدليل أنّه يصلّى للبقعة حيث لا جدار .

وإنّما جاز على أبى قبيسٍ مع أنّه أعلى من بنائها لأنّ المصلّى عليه مصلٍّ لها ، وأمّا المصلّى على ظهرها فهو فيها . وهناك قولٌ للمالكيّة بجواز الصّلاة فى الكعبة مع الكراهة .

الاستقبال عند صلاة الفريضة فوق الكعبة :

١٦ – وأمّا صلاة الفريضة على ظهر الكعبة فقد أجازها الحنفيّة والشّافعيّة ، لكن مع الكراهة عندهم . وذهب المالكيّة والحنابلة إلى عدم جواز الفرض والوتر عليها لما تقدّم فى المسألة السّابقة .

صلاة النّافلة فى الكعبة وعليها :

١٧ – ذهب الأئمّة الأربعة إلى جواز صلاة النّفل المطلق داخل الكعبة ،« لأنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم صلّى فيها »، وللأدلّة السّابقة على صحّة صلاة الفريضة ، وأمّا السّنن الرّواتب فذهب جمهور الفقهاء إلى جوازها فى الكعبة كذلك . وللمالكيّة ثلاثة أقوالٍ : الحرمة بأدلّتهم على منع الفريضة ، والجواز قياساً على النّفل المطلق ، والثّالث الكراهة وهو الرّاجح . وذهب أصبغ من المالكيّة ومحمّد بن جريرٍ وابن عبّاسٍ رضى الله عنهما فيما حكى عنه إلى أنّه لا تصحّ صلاة النّافلة فيها . أمّا صلاة النّافلة على ظهرها فتجوز عند الحنفيّة ، والشّافعيّة ، والحنابلة ، وفى قولٍ للمالكيّة بناءً على أنّه يكفى استقبال الهواء أو استقبال قطعةٍ من البناء ولو من حائط السّطح .

هذا ، وقد نصّ الشّافعيّة على جوازها مع الكراهة لبعده عن الأدب كما تقدّم فى الفريضة . هذا ، وما ورد فى شأن الصّلاة فى الكعبة يرد فى الحجر (الحطيم) لأنّه جزءٌ من الكعبة .

١٨ – وذهب الحنفيّة والمالكيّة ، إلى أنّ الصّلاة الّتى تجوز فى الكعبة ، تصحّ لأىّ جهةٍ ولو لجهة بابها مفتوحاً ، ولو لم يستقبل شيئاً فى هذه الحال ، لأنّ القبلة هى العرصة والهواء إلى عنان السّماء ، وليست

هى البناء ، بدليل أنّه لو نقل إلى عرصةٍ أخرى وصلّى إليه لم يجز ، ولأنّه لو صلّى على جبل أبى قبيسٍ جازت بالإجماع ، مع أنّه لم يصلّ إلى البناء . وشرط الشّافعيّة لجواز الصّلاة فى الكعبة وعليها أن يستقبل جداراً منها أيّاً كان ، أو يستقبل الباب إن كان مفتوحاً وكان له عتبةٌ قدر ثلثى ذراعٍ بذراع الآدمىّ تقريباً على الصّحيح المشهور ، لأنّ هذا المقدار هو سترة المصلّى فاعتبر فيه قدرها . واختار أكثر الحنابلة أن يشترط أن يكون بين يديه شىءٌ منها شاخصٌ يتّصل بها ، كالبناء والباب ولو مفتوحاً ، فلا اعتبار بالآجرّ غير المبنىّ ، ولا الخشب غير المسمور ، لأنّه غير متّصلٍ ، لكنّهم لم يقدّروا ارتفاع الشّاخص . وفى روايةٍ عن أحمد أنّه يكفى أن يكون بين يديه شىءٌ من الكعبة إذا سجد ، وإن لم يكن شاخصٌ ، اختارها الموفّق فى المغنى وغيره وهى المذهب .

استقبال البعيد عن مكّة :

١٩ – مذهب الحنفيّة ، وهو الأظهر عند المالكيّة ، والحنابلة ، وهو قولٌ للشّافعىّ : أنّه يكفى المصلّى البعيد عن مكّة استقبال جهة الكعبة باجتهادٍ ، وليس عليه إصابة العين ، فيكفى غلبة ظنّه أنّ القبلة فى الجهة الّتى أمامه ، ولو لم يقدّر أنّه مسامتٌ ومقابلٌ لها . وفسّر الحنفيّة جهة الكعبة بأنّها الجانب الّذى إذا توجّه إليه الإنسان يكون مسامتاً للكعبة ، أو هوائها تحقيقاً أو تقريباً . واستدلّوا بالآية الكريمة : { وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره } وقالوا : شطر البيت نحوه وقبله ، كما استدلّوا بحديث : « ما بين المشرق والمغرب قبلةٌ » وهذا كلّه فى غير المدينة المنوّرة ، وما فى حكمها من الأماكن المقطوع بقبلتها ، على ما سيأتى فى استقبال المحاريب إن شاء اللّه . والأظهر عند الشّافعيّة ، وهو قولٌ لابن القصّار عند المالكيّة ، وروايةٌ عن أحمد اختارها أبو الخطّاب من الحنابلة : أنّه تلزم إصابة العين . واستدلّوا بقوله تعالى : { وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره } أى جهته ، والمراد بالجهة هنا العين ؛ وكذا المراد بالقبلة هنا العين أيضاً ، لحديث الصّحيحين : « أنّه صلى الله عليه وسلم ركع ركعتين قبل الكعبة ، وقال : هذه القبلة » فالحصر هنا يدفع حمل الآية على الجهة . وإطلاق الجهة على العين حقيقةٌ لغويّةٌ وهو المراد هنا .

استقبال أهل المدينة وما فى حكمها :

٢٠ – ذهب الحنفيّة فى الأصحّ ، وهو قولٌ للحنابلة إلى أنّ الواجب على أهل المدينة – كغيرها – الاجتهاد لإصابة جهة الكعبة ، وهو جارٍ مع الأصل فى أمر القبلة .

وقال الحنفيّة فى الرّاجح ، والمالكيّة ، والشّافعيّة ، وهو قولٌ للحنابلة (وأرادوا بالمدنىّ من فى مسجده صلى الله عليه وسلم أو قريباً منه) : يجب على المصلّى فى المدينة إصابة عين القبلة« لثبوت محراب مسجد النّبىّ صلى الله عليه وسلم بالوحى »، فهو كما لو كان مشاهداً للبيت ، بل أورد القاضى عياضٌ فى الشّفاء أنّه رفعت له الكعبة حين بنى مسجده صلى الله عليه وسلم .

استقبال محاريب الصّحابة والتّابعين :

٢١ – ذهب الجمهور إلى أنّ محاريب الصّحابة ، كجامع دمشق ، وجامع عمرٍو بالفسطاط ، ومسجد الكوفة والقيروان والبصرة ، لا يجوز الاجتهاد معها فى إثبات الجهة ، لكن لا يمنع ذلك من الانحراف اليسير يمنةً أو يسرةً ، ولا تلحق بمحاريب النّبىّ صلى الله عليه وسلم إذ لا يجوز فيها أدنى انحرافٍ . وكذلك محاريب المسلمين ، ومحاريب جادّتهم أى معظم طريقهم وقراهم القديمة الّتى أنشأتها قرونٌ من المسلمين ، أى جماعاتٌ منهم صلّوا إلى هذا المحراب ولم ينقل عن أحدٍ منهم أنّه طعن فيها ، لأنّها لم تنصب إلاّ بحضرة جمعٍ من أهل المعرفة بالأدلّة ، فجرى ذلك مجرى الخبر . لكن قال الحنابلة : إن فرض من كان فيها إصابة العين ببدنه بالتّوجّه إلى قبلته ، معلّلين ذلك باتّفاق الصّحابة عليه .

الإخبار عن القبلة :

٢٢ – ذهب الفقهاء إلى أنّه إذا لم يكن ثمّة محاريب منصوبةً فى الحضر ، فيسأل من يعلم بالقبلة ممّن تقبل شهادته من أهل ذلك المكان ممّن يكون بحضرته .

أمّا غير مقبول الشّهادة ، كالكافر والفاسق والصّبىّ فلا يعتدّ بإخباره فيما هو من أمور الدّيانات ما لم يغلب على الظّنّ صدقه . وأمّا إذا لم يكن من أهل ذلك المكان فلأنّه يخبر عن اجتهادٍ ، فلا يترك اجتهاده باجتهاد غيره .

وأمّا إذا لم يكن بحضرته من أهل المسجد أحدٌ فإنّه يتحرّى ولا يجب عليه قرع الأبواب .

وأمّا فى المفازة فالدّليل عليها النّجوم كالقطب ، وإلاّ فمن أهلها العالم بها ممّن لو صاح به سمعه ، والاستدلال بالنّجوم فى المفازة مقدّمٌ على السّؤال ، والسّؤال مقدّمٌ على التّحرّى .

اختلاف المخبرين :

٢٣ – صرّح الشّافعيّة عند اختلاف اثنين فى الإخبار عن القبلة : أنّه يتخيّر فيأخذ بقول أحدهما ، وقيل : يتساقطان ويجتهد لنفسه ، ولا يأخذ بقول أحدهما إلاّ عند العجز عن الاجتهاد ، وفى هذه الحالة اضطرّ للأخذ بقول أحدهما ، أمّا فى غير هذه الحالة فالمخبران اختلفا فى علامةٍ واحدةٍ لعارضٍ فيها وهو موجبٌ للتّساقط .

وما صرّحوا به لا تأباه قواعد المذاهب الأخرى .

أدلّة القبلة :

٢٤ – سبق ما يتّصل بالاستدلال على القبلة بالمحاريب ، فإن لم توجد فهناك علاماتٌ يمكن الاعتماد عليها عند أهل الخبرة بها ، منها :

أ – النّجوم :

وأهمّها القطب ، لأنّه نجمٌ ثابتٌ ويمكن به معرفة الجهات الأربع ، وبذلک يمكن معرفة القبلة ولو على سبيل التّقريب . وتختلف قبلة البلاد بالنّسبة إليه اختلافاً كبيراً .

ب – الشّمس والقمر :

يمكن التّعرّف بمنازل الشّمس والقمر على الجهات الأربع ، وذلک فى أيّام الاعتدالين (الرّبيعىّ والخريفىّ) بالنّسبة للشّمس ، واستكمال البدر فيه بالنّسبة للقمر . وفى غير الاعتدالين ينظر إلى اتّجاه تلک المنازل ، وهو معروفٌ لأهل الخبرة فيرجع إليهم فيه ، وفى كتب الفقه تفاصيل عن ذلک . ويتّبع ذلک الاستدلال بمطالع الشّمس والقمر ومغاربهما .

ج – الإبرة المغناطيسيّة :

من الاستقراء المفيد لليقين تبيّن أنّها تحدّد جهة الشّمال تقريباً ، وبذلک تعرف الجهات الأربع وتحدّد القبلة .

ترتيب أدلّة القبلة :

٢٥ – ذكر الحنفيّة أنّ الدّليل على القبلة فى المفاوز والبحار النّجوم كالقطب ، فإن لم يمكن لوجود غيمٍ أو لعدم معرفته بها فعليه أن يسأل عالماً بها ، فإن لم يكن من يسأله أو لم يخبره المسئول عنها فيتحرّى . وذكر الشّافعيّة أنّه لو تعارضت الأدلّة على القبلة فينبغى تقديم خبر جمعٍ بلغ عددهم حدّ التّواتر ، لإفادته اليقين ، ثمّ الإخبار عن علمٍ برؤية الكعبة ، ثمّ رؤية المحاريب المعتمدة ، ثمّ رؤية القطب .

وأمّا بيت الإبرة فقد صرّح الشّافعيّة بأنّ المجتهد مخيّرٌ بينها وبين الاجتهاد . وأمّا الحنابلة فإنّهم قالوا : إنّ خبر المخبر عن يقينٍ مقدّمٌ على الاجتهاد .

تعلّم أدلّة القبلة :

٢٦ – تعلّم العلامات الّتى تعرف بها القبلة مطلوبٌ شرعاً ، وقد صرّح الشّافعيّة فى الأصحّ عندهم بأنّ هذا واجبٌ على سبيل الكفاية . وقد يصبح تعلّم هذه العلامات واجباً عينيّاً ، كمن سافر سفراً يجهل معه اتّجاه القبلة ، ويقلّ فيها العارفون بها ، وكانت عنده قدرةٌ على تعلّم هذه العلامات ، وكلّ ذلک تحقيقاً لإصابة القبلة . وهل يجوز تعلّمها من كافرٍ ؟ قواعد الشّريعة لا تمنع ذلک . لأنّه لا يعتمد عليه فى اتّجاه القبلة ، وإنّما فى معرفة العلامات الّتى لا يختلف فيها الكافر عن المسلم ، وذلک كتعلّم سائر العلوم .

الاجتهاد فى القبلة :

٢٧ – اتّفقت المذاهب الأربعة على وجوب الاجتهاد فى القبلة فى الجملة .

قال الشّافعيّة والحنابلة : إن فقد المصلّى ما ذكر من الرّؤية والمحاريب والمخبر وأمكنه الاجتهاد ، بأن كان بصيراً يعرف أدلّة القبلة وجب عليه الاجتهاد وإن كان جاهلاً بأحكام الشّرع ، إذ كلّ من علم أدلّة شيءٍ كان مجتهداً فيه ، ولأنّ ما وجب عليه اتّباعه عند وجوده وجب الاستدلال عليه عند خفائه ، وذكروا أيضاً أنّ من وجب عليه الاجتهاد حرم عليه التّقليد ، لأنّه يتمكّن من استقبالها بدليله . وقالوا : أنّه إذا ضاق عليه الوقت عن الاجتهاد صلّى حسب حاله ولا يقلّد ، كالحاكم لا يسعه تقليد غيره ، ولكنّه يعيد الصّلاة .

وصرّح ابن قدامة بأنّ شرط الاجتهاد لا يسقط بضيق الوقت مع إمكانه .

الشّكّ فى الاجتهاد وتغيّره :

٢٨ – ذهب الشّافعيّة والحنابلة إلى أنّه إذا تغيّر اجتهاد المجتهد عمل بالاجتهاد الثّانى حتماً ، إن ترجّح على الأوّل ، وعمل بالأوّل إن ترجّح على الثّانى . وقال الحنابلة : وإن شكّ فى اجتهاده لم يزل عن جهته ، لأنّ الاجتهاد ظاهرٌ فلا يزول عنه بالشّكّ . ولا يعيد ما صلّى بالاجتهاد الأوّل ، كالحاكم لو تغيّر اجتهاده فى الحادثة الثّانية عمل فيها بالاجتهاد الثّانى ، ولم ينقض حكمه الأوّل بغير خلافٍ ، لأنّ الاجتهاد لا ينقض بالاجتهاد .

وذهب الحنفيّة والشّافعيّة والحنابلة إلى أنّ المصلّى بالاجتهاد فى القبلة إذا تحوّل رأيه استدار وبنى على ما مضى من صلاته . ولا فرق بين تغيّر اجتهاده فى أثناء الصّلاة وبعدها ، فإن كان فيها استدار وبنى على ما مضى من صلاته ، حتّى إنّه لو صلّى أربع ركعاتٍ لأربع جهاتٍ بالاجتهاد جاز ، لأنّه مجتهدٌ أدّاه اجتهاده إلى جهةٍ ، فلم تجز له الصّلاة إلى غيرها ، كما لو أراد صلاةً أخرى ، وليس فيه نقضٌ لاجتهاده ، لأنّا لم نلزمه إعادة ما مضى ، وإنّما نلزمه العمل به فى المستقبل .

أمّا عند المالكيّة فإن تبيّن لمن صلّى بالاجتهاد خطأ اجتهاده فى الصّلاة يقيناً أو ظنّاً وهو فى الصّلاة قطعها وجوباً . أمّا بعد إتمام الصّلاة فإنّه يعيدها ندباً لا وجوباً . قياساً على القاضى إذا تبيّن له خطأ الدّليل قبل بتّ الحكم ، فإنّه لا يجوز له الحكم باجتهاده الأوّل ، وإن حكم به نقض . أمّا إن شكّ وهو فى الصّلاة فإنّه يتمّ صلاته على اجتهاده الأوّل .

الاختلاف فى الاجتهاد فى القبلة :

٢٩ – ذهب الحنفيّة ، والمالكيّة ، والشّافعيّة ، والحنابلة إلى أنّه إذا اختلف اجتهاد مجتهدين لم يتّبع أحدهما صاحبه ولا يؤمّه ، لأنّ كلّ واحدٍ منهما يعتقد خطأ الآخر فلم يجز الائتمام . وعند ابن قدامة أنّ قياس المذهب جواز ذلك . وهو مذهب أبى ثورٍ ، ذلك أنّ كلّ واحدٍ منهما يعتقد صحّة صلاة الآخر ، وأنّ فرضه التّوجّه إلى ما توجّه إليه ، فلم يمنع اختلاف الجهة الاقتداء به ، كالمصلّين حول الكعبة . ولو

اتّفقا فى الجهة واختلفا فى الانحراف يميناً أو شمالاً فالمذهب صحّة الائتمام بلا خلافٍ لاتّفاقهما فى الجهة ، وهى كافيةٌ فى الاستقبال . وقال الشّافعيّة : لو اجتهد اثنان فى القبلة ، واتّفق اجتهادهما ، فاقتدى أحدهما بالآخر ، ثمّ تغيّر اجتهاد واحدٍ منهما لزمه الانحراف إلى الجهة الثّانية ، وينوى المأموم المفارقة وإن اختلفا تياماناً وتياسراً ، وذلك عذرٌ فى المفارقة فلا تفوته فضيلة الجماعة ، ومحلّ ذلك حيث علم المأموم بانحراف إمامه ، فإن لم يعلم به إلاّ بعد السّلام فالأقرب وجوب الإعادة .

وقال الحنفيّة : لو سلّم الإمام فتحوّل رأى مسبوقٍ ولاحقٍ استدار المسبوق ، لأنّه منفردٌ فيما يقضيه ، واستأنف اللاّحق ، لأنّه مقتدٍ فيما يقضيه .

والمقتدى إذا ظهر له وراء الإمام أنّ القبلة غير الجهة الّتى يصلّى إليها الإمام لا يمكنه إصلاح صلاته ، لأنّه إن استدار خالف إمامه فى الجهة قصداً وهو مفسدٌ ، وإلاّ كان متمّاً صلاته إلى ما هو غير القبلة عنده وهو مفسدٌ أيضاً .

خفاء القبلة على المجتهد :

٣٠ – خفاء القبلة على المجتهد إمّا أن يكون قبل الصّلاة أو فى أثنائها ، وإمّا أن يكون قبل التّحرّى أو بعده ، وسنتناول بالبحث كلاًّ على حدةٍ .

خفاء القبلة قبل الصّلاة والتّحرّى :

٣١ – ذكر الحنفيّة ، والمالكيّة ، والحنابلة أنّ من عجز عن معرفة القبلة بالاستدلال ، وخفيت عليه الأدلّة لفقدها أو لغيمٍ أو حبسٍ أو التباسٍ مع ظهورها ، حيث تعارضت عنده الأمارات ، فإنّه يتحرّى ويصلّى ، وتصحّ صلاته عندئذٍ ، لأنّه بذل وسعه فى معرفة الحقّ مع علمه بأدلّته ، أشبه الحاكم إذا خفيت عليه النّصوص ، وقد روى عبد اللّه بن عامر بن ربيعة عن أبيه قال : « كنّا مع النّبىّ صلى الله عليه وسلم فى سفرٍ فى ليلةٍ مظلمةٍ ، فلم ندر أين القبلة ، فصلّى كلّ رجلٍ منّا حياله ، فلمّا أصبحنا ذكرنا ذلك للنّبىّ صلى الله عليه وسلم فنزل : { فأينما تولّوا فثمّ وجه اللّه } » وعرّف الحنفيّة التّحرّى بأنّه بذل الجهود لنيل المقصود . وأفاد ابن عابدين بأنّ قبلة التّحرّى مبنيّةٌ على مجرّد شهادة القلب من غير أمارةٍ ، وعبّر المالكيّة بأنّه يتخيّر جهةً من الجهات الأربع يصلّى إليها صلاةً واحدةً ، ولا إعادة لسقوط الطّلب عنه ، وهذا ما رجّحه ابن عابدين من الحنفيّة على قول بعضهم بتكرار الصّلاة إلى الجهات الأربع فى حالة التّحرّى وعدم الرّكون إلى جهةٍ .

وذهب الشّافعيّة إلى أنّه يصلّى كيف كان لحرمة الوقت ، ويقضى لندرته .

ترك التّحرّى :

٣٢ – ذهب الحنفيّة إلى أنّ العاجز عن معرفة القبلة بالأدلّة لا يجوز أن يشرع فى الصّلاة دون أن يتحرّى وإن أصاب ، لتركه فرض التّحرّى ، إلاّ أنّه لا يعيد إن علم إصابته بعد فراغه اتّفاقاً عند الحنفيّة ، بخلافٍ إذا علم الإصابة قبل التّمام ، فإنّ صلاته تبطل لأنّه بنى قويّاً على ضعيفٍ خلافاً لأبى يوسف . وعند المالكيّة أنّ المجتهد الّذى تخفى عليه أدلّة القبلة يتخيّر جهةً من الجهات الأربع ، ويصلّى إليها ويسقط عنه الطّلب لعجزه ،

وقال الشّافعيّة والحنابلة : يعيد من صلّى بلا تحرٍّ أو تعذّر عليه التّحرّى ، سواءٌ ظهر له الصّواب أثناء الصّلاة أو بعدها .

ظهور الصّواب للمتحرّى :

٣٣ – ذكر الحنفيّة أنّ المتحرّى إن ظهر صوابه فى أثناء الصّلاة فالصّحيح أنّها لا تفسد ، وعند بقيّة المذاهب لا خلاف فى صحّتها . وعبارة البحر الرّائق : والصّحيح كما فى المبسوط والخانيّة أنّه لا يلزمه استئناف الصّلاة ، لأنّ صلاته كانت جائزةً ما لم يظهر الخطأ ،

فإذا تبيّن أنّه أصاب لا يتغيّر حاله . وقيل : تفسد ، لأنّ افتتاح الصّلاة كان ضعيفاً ، وقد قوى حاله بظهور الصّواب ، ولا يبنى القوىّ على الضّعيف .

التّقليد فى القبلة :

٣٤ – ذكر الحنفيّة ، والمالكيّة ، والشّافعيّة ، والحنابلة أنّه لا يقلّد المجتهد مجتهداً غيره ، لأنّ القدرة على الاجتهاد تمنع من التّقليد .

ومن علم أدلّة القبلة لا يجوز له أن يقلّد غيره مطلقاً ، وأمّا غير المجتهد فعليه أن يقلّد المجتهد ، لقوله تعالى : { فاسألوا أهل الذّكر إن كنتم لا تعلمون } . وإذا كان هناك أكثر من مجتهدٍ فالمقلّد له أن يختار أحدهم ، والأولى أن يختار من يثق به أكثر من غيره .

ترك التّقليد :

٣٥ – ليس لمن فرضه التّقليد ووجد من يقلّده أن يستقبل بمجرّد ميل نفسه إلى جهة ، فقد ذكر الحنفيّة ، والمالكيّة : أنّه إن ترك التّقليد واختار له جهةً تركن لها نفسه وصلّى لها كانت صلاته صحيحةً إن لم يتبيّن خطؤه ، وزاد المالكيّة : فإن تبيّن الخطأ فى الصّلاة قطعها حيث كان كثيراً ، وإن تبيّن بعدها فقولان بالإعادة أبداً أو فى الوقت ، كما سيأتى فى " تبيّن الخطأ فى الصّلاة " . وذهب الشّافعيّة والحنابلة أنّه تلزمه الإعادة مطلقاً وإن صادف القبلة .

استقبال الأعمى ومن فى ظلمةٍ للقبلة :

٣٦ – ذهب الحنفيّة ، والشّافعيّة ، والحنابلة إلى أنّ الأعمى عليه أن يسأل عن القبلة ، لأنّ معظم الأدلّة تتعلّق بالمشاهدة . قال الحنفيّة : فإن لم يجد من يسأله عنها تحرّى ، وكذا لو سأله عنها فلم يخبره ، حتّى إنّه لو أخبره بعدما صلّى لا يعيد . ولو لم يسأله وتحرّى : إن أصاب جاز وإلاّ لا . ولو شرع فى الصّلاة إلى غير القبلة فسوّاه رجلٌ إليها ، فإن كان وجد الأعمى وقت الشّروع من يسأله عنها فلم يسأله لم تجز صلاته ، وإلاّ بنى على ما مضى منها ، ولا يجوز لهذا الرّجل الاقتداء به . وذكر المالكيّة أنّه لا يجوز له تقليد المجتهد بل عليه أن يسأل عن الأدلّة عدلاً فى الرّواية ليهتدى بها إلى القبلة .

تبيّن الخطأ فى القبلة :

٣٧ – أطلق الحنفيّة القول بأنّ المصلّى الّذى لم يشكّ فى القبلة ولم يتحرّ إذا ظهر له خطؤه فى القبلة وهو فى الصّلاة فسدت صلاته ، بخلاف من خفيت عليه القبلة فشكّ فيها وتحرّى ، ثمّ ظهر له خطؤه وهو فى الصّلاة استدار إلى الجهة الّتى انتهى إليها تحرّيه ، أمّا إذا ظهر له خطؤه بعد انتهاء الصّلاة فإنّ صلاته صحيحةٌ .

وذهب الحنفيّة والمالكيّة إلى وجوب الإعادة على المجتهد والمقلّد إذا كانت علامات القبلة ظاهرةً ثمّ تبيّن الخطأ فيها ، لأنّه لا عذر لأحدٍ فى الجهل بالأدلّة الظّاهرة . أمّا دقائق علم الهيئة وصور النّجوم الثّوابت فهو معذورٌ فى الجهل بها فلا إعادة عليه . ولم يفرّق الحنابلة والشّافعيّة فى مقابل الأظهر عندهم بين ما إذا كانت الأدلّة ظاهرةً فاشتبهت عليه أو خفيت ، وبين ما إذا كانت أدلّةٌ خفيّةٌ ، لأنّه أتى بما أمر فى الحالين وعجز عن استقبال القبلة فى الموضعين فاستويا فى عدم الإعادة .

أمّا فى القول الأظهر للشّافعيّة فتلزمه الإعادة لأنّه أخطأ فى شرطٍ من شروط الصّلاة .

العجز عن استقبال القبلة فى الصّلاة :

٣٨ – ذهب الأئمّة الأربعة إلى أنّ من به عذرٌ حسّىٌّ يمنعه من الاستقبال كالمريض ، والمربوط يصلّى على حسب حاله ، ولو إلى غير القبلة ، لأنّ الاستقبال شرطٌ لصحّة الصّلاة وقد عجز عنه فأشبه القيام . واشترط الشّافعيّة ، والصّاحبان من الحنفيّة لسقوط القبلة عنه أن يعجز أيضاً عمّن يوجّهه ولو بأجر المثل ، كما استظهره . الشّيخ إسماعيل النّابلسىّ وابن عابدين . وبالنّسبة لإعادة الصّلاة فإنّ فى ذلك خلافاً تفصيله فى مباحث الصّلاة . وأمّا أبو حنيفة فذهب إلى أنّه لا يشترط ذلك ، لأنّ القادر بقدرة غيره عاجزٌ .

وبقولهما جزم فى المنية والمنح والدّرّ والفتح بلا حكاية خلافٍ . ولو وجد أجيراً بأجرة مثله فينبغى أن يلزمه استئجاره إذا كانت الأجرة دون نصف درهمٍ ، والظّاهر أنّ المراد به أجرة المثل كما فسّروه فى التّيمّم .

أمّا من به عذرٌ شرعيٌّ يمنعه من الاستقبال فقد تعرّض الفقهاء للصّور الآتية منه وهى : الخوف على النّفس ، وذكره الحنفيّة والمالكيّة والشّافعيّة والحنابلة ، وذلك كالخوف من سبعٍ وعدوٍّ ، فله حينئذٍ أن يتوجّه إلى جهةٍ قدر عليها ، ومثله الهارب من العدوّ راكباً يصلّى على دابّته . وذكر الحنفيّة من صور العذر : الخوف من الانقطاع عن رفقته ، لما فى ذلك من الضّرر . وذكر الشّافعيّة من ذلك : الاستيحاش وإن لم يتضرّر بانقطاعه عن رفقته . وذكر الحنفيّة والمالكيّة من الأعذار : الخوف من أن تتلوّث ثيابه بالطّين ونحوه لو نزل عن دابّته . واشترط الحنفيّة عجزه عن النّزول ، فإن قدر عليه نزل وصلّى واقفاً بالإيماء ، وإن قدر على القعود دون السّجود أومأ قاعداً . وعدّ الحنفيّة والشّافعيّة من الأعذار : ما لو خاف على ماله – ملكاً أو أمانةً – لو نزل عن دابّته . وذكر الحنفيّة والشّافعيّة من الأعذار : العجز عن الرّكوب فيمن احتاج فى ركوبه بعد نزوله للصّلاة إلى معينٍ ولا يجده ، كأن كانت الدّابّة جموحاً ، أو كان هو ضعيفاً فله ألاّ ينزل . ومن الأعذار : الخوف وقت التحام القتال ، فقد اتّفقت المذاهب الأربعة على أن يسقط شرط الاستقبال فى حال المسايفة وقت التحام الصّفوف فى شدّة الخوف إذا عجز المصلّى عنه . ولمعرفة ماهيّة هذا القتال ، وما يلحق به ، ووقت صلاته ، وإعادتها حين الأمن ، وبقيّة أحكامها (ر : صلاة الخوف) .

استقبال المتنفّل على الرّاحلة فى السّفر :

٣٩ – اتّفق الفقهاء على جواز التّنفّل على الرّاحلة فى السّفر لجهة سفره ولو لغير القبلة ولو بلا عذرٍ ، لأنّه صلى الله عليه وسلم : « كان يصلّى على راحلته فى السّفر حيثما توجّهت به » وفسّر قوله تعالى : { فأينما تولّوا فثمّ وجه اللّه } بالتّوجّه فى نفل السّفر . وفى الشّروط المجوّزة لذلك خلافٌ فصّله الفقهاء فى مبحث صلاة المسافر ، والصّلاة على الرّاحلة .

استقبال المتنفّل ماشياً فى السّفر :

٤٠ – مذهب أبى حنيفة ، ومالكٍ ، وإحدى الرّوايتين عن أحمد ، وهو كلام الخرقىّ من الحنابلة : أنّه لا يباح للمسافر الماشى الصّلاة فى حال مشيه ، لأنّ النّصّ إنّما ورد فى الرّاكب ، فلا يصحّ قياس الماشى عليه ، لأنّه يحتاج إلى عملٍ كثيرٍ ، ومشىٌ متتابعٌ ينافى الصّلاة فلم يصحّ الإلحاق . ومذهب عطاءٍ ، والشّافعىّ ، وهو ثانية الرّوايتين عن أحمد اختارها القاضى من الحنابلة : أنّ له أن يصلّى ماشياً قياساً على الرّاكب ، لأنّ المشى إحدى حالتى سير المسافر ، ولأنّهما استويا فى صلاة الخوف فكذا فى النّافلة . والمعنى فيه أنّ النّاس محتاجون إلى الأسفار ، فلو شرطا فيها الاستقبال للتّنفّل لأدّى إلى ترك أورادهم أو مصالح معايشهم . ومذهب الحنابلة ، والأصحّ عند الشّافعيّة : أنّ عليه أن يستقبل القبلة لافتتاح الصّلاة ، ثمّ ينحرف إلى جهة سيره ، قال الشّافعيّة : ولا يلزمه الاستقبال فى السّلام على القولين .

استقبال المفترض على السّفينة ونحوها :

٤١ – اتّفقت المذاهب الأربعة على وجوب استقبال المفترض على السّفينة فى جميع أجزاء صلاته ، وذلک لتيسّر الاستقبال عليه . ونصّ الحنفيّة والمالكيّة والحنابلة على أنّه يدور معها إذا دارت . وتفصيل ذلک فى مصطلح : (الصّلاة فى السّفينة) .

استقبال القبلة فى غير الصّلاة :

٤٢ – قرّر الفقهاء أنّ جهة القبلة هى أشرف الجهات ، ولذا يستحبّ المحافظة عليها حين الجلوس ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « إنّ سيّد المجالس ما استقبل القبلة » . قال صاحب الفروع : ويتّجه فى كلّ طاعةٍ إلاّ لدليلٍ . وقد يكون المراد من التّوجّه إليها تغليظ الأمر وإلقاء الرّهبة فى قلب من طلب منه التّوجّه إليها ، كما فى تغليظ القاضى اليمين على حالفها بذلک (ر : إثباتٌ ف ٢٦) . على أنّه قد يعرض للإنسان أحوالٌ ترفع هذا الاستحباب ، بل قد يكون استقبالها حراماً أو مكروهاً (ر : قضاء الحاجة . استنجاءٌ) .

والجمهور على أنّ زائر قبر النّبىّ صلى الله عليه وسلم يستدبر القبلة ويستقبل القبر الشّريف .

استقبال غير القبلة فى الصّلاة :

٤٣ – الأصل فى استقبال المصلّى للأشياء الإباحة ، ما دام متوجّهاً إلى جهة القبلة ، لكن هناک أشياء معيّنةٌ نهى المصلّى عن أن يجعلها أمامه لاعتباراتٍ خاصّةٍ فيها ، كأن يكون فى وجودها أمامه تشبّهٌ بالمشركين ، كما فى الصّنم والنّار والقبر ، أو لكونها قذرةً أو نجسةً يصان وجه المصلّى ونظره عنها ، كما فى الصّلاة إلى الحشّ والمجزرة ، أو قد يكون أمامه ما يشوّش عليه فكره كما فى الصّلاة إلى الطّريق . وقد تناولها الفقهاء بالبحث فى الكلام على مكروهات الصّلاة . وقد يكون ذلک الشّىء الّذى أمام المصلّى أمراً مرغوباً فيه ، لكونه علامةً على موضع سجوده لمنع المارّين من المرور فيما بينه وبينه ، كما فى الصّلاة إلى السّترة . وقد بحثها الفقهاء ضمن سنن الصّلاة .

استقبال غير القبلة فى غير الصّلاة :

٤٤ – الأصل فى توجّه الإنسان إلى الأشياء فى غير الصّلاة الإباحة أيضاً ، ولكن قد يطلب التّوجّه إلى المواطن الشّريفة فى الأحوال الشّريفة طلباً لخيرها وفضلها ، كاستقبال السّماء بالبصر وببطون الكفّين فى الدّعاء .

كما يطلب عدم التّوجّه إليها فى الأحوال الخسيسة ، كاستقبال قاضى الحاجة بيت المقدس أو المصحف الشّريف (ر : قضاء الحاجة) . وقد يطلب تجنّب استقبالها صيانةً له عنها لنجاستها أو حفظاً لبصره عن

النّظر إليها ، كاستقبال قاضى الحاجة مهبّ الرّيح ، واستقبال المستأذن للدّخول باب المكان الّذى يريد الدّخول إليه .

وقد يطلب الاستقبال حفاظاً على الآداب ومكارم الأخلاق وتوفيراً لحسن الإصغاء ، كما فى استقبال الخطيب للقوم واستقبالهم له ، واستقبال الإمام النّاس بعد الصّلاة المكتوبة . وكما فى استقبال الضّيوف والمسافرين إبقاءً على الرّوابط الاجتماعيّة متينةً . ومن هذه الطّاعات : الوضوء ، والتّيمّم ، والأذان والإقامة ، ومنه الدّعاء بعد الوضوء ، والدّعاء فى الاستسقاء ، والذّكر ، وقراءة القرآن ، وانتظار الصّلاة فى المسجد ، والحجّ فى مواطن كثيرةٍ ، تعلم بتتبّع كتاب الحجّ كالإهلال ، وشرب ماء زمزم ، وتوجيه الهدى حين الذّبح للقبلة ، وقضاء القاضى بين الخصوم ، كما هو مبيّنٌ فى مواضعها . كما يستحبّ استقبال القبلة فى مواطن خاصّةٍ طلباً لبركتها وكمال العمل باستقبالها ، كما فى توجيهٍ المحتضر إليها ، وكذا الميّت فى قبره عند الدّفن (ر : كتاب الجنائز) ، ومثله من أراد أن ينام ، أو أراد أن يذبح ذبيحةً فيسنّ له أن يستقبل بها القبلة (ر : كتاب الذّبائح) .

استقراءٌ ❊

التعريف :

١ – الاستقراء لغةً : التّتبّع ، يقال : قرأ الأمر ، وأقرأه أى : تتبّعه ، واستقرأت الأشياء : تتبّعت أفرادها لمعرفة أحوالها وخواصّها .

وعرّفه الأصوليّون والفقهاء بقولهم : تصفّح جزئيّات كلّىٍّ ليحكم بحكمها على ذلك الكلّىّ .

الألفاظ ذات الصّلة :

القياس :

٢ – القياس : هو إلحاق فرعٍ بأصلٍ فى حكمٍ لاشتراكهما فى العلّة .

الحكم الإجمالىّ :

٣ – الاستقراء إن كان تامّاً بمعنى تتبّع جميع الجزئيّات ما عدا صورة النّزاع – أى الصّورة المراد معرفة حكمها – يعتبر دليلاً قطعيّاً حتّى فى صورة النّزاع عند الأكثر من العلماء ، وقال بعض العلماء : ليس بقطعىٍّ ، بل هو ظنّىٌّ ، لاحتمال مخالفة تلك الصّورة لغيرها على بعدٍ . وقد أجاز العلماء الأخذ بالاستقراء فى : الحيض ، والاستحاضة ، والعدّة على خلافٍ وتفصيلٍ موطنه هذه المصطلحات .

٤ – وإن كان الاستقراء ناقصاً أى بأكثر الجزئيّات الخالى عن صورة النّزاع فهو ظنّىٌّ فى تلك الصّورة لا قطعىٌّ ، لاحتمال مخالفة صورة النّزاع لذلك المستقرأ ، ويسمّى هذا النّوع : إلحاق الفرد بالأغلب . ومن أمثلة ما احتجّوا فيه بالاستقراء : المعتدّة عند اليأس تعتدّ بالأشهر ، فقال الشّافعيّة فى الرّاجح عندهم : يعتبر فى عدّة اليائسة استقراء نساء أقاربها من الأبوين الأقرب فالأقرب ، لتقاربهنّ طبعاً وخلقاً . وقال الحنفيّة ، والمالكيّة ، والحنابلة – وهو رأىٌ للشّافعيّة – باستقراء حالات النّساء واعتبار حالها بحال مثيلاتها فى السّنّ عند ذلك ، على اختلافٍ بينهم فى ذلك يرجع إليه فى مصطلح (عدّةٌ) (وإياسٌ) .

استقراضٌ ❊

التعريف :

١ – الاستقراض لغةً : طلب القرض . ويستعمله الفقهاء بمعنى طلب القرض ، أو الحصول عليه ، ولو بدون طلبٍ . والقرض ما تعطيه من مثلىٍّ ليتقاضى مثله .

الألفاظ ذات الصّلة :

الاستدانة :

٢ – الاستقراض أخصّ من الاستدانة ، فإنّ الدّين عامٌّ شاملٌ للقرض وغيره ممّا يثبت فى الذّمّة كالسّلم . والدّين قد يكون له أجلٌ ، والأجل فيه ملزمٌ ، أمّا القرض فإنّ الأجل فيه غير ملزمٍ عند الجمهور ، وقال المالكيّة : إنّ اشتراطه ملزمٌ ، وإنّه ليس للمقرض مطالبة المستقرض ما لم يحلّ الأجل كغيره من الدّيون لقول النّبىّ صلى الله عليه وسلم : « المؤمنون عند شروطهم » .

الحكم الإجمالىّ :

٣ – الاستقراض جائزٌ بالنّسبة للمستقرض بشروطٍ يذكرها الفقهاء فى أبواب القرض ، ونقل بعضهم الإجماع على الجواز ، وروى أبو رافعٍ أنّ « النّبىّ صلى الله عليه وسلم : استسلف من رجلٍ بكراً ، فقدمت على النّبىّ صلى الله عليه وسلم إبل الصّدقة ، فأمر أبا رافعٍ أن يقضى الرّجل بكره ، فرجع إليه أبو رافعٍ ، فقال : يا رسول اللّه لم أجد فيها إلاّ خياراً رباعيّاً ، فقال : أعطه ، فإنّ خير النّاس أحسنهم قضاءً » وقد يعرض للاستقراض ما يخرجه عن الجواز كحرمة الاستقراض بشرط نفعٍ للمقرض ، وكوجوب استقراض المضطرّ ، وغير ذلك من الأحكام الّتى تذكر فى باب القرض . ويصحّ التّوكيل فى الاستقراض عند الشّافعيّة والحنابلة ، ولا يصحّ عند الحنفيّة ، لأنّ الاستقراض طلب تبرّعٍ من المقرض فهو نوعٌ من

التّكدّى (الشّحاذة) ولا يصحّ التّوكيل فيه . والاستقراض أحياناً يحتاج إلى إذنٍ من القاضى ، كاستقراض من حكم له بنفقة القريب على قريبه المعسر فى بعض المذاهب ، ويذكر الفقهاء ذلك فى أحكام النّفقة .

ولو استقرض الأب من ولده فإنّ للولد مطالبته ، عند غير الحنابلة ، لأنّه دينٌ ثابتٌ فجازت المطالبة به كغيره ، وقال الحنابلة : لا يطالب ، لحديث : « أنت ومالك لأبيك » .

مواطن البحث :

٤ – أغلب أحكام الاستقراض عند الفقهاء تذكر فى باب القرض ، وبالإضافة إلى ذلك تأتى بعض أحكامه فى الشّركة ، أثناء الكلام عن إذن الشّريك لشريكه ، وفى الوكالة عند بيان ما تصحّ فيه الوكالة ، وفى الوقف فى الاستدانة على الوقف ، وفى النّفقة فى الاستقراض على الغائب والمعسر .

استقسامٌ ❊

التعريف :

١ – يأتى الاستقسام فى اللّغة بمعنى : طلب القسم بالأزلام ونحوها ، والقسم هنا : ما قدّر للإنسان من خيرٍ أو شرٍّ ، ويأتى بمعنى طلب : القسم المقدّر ممّا هو شائعٌ ، والقسم هنا : النّصيب . وقد اختلف علماء اللّغة والمفسّرون فى المقصود بالاستقسام فى قوله تعالى : { وأن تستقسموا بالأزلام } . فقال الجمهور ومنهم الأزهرىّ والهروىّ وأبو جعفرٍ وسعيد بن جبيرٍ والحسن والقفّال والضّحّاك والسّدّىّ : معنى الاستقسام بالأزلام طلب معرفة الخير والشّرّ بواسطة ضرب القداح ، فكان الرّجل فى الجاهليّة إذا أراد سفراً ، أو غزواً ، أو تجارةً ، أو نكاحاً ، أو أو أمراً آخر ضرب بالقداح ، وكانوا قد كتبوا على بعضها" أمرنى ربّى " وعلى بعضها " نهانى ربّى " وتركوا بعضها خالياً عن الكتابة ، فإن خرج الأمر أقدم على الفعل ، وإن خرج النّهى أمسك ، وإن خرج الغفل أعاد العمل مرّةً أخرى ، فهم يطلبون من الأزلام أن تدلّهم على قسمهم . وقال المؤرّج والعزيزىّ وجماعةٌ من أهل اللّغة : الاستقسام هنا هو الميسر المنهىّ عنه ، والأزلام قداح الميسر ، وكانوا إذا أرادوا أن ييسروا ابتاعوا ناقةً بثمنٍ مسمًّى يضمنونه لصاحبها ، ولم يدفعوا الثّمن حتّى يضربوا بالقداح عليها ، فيعلموا على من يجب الثّمن . وذهب الفقهاء إلى ما ذهب إليه جمهور اللّغويّين والمفسّرين من أنّه الامتثال لما تخرجه الأزلام من الأمر والنّهى فى شئون حياتهم ، والأقداح هى أقداح الأمر والنّهى .

الألفاظ ذات الصّلة :

أ – الطّرق :

٢ – من معانى الطّرق : الضّرب بالحصى ، وهو نوعٌ من التّكهّن ، وشبيه الخطّ فى الرّمل ، وفى الحديث : « العيافة والطّيرة والطّرق من الجبت » ومن ذلک يتبيّن أنّ الطّرق بالحصى والاستقسام كلاهما لطلب معرفة الحظوظ .

ب – الطّيرة :

٣ – هى التّشاؤم ، وأصله أنّ العربىّ كان إذا أراد المضىّ لمهمٍّ مرّ بمجاثم الطّير وأثارها ، فإن تيامنت مضى ، وإن تشاءمت تطيّر وعدل .

فنهى الشّارع عن ذلک ففى الحديث : « ليس منّا من تطيّر أو تطيّر له » وهى بهذا تشبه الاستقسام فى أنّها طلب معرفة قسمه من الغيب .

ج – الفأل :

٤ – الفأل هو أن تسمع كلاماً حسناً فتتيمّن به ، والفأل ضدّ الطّيرة ، وفى الحديث « كان النّبىّ صلى الله عليه وسلم يحبّ الفأل ويكره الطّيرة » .

والفأل مستحسنٌ إذا كان من قبيل الكلمة الحسنة يسمعها الرّجل من غير قصدٍ ، نحو : يا فلاّح ويا مسعود فيستبشر بها . والفأل بهذا المعنى ليس من قبيل الاستقسام (المنهىّ عنه) أمّا إذا قصد بالفأل طلب معرفة الخير من الشّرّ عن طريق أخذه من مصحفٍ ، أو ضرب رملٍ ، أو قرعةٍ ونحوها – وهو يعتقد هذا المقصد إن خرج جيّداً اتّبعه ، وإن خرج رديّاً اجتنبه – فهو حرامٌ ، لأنّه من قبيل الاستقسام المنهىّ عنه .

د – القرعة :

٥ – القرعة : اسم مصدرٍ بمعنى الاقتراع وهو الاختيار بإلقاء السّهام ونحو ذلک . وليست القرعة من الميسر كما يقول البعض ، لأنّ الميسر هو القمار ، وتمييز الحقوق ليس قماراً . وليست من الاستقسام المنهىّ عنه ، لأنّ الاستقسام تعرّضٌ لدعوى علم الغيب ، وهو ممّا استأثر به اللّه تعالى ، فى حين أنّ القرعة تمييز نصيبٍ موجودٍ ، فهى أمارةٌ على إثبات حكمٍ قطعاً للخصومة ، أو لإزالة الإبهام . وعلى ذلک فالقرعة الّتى تكون لتمييز الحقوق مشروعةٌ . أمّا القرعة الّتى يؤخذ منها الفأل ، أو الّتى يطلب بها معرفة الغيب والمستقبل فهى فى معنى الاستقسام الّذى حرّمه اللّه سبحانه وتعالى .

هـ – الكهانة :

٦ – الكهانة أو التّكهّن : ادّعاء علم الغيب ، والكاهن هو الّذى يخبر عن بعض المضمرات ، فيصيب بعضها ، ويخطئ أكثرها ، ويزعم أنّ الجنّ يخبره بذلک ، ومثل الكاهن : العرّاف ، والرّمّال ، والمنجّم ، وهو الّذى

يخبر عن المستقبل بطلوع النّجم وغروبه . وفى الحديث : « ليس منّا من تطيّر أو تطيّر له ، أو تكهّن أو تكهّن له ، أو سحر أو سحر له » و « من أتى كاهناً فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمّدٍ » .

وعلى ذلك فالكهانة هى من قبيل الاستقسام الّذى حرّمه اللّه تعالى .

صفة الاستقسام : حكمه التّكليفىّ :

٧ – الاستقسام بالأزلام وما فى معناها – سواءٌ كان لطلب القسم فى أمور الحياة الغيبيّة ، أو كان للمقامرة – ولو كان المقصود به خيراً حرامٌ ، كما ورد فى القرآن الكريم : { إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشّيطان فاجتنبوه } . وقوله تعالى : { حرّمت عليكم الميتة والدّم } ... إلى قوله { وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسقٌ } .

فهو خروجٌ عن طاعة اللّه ، لأنّه تعرّضٌ لعلم الغيب ، أو نوعٌ من المقامرة ، وكلاهما منهىٌّ عنه .

إحلال الشّرع الاستخارة محلّ الاستقسام :

٨ – لمّا كان الإنسان بطبعه يميل إلى التّعرّف على طريقه ، والاطمئنان إلى أمور حياته ، فقد أوجد الشّرع للإنسان ما يلجأ به إلى اللّه تعالى ليشرح صدره لما فيه الخير فيتّجه إليه . والاستخارة طلب الخيرة فى الشّىء ، والتّفصيل فى مصطلح (استخارةٌ) .

استقلالٌ ❊

انظر : انفرادٌ .

استكسابٌ ❊

انظر : إنفاقٌ ، ونفقةٌ .

استلامٌ ❊

التعريف :

١ – من معانى الاستلام فى اللّغة : اللّمس باليد أو الفم . والاستلام مأخوذٌ إمّا من السّلام أى التّحيّة ، وإمّا من السّلام أى الحجارة ، لما فيه من لمس الحجر .

ويستعمله الفقهاء بهذه المعانى عند الكلام عن الطّواف . وقد شاع استعمال الاستلام بمعنى التّسلّم ، فيرجع إليه بهذا المعنى فى مصطلح : (تسلّمٌ) .

الحكم الإجمالىّ :

٢ – يتّفق الفقهاء على أنّه يسنّ استلام الحجر الأسود والرّكن اليمانيّ باليد فى أوّل الطّواف ، روى ابن عمر « أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم كان لا يستلم إلاّ الحجر والرّكن اليمانيّ » . وقال ابن عمر :« ما تركت استلام هذين الرّكنين : اليمانيّ والحجر منذ رأيت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يستلمهما فى شدّةٍ ولا رخاءٍ » . ولأنّ الرّكن اليمانيّ مبنيٌّ على قواعد إبراهيم عليه السلام ، فسنّ استلامه ، كاستلام الرّكن الّذى فيه الحجر . والاستلام فى كلّ طوفةٍ كالمرّة الأولى عند الحنفيّة ، والشّافعيّة ، والحنابلة ، وقال المالكيّة بالاستحباب . والاستلام بالفم كالاستلام باليد بالنّسبة للحجر ، إلاّ أنّ المالكيّة قالوا : إنّ الاستلام باليد يكون بعد العجز عن الاستلام بالفم . وفى استلام اليمانيّ بالفم خلافٌ بين الفقهاء يذكر فى أحكام الطّواف . وعند العجز عن الاستلام باليد يستلم الإنسان بشيءٍ فى يده . فإن لم يمكنه استلامه أصلاً أشار إليه وكبّر لحديث ابن عبّاسٍ قال : « طاف النّبىّ صلى الله عليه وسلم على بعيرٍ كلّما أتى الرّكن أشار إليه وكبّر » .

وبعد الانتهاء من ركعتى الطّواف يسنّ كذلك العود لاستلام الحجر الأسود . وهذا كلّه بالنّسبة للرّجل ، ويختلف الحال بالنّسبة للمرأة فى بعض الأحوال . واستلام الحجر والرّكن اليمانيّ تعبّدىٌّ وخصوصيّةٌ لهما ، وتفصيل ذلك يذكره الفقهاء فى أحكام الطّواف .

استلحاقٌ ❊

التّعريف :

١ – الاستلحاق لغةً : مصدر استلحق ، يقال : استلحقه ادّعاه . واصطلاحاً : هو الإقرار بالنّسب . والتّعبير بلفظ الاستلحاق هو استعمال المالكيّة ، والشّافعيّة ، والحنابلة ، وأمّا الحنفيّة فاستعملوه فى الإقرار بالنّسب على قلّةٍ .

صفته: حكمه التّكليفىّ :

٢ – جاء فى حديث عمرو بن شعيبٍ : « أنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم قضى أنّ كلّ مستلحقٍ استلحق بعد أبيه الّذى يدعى له فقد لحق بمن استلحقه » قال الخطّابىّ : هذه أحكامٌ وقعت فى أوّل زمان الشّريعة ، وذلك أنّه كان لأهل الجاهليّة إماءٌ بغايا ، وكان سادتهنّ يلمّون بهنّ ، فإذا جاءت إحداهنّ بولدٍ ربّما ادّعاه السّيّد والزّانى ، فألحقه النّبىّ صلى الله عليه وسلم بالسّيّد ، لأنّ الأمة فراشٌ كالحرّة ، فإن مات السّيّد ولم يستلحقه ثمّ استلحقه ورثته بعده لحق بأبيه . وقد اتّفق الفقهاء على أنّ حكم الاستلحاق عند الصّدق واجبٌ ، ومع الكذب فى ثبوته ونفيه حرامٌ ، ويعدّ من الكبائر ، لأنّه كفران النّعمة ، لما صحّ عن

رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أنّه قال : « أيّما امرأةٍ أدخلت على قومٍ من ليس منهم ، فليست من اللّه فى شىءٍ ، ولن يدخلها اللّه جنّته ، وأيّما رجلٍ جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب اللّه تعالى منه ، وفضحه على رءوس الأوّلين والآخرين يوم القيامة » .

هذا ويشترط فقهاء المذاهب لصحّة الاستلحاق شروطاً معيّنةً ، منها : أن يولد مثله لمثله ، وأن يكون مجهول النّسب ، وألاّ يكذّبه المقرّ له إن كان من أهل الإقرار على تفصيلٍ فى مصطلح (نسبٌ) وفى بابه من كتب الفقه .

استماعٌ ❊

التعريف :

١ – الاستماع لغةً واصطلاحاً : قصد السّماع بغية فهم المسموع أو الاستفادة منه .

الألفاظ ذات الصّلة

أ – السّماع :

٢ – الاستماع لا يكون استماعاً إلاّ إذا توفّر فيه القصد ، أمّا السّماع فإنّه قد يكون بقصدٍ ، أو بدون قصدٍ . وغالب استعمال الفقهاء للسّماع ينصرف إلى استماع آلات الملاهى ، أى بالقصد .

ب – استراق السّمع :

الاستماع قد يكون على سبيل الاستخفاء ، وقد يكون على سبيل المجاهرة ، ولكنّ استراق السّمع لا يكون إلاّ على سبيل الاستخفاء ، ولذلک قالوا : استراق السّمع هو الاستماع مستخفياً (ر : استراق السّمع) .

ج – التّجسّس :

الاستماع لا يكون إلاّ بالسّمع ، أمّا التّجسّس فإنّه يكون بالسّمع وبغيره فضلاً عن أنّ التّجسّس يكون على سبيل الاستخفاء ، فى حين أنّ الاستماع يكون على سبيل الاستخفاء ، أو على سبيل المجاهرة (ر : تجسّسٌ) .

د – الإنصات :

الإنصات هو السّكوت للاستماع . ويكون الاستماع إمّا لصوت الإنسان ، أو الحيوان ، أو الجماد .

النّوع الأوّل : استماع صوت الإنسان .

أ – حكم استماع القرآن خارج الصّلاة :

٣ – الاستماع إلى تلاوة القرآن الكريم حين يقرأ واجبٌ إن لم يكن هناك عذرٌ مشروعٌ لترك الاستماع . وقد اختلف الحنفيّة فى هذا الوجوب ، هل هو وجوبٌ عينىٌّ ، أو وجوبٌ كفائىٌّ ؟ قال ابن عابدين : الأصل أنّ الاستماع للقرآن فرض كفايةٍ ، لأنّه لإقامة حقّه ، بأن يكون ملتفتاً إليه غير مضيّعٍ ، وذلك يحصل بإنصات البعض ، كما فى ردّ السّلام .

ونقل الحموىّ عن أستاذه قاضى القضاة يحيى الشّهير بمنقارى زاده : أنّ له رسالةً حقّق فيها أنّ سماع القرآن فرضٌ عينٍ . نعم إنّ قوله تعالى فى سورة الأعراف { وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا } قد نزلت لنسخ جواز الكلام أثناء الصّلاة . إلاّ أنّ العبرة لعموم اللّفظ لا لخصوص السّبب ، ولفظها يعمّ قراءة القرآن فى الصّلاة وفى غيرها .

وعند الحنابلة : يستحبّ استماع قراءة القرآن الكريم .

٤ – ويعذر المستمع بترك الاستماع لتلاوة القرآن الكريم ، ولا يكون آثماً بذلك – بل الآثم هو التّالى ، على ما ذكره ابن عابدين – إذا وقعت التّلاوة بصوتٍ مرتفعٍ فى أماكن الاشتغال ، والمستمع فى حالة اشتغالٍ ، كالأسواق الّتى بنيت ليتعاطى فيها النّاس أسباب الرّزق ، والبيوت فى حالة تعاطى أهل البيت أعمالهم من كنسٍ وطبخٍ ونحو ذلك ، وفى حضرة ناسٍ يتدارسون الفقه ، وفى المساجد ، لأنّ المساجد إنّما بنيت للصّلاة ، وقراءة القرآن تبعٌ للصّلاة ، فلا تترك الصّلاة لسماع القرآن فيه . وإنّما سقط إثم ترك الاستماع للقرآن فى حالات الاشتغال دفعاً للحرج عن النّاس . قال تعالى – { وما جعل عليكم فى الدّين من حرجٍ } وإنّما أثم القارئ بذلك ، لأنّه مضيّعٌ لحرمة القرآن .

ب – طلب تلاوته للاستماع إليه :

٥ – يستحبّ للمسلم أن يطلب ممّن يعلم منه إجادة التّلاوة للقرآن الكريم مع حسن الصّوت التّلاوة ليستمع إليها ، قال الإمام النّووىّ : (اعلم أنّ جماعاتٍ من السّلف رضوان الله عليهم كانوا يطلبون من أصحاب القراءة بالأصوات الحسنة أن يقرءوا وهم يستمعون ، وهذا متّفقٌ على استحبابه ، وهو من عادة الأخيار المتعبّدين وعباد اللّه الصّالحين ، وهو سنّةٌ ثابتةٌ عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم . فقد صحّ عن عبد اللّه بن مسعودٍ رضى الله عنه قال : قال لى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : « اقرأ علىّ ، فقلت : يا رسول اللّه أقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ قال : نعم وفى روايةٍ : إنّى أحبّ أن أسمعه من غيرى فقرأت سورة النّساء حتّى أتيت على هذه الآية { فكيف إذا جئنا من كلّ أمّةٍ بشهيدٍ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً } قال : حسبك الآن ، فالتفتّ إليه فإذا عيناه تذرفان » .

وروى الدّارمىّ وغيره بأسانيدهم عن عمر بن الخطّاب رضى الله عنه أنّه كان يقول لأبى موسى الأشعرىّ : ذكّرنا ربّنا ، فيقرأ عنده القرآن . والآثار فى هذا كثيرةٌ معروفةٌ .

٦ – قال النّوويّ : وقد استحبّ العلماء أن يستفتح مجلس حديث النّبيّ صلى الله عليه وسلم ويختم بقراءة قارئٍ حسن الصّوت ممّا تيسّر من القرآن . وقد صرّح الحنفيّة بأنّ استماع القرآن الكريم أفضل من قراءة الإنسان القرآن بنفسه ، لأنّ المستمع يقوم بأداء فرضٍ بالاستماع ، بينما قراءة القرآن ليست بفرضٍ ، قال أبو السّعود فى حاشيته على ملاّ مسكينٍ : استماع القرآن أثوب من قراءته ، لأنّ استماعه فرضٌ بخلاف القراءة .

ت – استماع التّلاوة غير المشروعة :

٧ – ذهب الجمهور إلى عدم جواز استماع تلاوة القرآن الكريم بالتّرجيع والتّلحين المفرط الّذى فيه التّمطيط ، وإشباع الحركات . والتّرجيع : أى التّرديد للحروف والإخراج لها من غير مخارجها . وقالوا : التّالى والمستمع فى الإثم سواءٌ ، أى إذا لم ينكر عليه أو يعلّمه . أمّا تحسين الصّوت بقراءة القرآن من غير مخالفةٍ لأصول القراءة فهو مستحبٌّ ، واستماعه حسنٌ ، لقول رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : « زيّنوا القرآن بأصواتكم » وقوله عليه الصلاة والسلام فى أبى موسى الأشعرىّ : « لقد أوتى مزماراً من مزامير آل داود » . وعلى هذا يحمل قول الإمام الشّافعىّ فى الأمّ : لا بأس بالقراءة بالألحان وتحسين الصّوت بها بأىّ وجهٍ ما كان ، وأحبّ ما يقرأ إلىّ حدراً وتحزيناً : وذهب بعض الشّافعيّة – كالماوردىّ – إلى أنّ التّغنّى بالقرآن حرامٌ مطلقاً ، لإخراجه عن نهجه القويم ، وقيّده غيره بما إذا وصل به إلى حدٍّ لم يقل به أحدٌ من القرّاء ، وذهب بعض الحنابلة كالقاضى أبى يعلى إلى أنّ قراءة القرآن بالألحان مكروهةٌ على كلّ حالٍ ، لإخراج القرآن عن نهجه القويم ، وفسّروا قوله صلى الله عليه وسلم : « ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن » بأنّ معناه : يستغنى به .

٨ – وفى كراهة قراءة الجماعة على الواحد – كما يفعل المتعلّمون عند الشّيخ وهو يستمع لهم – روايتان عند المالكيّة . إحداهما : أنّه حسنٌ . والثّانية : الكراهة ، وهو ما ذهب إليه الحنفيّة ، قال ابن رشدٍ : كان مالكٌ يكره هذا ولا يرضاه ، ثمّ رجع وخفّفه .

وجه الكراهة : أنّه إذا قرأ عليه جماعةٌ مرّةً واحدةً لا بدّ أن يفوته سماع ما يقرأ به بعضهم ، ما دام يصغى إلى غيرهم ، ويشتغل بالرّدّ على الّذى يصغى إليه ، فقد يخطئ فى ذلك الحين ويظنّ أنّه قد سمعه ، وأجاز قراءته ، فيحمل عنه الخطأ ، ويظنّه مذهباً له .

ووجه التّخفيف : المشقّة الدّاخلة على المقرئ بانفراد كلّ واحدٍ حين القراءة عليه إذا كثروا ، وقد لا يعمّهم ، فرأى جمعهم فى القراءة أحسن من القطع ببعضهم .

ث – استماع الكافر القرآن :

٩ – لا يمنع الكافر من الاستماع إليه ، لقوله جلّ شأنه : { وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتّى يسمع كلام اللّه } . ورجاء أن يشرح اللّه صدره للإسلام فيهتدى .

ج– استماع القرآن فى الصّلاة :

١٠– ذهب الحنفيّة إلى أنّ استماع المأموم فى الصّلاة لقراءة الإمام والإنصات إليه واجبٌ ، وقراءته مكروهةٌ كراهةً تحريميّةً ، سواءٌ أكان ذلك فى الجهريّة أم السّرّيّة .

وذهب المالكيّة إلى أنّ استماع المأموم لقراءة الإمام تستحبّ فى الجهريّة ،

أمّا السّرّيّة فإنّها تستحبّ فيها القراءة على المعتمد ، خلافاً لابن العربىّ حيث ذهب إلى وجوبها فى السّرّيّة . وذهب الشّافعيّة إلى أنّ قراءة المأموم الفاتحة فى السّرّيّة والجهريّة واجبةٌ ، وإن فاته الاستماع . وذهب الحنابلة إلى أنّه يستحبّ للمأموم الاستماع إذا كان يسمع قراءة الإمام فى الجهريّة ، وتفصيل ذلك فى مصطلح (قراءةٌ) .

ح – استماع آية السّجدة :

١١ – يترتّب على استماع أو سماع آيةٍ من آيات السّجدة السّجود للتّلاوة ، على خلافٍ بين الفقهاء فى حكم السّجود ، تجده مع أدلّته فى مصطلح (سجود التّلاوة) .

ثانياً : استماع غير القرآن الكريم :

أ – حكم استماع خطبة الجمعة :

اختلف الفقهاء فى حكم الاستماع والإنصات للخطبة .

١٢ – فذهب الحنفيّة ، والمالكيّة ، والحنابلة ، والأوزاعىّ إلى وجوب الاستماع والإنصات ، وهو ما ذهب إليه عثمان بن عفّان ، وعبد اللّه بن عمر ، وابن مسعودٍ ، حتّى قال الحنفيّة : كلّ ما حرم فى الصّلاة حرم فى الخطبة ، فيحرم أكلٌ ، وشربٌ ، وكلامٌ ، ولو تسبيحاً ، أو ردّ سلامٍ ، أو أمراً بمعروفٍ ، أو نهياً عن منكرٍ . واستدلّوا على ذلك : – بقوله تعالى : { وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا } – وبأنّ الخطبة كالصّلاة ، فهى قائمةٌ مقام ركعتين من الفريضة ، ولم يستثن الحنفيّة والحنابلة من ذلك إلاّ تحذير من خيف هلاكه ، لأنّه يجب لحقّ آدمىٍّ ، وهو محتاجٌ إليه ، أمّا الإنصات فهو لحقّ اللّه تعالى ، وحقوق اللّه تعالى مبنيّةٌ على المسامحة . واستثنى المالكيّة أيضاً : الذّكر الخفيف إن كان له سببٌ ، كالتّهليل ، والتّحميد ، والاستغفار ، والتّعوّذ ، والصّلاة على النّبىّ صلى الله عليه وسلم لكنّهم اختلفوا فى وجوب الإسرار بهذه الأذكار الخفيفة . واستدلّ من قال بوجوب الاستماع للخطبة بما رواه أبو هريرة عن سيّدنا رسول اللّه

صلى الله عليه وسلم أنّه قال : « إذا قلت لصاحبک يوم الجمعة : أنصت – والإمام يخطب – فقد لغوت » .

١٣ – وذهب الشّافعيّة إلى أنّ الاستماع والإنصات أثناء الخطبة سنّةٌ ، ولا يحرم الكلام ، بل يكره ، وحكى ذلک النّوويّ عن عروة بن الزّبير ، وسعيد بن جبيرٍ ، والشّعبيّ ، والنّخعيّ ، والثّوريّ ، وهو روايةٌ عن الإمام أحمد . واستدلّوا على الكراهة بالجمع بين حديث : « إذا قلت لصاحبک : أنصت ، فقد لغوت » وخبر الصّحيحين عن أنسٍ : « فبينا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يخطب على المنبر يوم الجمعة قام أعرابيٌّ فقال : يا رسول اللّه ، هلک المال وجاع العيال فادع لنا أن يسقينا . قال : فرفع رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يديه وما فى السّماء قزعةٌ ... » وإن عرض له ناجزٌ كتعليم خيرٍ ، ونهيٍ عن منكرٍ ، وإنذار إنسانٍ عقرباً ، أو أعمى بئراً لم يمنع من الكلام ، لكن يستحبّ أن يقتصر على الإشارة إن أغنت ، ويباح له – أى الكلام – بلا كراهةٍ . ويباح الكلام عند الشّافعيّة للدّاخل فى أثناء الخطبة ما لم يجلس ، كما صرّحوا بأنّه لو سلّم داخلٌ على مستمع الخطبة وهو يخطب ، وجب الرّدّ عليه بناءً على أنّ الإنصات سنّةٌ ، ويستحبّ تشميت العاطس إذا حمد اللّه ، لعموم الأدلّة ، وإنّما لم يكره كسائر الكلام لأنّ سببه قهرىٌّ .

١٤ – وذهب الحنابلة والشّافعيّة إلى أنّ للبعيد الّذى لا يسمع صوت الخطيب أن يقرأ القرآن ، ويذكر اللّه تعالى ، ويصلّى على النّبىّ صلى الله عليه وسلم من غير أن يرفع صوته ، لأنّه إن رفع صوته منع من هو أقرب منه من الاستماع ، وهذا مرويٌّ عن عطاء بن أبى رباحٍ ، وسعيد بن جبيرٍ ، وعلقمة بن قيسٍ ، وإبراهيم النّخعىّ ، حتّى قال النّخعىّ : إنّى لأقرأ جزئى إذا لم أسمع الخطبة يوم الجمعة . وسأل إبراهيم النّخعىّ علقمة : أقرأ فى نفسى أثناء الخطبة ؟ فقال علقمة : لعلّ ذلک ألاّ يكون به بأسٌ .

ب – استماع صوت المرأة :

١٥ – إذا كان مبعث الأصواتس هو الإنسان ، فإنّ هذا الصّوت إمّا أن يكون غير موزونٍ ولا مطربٍ ، أو يكون مطرباً . فإن كان الصّوت غير مطربٍ ، فإمّا أن يكون صوت رجلٍ أو صوت امرأةٍ ، فإن كان صوت رجلٍ : فلا قائل بتحريم استماعه .

أمّا إن كان صوت امرأةٍ ، فإن كان السّامع يتلذّذ به ، أو خاف على نفسه فتنةً حرم عليه استماعه ، وإلاّ فلا يحرم ، ويحمل استماع الصّحابة رضوان الله عليهم أصوات النّساء حين محادثتهنّ على هذا ، وليس للمرأة ترخيم الصّوت وتنغيمه وتليينه ، لما فيه من إثارة الفتنة ، وذلک لقوله تعالى : { فلا تخضعن بالقول فيطمع الّذى فى قلبه مرضٌ } .

وأمّا إن كان الصّوت مطرباً فهذا الغناء استماعٌ ، وفيما يلى تفصيل القول فيه :

ج – الاستماع إلى الغناء :

١٦ – ذهب جمهور الفقهاء إلى أنّ استماع الغناء يكون محرّماً فى الحالات التّالية :

أ – إذا صاحبه منكرٌ .

ب – إذا خشى أن يؤدّى إلى فتنةٍ كتعلّقٍ بامرأةٍ ، أو بأمرد ، أو هيجان شهوةٍ مؤدّيةٍ إلى الزّنى .

ج – إن كان يؤدّى إلى ترك واجبٍ دينىٍّ كالصّلاة ، أو دنيوىٍّ كأداء عمله الواجب عليه ، أمّا إذا أدّى إلى ترك المندوبات فيكون مكروهاً . كقيام اللّيل ، والدّعاء فى الأسحار ونحو ذلك .

الغناء للتّرويح عن النّفس :

أمّا إذا كان الغناء بقصد التّرويح عن النّفس ، وكان خالياً عن المعانى السّابقة فقد اختلف فيه ، فمنعه جماعةٌ وأجازه آخرون .

١٧ – وقد ذهب عبد اللّه بن مسعودٍ إلى تحريمه ، وتابعه على ذلك جمهور علماء أهل العراق ، منهم إبراهيم النّخعىّ ، وعامر الشّعبىّ ، وحمّاد بن أبى سليمان ، وسفيان الثّورىّ ، والحسن البصرىّ ، والحنفيّة ، وبعض الحنابلة . واستدلّ هؤلاء على التّحريم : – بقوله تعالى : { ومن النّاس من يشترى لهو الحديث ليضلّ عن سبيل اللّه } قال ابن عبّاسٍ وابن مسعودٍ : لهو الحديث هو : الغناء . وبحديث أبى أمامة رضى الله عنه أنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم « نهى عن بيع المغنّيات ، وعن شرائهنّ ، وعن كسبهنّ ، وعن أكل أثمانهنّ » . وبحديث عقبة بن عامرٍ أنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « كلّ شىءٍ يلهو به الرّجل فهو باطلٌ ، إلاّ تأديبه فرسه ، ورميه بقوسه ، وملاعبته امرأته » .

١٨ – وذهب الشّافعيّة ، والمالكيّة ، وبعض الحنابلة إلى أنّه مكروهٌ ، فإن كان سماعه من امرأةٍ أجنبيّةٍ فهو أشدّ كراهةً ، وعلّل المالكيّة الكراهة بأنّ سماعه مخلٌّ بالمروءة ، وعلّلها الشّافعيّة بقولهم : لما فيه من اللّهو . وعلّلها الإمام أحمد بقوله : لا يعجبنى الغناء لأنّه ينبت النّفاق فى القلب .

١٩ – وذهب عبد اللّه بن جعفرٍ ، وعبد اللّه بن الزّبير ، والمغيرة بن شعبة ، وأسامة بن زيدٍ ، وعمران بن حصينٍ ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وغيرهم من الصّحابة ، وعطاءٌ بن أبى رباحٍ ، وبعض الحنابلة منهم أبو بكرٍ الخلاّل ، وصاحبه أبو بكرٍ عبد العزيز ، والغزالىّ من الشّافعيّة إلى إباحته . واستدلّوا على ذلك بالنّصّ والقياس . أمّا النّصّ : فهو ما أخرجه البخارىّ ومسلمٌ عن عائشة رضى الله عنها قالت : « دخل علىّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وعندى جاريتان تغنّيان بغناء بعاثٍ ، فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه ، ودخل أبو بكرٍ فانتهرنى وقال : مزمارة الشّيطان عند النّبىّ صلى الله عليه وسلم فأقبل عليه رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فقال : دعهما ، فلمّا غفل غمزتهما فخرجتا » . ويقول عمر بن الخطّاب :" الغناء زاد الرّاكب "فقد روى البيهقىّ فى سننه : أنّ عمر بن الخطّاب رضى الله عنه كان يستمع إلى غناء خوّاتٍ ، فلمّا كان السّحر قال له :" ارفع لسانك يا خوّات ، فقد أسحرنا "

وأمّا القياس : فإنّ الغناء الّذى لا يصاحبه محرّمٌ فيه سماع صوتٍ طيّبٍ موزونٍ ، وسماع الصّوت الطّيّب من حيث إنّه طيّبٌ لا ينبغى أن يحرم ، لأنّه يرجع إلى تلذّذ حاسّة السّمع بإدراك ما هو مخصوصٌ به ، كتلذّذ الحواسّ الأخرى بما خلقت له .

٢٠ – وأمّا الوزن فإنّه لا يحرّم الصّوت ، ألا ترى أنّ الصّوت الموزون الّذى يخرج من حنجرة العندليب لا يحرم سماعه ، فكذلك صوت الإنسان ، لأنّه لا فرق بين حنجرةٍ وحنجرةٍ . وإذا انضمّ الفهم إلى الصّوت الطّيّب الموزون ، لم يزد الإباحة فيه إلاّ تأكيداً .

٢١ – أمّا تحريك الغناء القلوب ، وتحريكه العواطف ، فإنّ هذه العواطف إن كانت عواطف نبيلةً فمن المطلوب تحريكها ، وقد وقع لعمر بن الخطّاب أن استمع إلى الغناء فى طريقه للحجّ – كما تقدّم – وكان الصّحابة ينشدون الرّجزيّات لإثارة الجند عند اللّقاء ، ولم يكن أحدٌ يعيب عليهم ذلك ، ورجزيّات عبد اللّه بن رواحة وغيره معروفةٌ مشهورةٌ .

الغناء لأمرٍ مباحٍ :

٢٢ – إذا كان الغناء لأمرٍ مباحٍ ، كالغناء فى العرس ، والعيد ، والختان ، وقدوم الغائب ، تأكيداً للسّرور المباح ، وعند ختم القرآن الكريم تأكيداً للسّرور كذلك ، وعند سير المجاهدين للحرب إذا كان للحماس فى نفوسهم ، أو للحجّاج لإثارة الأشواق فى نفوسهم إلى الكعبة المشرّفة ، أو للإبل لحثّها على السّير – وهو الحداء – أو للتّنشيط على العمل كغناء العمّال عند محاولة عملٍ أو حمل ثقيلٍ ، أو لتسكيت الطّفل وتنويمه كغناء الأمّ لطفلها ، فإنّه مباحٌ كلّه بلا كراهةٍ عند الجمهور . واستدلّوا على ذلك بما ذكر سابقاً من حديث الجاريتين الّذى روته أمّ المؤمنين عائشة رضى الله عنها وهذا نصٌّ فى إباحة الغناء فى العيد .

وبحديث بريدة قال : « خرج رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فى بعض مغازيه ، فلمّا انصرف جاءت جاريةٌ سوداء فقالت : يا رسول اللّه إنّى كنت نذرت – إن ردّك اللّه سالماً – أن أضرب بين يديك بالدّفّ وأتغنّى ، فقال لها رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : إن كنت نذرت فاضربى وإلاّ فلا » . وهذا نصٌّ فى إباحة الغناء عند قدوم الغائب تأكيداً للسّرور ، ولو كان الغناء حراماً لما جاز نذره ، ولما أباح لها رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فعله . وبحديث عائشة : « أنّها أنكحت ذات قرابةٍ لها من الأنصار ، فجاء رسول اللّه فقال : أهديتم الفتاة ؟ قالوا : نعم ، قال : أرسلتم معها من يغنّى ؟ قالت : لا ، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : إنّ الأنصار قومٌ فيهم غزلٌ ، فلو بعثتم معها من يقول : أتيناكم أتيناكم ، فحيّانا وحيّاكم » . وهذا نصٌّ فى إباحة الغناء فى العرس . وبحديث عائشة قالت : « كنت مع رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فى سفرٍ ، وكان عبد اللّه بن رواحة جيّد الحداء ، وكان مع الرّجال ، وكان أنجشة مع النّساء ، فقال النّبىّ صلى الله عليه وسلم لابن رواحة : حرّك القوم ، فاندفع يرتجز ، فتبعه أنجشة ، فأعنفت الإبل

، فقال النّبىّ صلى الله عليه وسلم لأنجشة رويدک ، رفقاً بالقوارير . يعنى النّساء » . وعن السّائب بن يزيد قال :" كنّا مع عبد الرّحمن بن عوفٍ فى طريق الحجّ ، ونحن نؤمّ مكّة ، اعتزل عبد الرّحمن الطّريق ، ثمّ قال لرباح بن المغترف : غنّنا يا أبا حسّان ، وكان يحسن النّصب – والنّصب ضربٌ من الغناء – فبينا رباحٌ يغنّيه أدركهم عمر فى خلافته فقال : ما هذا ؟ فقال عبد الرّحمن : ما بأسٌ بهذا ؟ نلهو ونقصّر عنّا السّفر ، فقال عمر : فإن كنت آخذاً فعليک بشعر ضرار بن الخطّاب بن مرداسٍ فارس قريشٍ" . وكان عمر يقول ." الغناء من زاد الرّاكب "، وهذا يدلّ على إباحة الغناء لترويح النّفس . وروى ابن أبى شيبة أنّ عمر بن الخطّاب رضى الله عنه كان يأمر بالحداء .

د – الاستماع إلى الهجو والنّسيب :

٢٣ – يشترط فى الكلام – سواءٌ أكان موزوناً (كالشّعر) أم غير موزونٍ ، ملحّناً (كالغناء) أم غير ملحّنٍ – حتّى يحلّ استماعه ألاّ يكون فاحشاً ، وليس فيه هجوٌ ، ولا كذبٌ على اللّه ورسوله ، ولا على الصّحابة ، ولا وصف امرأةٍ معيّنةٍ ، فإن استمع إلى شىءٍ من الكلام فيه شىءٌ ممّا ذكرناه ، فالمستمع شريک القائل فى الإثم . أمّا هجاء الكفّار وأهل البدع فذلک جائزٌ ، وقد « كان حسّان بن ثابتٍ شاعر رسول اللّه يهاجى الكفّار بعلم رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أو أمره ، وقد قال له عليه الصلاة والسلام : اهجهم أو هاجهم وجبريل معک »

وأمّا النّسيب فإنّه لا شىء فيه ، وقد كان يقال أمام رسول اللّه وهو يستمع إليه « فقد استمع صلوات الله وسلامه عليه إلى قصيدة كعب بن زهيرٍ : بانت سعاد فقلبى اليوم متبول »

مع ما فيها من النّسيب .

النّوع الثّانى : استماع صوت الحيوان :

٢٤ – اتّفق العلماء على جواز استماع أصوات الحيوانات ، سواءٌ كانت هذه الأصوات قبيحةً كصوت الحمار والطّاووس ونحوهما ، أو عذبةً موزونةً كأصوات العنادل والقمارىّ ونحوها ، قال الغزالىّ : فسماع هذه الأصوات يستحيل أن يحرم لكونها طيّبةً أو موزونةً ، فلا ذاهب إلى تحريم صوت العندليب وسائر الطّيور .

النّوع الثّالث : استماع أصوات الجمادات :

٢٥ – إذا انبعثت أصوات الجمادات من تلقاء نفسها أو بفعل الرّيح فلا قائل بتحريم استماع هذه الأصوات . أمّا إذا انبعثت بفعل الإنسان ، فإمّا أن تكون غير موزونةٍ ولا مطربةٍ ، كصوت طرق الحدّاد على الحديد ،

وصوت منشار النّجّار ونحو ذلک ، ولا قائل بتحريم استماع صوتٍ من هذه الأصوات . وأمّا أن ينبعث الصّوت من الآلات بفعل الإنسان موزوناً مطرباً ، وهو ما يسمّى بالموسيقى . فتفصيل القول فيه كما يلى :

أوّلاً – استماع الموسيقى :

٢٦ – إنّ ما حلّ تعاطيه (أى فعله) من الموسيقى والغناء حلّ الاستماع إليه ، وما حرم تعاطيه منهما حرم الاستماع إليه ، لأنّ تحريم الموسيقى أو الغناء ليس لذاته ، ولكن لأنّه أداةٌ للإسماع ، ويدلّ على هذا قول الغزالىّ فى معرض حديثه عن شعر الخنا ، والهجو ، ونحو ذلک : فسماع ذلک حرامٌ بألحانٍ وبغير ألحانٍ ، والمستمع شريکٌ للقائل . وقول ابن عابدين : وكره كلّ لهوٍ واستماعه .

أ : الاستماع لضرب الدّفّ ونحوه من الآلات القرعيّة :

٢٧ – اتّفق الفقهاء على حلّ الضّرب بالدّفّ والاستماع إليه ، على تفصيلٍ فى ذلک ، هل هذه الإباحة هى فى العرس وغيره ، أم هى فى العرس دون غيره ؟ وهل يشترط فى ذلک أن يكون الدّفّ خالياً من الجلاجل أم لا يشترط ذلک ؟ وستجد ذلک التّفصيل فى مصطلح (معازف) (وسماعٌ) . واستدلّوا على ذلک بما رواه محمّد بن حاطبٍ أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال : « فصل ما بين الحلال والحرام الدّفّ والصّوت فى النّكاح » . وبما روت عائشة رضى الله عنها أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال : « أعلنوا هذا النّكاح ، واضربوا عليه بالغربال » . وما روت الرّبيّع بنت معوّذٍ قالت : « دخل علىّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم غداة بنى علىّ ، فجلس على فراشى ، وجويرياتٌ يضربن بالدّفّ يندبن من قتل من آبائى يوم بدرٍ ، حتّى قالت إحداهنّ : وفينا نبىٌّ يعلم ما فى غدٍ ، فقال النّبىّ صلى الله عليه وسلم : لا تقولى هكذا وقولى كما كنت تقولين » .

٢٨ – وألحق المالكيّة ، والحنفيّة ، والغزالىّ من الشّافعيّة بالدّفّ جميع أنواع الطّبول – وهى الآلات الفرعيّة – ما لم يكن استعمالها للهوٍ محرّمٍ . واستثنى من ذلک بعضهم – كالغزالىّ مثلاً – الكوبة ، لأنّها من آلات الفسقة . واستثنى الحنفيّة من ذلک الضّرب بالقضيب . قال ابن عابدين : ضرب النّوبة للتّفاخر لا يجوز ، وللتّنبيه فلا بأس به ، وينبغى أن يكون كذلک بوق الحمّام وطبل المسحّر ، ثمّ قال : وهذا يفيد أنّ آلة اللّهو ليست محرّمةً بعينها بل لقصد اللّهو فيها ، إمّا من سامعها ، أو من المشتغل بها ، وبه تشعر الإضافة – يعنى إضافة الآلة إلى اللّهو – ألا ترى أنّ ضرب تلک الآلة حلّ تارةً وحرم أخرى باختلاف النّيّة ، والأمور بمقاصدها .

ب – الاستماع للمزمار ونحوه من الآلات النّفخيّة :

٢٩ – أجاز المالكيّة الاستماع إلى الآلات النّفخيّة كالمزمار ونحوه ، ومنعه غيرهم ، وروى ابن أبى شيبة فى مصنّفه عن ابن مسعودٍ إباحة الاستماع إليه ، فقد روى بسنده إلى ابن مسعودٍ أنّه دخل عرساً فوجد فيه مزامير ولهواً ، فلم ينه عنه . ومنعه غير المالكيّة .

٣٠ – أمّا الآلات الوتريّة كالعود ونحوه ، فإنّ الاستماع إليها ممنوعٌ فى العرس وغيره عند جمهور العلماء .

وذهب أهل المدينة ومن وافقهم من علماء السّلف إلى التّرخيص فيها ، وممّن رخّص فيها : عبد اللّه بن جعفرٍ ، وعبد اللّه بن الزّبير ، وشريحٌ ، وسعيد بن المسيّب ، وعطاء بن أبى رباحٍ ، ومحمّد بن شهابٍ الزّهرىّ ، وعامر بن شراحيل الشّعبىّ ، وغيرهم .

ثانياً : استماع الصّوت والصّدى :

٣١ – من تتبّع أقوال الفقهاء يتبيّن أنّهم يرتّبون آثار الاستماع على استماع الصّوت ، أمّا استماع الصّدى فلم يتحدّث عنه إلاّ الحنفيّة . ويظهر أنّ الحنفيّة لا يرتّبون آثار الاستماع على استماع الصّدى ، فقد نصّوا على أنّه لا تجب سجدة التّلاوة بسماعها من الصّدى .

استمتاعٌ ❊

التعريف :

١ – الاستمتاع : طلب التّمتّع ، والتّمتّع الانتفاع ، يقال : استمتعت بكذا وتمتّعت به : انتفعت . ولا يخرج استعمال الفقهاء له عن المعنى اللّغوىّ ، وأغلب وروده عندهم فى استمتاع الرّجل بزوجته .

الحكم الإجمالىّ :

٢ – الاستمتاع بما أحلّه اللّه فى الحالات المشروعة جائزٌ ، كالاستمتاع بالزّوجة من وطءٍ ومقدّماته إذا لم تكن هناك موانع شرعيّةٌ ، كحيضٍ ونفاسٍ وإحرامٍ وصيام فرضٍ ، فإن كانت هناك موانع شرعيّةٌ حرم الوطء . أمّا الاستمتاع بالأجنبيّة بأىّ نوعٍ من أنواع الاستمتاع كنظرٍ ، ولمسٍ ، وقبلةٍ ، ووطءٍ ، فهو محظورٌ ، يستحقّ فاعله الحدّ إن كان زنى ، والتّعزير إن كان غير ذلك كمقدّمات الوطء . ويرتّب الفقهاء على الاستمتاع بالزّوجة آثاراً كتمام المهر واستقراره والنّفقة . وتنظر تفاصيل الموضوع فى (النّكاح) و (المهر) و (النّفقة) .

مواطن البحث :

٣ – الاستمتاع بالزّوجة يرد عند الفقهاء فى أبواب النّكاح ، والحيض ، والنّفاس ، ومحظورات الإحرام فى الحجّ ، والصّيام ، والاعتكاف ، وتنظر فى أبوابها . والاستمتاع المحرّم يرد فى باب حدّ الزّنا ، وباب التّعزير ، وتنظر فى أبوابها .

استمناءٌ ❊

التعريف :

١ – الاستمناء : مصدر استمنى ، أى طلب خروج المنىّ . واصطلاحاً : إخراج المنىّ بغير جماعٍ ، محرّماً كان ، كإخراجه بيده استدعاءً للشّهوة ، أو غير محرّمٍ كإخراجه بيد زوجته . ٢ – وهو أخصّ من الإمناء والإنزال ، فقد يحصلان فى غير اليقظة ودون طلبٍ ، أمّا الاستمناء فلا بدّ فيه من استدعاء المنىّ فى يقظة المستمنى بوسيلةٍ ما . ويكون الاستمناء من الرّجل ومن المرأة . ويقع الاستمناء ولو مع وجود الحائل . جاء فى ابن عابدين : لو استمنى بكفّه بحائلٍ يمنع الحرارة يأثم أيضاً .

وفى الشّروانىّ على التّحفة : إن قصد بضمّ امرأةٍ الإنزال – ولو مع الحائل – يكون استمناءً مبطلاً للصّوم . بل صرّح الشّافعيّة والمالكيّة بأنّ الاستمناء يحصل بالنّظر . ولمّا كان الإنزال بالاستمناء يختلف أحياناً عن الإنزال بغيره كالجماع والاحتلام أفرد بالبحث .

وسائل الاستمناء :

٣ – يكون الاستمناء باليد ، أو غيرها من أنواع المباشرة ، أو بالنّظر ، أو بالفكر . الاستمناء باليد :

٤ – أ – الاستمناء باليد إن كان لمجرّد استدعاء الشّهوة فهو حرامٌ فى الجملة ، لقوله تعالى : { والّذين هم لفروجهم حافظون ، إلاّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنّهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون } . والعادون هم الظّالمون المتجاوزون ، فلم يبح اللّه سبحانه وتعالى الاستمتاع إلاّ بالزّوجة والأمة ، ويحرم بغير ذلك .

وفى قولٍ للحنفيّة ، والشّافعيّة ، والإمام أحمد : أنّه مكروهٌ تنزيهاً .

ب – وإن كان الاستمناء باليد لتسكين الشّهوة المفرطة الغالبة الّتى يخشى معها الزّنى فهو جائزٌ فى الجملة ، بل قيل بوجوبه ، لأنّ فعله حينئذٍ يكون من قبيل المحظور الّذى تبيحه الضّرورة ، ومن قبيل ارتكاب أخفّ الضّررين . وفى قولٍ آخر للإمام أحمد : أنّه يحرم ولو خاف الزّنى ، لأنّ له فى الصّوم بديلاً ، وكذلك الاحتلام مزيلٌ للشّبق . وعبارات المالكيّة تفيد الاتّجاهين : الجواز للضّرورة ، والحرمة لوجود البديل ، وهو الصّوم .

ج – وصرّح ابن عابدين من الحنفيّة بأنّه لو تعيّن الخلاص من الزّنى به وجب .

الاستمناء بالمباشرة فيما دون الفرج :

٥ – الاستمناء بالمباشرة فيما دون الفرج يشمل كلّ استمتاعٍ – غير النّظر والفكر – من وطءٍ فى غير الفرج ، أو تبطينٍ ، أو تفخيذٍ ، أو لمسٍ ، أو تقبيلٍ . ولا يختلف أثر الاستمناء بهذه الأشياء فى العبادة عن أثرها فى الاستمناء باليد عند المالكيّة ، والشّافعيّة ، والحنابلة . ويبطل به الصّوم عند الحنفيّة ، دون كفّارةٍ . ولا يختلف أثره فى الحجّ عن أثر الاستمناء باليد فيه .

الاغتسال من الاستمناء :

٦ – اتّفق الفقهاء على أنّ الغسل يجب بالاستمناء ، إذا خرج المنىّ عن لذّةٍ ودفقٍ ، ولا عبرة باللّذّة والدّفق عند الشّافعيّة ، وهو روايةٌ عن أحمد وللمالكيّة قولٌ بذلك لكنّه خلاف المشهور . واشترط الحنفيّة لترتّب الأثر على المنىّ أن يخرج بلذّةٍ ودفقٍ ، وهو مشهور المالكيّة ، فلا يجب فيه شىءٌ ما لم تكن لذّةٌ ، والمذهب عند أحمد على هذا ، وعليه جماهير الأصحاب ، وقطع به كثيرٌ منهم . أمّا إن أحسّ بانتقال المنىّ من صلبه فأمسك ذكره ، فلم يخرج منه شىءٌ فى الحال ، ولا علم خروجه بعد ذلك فلا غسل عليه عند كافّة العلماء ،« لأنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم علّق الاغتسال على الرّؤية ». والرّواية المشهورة عن الإمام أحمد بن حنبلٍ أنّه يجب الغسل ، لأنّه لا يتصوّر رجوع المنىّ ، ولأنّ الجنابة فى حقيقتها هى : انتقال المنىّ عن محلّه وقد وجد . وأيضاً فإنّ الغسل يراعى فيه الشّهوة ، وقد حصلت بانتقاله فأشبه ما لو ظهر . فإن سكنت الشّهوة ثمّ أنزل بعد ذلك ، فإنّه يجب عليه الغسل عند أبى حنيفة ومحمّدٍ ، والشّافعيّة والحنابلة ، وأصبغ وابن الموّاز من المالكيّة . وقال أبو يوسف : لا يغتسل ، ولكن ينتقض وضوءه ، وهو قول القاسم من المالكيّة . ولتفصيل ما يتعلّق بذلك انظر مصطلح (غسلٌ) .

اغتسال المرأة من الاستمناء :

٧ – يجب الغسل على المرأة إن أنزلت بالاستمناء بأىّ وسيلةٍ حصل . والمراد بالإنزال أن يصل إلى المحلّ الّذى تغسله فى الاستنجاء ، وهو ما يظهر عند جلوسها وقت قضاء الحاجة . وهذا هو ظاهر الرّواية عند الحنفيّة ، وبهذا قال الشّافعيّة والحنابلة والمالكيّة عدا (سندٍ) ، فقد قال : إنّ بروز المنىّ من المرأة ليس شرطاً ، بل مجرّد الانفصال عن محلّه يوجب الغسل ، لأنّ عادة منىّ المرأة أن ينعكس إلى الرّحم .

أثر الاستمناء فى الصّوم :

٨ – الاستمناء باليد يبطل الصّوم عند المالكيّة ، والشّافعيّة ، والحنابلة ، وعامّة الحنفيّة على ذلك ، لأنّ الإيلاج من غير إنزالٍ مفطرٌ ، فالإنزال بشهوةٍ أولى . وقال أبو بكر بن الإسكاف ، وأبو القاسم من الحنفيّة : لا يبطل به الصّوم ، لعدم الجماع صورةً ومعنًى . ولا كفّارة فيه مع الإبطال عند الحنفيّة والشّافعيّة ، وهو مقابل المعتمد عند المالكيّة ، وأحد قولى الحنابلة ، لأنّه إفطارٌ من غير جماعٍ ، ولأنّه لا نصّ فى وجوب الكفّارة فيه ولا إجماع . ومعتمد المالكيّة على وجوب الكفّارة مع القضاء ، وهو روايةٌ عن أحمد ، وعموم رواية الرّافعىّ من الشّافعيّة ، والّتى حكاها عن أبى خلفٍ الطّبرىّ يفيد ذلك ، فمقتضاها وجوب الكفّارة بكلّ ما يأثم بالإفطار به ، والدّليل على وجوب الكفّارة : أنّه تسبّبٌ فى إنزالٍ فأشبه الإنزال بالجماع .

٩ – أمّا الاستمناء بالنّظر فإنّه يبطل الصّوم عند المالكيّة ، تكرّر النّظر أم لا ، وسواءٌ أكانت عادته الإنزال أم لا ، والحنابلة معهم فى الإبطال إن تكرّر النّظر . والاستمناء بالتّكرار مبطلٌ للصّوم فى قولٍ للشّافعيّة أيضاً ، وقيل . إن كانت عادته الإنزال أفطر ، وفى " القوت " أنّه إذا أحسّ بانتقال المنىّ فاستدام النّظر فإنّه يفسد . وقال الحنفيّة لا يفطر به الصّائم مطلقاً ، وهو المعتمد للشّافعيّة ، ولا كفّارة فيه إلاّ عند المالكيّة ، لكنّهم اختلفوا فى الحالات الّتى تجب فيها الكفّارة . إن تكرّر النّظر وكانت عادته الإنزال أو استوت حالتاه وجبت عليه الكفّارة قطعاً . وإن كانت عادته عدم الإنزال فقولان . أمّا مجرّد النّظر من غير استدامةٍ فظاهر كلام ابن القاسم فى المدوّنة أنّه لا كفّارة . وقال القابسىّ : كفّر إن أمنى من نظرةٍ واحدةٍ .

١٠ – وأمّا الاستمناء بالتّفكير فلا يختلف حكمه عن حكم الاستمناء بالنّظر ، من حيث الإبطال والكفّارة وعدمهما عند الحنفيّة ، والمالكيّة ، والشّافعيّة . أمّا الحنابلة ، عدا أبى حفصٍ البرمكىّ ، فقالوا بعدم الإفساد بالإنزال بالتّفكير ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « عفى لأمّتى ما حدّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلّم به » . وقال أبو حفصٍ البرمكىّ بالإبطال ، واختاره ابن عقيلٍ ، لأنّ الفكرة تستحضر وتدخل تحت الاختيار ، ومدح اللّه سبحانه الّذين يتفكّرون فى خلق السّموات والأرض ،« ونهى النّبىّ صلى الله عليه وسلم عن التّفكّر فى ذات اللّه ، وأمر بالتّفكّر فى الآلاء ». ولو كانت غير مقدورٍ عليها لم يتعلّق ذلك بها .

أثر الاستمناء فى الاعتكاف :

١١ – يبطل الاعتكاف بالاستمناء باليد عند الحنفيّة والمالكيّة والحنابلة والشّافعيّة ، إلاّ أنّ من الشّافعيّة من ذكره قولاً واحداً ، ومنهم من استظهر البطلان . ولتفصيل ذلك انظر (اعتكافٌ) . أمّا الاستمناء بالنّظر والتّفكير فلا يبطل به الاعتكاف عند الحنفيّة والشّافعيّة ، ويبطل به عند المالكيّة ، وكذلك الحنابلة ، إذ يفهم من كلامهم بطلان الاعتكاف ، لفقدان شرط الطّهارة ممّا يوجب الغسل .

أثر الاستمناء فى الحجّ والعمرة :

١٢ – لا يفسد الحجّ بالاستمناء باليد عند الحنفيّة والشّافعيّة والحنابلة ، لكن يجب فيه دمٌ ، لأنّه كالمباشرة فيما دون الفرج فى التّحريم والتّعزير ، فكان بمنزلتها فى الجزاء . ويفسد الحجّ به عند المالكيّة ، وأوجبوا فيه القضاء والهدى ولو كان ناسياً ، لأنّه أنزل بفعلٍ محظورٍ . ولبيان نوع الدّم ووقته انظر (إحرامٌ) .

والعمرة فى ذلك كالحجّ عند الحنفيّة ، والشّافعيّة والحنابلة ، وهو ما يفهم من عموم كلام الباجىّ من المالكيّة ، لكنّ ظاهر كلام بهرامٌ وغيره أنّ ما يوجب الفساد فى الحجّ فى بعض الأحوال من وطءٍ وإنزالٍ يوجب الهدى فى العمرة ، لأنّ أمرها أخفّ من حيث إنّها ليست فرضاً .

١٣ – أمّا الاستمناء بالنّظر والفكر فإنّه يفسد الحجّ عند المالكيّة ، باستدعاء المنىّ بنظرٍ أو فكرٍ مستدامين ، فإن خرج بمجرّد الفكر أو النّظر لم يفسد وعليه هدىٌ وجوباً ، وسواءٌ أكان عمداً أم جهلاً أم نسياناً . ولا يفسد به الحجّ عند الحنفيّة والشّافعيّة والحنابلة ، ولا فدية فيه عند الحنفيّة والشّافعيّة ، وعند الحنابلة تجب الفدية فى النّظر ، وأمّا التّفكير فانفرد بالفدية فيه منهم أبو حفصٍ البرمكىّ .

الاستمناء عن طريق الزّوجة :

١٤ – أغلب الفقهاء على جواز الاستمناء بالزّوجة ما لم يوجد مانعٌ ، لأنّها محلّ استمتاعه ، كما لو أنزل بتفخيذٍ أو تبطينٍ ، ولبيان المانع انظر (حيضٌ ، نفاسٌ ، صومٌ ، اعتكافٌ ، حجٌّ) . وقال بكراهته بعض الحنفيّة والشّافعيّة ، نقل صاحب الدّرّ عن الجوهرة : ولو مكّن امرأته من العبث بذكره فأنزل كره ولا شىء عليه ، غير أنّ ابن عابدين حملها على الكراهة التّنزيهيّة . وفى نهاية الزّين : وفى فتاوى القاضى : لو غمرت المرأة ذكر زوجها بيدها كره وإن كان بإذنه إذا أمنى ، لأنّه يشبه العزل ، والعزل مكروهٌ .

عقوبة الاستمناء :

١٥ – الاستمناء المحرّم يعزّر فاعله باتّفاقٍ ، لقوله تعالى : { والّذين هم لفروجهم حافظون إلاّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنّهم غير ملومين } .

استمهالٌ ❊

التعريف :

١ – الاستمهال فى اللّغة . طلب المهلة . والمهلة التّؤدة والتّأخير .

والفقهاء يستعملون " الاستمهال . بهذا المعنى الّذى استعمله به أهل اللّغة .

حكم الاستمهال :

٢ – الاستمهال قد يكون مشروعاً ، وقد يكون غير مشروعٍ :

أ – الاستمهال المشروع ، وهو على أنواعٍ :

النّوع الأوّل : الاستمهال لإثبات حقٍّ ، كاستمهال المدّعى القاضى لإحضار البيّنة ، أو مراجعة الحساب ، ونحو ذلک ، وقد فصّل الفقهاء ذلک فى كتاب الدّعوى .

النّوع الثّانى : الاستمهال الوارد مورد الشّرط فى العقود ، كاشتراط أحد المتبايعين ترک مهلةٍ له للتّروّى ، كما هو الحال فى خيار الشّرط ، واشتراط المشترى إمهال البائع له بدفع الثّمن إلى أجلٍ معلومٍ . وقد ذكر الفقهاء ذلک فى كتاب البيع .

النّوع الثّالث : الاستمهال الّذى هو من قبيل التّبرّع ، كاستمهال المدين الدّائن فى وفاء الدّين . واستمهال المستعير المعير فى ردّ ما استعاره منه ، وقد ذكر الفقهاء ذلک فى أبوابه من كتب الفقه .

ب – الاستمهال غير المشروع :

ومنه الاستمهال فى الحقوق الّتى اشترط فيها الشّارع الفوريّة ، أو المجلس ، كاستمهال أحد المتعاقدين الآخر فى تسليم البدل فى بيع الصّرف ، واستمهال المشترى البائع فى تسليمه رأس مال السّلم ، كما هو مذكورٌ فى بيع السّلم .

٣ – ومن الاستمهال ما يسقط الحقّ ، كاستمهال الشّفيع المشترى لطلب الشّفعة ، كما هو مذكورٌ فى باب الشّفعة من كتب الفقه ، وكاستمهال الزّوجة الصّغيرة – إذا بلغت – فى الإفصاح عن اختيارها زوجها أو فراقه ، كما هو مذكورٌ فى خيار البلوغ عند الحنفيّة .

مدّة المهلة الّتى تعطى فى الاستمهال :

٤ – مدّة المهلة إمّا محدّدةٌ من قبل الشّرع فتلتزم ، كإمهال العنّين سنةً ، كما روى ذلک عن عمر وعلىٍّ . وابن مسعودٍ . وإمّا متروكةٌ للقضاء ، كمهلة المدّعى لإحضار البيّنة ، وإمهال الزّوجة لتسليم نفسها لزوجها بعد قبضها المهر بقدر ما تنظّف نفسها وتتهيّأ له . وإمّا اتّفاقيّةٌ بين الطّرفين ، كإمهال الدّائن للمدين فى وفاء الدّين ، انظر مصطلح (أجلٌ) .

حكم إجابة المستمهل :

٥ – أ – يجب الإمهال فى حالات الاستمهال لإثبات حقٍّ ، والاستمهال الّذى هو من قبيل المطالبة بحقٍّ ، والاستمهال الوارد مورد الشّرط فى العقود .

ب – يندب الإمهال عندما يكون الإمهال من قبيل التّبرّع .

ج – يحرم الإمهال فى الحقوق الّتى اشترط فيها الشّارع الفوريّة أو المجلس ، لأنّ الإمهال فيها يؤدّى إلى إبطالها . كما ذكر ذلک الفقهاء فى الأبواب الّتى أشرنا إليها عند ذكر هذه الحالات .

د – يبطل الحقّ فى مثل الحالات الّتى أشرنا إليها فى (ف ٣) .

استنابةٌ ❊

انظر : إنابةٌ .

استنادٌ ❊

التعريف :

١ – الاستناد لغةً : مصدر استند . وأصله سند . يقال : سندت إلى الشّيء ، وأسندت إليه واستندت إليه : إذا ملت إليه واعتمدت عليه . والمسند : ما استندت إليه من المتاع ، واستند إلى فلانٍ : لجأ إليه فى طلب العون .

وللاستناد فى الاصطلاح معانٍ ثلاثةٌ :

الأوّل : الاستناد الحسّىّ ، وهو أن يميل الإنسان على الشّيء معتمداً عليه ، والاستناد بهذا المعنى طبق المعنى اللّغوىّ .

الثّانى : الاستناد إلى الشّيء بمعنى الاحتجاج به .

الثّالث : الاستناد بمعنى ثبوت الحكم بأثرٍ رجعىٍّ ، وهو بالمعنى الثّانى والثّالث يعتبر استناداً معنويّاً .

المبحث الأوّل :

الاستناد الحسّىّ :

٢ – الاستناد إلى الشّيء بهذا المعنى هو الميل على الشّيء مع الاعتماد عليه . وممّا له صلةٌ بالاستناد : الاتّكاء . وقد ذكر أبو البقاء أنّ الاستناد على الشّيء الاتّكاء عليه بالظّهر خاصّةً ، قال : الاتّكاء أعمّ من الاستناد ، وهو – يعنى الاتّكاء – الاعتماد على الشّيء بأىّ شيءٍ كان ، وبأىّ جانبٍ كان . والاستناد : اتّكاءٌ بالظّهر لا غير . ولم نطّلع على هذا التّقييد فى شيءٍ من كتب اللّغة .

أوّلاً : أحكام الاستناد فى الصّلاة :

أ – الاستناد فى الصّلاة المفروضة :

٣ – الاستناد إلى عمادٍ – كحائطٍ أو ساريةٍ – فى صلاة الفريضة للقادر على القيام مستقلاًّ دون اعتمادٍ . للفقهاء فيه اتّجاهاتٌ ثلاثةٌ :

الاتّجاه الأوّل : يرى الحنفيّة ، والمالكيّة ، والحنابلة منعه ، وهو قولٌ للشّافعيّة . قالوا : من اعتمد على عصاً أو حائطٍ ونحوه بحيث يسقط لو زال العماد ، لم تصحّ صلاته ، قالوا : لأنّ الفريضة من أركانها القيام ، ومن استند على الشّيء بحيث لو زال من تحته سقط ، لا يعتبر قائماً . أمّا إن كان لا يسقط لو زال ما

استند إليه ، فهو عندهم مكروهٌ ، صرّح به الحنفيّة ، والمالكيّة ، والحنابلة . قال الحلبىّ فى شرح المنية : يكره اتّفاقاً – أى بين أئمّة الحنفيّة – لما فيه من إساءة الأدب وإظهار التّجبّر . وعلّل ابن أبى تغلب – من الحنابلة – للكراهة بكون الاستناد يزيل مشقّة القيام .

والاتّجاه الثّانى : قول الشّافعيّة المقدّم لديهم أنّ صلاة المستند تصحّ مع الكراهة ، قالوا : لأنّه يسمّى قائماً ولو كان بحيث لو أزيل ما اعتمد عليه لسقط .

والاتّجاه الثّالث : أنّ استناد القائم فى صلاة الفرض جائزٌ . روى ذلک عن أبى سعيدٍ الخدرىّ وأبى ذرٍّ رضى الله عنهما وجماعةٍ من الصّحابة والسّلف . ثمّ إنّ الصّلاة المفروضة – الّتى هذا حكم الاستناد فيها – تشمل الفرض العينىّ والكفائىّ ، كصلاة الجنازة ، وصلاة العيد عند من أوجبها . وتشمل الواجب بالنّذر على من نذر القيام فيه على ما صرّح به الدّسوقىّ ، وألحق به الحنفيّة سنّة الفجر على قولٍ لتأكّدها .

ب – الاستناد فى الفرض فى حال الضّرورة :

٤ – يتّفق الفقهاء على أنّه إذا وجدت الضّرورة ، بحيث لا يستطيع المصلّى أن يصلّى قائماً إلاّ بالاستناد ، أنّ الاستناد جائزٌ له . ولكن هل يسقط عنه فرض القيام فيجوز له الصّلاة جالساً مع التّمكّن من القيام بالاستناد ؟ للفقهاء فى هذه المسألة اتّجاهان :

الأوّل : أنّ القيام واجبٌ حينئذٍ ولا تصحّ صلاته جالساً . وهو مذهب الحنفيّة على الصّحيح عندهم ، ومذهب الحنابلة ، وقولٌ مرجوحٌ عند المالكيّة ، ذهب إليه ابن شاسٍ وابن الحاجب . قال شارح المنية من الحنفيّة : لو قدر على القيام متوكّئاً على عصاً أو خادمٍ . قال الحلوانىّ : الصّحيح أنّه يلزمه القيام متّكئاً .

الثّانى : وهو المقدّم عند المالكيّة ، ومقابل الصّحيح عند الحنفيّة ، ومقتضى مذهب الشّافعيّة – كما تقدّم – أنّ فرض القيام ساقطٌ عنه حينئذٍ ، وتجوز صلاته جالساً . قال الحطّاب نقلاً عن ابن رشدٍ : لأنّه لمّا سقط عنه القيام ، وجاز له أن يصلّى جالساً ، صار قيامه نافلةً ، فجاز أن يعتمد فيه كما يعتمد فى النّافلة ، والقيام مع الاعتماد أفضل . واشترط المالكيّة لجواز الصّلاة مع الاعتماد أن يكون استناده لغير حائضٍ أو جنبٍ ، فإن صلّى مستنداً إلى واحدٍ منهما أعاد فى الوقت ، أى الوقت الضّرورىّ لا الاختيارىّ .

ج – الاستناد فى الصّلاة أثناء الجلوس :

٥ – الحكم فى الاستناد فى الجلوس كالحكم فى الاستناد فى القيام تماماً ، على ما صرّح به الحنفيّة : فإذا لم يقدر على القعود مستوياً ، وقدر متّكئاً ، يجب أن يصلّى متّكئاً أو مستنداً أمّا المالكيّة فقد قال الدّردير ما معناه : المعتمد أنّ القيام مستنداً أولى من الجلوس مستقلاً . أمّا الجلوس مستقلاً فواجبٌ لا يعدل عنه إلى الجلوس مستنداً إلاّ عند العجز . وكذا لا يصار إلى الجلوس مستنداً ممّن قدر على القيام

بالاستناد . ومثل ذلک الجلوس مستنداً ، فهو مقدّمٌ وجوباً على الصّلاة مضطجعاً ، ولم نجد للشّافعيّة والحنابلة ذكراً لهذه المسألة .

د – الاستناد فى النّفل :

٦ – قال النّوويّ : الاتّكاء فى صلاة النّفل جائزٌ على العصىّ ونحوها باتّفاق العلماء إلاّ ابن سيرين فقد نقلت عنه كراهته . وقال مجاهدٌ : ينقص من أجره بقدره . وقد فصّل الحنفيّة فقالوا : أنّه مكروهٌ فى التّطوّع كما هو مكروهٌ فى الفرض . لكن لو افتتح التّطوّع قائماً ثمّ أعيا – أى كلّ وتعب – فلا بأس عليه أن يتوكّأ على عصاً أو حائطٍ أو نحو ذلک . وإنّما فرّق الجمهور بين الاستناد فى الفرض فمنعوه ، وأجازوه فى النّفل ، لأنّ النّفل تجوز صلاته من جلوس دون قيامٍ ، فكذا يجوز الاستناد فيه مع القيام .

الاستناد فى غير الصّلاة :

أ – استناد النّائم المتوضّئ :

٧ – ذهب الحنفيّة فى ظاهر الرّواية ، والشّافعيّة ، وهو روايةٌ للحنابلة إلى أنّه إذا نام مستنداً إلى شىءٍ – بحيث لو زال لسقط – لا ينتقض وضوء المستند فى الأصحّ ، وعليه عامّة المشايخ ، وهذا إذا لم تكن مقعدته زائلةً عن الأرض وإلاّ نقض اتّفاقاً . وذهب المالكيّة ، وهو غير ظاهر الرّواية عند الحنفيّة إلى أنّه ينقض الوضوء ، لأنّه يعتبر من النّوم الثّقيل ، فإن كان لا يسقط فهو من النّوم الخفيف الّذى لا ينقض . والمذهب عند الحنابلة أنّ نوم المستند قليلاً كان أو كثيراً ينقض .

ب – الاستناد إلى القبور :

٨ – يكره الاستناد إلى القبور عند جمهور الفقهاء ، صرّح بذلک الحنفيّة والشّافعيّة والحنابلة ، وقد ألحقوا الاستناد بالجلوس الّذى وردت الأحاديث بالنّهى عنه . قال ابن قدامة : يكره الجلوس على القبر ، والاتّكاء عليه ، والاستناد إليه ، لحديث أبى هريرة مرفوعاً : « لأن يجلس أحدكم على جمرةٍ فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خيرٌ له من أن يجلس على قبرٍ » . وقال الخطّابىّ : روى « أنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً قد اتّكأ على قبرٍ فقال : لا تؤذ صاحب القبر » .

وقد قيّد الشّافعيّة الكرامة بعدم الحاجة إلى الاستناد ، وبكون الاستناد إلى قبر مسلمٍ . وقواعد غيرهم لا تأبى هذا التّقييد . وأمّا المالكيّة فيرون أنّه لا كراهة فى الجلوس على القبر ، ومن باب أولى الاستناد إليه . قال الدّسوقىّ : يجوز الجلوس على القبر مطلقاً . وأمّا ما ورد من حرمة الجلوس على القبر فهو محمولٌ على الجلوس لقضاء الحاجة .

المبحث الثّانى : الاستناد بمعنى الاحتجاج :

٩ – يأتى الاستناد بمعنى الاحتجاج بما يقوّى القضيّة المدّعاة ، ويكون إمّا فى مقام المناظرة والاستدلال والاجتهاد ، فيرجع لمعرفة أحكامه إلى أبواب الأدلّة ، وباب الاجتهاد من علم الأصول . وإمّا فى دعوى أمام القضاء ، فيرجع لمعرفة أحكامه إلى مصطلح (إثباتٌ) .

المبحث الثّالث : الاستناد بمعنى ثبوت الحكم بأثرٍ رجعيٍّ :

١٠ – الاستناد بهذا المعنى : هو أن يثبت الحكم فى الحال لتحقّق علّته ، ثمّ يعود الحكم القهقرىّ ليثبت فى الماضى تبعاً لثبوته فى الحاضر . ومن أمثلته : أنّ المغصوب إذا تلف تحت يد الغاصب بفعله أو بغير فعله يضمنه بمثله أو بقيمته ، فإذا ضمنه ملكه ملكاً مستنداً إلى وقت وجود سبب الضّمان ، حتّى أنّه يملك زوائده المتّصلة الّتى وجدت من حين الغصب إلى حين الضّمان ، لأنّها نماء ملكه .

ومن أمثلته أيضاً أنّ البيع الموقوف نفاذه على إجازة من له حقّ الإجازة – كبيع الصّبىّ المميّز يقف نفاذه على إجازة وليّه – إذا أجازه نفذ نفاذاً مستنداً إلى وقت وجود العقد ، حتّى يملك المشترى زوائده المتّصلة والمنفصلة . واستعمال لفظ الاستناد بهذا المعنى هو مصطلحٌ للحنفيّة خاصّةً . والمالكيّة والشّافعيّة والحنابلة يستعملون بدلاً منه اصطلاح " التّبيّن " ، والمالكيّة يعبّرون أيضاً عن ذلك المعنى " بالانعطاف " . ومعنى الاستناد فى الإجازة مثلاً أنّ العقد الموقوف إذا أجيز يكون للإجازة استنادٌ وانعطافٌ ، أى تأثيرٌ رجعىٌّ ، فبعد الإجازة يستفيد العاقد من ثمرات العقد منذ انعقاده ، لأنّ الإجازة لم تنشئ العقد إنشاءً بل أنفذته إنفاذاً ، أى فتحت الطّريق لآثاره الممنوعة المتوقّفة لكى تمرّ وتسرى ، فتلحق تلك الآثار بالعقد المولّد لها اعتباراً من تاريخ انعقاده ، لا من تاريخ الإجازة فقط . فبعد الإجازة يعتبر الفضولىّ كوكيلٍ عن صاحب العقد قبل العقد ، وبما أنّ تصرّفات الوكيل نافذةٌ على الموكّل منذ صدورها ، يكون عقد الفضولىّ نافذاً على المجيز نفاذاً مستنداً إلى تاريخ العقد .

هذا ، ومن أجل أنّ هذا الاصطلاح خاصٌّ بالحنفيّة فسيكون كلامنا فى هذا المبحث معبّراً عن مذهب الحنفيّة خاصّةً ، إلاّ فى المواضع الّتى ينصّ فيها على غيرهم .

١١ – وقد ذكر ابن نجيمٍ أنّ الأحكام تثبت بطرقٍ أربعٍ ، فذكر مع الاستناد الّذى سبق بيانه :

أ – الاقتصار : وهو الأصل . كما إذا أنشأ طلاقاً منجّزاً غير معلّقٍ ، فإنّ الطّلاق يقع عند هذا القول فى الحال ، فيقتصر عليه ولا يكون له أثرٌ رجعىٌّ .

ب – والانقلاب : هو أن يثبت الحكم فى وقتٍ لاحقٍ متأخّرٍ عن القول ، كما لو قال لزوجته : أنت طالقٌ إن دخلت الدّار ، لا يثبت به الطّلاق فى الحال ، لكن إن دخلتها طلقت بدخولها . ووجه تسميته انقلاباً : أنّ ما ليس بعلّةٍ – وهو الصّيغة المعلّقة – انقلب علّةً بوجود الدّخول ، إذ أنّ قوله : أنت طالقٌ ليس بعلّةٍ

للطّلاق قبل دخولها البيت ، ومتى دخلت انقلب فأصبح علّةً ، لأنّ ذلک القائل جعل للعلّيّة شرطاً وقد تحقّق .

ج – والتّبيّن أو الظّهور : وهو أن يظهر فى الحال أنّ الحكم كان ثابتاً من قبل ، كما لو قال يوم الجمعة : إن كان زيدٌ فى الدّار فأنت طالقٌ ، ثمّ يتبيّن يوم السّبت أنّ زيداً كان فى الدّار يوم الجمعة ، فإنّ الطّلاق يقع يوم الجمعة عند قوله ذاک ، وإن لم يتبيّن أنّه وقع يوم الجمعة إلاّ فى يوم السّبت . والعدّة تبتدئ يوم الجمعة .

التّفريق بين الاستناد والتّبيّن :

١٢ – فى حالة الاستناد لم يكن الحكم ثابتاً فى نفس الأمر فى الماضى ، ثمّ لمّا ثبت فى الحاضر رجع ثبوته القهقرىّ فانسحب على المدّة السّابقة ، أمّا فى التّبيّن فقد كان الحكم ثابتاً فى نفس الأمر ولكن تأخّر العلم به ، ومن هنا ظهر بين الأمرين الفروق التّالية :

الأوّل : أنّ حالة التّبيّن يمكن أن يطّلع العباد فيها على الحكم . وفى الاستناد لا يمكن . ففى المثال السّابق للتّبيّن وهو قوله : إن كان زيدٌ فى الدّار فأنت طالقٌ ثمّ علم كونه فى الدّار بعد مدّةٍ ، فإنّ العلم بكونه فى الدّار ممّا يدخل فى طوق العباد ، بخلاف العلم بإجازة الولىّ لبيع الصّبىّ ، فإنّه لا يمكن العلم بإجازته قبل أن يجيز .

الثّانى : أنّ حالة التّبيّن لا يشترط فيها قيام المحلّ عند حصول تبيّن الحكم ، ولا استمرار وجوده إلى حين التّبيّن . فلو قال لزوجته : أنت طالقٌ إن كان زيدٌ فى الدّار ، فحاضت ثلاث حيضٍ ثمّ طلّقها ثلاثاً ، ثمّ ظهر أنّ زيداً كان فى الدّار فى ذلک الوقت ، لا تقع الثّلاث ، لأنّه تبيّن وقوع الأوّل ، وأنّ إيقاع الثّلاث كان بعد انقضاء العدّة . أمّا فى حالة الاستناد فلا بدّ من قيام المحلّ حال ثبوت الحكم ، وعدم انقطاع وجوده من وقت ثبوت الحكم ، عوداً إلى الوقت الّذى استند إليه ، كما فى الزّكاة تجب بتمام الحول ، ويستند وجوبها إلى وقت وجود النّصاب ، فلو كان عند تمّام الحول مفقوداً ، أو انقطع أثناءه لم يثبت الوجوب فى آخر الحول .

الاستناد من وجهٍ دون وجهٍ :

١٣ – إذا استند الملک فإنّه فى الفترة ما بين التّصرّف إلى حصول الإجازة وما يقوم معها – كضمان المضمونات – ملکٌ ناقصٌ ، وليس كغيره من الملک التّامّ .

ويتفرّع على هذه المسألة فرعان :

الفرع الأوّل : لو غصب عيناً فزادت عنده زيادةً متّصلةً كالسّمن ، أو منفصلةً كالولد ، فإذا ضمن الغاصب المغصوب فيما بعد ، ملكه ملكاً مستنداً إلى وقت الغصب . أمّا الزّيادة المتّصلة كسمن الدّابّة فلا يضمنها ،

لأنّها تكون قد حدثت على ملكه . وأمّا الزّيادة المنفصلة الّتى حصلت بعد الغصب وقبل الضّمان ، لو باعها أو استهلكها ، فإنّه يضمنها ، لأنّها فى الأصل غير مضمونة عليه ، إذ قد حدثت عنده أمانةً فى يده فلا يضمنها إلاّ بالتّعدّى أو التّفريط ، وببيعها أو استهلاكها يكون متعدّياً ، فكان غاصباً لها فيضمنها على تفصيلٍ موطنه الغصب . فظهر الاستناد من جهة الزّوائد المتّصلة ، واقتصر الملك على الحال من جهة الزّوائد المنفصلة . قال الكاسانىّ : أثبتنا الملك بطريق الاستناد ، فالمستند يظهر من وجهٍ ويقتصر على الحال من وجهٍ ، فيعمل بشبه الظّهور فى الزّوائد المتّصلة ، وبشبه الاقتصار فى المنفصلة ، ليكون عملاً بالشّبهين بقدر الإمكان .

الفرع الثّانى : لو استغلّ الغاصب المغصوب ، كما لو آجر الدّابّة ، فإنّه يتصدّق بالغلّة على قول أبى حنيفة ومحمّدٍ ، ولا يلزمه أن يتصدّق بالغلّة على قول أبى يوسف ، لأنّه حصل فى ملكه حين أدّى ضمانه مستنداً إلى حين الغصب . وقال البابرتىّ : وإنّما قال أبو حنيفة بالتّصدّق بالغلّة لأنّها حصلت بسببٍ خبيثٍ وهو التّصرّف فى ملك الغير ، وهو وإن دخل فى ملكه من حين الغصب ، إلاّ أنّ الملك المستند ناقصٌ لكونه ثابتاً فيه من وجهٍ دون وجهٍ ، ولهذا يظهر فى حقّ المغصوب القائم دون الفائت ، فلا ينعدم فيه الخبث .

ما نشأ عن اعتبار الإجازة مستندةً فى البيع الموقوف :

١٤ – نشأ عن نظريّة استناد إجازة التّصرّفات الموقوفة إلى وقت الانعقاد إن اشترطوا لصحّة الإجازة قيام المجيز والمحلّ عند العقد ، بالإضافة إلى قيام العاقدين . ولذا يقول الحصكفىّ : كلّ تصرّفٍ صدر من الفضولىّ وله مجيزٌ – أى من يقدر على إمضائه حال وقوعه – انعقد موقوفاً ، وما لا مجيز له لا ينعقد أصلاً . فلو أنّ صبيّاً باع عيناً ثمّ بلغ قبل إجازة وليّه فأجازه بنفسه جاز ، لأنّ له وليّاً يجيزه حالة العقد ، بخلاف ما لو طلّق مثلاً ثمّ بلغ فأجازه بنفسه ، لأنّه وقت قيام التّصرّف لا مجيز له – أى لأنّ وليّه لا يملك إجازة الطّلاق – فيبطل ، إلاّ أن يوقع الطّلاق حينئذٍ ، كأن يقول بعد البلوغ : أوقعت ذلك الطّلاق .

ما يدخله الاستناد :

١٥ – يدخل الاستناد فى تصرّفات شرعيّةٍ كثيرةٍ : منها فى العبادة كما ذكر ابن نجيمٍ فى الأشباه : أنّ الزّكاة تجب بتمام الحول مستنداً إلى أوّل وجود النّصاب .

وكطهارة المستحاضة تنتقض عند خروج الوقت مستنداً إلى وقت الحدث ، لا إلى خروج الوقت ، وكطهارة المتيمّم ، تنتقض عند رؤية الماء مستنداً إلى وقت الحدث لا إلى رؤية الماء ، فلو لبست المستحاضة الخفّ مع السّيلان أو بعده لم تمسح عليه ، ولو لبس المتيمّم الخفّ بعد تيمّمه لا يجوز له المسح عليه . ووضّح ذلك الكرلانىّ من الحنفيّة بالنّسبة للمستحاضة بأنّ الثّابت بالاستناد ثابتٌ من وجهٍ

دون وجهٍ ، لأنّه بين الظّهور والاقتصار ، لأنّ انتقاض الوضوء حكم الحدث ، والحدث وجد فى تلك الحالة ، فهذا يقتضى صيرورتها محدثةً معلّقةً بخروج الوقت ، وخروج الوقت وجد الآن ، فهذا يقتضى صيرورتها محدثةً فى الحال ، فجعلناه ظهوراً من وجهٍ اقتصاراً من وجهٍ ، ولو كان ظهوراً من كلّ وجهٍ لا يجوز المسح ، ولو كان اقتصاراً من كلّ وجهٍ لجاز المسح ، فقلنا لا يجوز المسح أخذاً بالاحتياط .

١٦ – ويكون الاستناد أيضاً فى البيوع الموقوف نفاذها على الإجازة كما تقدّم . ومن البيوع الموقوفة بيع المكره والمرتدّ ، وما صدر من مالكٍ غير أهلٍ لتولّى طرفى العقد ، كالصّبىّ المميّز والسّفيه المحجور عليه ، وبيع المحجور عليه لحقّ الدّائنين ، وما صدر ممّن ليس له ولايةٌ شرعيّةٌ كالفضولىّ . وكذا لو باع المالك ما تعلّق به حقّ الغير كالمرهون .

ويدخل الاستناد أيضاً سائر العقود والإسقاطات والتّصرّفات الّتى تتوقّف على الإجازة ، فمثلاً كلّ تصرّفٍ صدر من الفضولىّ تمليكاً كتزويجٍ ، أو إسقاطاً كطلاقٍ وإعتاقٍ ، ينعقد موقوفاً على الإجازة ويستند . والقاعدة فى ذلك أنّ " الإجازة اللاّحقة كالوكالة السّابقة " (ر : إجازةٌ) . وكذا العقود الّتى فيها الخيار للطّرفين ، أو لأحدهما إذا أجازها من له الخيار فلزمت ، فإنّها تلزم لزوماً مستنداً إلى وقت الانعقاد ، لأنّها موقوفةٌ على قولٍ ، والمضمونات تملك بأداء الضّمان ملكاً مستنداً إلى وقت سبب الضّمان .

ويكون الاستناد أيضاً فى الوصيّة إذا قبل الموصى له المعيّن ما أوصى له به ، عند من يثبت الملك فيه من حين موت الموصى ، وهو القول الأصحّ للشّافعيّة ، وهو وجهٌ مرجوحٌ عند الحنابلة ، وعليه فيطالب الموصى له بثمرة الموصى به ، وتلزمه نفقته وفطرته وغيرهما من حين موت الموصى .

وممّا يدخله الاستناد : الوصيّة لأجنبىٍّ بأكثر من الثّلث ، أو لوارثٍ ، وتبرّعات المريض فى مرض الموت ، إذ يتوقّف ذلك على إجازة الورثة ، ويستند إلى وقت وفاة الموصى عند بعض الفقهاء .

الاستناد فى الفسخ والانفساخ :

١٧ – مذهب الحنفيّة ، وهو الأصحّ عند الشّافعيّة أنّ الفسخ لا يرفع العقد من أصله ، وإنّما فى فسخٍ فيما يستقبل من الزّمان دون الماضى على ما نقل شيخ الإسلام خواهر زاده . وعند الشّافعيّة فى القول المرجوح ، وهو أحد وجهين للحنابلة يستند الفسخ إلى وقت العقد .

استنباطٌ ❊

التعريف :

١ – الاستنباط لغةً : استفعالٌ من أنبط الماء إنباطاً بمعنى استخرجه . وكلّ ما أظهر بعد خفاءٍ فقد أنبط واستنبط . واستنبط الفقيه الحكم : استخرجه باجتهاده . قال اللّه تعالى : { ولو ردّوه إلى الرّسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الّذين يستنبطونه منهم } واستنبطه واستنبط منه علماً وخيراً ومالاً : استخرجه . وهو مجازٌ .

ويستخلص من استعمال الفقهاء والأصوليّين تعريف الاستنباط بأنّه : استخراج الحكم أو العلّة إذا لم يكونا منصوصين ولا مجمعاً عليهما بنوعٍ من الاجتهاد . فيستخرج الحكم بالقياس ، أو الاستدلال ، أو الاستحسان ، أو نحوها ، وتستخرج العلّة بالتّقسيم والسّبر ، أو المناسبة ، أو غيرها ممّا يعرف بمسالك العلّة .

الألفاظ ذات الصّلة :

أ – الاجتهاد :

٢ – هو بذل الطّاقة من الفقيه فى تحصيل حكمٍ شرعىٍّ ظنّىٍّ ، فالفرق بينه وبين الاستنباط أنّه أعمّ من الاستنباط ، لأنّ الاجتهاد كما يكون فى استخراج الحكم أو العلّة ، يكون فى دلالات النّصوص والتّرجيح عند التّعارض .

ب – التّخريج :

٣ – يستعمل هذا التّعبير كلٌّ من الفقهاء والأصوليّين ، وهو نوعٌ من الاستنباط ، ومعناه عندهم : استخراج الحكم بالتّفريع على نصّ الإمام فى صورةٍ مشابهةٍ ، أو على أصول إمام المذهب كالقواعد الكلّيّة الّتى يأخذ بها ، أو الشّرع ، أو العقل ، من غير أن يكون الحكم منصوصاً عليه من الإمام . ومن أمثلته : التّفريع على قاعدة عدم التّكليف بما لا يطاق . هذا حاصل ما ذكره ابن بدران من الحنابلة . وقال السّقّاف من الشّافعيّة ما حاصله : إنّ التّخريج أن ينقل فقهاء المذهب الحكم من نصّ إمامهم فى صورةٍ إلى صورةٍ مشابهةٍ .

وقد يكون للإمام نصٌّ فى الصّورة المنقول إليها مخالفٌ للحكم المنقول ، فيكون له فى هذه الصّورة قولان ، قولٌ منصوصٌ وقولٌ مخرّجٌ . وتخريج المناط عند الأصوليّين معناه : إظهار ما علّق عليه الحكم ، أى إظهار العلّة .

ج – البحث :

٤ – قال ابن حجرٍ الهيتمىّ : البحث ما يفهم فهماً واضحاً من الكلام العامّ للأصحاب ، المنقول عن صاحب المذهب بنقلٍ عامٍّ . وقال السّقّاف : البحث هو الّذى استنبطه الباحث من نصوص الإمام وقواعده الكلّيّة .

مواطن البحث :

يرجع لمعرفة مسائل الاستنباط إلى (الاجتهاد) (والقياس – مسالک العلّة) والملحق الأصولىّ .

استنتار ❊

انظر : استبراءٌ .

استنثارٌ ❊

التعريف :

١ – الاستنثار : هو نثر ما فى الأنف من مخاطٍ وغيره بالنّفس ، واستنثر الإنسان : استنشق الماء ، ثمّ استخرج ذلک بنفس الأنف . ولا يخرج استعمال الفقهاء عن المعنى اللّغوىّ .

الحكم الإجمالىّ :

٢ – الاستنثار سنّةٌ فى الطّهارة ، لما ورد فى صفة وضوء رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أنّه « تمضمض واستنشق واستنثر » . وللفقهاء تفصيلٌ فى كيفيّته .

مواطن البحث :

٣ – تنظر أحكام الاستنثار وكيفيّته تحت مصطلح (وضوءٌ) (وغسلٌ) .

استنجاءٌ ❊

التعريف :

١ – من معانى الاستنجاء : الخلاص من الشّىء ، يقال : استنجى حاجته منه ، أى خلّصها . والنّجوة ما ارتفع من الأرض فلم يعلها السّيل ، فظننتها نجاءک .

وأنجيت الشّجرة واستنجيتها : قطعتها من أصلها . ومأخذ الاستنجاء فى الطّهارة ،

قال شمرٌ : أراه من الاستنجاء بمعنى القطع ، لقطعه العذرة بالماء ، وقال ابن قتيبة : مأخوذٌ من النّجوة وهى ما ارتفع من الأرض ، لأنّه إذا أراد قضاء الحاجة استتر بها .

وقد اختلفت عبارات الفقهاء فى تعريف الاستنجاء اصطلاحاً ، وكلّها تلتقى على أنّ الاستنجاء إزالة ما يخرج من السّبيلين ، سواءٌ بالغسل أو المسح بالحجارة ونحوها عن موضع الخروج وما قرب منه . وليس غسل النّجاسة عن البدن أو عن الثّوب استنجاءً .

الألفاظ ذات الصّلة :

أ – الاستطابة :

٢ – الاستطابة هى بمعنى الاستنجاء ، تشمل استعمال الماء والحجارة . وفى قولٍ عند الشّافعيّة أنّها خاصّةٌ باستعمال الماء ، فتكون حينئذٍ أخصّ من الاستنجاء . وأصلها من الطّيب ، لأنّها تطيّب المحلّ بإزالة ما فيه من الأذى ، ولذا يقال فيها أيضاً الإطابة .

ب – الاستجمار :

٣ – الجمار : الحجارة ، جمع جمرةٍ وهى الحصاة . ومعنى الاستجمار : استعمال الحجارة ونحوها فى إزالة ما على السّبيلين من النّجاسة .

ج – الاستبراء :

٤ – الاستبراء لغةً طلب : البراءة ، وفى الاصطلاح : طلب البراءة من الخارج بما تعارفه الإنسان من مشيٍ أو تنحنحٍ أو غيرهما إلى أن تنقطع المادّة ، فهو خارجٌ عن ماهيّة الاستنجاء ، لأنّه مقدّمةٌ له .

د – الاستنقاء :

٥ – الاستنقاء : طلب النّقاوة ، وهو أن يدلك المقعدة بالأحجار ، أو بالأصابع حالة الاستنجاء بالماء حتّى ينقّيها ، فهو أخصّ من الاستنجاء ، ومثله الإنقاء . قال ابن قدامة : هو أن تذهب لزوجة النّجاسة وآثارها .

حكم الاستنجاء :

٦ – فى حكم الاستنجاء – من حيث الجملة – رأيان للفقهاء :

الأوّل : أنّه واجبٌ إذا وجد سببه ، وهو الخارج ، وهو قول المالكيّة والشّافعيّة والحنابلة . واستدلّوا بقول النّبىّ صلى الله عليه وسلم : « إذا ذهب أحدكم إلى الغائط فليذهب معه بثلاثة أحجارٍ ، يستطيب بهنّ ، فإنّها تجزى عنه » وقوله : « لا يستنجى أحدكم بدون ثلاثة أحجارٍ » رواه مسلمٌ وفى لفظٍ له : « لقد نهانا أن نستنجى بدون ثلاثة أحجارٍ » ، قالوا : والحديث الأوّل أمرٌ ، والأمر يقتضى الوجوب . وقال : « فإنّها تجزى عنه » والإجزاء إنّما يستعمل فى الواجب ، ونهى عن الاقتصار على أقلّ من ثلاثةٍ ، والنّهى يقتضى التّحريم ، وإذا حرّم ترك بعض النّجاسة فجميعها أولى .

٧ – الرّأى الثّانى : أنّه مسنونٌ وليس بواجبٍ . وهو قول الحنفيّة ، وروايةٌ عن مالكٍ . ففى منية المصلّى : الاستنجاء مطلقاً سنّةٌ لا على سبيل التّعيين من كونه بالحجر أو بالماء ، وهو قول المزنىّ من أصحاب الشّافعىّ . ونقل صاحب المغنى من قول ابن سيرين فيمن صلّى بقومٍ ولم يستنج ، قال : لا أعلم به بأساً . قال الموفّق : يحتمل أنّه لم ير وجوب الاستنجاء . واحتجّ الحنفيّة بما فى سنن أبى داود من قول النّبىّ صلى الله عليه وسلم « من استجمر فليوتر ، من فعل فقد أحسن ، ومن لا فلا حرج » قال فى مجمع

الأنهر : لأنّه لو كان واجباً لما انتفى الحرج عن تاركه . واحتجّوا أيضاً بأنّه نجاسةٌ قليلةٌ ، والنّجاسة القليلة عفوٌ .

وفى السّراج الوهّاج للحنفيّة : الاستنجاء خمسة أنواعٍ . أربعةٌ فريضةٌ : من الحيض والنّفاس والجنابة ، وإذا تجاوزت النّجاسة مخرجها .

وواحدٌ سنّةٌ ، وهو ما إذا كانت النّجاسة قدر المخرج . وقد رفض ابن نجيمٍ هذا التّقسيم ، وقرّر أنّ الثّلاثة هى من باب إزالة الحدث ، والرّابع من باب إزالة النّجاسة العينيّة عن البدن ، وليس ذلک من باب الاستنجاء ، فلم يبق إلاّ القسم المسنون . وأقرّ ابن عابدين التّقرير . وقال القرافىّ بعد أن ذكر أنّ من ترک الاستنجاء وصلّى بالنّجاسة أعاد ، قال : ولمالكٍ رحمه الله فى العتبية : لا إعادة عليه ، ثمّ ذكر الحديث المتقدّم : « من استجمر فليوتر ، من فعل فقد أحسن ، ومن لا فلا حرج » وقال : الوتر يتناول المرّة الواحدة ، فإذا نفاها لم يبق شىءٌ ، ولأنّه محلٌّ تعمّ به البلوى فيعفى عنه ، وهذا يقتضى أنّ عند مالكٍ قولاً بعدم الوجوب . ثمّ هو عند الحنفيّة سنّةٌ مؤكّدةٌ لمواظبته صلى الله عليه وسلم . وبنى ابن عابدين على ذلک كراهة تركه ، ونقله أيضاً عن البدائع . ونقل عن الخلاصة والحلية نفى الكراهة ، بناءً على أنّه مستحبٌّ لا سنّةٌ ، بخلاف النّجاسة المعفوّ عنها فى غير موضع الحدث فتركها يكره .

وقت وجوب الاستنجاء عند القائلين بوجوبه :

٨ – إنّ وجوب الاستنجاء إنّما هو لصحّة الصّلاة . ولذا قال الشبراملسى من الشّافعيّة : لا يجب الاستنجاء على الفور ، بل عند القيام إلى الصّلاة حقيقةً أو حكماً ، بأن دخل وقت الصّلاة وإن لم يرد فعلها فى أوّله . فإذا دخل وقت الصّلاة وجب وجوباً موسّعاً بسعة الوقت ، ومضيّقاً بضيقه . ثمّ قال : نعم ، إن قضى حاجته فى الوقت ، وعلم أنّه لا يجد الماء فى الوقت ، وجب استعمال الحجر فوراً .

علاقة الاستنجاء بالوضوء ، والتّرتيب بينهما :

٩ – الاستنجاء من سنن الوضوء قبله عند الحنفيّة والشّافعيّة ، والرّواية المعتمدة للحنابلة ، فلو أخّره عنه جاز وفاتته السّنّيّة ، لأنّه إزالة نجاسةٍ ، فلم تشترط لصحّة الطّهارة ، كما لو كانت على غير الفرج . وصرّح المالكيّة بأنّه لا يعدّ من سنن الوضوء ، وإن استحبّوا تقديمه عليه . أمّا الرّواية الأخرى عند الحنابلة : فالاستنجاء قبل الوضوء – إذا وجد سببه – شرطٌ فى صحّة الصّلاة . فلو توضّأ قبل الاستنجاء لم يصحّ ، وعلى هذه الرّواية اقتصر صاحب كشّاف القناع . قال الشّافعيّة : وهذا فى حقّ السّليم ، أمّا فى حقّ صاحب الضّرورة – يعنون صاحب السّلس ونحوه – فيجب تقديم الاستنجاء على الوضوء .

وعلى هذا ، فإذا توضّأ السّليم قبل الاستنجاء ، يستجمر بعد ذلک بالأحجار ، أو يغسله بحائلٍ بينه وبين يديه ، ولا يمسّ الفرج . وقواعد المذاهب الأخرى لا تأبى ذلک التّفصيل .

علاقة الاستنجاء بالتّيمّم ، والتّرتيب بينهما :

١٠ – للفقهاء فى ذلك اتّجاهان :

الاتّجاه الأوّل : أنّه يجب تقديم الاستجمار على التّيمّم ، وهذا رأى الشّافعيّة ، وهو أحد احتمالين عند المالكيّة ، وقولٌ عند الحنابلة . وعلّل القرافىّ ذلك بأنّ التّيمّم لا بدّ أن يتّصل بالصّلاة ، فإذا تيمّم ثمّ استنجى فقد فرّقه بإزالة النّجو . وعلّل القاضى أبو يعلى ذلك بأنّ التّيمّم لا يرفع الحدث ، وإنّما تستباح به الصّلاة ، ومن عليه نجاسةٌ يمكنه إزالتها لا تباح له الصّلاة ، فلم تصحّ نيّة الاستباحة ، كما لو تيمّم قبل الوقت .

والاتّجاه الثّانى : أنّ التّرتيب هنا لا يجب ، وهو الاحتمال الثّانى عند المالكيّة ، والقول الآخر للحنابلة . قال القرافىّ : كما لو تيمّم ثمّ وطئ نعله على روثٍ ، فإنّه يمسحه ويصلّى . وقال القاضى أبو يعلى : لأنّه طهارةٌ فأشبهت الوضوء ، والمنع من الإباحة لمانعٍ آخر لا يقدح فى صحّة التّيمّم ، كما لو تيمّم فى موضعٍ نهى عن الصّلاة فيه ، أو تيمّم وعلى ثوبه نجاسةٌ . وقيل عند الحنابلة : لا يصحّ تأخيره عن التّيمّم قولاً واحداً .

حكم استنجاء من به حدثٌ دائمٌ :

١١ – من كان به حدثٌ دائمٌ ، كمن به سلس بولٍ ونحوه ، يخفّف فى شأنه حكم الاستنجاء ، كما يخفّف حكم الوضوء .

ففى قول الحنفيّة والشّافعيّة والحنابلة : يستنجى ويتحفّظ ، ثمّ يتوضّأ لكلّ صلاةٍ بعد دخول الوقت . فإذا فعل ذلك وخرج منه شىءٌ لم يلزمه إعادة الاستنجاء والوضوء بسبب السّلس ونحوه ، ما لم يخرج الوقت على مذهب الحنفيّة والشّافعيّة ، وهو أحد قولى الحنابلة . أو إلى أن يدخل وقت الصّلاة الأخرى على المعتمد من قولى الحنابلة . وأمّا على قول المالكيّة : فلا يلزم من به السّلس التّوضّؤ منه لكلّ صلاةٍ ، بل يستحبّ ذلك ما لم يشقّ ، فعندهم أنّ ما يخرج من الحدث إذا كان مستنكحاً – أى كثيراً يلازم كلّ الزّمن أو جلّه ، بأن يأتى كلّ يومٍ مرّةً فأكثر – فإنّه يعفى عنه ، ولا يلزمه غسل ما أصاب منه ولا يسنّ ، وإن نقض الوضوء وأبطل الصّلاة فى بعض الأحوال ، وسواءٌ أكان غائطاً ، أم بولاً ، أم مذياً ، أم غير ذلك .

ما يستنجى منه :

١٢ – أجمع الفقهاء على أنّ الخارج من السّبيلين المعتاد النّجس الملوّث يستنجى منه حسبما تقدّم . أمّا ما عداه ففيه خلافٌ ، وتفصيلٌ بيانه فيما يلى :

الخارج غير المعتاد :

١٣ – الخارج غير المعتاد كالحصى والدّود والشّعر ، لا يستنجى منه إذا خرج جافّاً ، طاهراً كان أو نجساً .

أمّا إذا كان به بلّةٌ ولوّث المحلّ فيستنجى منها ، فإن لم يلوّث المحلّ فلا يستنجى منه عند الحنفيّة والمالكيّة ، وهو القول المقدّم عند كلٍّ من الشّافعيّة والحنابلة . والقول الآخر عند كلٍّ من الشّافعيّة والحنابلة : يستنجى من كلّ ما خرج من السّبيلين غير الرّيح .

ذالدّم والقيح وشبههما من غير المعتاد :

١٤ – إن خرج الدّم أو القيح من أحد السّبيلين ففيه قولان للفقهاء :

الأوّل : أنّه لا بدّ من غسله كسائر النّجاسات ، ولا يكفى فيه الاستجمار . وهذا قولٌ عند كلٍّ من المالكيّة والشّافعيّة ، لأنّ الأصل فى النّجاسة الغسل ، وترك ذلک فى البول والغائط للضّرورة ، ولا ضرورة هنا ، لندرة هذا النّوع من الخارج . واحتجّ أصحاب هذا القول أيضاً بأنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم « أمر بغسل الذّكر من المذى » والأمر يقتضى الوجوب . قال ابن عبد البرّ : استدلّوا بأنّ الآثار كلّها على اختلاف ألفاظها وأسانيدها ليس فيها ذكر الاستجمار ، إنّما هو الغسل . كالأمر بالغسل من المذى فى حديث علىٍّ .

والقول الثّانى : أنّه يجزئ فيه الاستجمار ، وهو رأى الحنفيّة والحنابلة ، وقولٌ لكلٍّ من المالكيّة والشّافعيّة ، وهذا إن لم يختلط ببولٍ أو غائطٍ .

وحجّة هذا القول ، أنّه وإن لم يشقّ فيه الغسل لعدم تكرّره ، فهو مظنّة المشقّة . وأمّا المذى فمعتادٌ كثيرٌ ، ويجب غسل الذّكر منه تعبّداً ، وقيل : لا يجب .

ما خرج من مخرجٍ بديلٍ عن السّبيلين :

١٥ – إذا انفتح مخرجٌ للحدث ، وصار معتاداً ، استجمر منه عند المالكيّة ، ولا يلحق بالجسد ، لأنّه أصبح معتاداً بالنّسبة إلى ذلک الشّخص المعيّن . وعند الحنابلة : إذا انسدّ المخرج المعتاد وانفتح آخر ، لم يجزئه الاستجمار فيه ، ولا بدّ من غسله ، لأنّه غير السّبيل المعتاد . وفى قولٍ لهم : يجزئ . ولم يعثر على قول الحنفيّة والشّافعيّة فى هذه المسألة .

المذى :

١٦ – المذى نجسٌ عند الحنفيّة ، فهو ممّا يستنجى منه كغيره ، بالماء أو بالأحجار . ويجزئ الاستجمار أو الاستنجاء بالماء منه . وكذلک عند المالكيّة فى قولٍ هو خلاف المشهور عندهم ، وهو الأظهر عند

الشّافعيّة ، وروايةٌ عند الحنابلة . أمّا فى المشهور عند المالكيّة ، وهى الرّواية الأخرى عند الحنابلة ، فيتعيّن فيه الماء ولا يجزئ الحجر ، لما روى أنّ عليّاً رضى الله عنه قال : « كنت رجلاً مذّاءً ، فاستحيت أن أسأل رسول اللّه صلى الله عليه وسلم لمكان ابنته ، فأمرت المقداد بن الأسود فسأله ، فقال : يغسل ذكره وأنثييه ويتوضّأ » . وفى لفظٍ « يغسل ذكره ويتوضّأ » . وإنّما يتعيّن فيه الغسل عند المالكيّة إذا خرج بلذّةٍ معتادةٍ ، أمّا إن خرج بلا لذّةٍ أصلاً فإنّه يكفى فيه الحجر ، ما لم يكن يأتى كلّ يومٍ على وجه السّلس ، فلا يطلب فى إزالته ماءٌ ولا حجرٌ ، بل يعفى عنه .

الودى :

١٧ – الودى خارجٌ نجسٌ ، ويجزى فيه الاستنجاء بالماء أو بالأحجار عند فقهاء المذاهب الأربعة .

الرّيح :

١٨ – لا استنجاء من الرّيح . صرّح بذلك فقهاء المذاهب الأربعة . فقال الحنفيّة : هو بدعةٌ ، وهذا يقتضى أنّه عندهم محرّمٌ ، ومثله ما قاله القليوبىّ من الشّافعيّة ، بل يحرم ، لأنّه عبادةٌ فاسدةٌ . ويكره عند المالكيّة والشّافعيّة . قال الدّسوقىّ : لقول النّبىّ صلى الله عليه وسلم : « ليس منّا من استنجى من ريحٍ » والنّهى للكراهة . وقال صاحب نهاية المحتاج من الشّافعيّة : لا يجب ولا يستحبّ الاستنجاء من الرّيح ولو كان المحلّ رطباً . وقال ابن حجرٍ المكّىّ : يكره من الرّيح إلاّ إن خرجت والمحلّ رطبٌ . والّذى عبّر به الحنابلة : أنّه لا يجب منها ، ومقتضى استدلالهم الآتى الكراهة على الأقلّ . قال صاحب المغنى : للحديث « من استنجى من ريحٍ فليس منّا » رواه الطّبرانىّ فى معجمه الصّغير .

وعن زيد بن أسلم فى قوله تعالى : { إذا قمتم إلى الصّلاة فاغسلوا وجوهكم } . الآية إذا قمتم من النّوم . ولم يأمر بغيره ، يعنى فلو كان واجباً لأمر به ، لأنّ النّوم مظنّة خروج الرّيح ، فدلّ على أنّه لا يجب ، ولأنّ الوجوب من الشّرع ، ولم يرد بالاستنجاء هاهنا نصٌّ ، ولا هو فى معنى المنصوص عليه ، لأنّ الاستنجاء شرع لإزالة النّجاسة ، ولا نجاسة هاهنا .

الاستنجاء بالماء :

١٩ – يستحبّ باتّفاق المذاهب الأربعة الاستنجاء بالماء . وقد ورد عن بعض الصّحابة والتّابعين إنكار الاستنجاء به ، ولعلّ ذلك لأنّه مطعومٌ .

والحجّة لإجزاء استعمال الماء ما روى أنس بن مالكٍ قال : « كان النّبىّ صلى الله عليه وسلم يدخل الخلاء ، فأحمل أنا وغلامٌ نحوى إداوةً من ماءٍ وعنزةً ، فيستنجى بالماء » متّفقٌ عليه . وعن « عائشة أنّها قالت : مرن أزواجكنّ أن يستطيبوا بالماء فإنّى أستحييهم ، وإنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم كان يفعله

» . وقد حمل المالكيّة ما ورد عن السّلف من إنكار استعمال الماء بأنّه فى حقّ من أوجب استعمال الماء . وحمل صاحب كفاية الطّالب ما ورد عن سعيد بن المسيّب من قوله : وهل يفعل ذلك إلاّ النّساء ؟ على أنّه من واجبهنّ .

الاستنجاء بغير الماء من المائعات :

٢٠ – لا يجزئ الاستنجاء بغير الماء من المائعات على قول الجمهور : المالكيّة والشّافعيّة والحنابلة ، وهو روايةٌ عن محمّد بن الحسن تعدّ ضعيفةً فى المذهب . قال المالكيّة : بل يحرم الاستنجاء بمائعٍ غير الماء لنشره النّجاسة . وذهب أبو حنيفة وأبو يوسف إلى أنّه يمكن أن يتمّ الاستنجاء – كما فى إزالة النّجاسة – بكلّ مائعٍ طاهرٍ مزيلٍ ، كالخلّ وماء الورد ، دون ما لا يزيل كالزّيت ، لأنّ المقصود قد تحقّق ، وهو إزالة النّجاسة . ثمّ قد قال ابن عابدين : يكره الاستنجاء بمائعٍ غير الماء ، لما فيه من إضاعة المال بلا ضرورةٍ .

أفضليّة الغسل بالماء على الاستجمار :

٢١ – إنّ غسل المحلّ بالماء أفضل من الاستجمار ، لأنّه أبلغ فى الإنقاء ، ولإزالته عين النّجاسة وأثرها . وفى روايةٍ عن أحمد : الأحجار أفضل ، ذكرها صاحب الفروع . وإذا جمع بينهما بأن استجمر ثمّ غسل كان أفضل من الكلّ بالاتّفاق . وبيّن النّووىّ وجه الأفضليّة بقوله : تقديم الأحجار لتقلّ مباشرة النّجاسة واستعمال الماء ، فلو استعمل الماء أوّلاً لم يستعمل الحجارة بعده ، لأنّه لا فائدة فيه . وعند الحنابلة التّرتيب بتقديم الاستجمار على الغسل مستحبٌّ ، وإن قدّم الماء وأتبعا الحجارة كره ، لقول عائشة : « مرن أزواجكنّ أن يتبعوا الحجارة الماء فإنّى أستحييهم ، وإنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم كان يفعله » . وعند الحنفيّة قيل : الغسل بالماء سنّةٌ ، وقيل : الجمع سنّةٌ فى زماننا . وقيل : سنّةٌ على الإطلاق ، وهو الصّحيح وعليه الفتوى كما فى البحر الرّائق . هذا وقد احتجّ الخرشىّ وغيره على أفضليّة الجمع بين الماء والحجر بأنّ أهل قباء كانوا يجمعون بينهما ، فمدحهم اللّه تعالى بقوله : { إنّ اللّه يحبّ التّوّابين ويحبّ المتطهّرين } وحقّق النّووىّ أنّ الرّواية الصّحيحة فى ذلك ليس فيها أنّهم كانوا يجمعون بينهما ، وإنّما فيها أنّهم يستنجون بالماء .

ما يستجمر به :

٢٢ – الاستجمار يكون بكلّ جامدٍ إلاّ ما منع منه وسيأتى تفصيله ، وهذا قول جمهور العلماء ، ومنهم الإمام أحمد فى الرّواية المعتمدة عنه ، وهو الصّحيح من مذهب الحنابلة . وفى روايةٍ عن أحمد اختارها أبو بكرٍ : لا يجزئ فى الاستجمار شىءٌ من الجوامد من خشبٍ وخرقٍ إلاّ الأحجار ،« لأنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم أمر بالأحجار »، وأمره يقتضى الوجوب ، ولأنّه موضع رخصةٍ ورد فيها الشّرع بآلةٍ مخصوصةٍ

، فوجب الاقتصار عليها ، كالتّراب فى التّيمّم . والدّليل لقول الجمهور : ما روى أبو داود عن خزيمة قال : « سئل رسول اللّه صلى الله عليه وسلم عن الاستطابة فقال : بثلاثة أحجارٍ ليس فيها رجيعٌ » فلولا أنّه أراد الحجر وما فى معناه لم يستثن الرّجيع ، لأنّه لا يحتاج لذكره ، ولم يكن لتخصيص الرّجيع بالذّكر معنًى . وعن سلمان قال «: قيل له : قد علّمكم نبيّكم كلّ شىءٍ حتّى الخراء قال : فقال : أجل ، لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائطٍ أو بولٍ ، أو أن نستنجى باليمين . أو أن نستنجى بأقلّ من ثلاثة أحجارٍ ، أو أن نستنجى برجيعٍ أو عظمٍ » ٠ وفارق التّيمّم ، لأنّ القصد هنا إزالة النّجاسة ، وهى تحصل بغير الأحجار ، أمّا التّيمّم فهو غير معقول المعنى .

الاستجمار هل هو مطهّرٌ للمحلّ ؟

٢٣ – اختلف الفقهاء فى هذا على قولين :

الأوّل : أنّ المحلّ يصير طاهراً بالاستجمار ، وهو قولٌ عند كلٍّ من الحنفيّة والمالكيّة والحنابلة . قال ابن الهمام : والّذى يدلّ على اعتبار الشّرع طهارته أنّه صلى الله عليه وسلم « نهى أن يستنجى بروثٍ أو عظمٍ ، وقال : إنّهما لا يطهّران » فعلم أنّ ما أطلق الاستنجاء به يطهّر ، إذ لو لم يطهّر لم يطلق الاستنجاء به لهذه العلّة . وكذلك قال الدّسوقىّ المالكىّ : يكون المحلّ طاهراً لرفع الحكم والعين عنه .

والقول الثّانى : وهو القول الآخر لكلٍّ من الحنفيّة والمالكيّة ، وقول المتأخّرين من الحنابلة : أنّ المحلّ يكون نجساً معفوّاً عنه للمشقّة . قال ابن نجيمٍ : ظاهر ما فى الزّيلعىّ أنّ المحلّ لا يطهر بالحجر . وفى كشّاف القناع للحنابلة : أثر الاستجمار نجسٌ يعفى عن يسيره فى محلّه للمشقّة . وفى المغنى : وعليه لو عرق كان عرقه نجساً .

٢٤ – وجمهور الفقهاء على أنّ الرّطوبة إذا أصابت المحلّ بعد الاستجمار يعفى عنها .

قال ابن نجيمٍ من الحنفيّة : بناءً على القول بأنّ المحلّ بعد الاستجمار نجسٌ معفوٌّ عنه ، يتفرّع عليه أنّه يتنجّس السّبيل بإصابة الماء . وفيه الخلاف المعروف فى مسألة الأرض إذا جفّت بعد التّنجّس ثمّ أصابها الماء ، وقد اختاروا فى الجميع عدم عود النّجاسة ، فليكن كذلك هنا . ثمّ نقل عن ابن الهمام قوله : أجمع المتأخّرون – أى من الحنفيّة – على أنّه لا ينجس المحلّ بالعرق ، حتّى لو سال العرق منه ، وأصاب الثّوب والبدن أكثر من قدر الدّرهم لا يمنع (أى لا يمنع صحّة الصّلاة) .

ونقل القرافىّ عن صاحب الطّراز وابن رشدٍ : يعفى عنه لعموم البلوى . قال : وقد عفى عن ذيل المرأة تصيبه النّجاسة ، مع إمكان شيله ، فهذا أولى ، ولأنّ الصّحابة رضى الله عنهم كانوا يستجمرون ويعرقون . والقول الآخر : قاله الشّافعيّة ، وابن القصّار من المالكيّة : لا ينجس إن لم تتعدّ الرّطوبة محلّ الاستجمار ، وينجس إن تعدّت النّجاسة محلّ العفوّ .

المواضع الّتى لا يجزئ فيها الاستجمار :

أ – النّجاسة الواردة على المخرج من خارجه :

٢٥ – إن كان النّجس طارئاً على المحلّ من خارجٍ أجزأ فيه الاستجمار فى المشهور عند الحنفيّة . وصرّح الشّافعيّة والحنابلة بأنّ الحجر لا يجزئ فيه ، بل لا بدّ من غسله بالماء . وهو قولٌ آخر للحنفيّة . ومثله عند الشّافعيّة ، ما لو طرأ على المحلّ المتنجّس بالخارج طاهرٌ رطبٌ ، أو يختلط بالخارج كالتّراب . ومثله ما لو استجمر بحجرٍ مبتلٍّ ، لأنّ بلل الحجر يتنجّس بنجاسة المحلّ ثمّ ينجّسه . وكذا لو انتقلت النّجاسة عن المحلّ الّذى أصابته عند الخروج ، فلا بدّ عندهم من غسل المحلّ فى كلّ تلك الصّور .

ب – ما انتشر من النّجاسة وجاوز المخرج :

٢٦ – اتّفقت المذاهب الأربعة على أنّ الخارج إن جاوز المخرج وانتشر كثيراً لا يجزئ فيه الاستجمار ، بل لا بدّ من غسله . ووجه ذلك أنّ الاستجمار رخصةٌ لعموم البلوى ، فتختصّ بما تعمّ به البلوى ، ويبقى الزّائد على الأصل فى إزالة النّجاسة بالغسل . لكنّهم اختلفوا فى تحديد الكثير ، فذهب المالكيّة والحنابلة والشّافعيّة إلى أنّ الكثير من الغائط هو ما جاوز المخرج ، وانتهى إلى الأليّة ، والكثير من البول ما عمّ الحشفة .

وانفرد المالكيّة فى حال الكثرة بأنّه يجب غسل الكلّ لا الزّائد وحده .

وذهب الحنفيّة إلى أنّ الكثير هو ما زاد عن قدر الدّرهم ، مع اقتصار الوجوب على الزّائد عند أبى حنيفة وأبى يوسف ، خلافاً لمحمّدٍ ، حيث وافق المالكيّة فى وجوب غسل الكلّ .

ج – استجمار المرأة :

٢٧ – يجزئ المرأة الاستجمار من الغائط بالاتّفاق ، وهذا واضحٌ . أمّا من البول فعند المالكيّة لا يجزئ الاستجمار فى بول المرأة ، بكراً كانت أو ثيّباً . قالوا : لأنّه يجاوز المخرج غالباً . وعند الشّافعيّة : يكفى فى بول المرأة – إن كانت بكراً – ما يزيل عين النّجاسة خرقاً أو غيرها ، أمّا الثّيّب فإن تحقّقت نزول البول إلى ظاهر المهبل ، كما هو الغالب ، لم يكف الاستجمار ، وإلاّ كفى . ويستحبّ الغسل حينئذٍ .

أمّا عند الحنابلة ففى الثّيّب قولان :

الأوّل : أنّه يكفيها الاستجمار .

والثّانى : أنّه يجب غسله . وعلى كلا القولين لا يجب على المرأة غسل الدّاخل من نجاسةٍ وجنابةٍ وحيضٍ ، بل تغسل ما ظهر ، ويستحبّ لغير الصّائمة غسله .

ومقتضى قواعد مذهب الحنفيّة أنّه إذا لم يجاوز الخارج المخرج كان الاستنجاء سنّةً . وإن جاوز المخرج لا يجوز الاستجمار ، بل لا بدّ من المائع أو الماء لإزالة النّجاسة . ولم يتعرّضوا لكيفيّة استجمار المرأة .

ما لا يستجمر به :

٢٨ – اشترط الحنفيّة والمالكيّة فيما يستجمر به خمسة شروطٍ :

(١) أن يكون يابساً ، وعبّر غيرهم بدل اليابس بالجامد .

(٢) طاهراً .

(٣) منقّياً .

(٤) غير مؤذٍ .

(٥) ولا محترمٍ . وعلى هذا فما لا يستنجى به عندهم خمسة أنواعٍ :

(١) ما ليس يابساً .

(٢) الأنجاس .

(٣) غير المنقّى ، كالأملس من القصب ونحوه .

(٤) المؤذى ، ومنه المحدّد كالسّكّين ونحوه .

(٥) المحترم وهو عندهم ثلاثة أصنافٍ :

أ – المحترم لكونه مطعوماً .

ب – المحترم لحقّ الغير .

ج – المحترم لشرفه .

وهذه الأمور تذكر فى غير كتب المالكيّة أيضاً ، إلاّ أنّهم لا يذكرون فى الشّروط عدم الإيذاء ، وإن كان يفهم المنع منه بمقتضى القواعد العامّة للشّريعة . وهم وإن اتّفقوا على هذه الاشتراطات من حيث الجملة ، فإنّهم قد يختلفون فى التّفاصيل ، وقد يتّفقون .

ويرجع فى تفصيل ذلك إلى كتب الفقه .

هل يجزئ الاستنجاء بما حرم الاستنجاء به :

٢٩ – إذا ارتكب النّهى واستنجى بالمحرّم وأنقى ، فعند الحنفيّة والمالكيّة وابن تيميّة من الحنابلة ، كما فى الفروع : يصحّ الاستنجاء مع التّحريم . قال ابن عابدين : لأنّه يجفّف ما على البدن من الرّطوبة . وقال الدّسوقىّ : ولا إعادة عليه فى الوقت ولا فى غيره .

أمّا عند الشّافعيّة فلا يجزئ الاستنجاء بما حرم لكرامته من طعامٍ أو كتب علمٍ ، وكذلك النّجس . أمّا عند الحنابلة فلا يجزئ الاستجمار بما حرم مطلقاً ، لأنّ الاستجمار رخصةٌ فلا تباح بمحرّمٍ . وفرّقوا بينه وبين الاستجمار باليمين – فإنّه يجزئ الاستجمار بها مع ورود النّهى – بأنّ النّهى فى العظم ونحوه لمعنًى فى شرط الفعل ، فمنع صحّته ، كالوضوء بالماء النّجس . أمّا باليمين فالنّهى لمعنًى فى آلة الشّرط ، فلم يمنع ، كالوضوء من إناءٍ محرّمٍ . وسوّوا فى ذلك بين ما ورد النّهى عن الاستجمار به كالعظم ، وبين ما كان استعماله بصفةٍ عامّةٍ محرّماً كالمغصوب . قالوا : ولو استجمر بعد المحرّم بمباحٍ لم يجزئه ووجب الماء ، وكذا لو استنجى بمائعٍ غير الماء . وإن استجمر بغير منقٍّ كالقصب أجزأ الاستجمار بعده بمنقٍّ . وفى المغنى : يحتمل أن يجزئه الاستجمار بالطّاهر بعد الاستجمار بالنّجس ، لأنّ هذه النّجاسة تابعةٌ لنجاسة المحلّ فزالت بزوالها .

كيفيّة الاستنجاء وآدابه :

أوّلاً : الاستنجاء بالشّمال :

٣٠ – ورد فى الحديث عند أصحاب الكتب السّتّة عن أبى قتادة قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : « إذا بال أحدكم فلا يمسّ ذكره بيمينه ، وإذا أتى الخلاء فلا يتمسّح بيمينه » . فقد نهى الرّسول صلى الله عليه وسلم عن الاستنجاء باليمين ، وحمل الفقهاء هذا النّهى على الكراهة ، وهى كراهة تحريمٍ عند الحنفيّة ، كما استظهر ابن نجيمٍ . وكلّ هذا فى غير حالة الضّرورة أو الحاجة ، للقاعدة المعروفة : الضّرورات تبيح المحظورات .

فلو يسراه مقطوعةً أو شلاّء ، أو بها جراحةٌ جاز الاستنجاء باليمين من غير كراهةٍ .

هذا ، ويجوز الاستعانة باليمين فى صبّ الماء ، وليس هذا استنجاءً باليمين ، بل المقصود منه مجرّد إعانة اليسار ، وهى المقصودة بالاستعمال .

ثانياً : الاستتار عند الاستنجاء :

٣١ – الاستنجاء يقتضى كشف العورة ، وكشفها أمام النّاس محرّمٌ فى الاستنجاء وغيره ، فلا يرتكب لإقامة سنّة الاستنجاء ، ويحتال لإزالة النّجاسة من غير كشفٍ للعورة عند من يراه . فإن لم يكن بحضرة النّاس ، فعند الحنفيّة : من الآداب أن يستر عورته حين يفرغ من الاستنجاء والتّجفيف ، لأنّ الكشف كان لضرورةٍ وقد زالت .

وعند الحنابلة فى التّكشّف لغير حاجةٍ روايتان : الكراهة ، والحرمة . وعليه فينبغى أن يكون ستر العورة بعد الفراغ من الاستنجاء مستحبّاً على الأقلّ .

ثالثاً : الانتقال عن موضع التّخلّى :

٣٢ – إذا قضى حاجته فلا يستنجى حيث قضى حاجته . كذا عند الشّافعيّة والحنابلة – قال الشّافعيّة : إذا كان استنجاؤه بالماء – بل ينتقل عنه ، لئلاّ يعود الرّشاش إليه فينجّسه . واستثنوا الأخلية المعدّة لذلك ، فلا ينتقل فيها .

وإذا كان استنجاؤه بالحجر فقط فلا ينتقل من مكانه ، لئلاّ ينتقل الغائط من مكانه فيمتنع عليه الاستجمار . أمّا عند الحنابلة ، فينبغى أن يتحوّل من مكانه الّذى قضى فيه حاجته للاستجمار بالحجارة أيضاً ، كما يتحوّل للاستنجاء بالماء ، وهذا إن خشى التّلوّث .

رابعاً : عدم استقبال القبلة حال الاستنجاء :

٣٣ – من آداب الاستنجاء عند الحنفيّة : أن يجلس له إلى يمين القبلة ، أو يسارها كى لا يستقبل القبلة أو يستدبرها حال كشف العورة . فاستقبال القبلة أو استدبارها حالة الاستنجاء ترك أدبٍ ، وهو مكروهٌ كراهة تنزيهٍ ، كما فى مدّ الرّجل إليها . وقال ابن نجيمٍ : اختلف الحنفيّة فى ذلك ، واختار التّمرتاشىّ أنّه لا يكره ، وهذا بخلاف التّبوّل أو التّغوّط إليها فهو عندهم محرّمٌ . وعند الشّافعيّة : يجوز الاستنجاء مع الاتّجاه إلى القبلة من غير كراهةٍ ، لأنّ النّهى ورد فى استقبالها واستدبارها ببولٍ أو غائطٍ ، وهذا لم يفعله .

خامساً : الاستبراء :

٣٤ – وهو طلب البراءة من خارجٍ ، ويختلف بطباع النّاس ، إلى أن يستيقن بزوال الأثر . وتفصيل ذلك فى مصطلح (استبراءٌ) .

سادساً : الانتضاح وقطع الوسوسة :

٣٥ – ذكر الحنفيّة والشّافعيّة والحنابلة : أنّه إذا فرغ من الاستنجاء بالماء استحبّ له أن ينضح فرجه أو سراويله بشىءٍ من الماء ، قطعاً للوسواس ، حتّى إذا شكّ حمل البلل على ذلك النّضح ، ما لم يتيقّن خلافه . وهذا ذكره الحنفيّة أنّه يفعل ذلك إن كان الشّيطان يريبه كثيراً . ومن ظنّ خروج شىءٍ بعد الاستنجاء فقد قال أحمد بن حنبلٍ : لا تلتفت حتّى تتيقّن ، واله عنه فإنّه من الشّيطان ، فإنّه يذهب إن شاء اللّه .

استنزاهٌ ❊

التعريف :

١ – الاستنزاه : استفعالٌ من التّنزّه وأصله التّباعد . والاسم النّزهة ، ففلانٌ يتنزّه من الأقذار وينزّه نفسه عنها : أى يباعد نفسه عنها . وفى حديث المعذّب فى قبره « كان لا يستنزه من البول » أى لا يستبرئ ولا يتطهّر ، ولا يبتعد منه .

والفقهاء يعبّرون بالاستنزاه والتّنزّه عند الكلام عن الاحتراز عن البول أو الغائط .

الألفاظ ذات الصّلة :

أ – الاستبراء :

٢ – الاستبراء هو طلب البراءة من الخارج من السّبيلين حتّى يستيقن زوال الأثر ، فهو أخصّ من الاستنزاه .

ب – الاستنجاء :

٣ – الاستنجاء – ومثله الاستطابة – هو إزالة النّجس عن أحد السّبيلين بماءٍ أو حجرٍ أو غير ذلك ، وهو أيضاً أخصّ من الاستنزاه .

الحكم الإجمالىّ :

٤ – الاستنزاه من البول أو الغائط واجبٌ ، فمن لم يتحرّز من البول فى بدنه وثوبه فقد ارتكب كبيرةً كما يراه ابن حجرٍ .

وتفصيل أحكامه فى مصطلح (استبراءٌ) (وقضاء الحاجة) (ونجاسةٌ) .

مواطن البحث :

٥ – تبحث المسألة عند الفقهاء فى الطّهارة عند الكلام عن الاستنجاء ، أو الاستبراء عن البول والغائط .

استنشاقٌ ❊

التعريف :

١ – الاستنشاق : استنشاق الهواء أو غيره : إدخاله فى الأنف . ويخصّه الفقهاء بإدخال الماء فى الأنف .

الحكم الإجمالىّ :

٢ – الاستنشاق سنّةٌ فى الوضوء عند جمهور الفقهاء ، وعند الحنابلة فرضٌ . وأمّا فى الغسل للتّطهّر من الحدث الأكبر فهو سنّةٌ عند المالكيّة والشّافعيّة ، فرضٌ عند الحنفيّة والحنابلة . وإنّما فرّق الحنفيّة بين الوضوء ، والغسل من الجنابة ، فقالوا بفرضيّة الاستنشاق فى الغسل وسنّيّته فى الوضوء ، لأنّ الجنابة تعمّ جميع البدن ، ومن البدن الفم والأنف ، بخلاف الوضوء فالفرض فيه غسل الوجه وهو ما تقع به المواجهة ، ولا تقع المواجهة بالأنف والفم . وللفقهاء تفصيلٌ فى كيفيّته انظر (وضوءٌ) (وغسلٌ) .

مواطن البحث :

٣ – تنظر أحكام الاستنشاق فى (الوضوء) (والغسل) (وغسل الميّت) .

استنفارٌ ❊

التعريف :

١ – الاستنفار فى اللّغة مصدر : استنفر ، من نفر القوم " نفيراً " أى أسرعوا إلى الشّىء ، وأصل النّفير مفارقة مكان إلى مكان آخر لأمرٍ حرّك ذلك ، ويقال للقوم النّافرين لحربٍ أو لغيرها : نفيرٌ ، تسميةً بالمصدر .

٢ – وفى الاصطلاحىّ الشّرعىّ : الخروج إلى قتال العدوّ ونحوه من الأعمال الصّالحة بدعوةٍ من الإمام أو غيره أو للحاجة إلى ذلك . ولكن غلب استعماله عند الفقهاء فى قتال العدوّ .

الألفاظ ذات الصّلة به :

الاستنجاد :

٣ – الاستنجاد : وهو طلب العون من الغير . يقال : استنجده فأنجده ، أى استعان به فأعانه .

الحكم الإجمالىّ :

٤ – لا خلاف بين المسلمين فى أنّ الخروج إلى الجهاد فرضٌ ، منذ شرع بعد الهجرة ، واختلفوا فى نوع الفرضيّة فى عهده صلى الله عليه وسلم فذهب الشّافعيّة فى أصحّ القولين عندهم إلى أنّ النّفير كان فرض كفايةٍ فى عهده صلى الله عليه وسلم . أمّا كونه فرضاً فبالإجماع ، وأمّا كونه على الكفاية فلقوله تعالى : { لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضّرر والمجاهدون فى سبيل اللّه } ، إلى قوله تعالى : { وكلاًّ وعد اللّه الحسنى } . ووجه الاستدلال : أنّ الحقّ تبارك وتعالى فاضل بين القاعدين والمجاهدين فى سبيل اللّه ، ثمّ وعد كليهما الحسنى . والعاصى لا يوعد بها ، ولا يفاضل بين مأجورٍ ومأزورٍ ، فكانوا غير عاصين بقعودهم . وقيل : كان النّفير فى عهده صلى الله عليه وسلم فرض عينٍ ، فلم يكن لأحدٍ من غير المعذورين أن يتخلّف عنه ، لقوله تعالى : { إلاّ تنفروا يعذّبكم عذاباً أليماً } . إلى قوله تعالى : { انفروا خفافاً وثقالاً } . وقالوا : إنّ القاعدين المشار إليهم بآية سورة النّساء كانوا حرّاساً على المدينة ، وهو نوعٌ من الجهاد . وهناك أقوالٌ أخرى : يرجع إليها فى مصطلح : (جهادٌ) .

أمّا بعد عهده صلى الله عليه وسلم فللعدوّ حالتان :

٥ – أن يكون فى بلاده مستقراً ، ولم يقصد إلى شىءٍ من بلاد المسلمين ، ففى هذه الحالة : اتّفق جمهور الفقهاء على أنّ النّفير فرض كفايةٍ ، إذا قام به فريقٌ من النّاس مرّةً فى السّنة سقط الحرج عن الباقين ، أمّا الفرضيّة فلقوله تعالى : { فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم } . ولقوله صلى الله عليه وسلم « الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة » .

وأمّا كونه على الكفاية فلأنّه لم يفرض لذاته وإنّما فرض لإعزاز دين اللّه وإعلاء كلمة الحقّ ، ودفع الشّرّ عن العباد ، فإذا حصل المقصود بالبعض سقط الحرج عن الباقين ، بل إذا أمكنه أن يحصل بإقامة الدّليل والدّعوة بغير جهادٍ كان أولى من الجهاد ، فإن لم يقم به أحدٌ أثم الجميع بتركه .

٦ – أمّا إذا دهم العدوّ بلداً من بلاد الإسلام ، فإنّه يجب النّفير على جميع أهل هذا البلد ، ومن بقربهم وجوباً عينيّاً ، فلا يجوز لأحدٍ أن يتخلّف عنه ، حتّى الفقير ، والولد ، والعبد ، والمرأة المتزوّجة بلا إذنٍ من : الأبوين ، والسّيّد ، والدّائن ، والزّوج . فإن عجز أهل البلد ومن بقربهم عن الدّفاع فعلى من يليهم ، إلى أن يفترض على جميع المسلمين فرض عينٍ كالصّلاة تماماً على هذا التّدريج .

٧ – وكذلك يكون النّفير فرض عينٍ على كلّ من يستنفر ممّن له حقّ الاستنفار كالإمام أو نوّابه ، ولا يجوز لأحدٍ أن يتخلّف إذا دعاه داعى النّفير ، إلاّ من منعه الإمام من الخروج ، أو دعت الحاجة إلى تخلّفه لحفظ الأهل أو المال ، لقوله تعالى : { يا أيّها الّذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل اللّه اثّاقلتم } .

النّفير من منًى :

٨ – يجوز للحاجّ أن ينفر قبل الغروب من اليوم الثّانى من أيّام التّشريق بعد الرّمى عند الشّافعيّة ، والحنابلة ، ومن اليوم الثّالث من أيّام التّشريق عند الحنفيّة ، فإن لم ينفر حتّى غربت شمس اليوم الثّالث كره له أن ينفر حتّى يرمى فى اليوم الرّابع ، ولا شىء عليه إن نفر وقد أساء ، وقيل : إنّه عليه دمٌ . وأمّا لو نفر بعد طلوع فجر الرّابع لزمه دم هذا عند الحنفيّة . أمّا عند الأئمّة الثّلاثة : فإنّه يجب عليه دمٌ إذا نفر بعد غروب شمس اليوم الثّانى من أيّام التّشريق . كما صرّح الشّافعيّة بأنّه يجب عليه دمٌ لو نفر بعد المبيت ، وقبل الرّمى ، ولو نفر قبل الغروب ثمّ عاد إلى منًى مارّاً أو زائراً ولو بعد الغروب لم يجب عليه مبيت تلك اللّيلة ولا رمى يومها . والتّفصيل فى (الحجّ) .

مواطن البحث :

يذكره الفقهاء فى باب : الجهاد ، وفى الحجّ : المبيت بمزدلفة .

استنقاءٌ ❊

انظر : استنجاءٌ .

استنكاحٌ ❊

التعريف :

١ – فى المصباح : استنكح بمعنى نكح ، وفى تاج العروس وأساس البلاغة : ومن المجاز استنكح النّوم عينه غلبها . وفقهاء المالكيّة فقط هم الّذين يعبّرون بهذا اللّفظ عن معنى الغلبة مسايرين المعنى اللّغوىّ فيقولون : استنكحه الشّكّ أى اعتراه كثيراً .

وبقيّة الفقهاء يعبّرون عن ذلك بغلبة الشّكّ أو كثرته بحيث يصبح عادةً له .

الحكم الإجمالىّ :

٢ – فسّر المالكيّة الشّكّ المستنكح بأنّه الّذى يعترى صاحبه كثيراً ، بأن يأتى كلّ يومٍ ولو مرّةً ، فمن استنكحه الشّكّ فى الحدث بأن شكّ هل أحدث أم لا بعد وضوئه ؟ فلا ينتقض الوضوء لما فيه من الحرج ، وأمّا لو أتى يوماً بعد يومٍ فينقض ، لأنّه ليس بغالبٍ ، ولا حرج فى التّوضّؤ به على المشهور من المذهّب . وانظر (شكٌّ) .

ومن استنكحه خروج المذى أو الودى أو غيرهما ففى الحكم تيسيرٌ ينظر فى (سلسٌ) .

مواطن البحث :

٣ – الشّكّ الغالب يرد ذكره فى كثيرٍ من مسائل الفقه كالوضوء ، والغسل ، والتّيمّم ، وإزالة النّجاسة ، والصّلاة ، والطّلاق ، والعتاق ، وغير ذلك .

وتنظر فى مواضعها وفى مصطلح (شكٌّ) .

استهزاءٌ ❊

انظر : استخفافٌ .

استهلاكٌ ❊

التعريف :

١ – الاستهلاك لغةً : هلاك الشّىء وإفناؤه ، واستهلك المال : أنفقه وأنفده . واصطلاحاً ، كما يفهم من عبارة بعض الفقهاء : هو تصيير الشّىء هالكاً أو كالهالك كالثّوب البالى ، أو اختلاطه بغيره بصورةٍ لا يمكن إفراده بالتّصرّف كاستهلاك السّمن فى الخبز .

الألفاظ ذات الصّلة :

الإتلاف :

٢ – الإتلاف هو : إفناء عين الشّيء وإذهابٌ لها بالكلّيّة ، فهو أخصّ من الاستهلاك ، لأنّ عين الشّيء قد تفنى وقد تبقى مع خروجه عن الانتفاع الموضوع له عادةً . انظر مصطلح (إتلافٌ) .

ما يكون به الاستهلاك :

٣ – ممّا يكون به الاستهلاك :

أ – تفويت المنافع الموضوعة المقصودة من العين بحيث يصير كالهالك مع بقاء العين ، كتخريق الثّوب ، وتنجيس الزّيت إن لم يمكن تطهيره .

ب – تعذّر وصول المالك إلى حقّه فى العين لاختلاطه بحيث يتعذّر تمييزه عن غيره ، كما إذا خلط اللّبن بالماء ، أو الزّيت بالشّيرج .

أثر الاستهلاك :

٤ – يترتّب على الاستهلاك الواقع من الغير زوال ملك المالك عن العين المستهلكة ، فهو يمنع الاسترداد ويوجب الضّمان بالمثل أو القيمة للمالك .

ويثبت الملك للغاصب بالضّمان ، وهذا عند الحنفيّة ، والمذهب عند الشّافعيّة .

استهلالٌ ❊

التعريف :

١ – الاستهلال لغةً : مصدر استهلّ ، واستهلّ الهلال ظهر ، واستهلال الصّبىّ أن يرفع صوته بالبكاء عند ولادته ، والإهلال رفع الصّوت بقول : لا إله إلاّ اللّه ، وأهلّ المحرم بالحجّ : رفع صوته بالتّلبية . والبحث هنا قاصرٌ على استهلال المولود .

ويختلف مراد الفقهاء بالاستهلال ، فمنهم من قصره على الصّياح ، وهم المالكيّة والشّافعيّة ، وهو روايةٌ عن أحمد ، ومنهم من ذهب إلى أوسع من ذلك وأراد به كلّ ما يدلّ على حياة المولود ، من رفع صوتٍ ، أو حركة عضوٍ بعد الولادة ، وهم الحنفيّة . ومنهم من فسّره بأنّه كلّ صوتٍ يدلّ على الحياة من صياحٍ ، أو عطاسٍ ، أو بكاءٍ ، وهو رأىٌ للحنابلة .

والّذين قصروا الاستهلال على الصّياح لا يمنعون حصول حياة المولود الّذى مات دون صياحٍ ، وإنّما يحكمون على حياته ببعض الأمارات الّتى تدلّ على الحياة بمفردها أو مع غيرها . وسيشمل هذا البحث أحكام الاستهلال بمعناه الأعمّ ، وهو اصطلاح الحنفيّة القائلين بتعدّد أمارات الحياة .

أمارات الحياة :

أ – الصّياح :

٢ – يتّفق الفقهاء على أنّ الصّياح أمارةٌ يقينيّةٌ على الحياة ، لكنّهم يختلفون فى الحال الّتى يعتبر الصّياح فيها مؤثّراً ، وقد يختلف ذلك من موطنٍ لآخر فى المذهب الواحد .

ب – العطاس والارتضاع :

٣ – العطاس والارتضاع من أمارات الاستهلال عند الحنفيّة ، وهما فى معناه عند الشّافعيّة ، والمازرىّ وابن وهبٍ من المالكيّة ، وهو المذهب عند أحمد كذلك ، فيثبت بهما حكم الاستهلال عندهم . أمّا عند مالكٍ فلا عبرة بالعطاس ، لأنّه قد يكون من الرّيح ، وكذلك الرّضاع إلاّ أنّ الكثير من الرّضاع معتبرٌ ، والكثير ما تقول أهل المعرفة : إنّه لا يقع مثله إلاّ ممّن فيه حياةٍ مستقرّةٍ .

ج – التّنفّس :

٤ – يأخذ التّنفّس حكم العطاس عند الحنفيّة والشّافعيّة والحنابلة .

د – الحركة :

٥ – حركة المولود إمّا أن تكون طويلةً أو يسيرةً ، وهى أعمّ من الاختلاج ، إذ الاختلاج تحرّك عضوٍ ، والحركة أعمّ من تحرّك عضوٍ أو تحرّك الجملة .

وللعلماء ثلاثة اتّجاهاتٍ فى الحركة :

الأوّل : الأخذ بها مطلقاً .

والثّانى : عدم الاعتداد بها مطلقاً .

والثّالث : الأخذ بالحركة الطّويلة دون اليسيرة .

هـ– الحركة الطّويلة :

٦ – الحركة الطّويلة من الاستهلال عند الحنفيّة ، عدا ابن عابدين ، وفى معنى الاستهلال عند الشّافعيّة ، وأحد رأيى المالكيّة ، والمذهب عند أحمد أنّها فى حكم الاستهلال كذلك .

أمّا المالكيّة فى قولهم الآخر ، وابن عابدين فإنّهم لا يعطونها حكم الاستهلال ، سواءٌ أكانت طويلةً أم يسيرةً ، لأنّ حركته كحركته فى البطن ، وقد يتحرّك المقتول ،

وقيل بهذا عند الحنابلة .

و – الحركة اليسيرة :

٧ – تأخذ الحركة اليسيرة حكم الاستهلال عند الحنفيّة ، ولا يعتدّ بها عند المالكيّة اتّفاقاً ، وكذلك الحنابلة ، أمّا الشّافعيّة فمنهم من وافق الحنفيّة ، ومنهم من وافق المالكيّة ، ومنهم من تردّد ، إذ لم يفرّق كثيرٌ من فقهاء الشّافعيّة بين الحركة الطّويلة والحركة اليسيرة ، ومنهم من اشترط قوّة الحركة ولم يعتدّ بحركة المذبوح ، لأنّها لا تدلّ على الحياة .

ز – الاختلاج :

٨ – يأخذ الاختلاج حكم الحركة اليسيرة عند عامّة الفقهاء ، إلاّ أنّ الشّافعيّة شهروا عدم إعطائه حكم الاستهلال .

إثبات الاستهلال :

٩ – ممّا يثبت به الاستهلال الشّهادة ، وهى إمّا أن تكون بأقوال رجلين ، أو رجلٍ وامرأتين ، وهو محلّ اتّفاقٍ ، وإمّا أن تكون بشهادة النّساء وحدهنّ .

وقد اختلف الفقهاء فى العدد المجزى والمواطن المقبولة .

١٠ – والاستهلال من الأمور الّتى يطّلع عليها النّساء غالباً ، لذلك يقبل الفقهاء – عدا الرّبيع من الشّافعيّة – شهادتهنّ عليه منفرداتٍ عن الرّجال . إلاّ أنّهم اختلفوا فى نصابها وفى المواطن الّتى تقبل شهادتهنّ فيها .

وتفصيل اتّجاهاتهم فى نصاب شهادة النّساء كما يلى :

١١ – يرى الإمام أبو حنيفة أنّه لا يقبل قول النّساء منفرداتٍ إلاّ فى الصّلاة عليه لأنّه من أمر الدّين ، وخبر المرأة الواحدة مجتهدٌ فيه . أمّا غير الصّلاة كالميراث فلا يثبت الاستهلال بشهادة النّساء منفرداتٍ ، ولا بدّ فى ذلك من شهادة رجلين ، أو رجلٍ وامرأتين .

وذهب الحنابلة وأبو يوسف ومحمّدٌ إلى أنّه يكفى شهادة المرأة الواحدة على الاستهلال إن كانت حرّةً مسلمةً عدلاً .« لما روى عن علىٍّ رضى الله عنه أنّه أجاز شهادة القابلة فى الاستهلال ». والعلّة فيه – كما فى المبسوط – أنّ استهلال الصّبىّ يكون عند الولادة ، وتلك حالةٌ لا يطّلع عليها الرّجال ، وفى صوته من الضّعف عند ذلك ما لا يسمعه إلاّ من شهد تلك الحالة ، وشهادة النّساء فيما لا يطّلع عليه الرّجل كشهادة الرّجال فيما يطّلعون عليه ، ولهذا يصلّى عليه بشهادة النّساء ، فكذلك يرث .

كما استدلّوا بحديث حذيفة رضى الله عنه أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم « أجاز شهادة القابلة على الولادة » وقال : « شهادة النّساء جائزةٌ فيما لا يطّلع عليه الرّجال » والنّساء جنسٌ فيدخل فيه أدنى ما يتناوله الاسم . وإنّما فرّق أبو حنيفة بين الصّلاة وبين الميراث ، لأنّ الميراث من حقوق العباد فلا يثبت بشهادة النّساء .

١٢ – والمالكيّة ، والإمام أحمد فى روايةٍ أخرى عنه ، وابن أبى ليلى ، وابن شبرمة ، وأبو ثورٍ رأوا أنّه لا يقبل فى الاستهلال أقلّ من امرأتين ، قالوا : لأنّ المعتبر فى الشّهادة شيئان : العدد والذّكورة ، وقد تعذّر اعتبار أحدهما وهو الذّكورة هنا ، ولم يتعذّر اعتبار العدد فبقى معتبراً كسائر الشّهادات .

شهادة الثّلاث :

١٣ – يرى عثمان البتّىّ أنّه لا يقبل فى الاستهلال أقلّ من ثلاث نساءٍ ، والوجه عنده أنّ كلّ موضعٍ قبلت فيه شهادة النّساء كان العدد ثلاثةً ، وهو شهادة رجلٍ وامرأتين ، كما لو كان معهنّ رجلٌ .

١٤ – ولا يقبل الشّافعيّة وهو قول عطاءٍ والشّعبىّ وقتادة وأبى ثورٍ فى الشّهادة على الاستهلال أقلّ من أربعٍ من النّسوة ، لأنّ كلّ امرأتين تقومان مقام رجلٍ واحدٍ ، فقد قال النّبىّ صلى الله عليه وسلم : « شهادة امرأتين شهادة رجلٍ واحدٍ » .

١٥ – أمّا شهادة الرّجال فقد اتّفق الفقهاء على جواز شهادة الرّجلين على الاستهلال ونحوه ، واختلفوا فى جواز شهادة الرّجل الواحد . فأجازها أبو يوسف ومحمّدٌ من الحنفيّة ، وهو مذهب الحنابلة ، وحجّتهم فى ذلك : أنّ الرّجل أكمل من المرأة ، فإذا اكتفى بها وحدها فلأن يكتفى به أولى ، ولأنّ ما قبل فيه قول المرأة الواحدة يقبل فيه قول الرّجل الواحد كالرّواية . وأمّا بقيّة الفقهاء فيمنعونها ، لما تقدّم فى شهادة النّساء .

تسمية المستهلّ :

١٦ – يسمّى المولود إن استهلّ ولو مات عقب ذلك ، وهو مذهب الحنفيّة ، والشّافعيّة ، والحنابلة ، وابن حبيبٍ من المالكيّة ، إلاّ أنّ التّسمية لازمةٌ عند الحنفيّة ، ومندوبةٌ عند غيرهم ، لما روى عن النّبىّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال : « سمّوا أسقاطكم فإنّهم أسلافكم » رواه ابن السّمّاك بإسناده ، قيل : إنّهم يسمّون ليدعوا يوم القيامة بأسمائهم ، فإن لم يعلم للسّقط ذكورةٌ ولا أنوثةٌ سمّى باسمٍ يصلح لهما ، وقال الحنفيّة : إنّ فى تسمية المستهلّ إكراماً له لأنّه من بنى آدم ، ويجوز أن يكون له مالٌ يحتاج أبوه إلى أن يذكر اسمه عند الدّعوى به . أمّا القول الآخر للمالكيّة ، ونسب إلى مالكٍ فهو أنّ من مات ولده قبل السّابع فلا تسمية عليه .

غسل المستهلّ إذا مات ، والصّلاة عليه ، ودفنه :

١٧ – موت المستهلّ إمّا أن يكون قبل الانفصال أو بعده ، فإن كان بعده فإنّه يلزم فيه ما يلزم فى الكبير ، قال ابن المنذر : أجمع أهل العلم على أنّ الطّفل إذا عرفت حياته واستهلّ يصلّى عليه . أمّا بعد الانفصال فإن كان خرج معظمه ، فإنّه يصلّى عليه عند الحنفيّة ، وقيّده فى شرح الدّرّ بما إذا انفصل تامّ الأعضاء . ويصلّى عليه أيضاً عند الشّافعيّة ، إن صاح بعد الظّهور ، وكذلک إن ظهرت أمارات الحياة الأخرى غير الصّياح فى الأظهر ، ولا أثر للاستهلال وعدمه فى غسل الميّت والصّلاة عليه عند الحنابلة ، إذ يوجبون غسل السّقط والصّلاة عليه إذا نزل لأربعة أشهرٍ سواءٌ استهلّ أم لا . وكره المالكيّة غسل الطّفل والصّلاة عليه ما لم يستهلّ صارخاً بعد نزوله . وأمّا الدّفن فإنّ الجنين إذا بلغ أربعة أشهرٍ يجب دفنه ، كما صرّح به الشّافعيّة ، وإن كان لم يبلغها يسنّ ستره بخرقةٍ ودفنه .

استهلال المولود وأثره فى إرثه :

١٨ – الجنين إذا استهلّ بعد تمّام انفصاله – على الاختلاف السّابق فى المراد بالاستهلال – فإنّه يرث ويورث بالإجماع ، لقول النّبىّ صلى الله عليه وسلم : « إذا استهلّ المولود ورث » . وقوله : « الطّفل لا يصلّى عليه ، ولا يرث ، ولا يورث حتّى يستهلّ » وكذا لو خرج ميّتاً ولم يستهلّ فالاتّفاق على أنّه لا يورث ولا يرث . وأمّا لو استهلّ بعد خروج بعضه ثمّ مات قبل تمام انفصاله ، فعند المالكيّة ، وأكثر الشّافعيّة ، والحنابلة لا يرث ولا يورث .

وقال الحنفيّة : يرث ويورث إن استهلّ بعد خروج أكثره ، لأنّ الأكثر له حكم الكلّ ، فكأنّه خرج كلّه حيّاً . وقال القفّال من الشّافعيّة : إن خرج بعضه حيّاً ورث .

الجناية على الجنين إذا مات بعد استهلاله :

١٩ – الجناية على المستهلّ إمّا أن تكون قبل الانفصال أو بعده ، والّتى قبله إمّا أن تكون قبل ظهوره أو بعده .

حكمها قبل الظّهور :

٢٠ – إن تعمّد الجانى ضرب الأمّ فخرج الجنين مستهلاًّ ، ثمّ مات بسبب الاعتداء على الأمّ ففيه ديةٌ كاملةٌ ، سواءٌ أكانت الأمّ حيّةً أم ميّتةً . وهذا باتّفاق المذاهب ، غير أنّ المالكيّة اشترطوا قسامة أوليائه حتّى يأخذوا الدّية ، قال ابن المنذر : أجمع كلّ من نحفظ عنه من أهل العلم أنّ فى الجنين يسقط حيّاً من الضّرب ديةٌ كاملةٌ ، وكذلک الحال إن تعمّد قتل الجنين بضرب أمّه على ظهرها أو بطنها أو رأسها عند الأئمّة الثّلاثة .

أمّا المالكيّة ، فقد اختلفوا فى الواجب فى هذه الجناية ، فأشهب قال : لا قود فيه ، بل تجب الدّية فى مال الجانى بقسامةٍ ، قال ابن الحاجب : وهو المشهور .

وقال ابن القاسم : يجب القصاص بقسامةٍ ، قال فى التّوضيح : وهو مذهب المدوّنة .

حكمها بعد الظّهور :

٢١ – إن ظهر الجنين ثمّ صاح ، ثمّ جنى جانٍ عليه عمداً فالأصحّ أنّ فيه القصاص عند الشّافعيّة والحنابلة . وعند الحنفيّة إن ظهر أغلبه . وفى الفتاوى الهنديّة : فإن كان ذبحه رجلٌ حالماً يخرج رأسه فعليه الغرّة لأنّه جنينٌ ، وإن قطع أذنه وخرج حيّاً ثمّ مات فعليه الدّية . ومقابل الأصحّ عند الشّافعيّة والحنابلة الاعتبار بالانفصال التّامّ .

الجناية بعد الانفصال :

٢٢ – قتل المستهلّ بعد الانفصال كقتل الكبير ، فيه القصاص أو الدّية . وكذلك إن انفصل بجنايةٍ وبه حياةٌ مستقرّةٌ فقتله جانٍ آخر . أمّا إن نزل فى حالةٍ لا يحتمل أن يعيش معها ، وقتله شخصٌ آخر فإنّ الضّامن هو الأوّل ، ويعزّر الثّانى .

الاختلاف فى استهلال المجنىّ عليه :

٢٣ – عند التّنازع فى خروجه حيّاً يراعى قول الضّارب عند الحنفيّة ، والمالكيّة ، وعلى هذا الشّافعيّة ، والحنابلة فى أحد قوليهم وهو المذهّب لكن مع اليمين ، لأنّ الأصل نزول الولد غير مستهلٍّ ، فمدّعى عدم الاستهلال لا يحتاج إلى إثباته ، ومدّعيه يحتاج إلى إثباته . والقول الثّانى عند الحنابلة : أنّ المعتبر قول الولىّ .

استواءٌ ❊

التعريف :

١ – من معانى الاستواء فى اللّغة : المماثلة والاعتدال . وقد استعمله الفقهاء بالمعنى اللّغوىّ مطلقاً بمعنى المماثلة كما فى قولهم : إذا استوى اثنان فى الدّرجة والإدلاء استويا فى الميراث . وبمعنى الاعتدال كقولهم فى الصّلاة : إذا رفع المصلّى رأسه من الرّكوع استوى قائماً . واستعملوه مقيّداً بالوقت فقالوا : وقت الاستواء أى استواء الشّمس قاصدين وقت قيام الشّمس فى كبد السّماء ، لأنّها قبل ذلك مائلةٌ غير مستقيمةٍ .

الحكم الإجمالىّ ، ومواطن البحث :

٢ – تكره صلاة النّافلة وقت استواء الشّمس عند الحنفيّة والشّافعيّة والحنابلة ، لما روى عقبة بن عامرٍ قال : « ثلاث ساعاتٍ كان رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ينهانا أن نصلّى فيهنّ ، وأن نقبر فيهنّ موتانا : حين تطلع الشّمس بازغةً حتّى ترتفع ، وحين يقوم قائم الظّهيرة حتّى تميل الشّمس ، وحين تضيف الشّمس للغروب حتّى تغرب » ولا يكره ما له سببٌ كسجود التّلاوة وصلاة الجنازة ، وفى روايةٍ أخرى للحنابلة الكراهة مطلقاً .

ويزيد الحنفيّة على ذلك النّهى عن الفرض ، وعن سجدة التّلاوة ، وصلاة الجنازة فى هذا الوقت . أمّا المالكيّة فلم يرد ذكرٌ لمنع الصّلاة عندهم فى هذا الوقت فى المشهور كما قال ابن جزىٍّ . وللفقهاء تفصيلٌ فى ذلك ينظر فى أوقات الصّلوات .

استياكٌ ❊

التعريف :

١ – الاستياك لغةً : مصدر استاك . واستاك : نظّف فمه وأسنانه بالسّواك ، ومثله تسوّك . ويقال : ساك فمه بالعود يسوكه سوكاً إذا دلكه به . ولفظ السّواك يطلق ويراد به الفعل ، ويطلق ويراد به العود الّذى يستاك به ، ويسمّى أيضاً المسواك .

ولا يخرج المعنى الاصطلاحىّ عن ذلك .

الألفاظ ذات الصّلة :

تخليل الأسنان :

٢ – هو إخراج ما بينهما من فضلاتٍ بالخلال ، وهو عودٌ أو نحوه وفى الحديث : « رحم اللّه المتخلّلين من أمّتى فى الضّوء والطّعام » فالفرق بينه وبين الاستياك : أنّ التّخليل خاصٌّ بإخراج ما بين الأسنان ، أمّا السّواك فهو لتنظيف الفم والأسنان بنوعٍ من الدّلك .

حكمة مشروعيّة السّواك :

٣ – السّواك سببٌ لتطهير الفم ، موجبٌ لمرضاة الرّبّ . لحديث عائشة رضوان اللّه عليها عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أنّه قال : « السّواك مطهرةٌ للفم ، مرضاةٌ للرّبّ » حديثٌ صحيحٌ .

حكمه التّكليفىّ :

٤ – يعترى الاستياك أحكامٌ ثلاثةٌ :

الأوّل : النّدب ، وهو القاعدة العامّة عند فقهاء المذاهب الأربعة ، حتّى حكى النّوويّ إجماع من يعتدّ برأيهم من العلماء عامّةً على ذلک ، لحديث أبى هريرة عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أنّه قال : « لولا أن أشقّ على أمّتى لأمرتهم بالسّواک عند كلّ صلاةٍ » قال الشّافعىّ : لو كان واجباً لأمرهم به ، شقّ أو لم يشقّ ، وفى الحديث أيضاً « السّواک مطهرةٌ للفم مرضاةٌ للرّبّ » ولمواظبة النّبىّ صلى الله عليه وسلم عليه حتّى فى النّزع ، وتسميته إيّاه من خصال الفطرة .

الثّانى : الوجوب ، وبه قال إسحاق بن راهويه ، فقد رأى أنّ الأصل فى الاستياک الوجوب لا النّدب ، واحتجّ لذلک بظاهر الأمر فى الحديث « أمر النّبىّ صلى الله عليه وسلم بالوضوء لكلّ صلاةٍ ، طاهراً أو غير طاهرٍ ، فلمّا شقّ ذلک عليه أمر بالسّواک لكلّ صلاةٍ » .

الثّالث : الكراهة ، إذا استاک فى الصّيام بعد الزّوال عند الشّافعيّة ، وهو الرّواية الأخرى للحنابلة ، وأبى ثورٍ وعطاءٍ ، لحديث الخلوف الآتى . ومذهب الحنفيّة والمالكيّة والرّواية الأخرى للحنابلة أنّ حكمه فى حال الصّوم وعدمه سواءٌ ، أخذاً بعموم أدلّة السّواک ،

والّذى اختاره بعض أئمّة الشّافعيّة – بعد نظرٍ فى الأدلّة – أنّ السّواک لا يكره بعد الزّوال ، لأنّ عمدة الّذين يقولون بالكراهة حديث الخلوف ولا حجّة فيه ، لأنّ الخلوف من خلوّ المعدة ، والسّواک لا يزيله ، وإنّما يزيل وسخ الأسنان . قاله الأذرعىّ .

الاستياک فى الطّهارة : الوضوء :

٥ – اتّفقت المذاهب الأربعة على أنّ السّواک سنّةٌ عند الوضوء ،

واختلفوا هل هو من سنن الوضوء أم لا ؟ على رأيين :

الأوّل : قال الحنفيّة ، والمالكيّة ، وهو رأىٌ للشّافعيّة : الاستياک سنّةٌ من سنن الوضوء ، لما رواه أبو هريرة عن النّبىّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال : « لولا أن أشقّ على أمّتى لأمرتهم بالسّواک مع كلّ وضوءٍ » وفى روايةٍ « لفرضت عليهم السّواک مع كلّ وضوءٍ » . الثّانى : قال الحنابلة ، وهو الرّأى الأوجه عند الشّافعيّة : السّواک سنّةٌ خارجةٌ عن الوضوء متقدّمةٌ عليه وليست منه . ومدار الحكم عندهم على محلّه ، فمن قال إنّه قبل التّسمية قال ، إنّه خارجٌ عن الوضوء ، ومن قال بعد التّسمية ، قال بسنّيّته للوضوء .

التّيمّم والغسل :

٦ – يستحبّ الاستياک عند التّيمّم والغسل ، ويكون محلّه فى التّيمّم عند ابتداء الضّرب ، وفى الغسل عند البدء فيه .

الاستياک للصّلاة :

٧ – فى الاستياك للصّلاة ثلاثة اتّجاهاتٍ :

الأوّل ، وهو قولٌ للشّافعيّة : يتأكّد الاستياك عند كلّ صلاةٍ فرضها ونفلها ، وإن سلّم من كلّ ركعتين وقرب الفصل ، ولو نسيه سنّ له قياساً تداركه بفعلٍ قليلٍ ، لقوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصّحيح « لولا أن أشقّ على أمّتى لأمرتهم بالسّواك عند كلّ صلاةٍ ، أو مع كلّ صلاةٍ » .

الثّانى : لا يسنّ الاستياك للصّلاة ، بل للوضوء ، وهو رأىٌ للحنفيّة ، فلو أتى به عند الوضوء لا يسنّ له أن يأتى به عند الصّلاة ، لقوله صلى الله عليه وسلم « لأمرتهم بالسّواك مع كلّ وضوءٍ »

الثّالث : يندب الاستياك لصلاة فرضٍ أو نفلٍ بعدت من الاستياك للعرف ، فلا يندب أن يستاك لكلّ صلاةٍ ما لم يبعد ما بينهما عن الاستياك ، وهو قول المالكيّة ، وروايةٌ عند الحنفيّة .

الاستياك للصّائم :

٨ – اتّفق الفقهاء على أنّه لا بأس بالاستياك للصّائم أوّل النّهار ، واختلفوا فى الاستياك للصّائم بعد الزّوال على ما تقدّم .

السّواك عند قراءة القرآن والذّكر :

٩ – ينبغى لقارئ القرآن إذا أراد القراءة أن ينظّف فمه بالسّواك . ويستحبّ كذلك عند قراءة حديثٍ أو علمٍ .

كما يستحبّ الاستياك عند سجدة التّلاوة ، ومحلّه بعد فراغ القراءة لآية السّجدة وقبل الهوىّ للسّجود . وهذا إذا كان خارج الصّلاة ، أمّا إذا كان فى الصّلاة فلا ، لانسحاب سواك الصّلاة عليها ، وكذلك القراءة .

ويستحبّ إزالة الأوساخ وقلح الفم بالسّواك عند ذكر اللّه تعالى ، لأنّ الملائكة تحضر مجالس الذّكر ، وتتأذّى ممّا يتأذّى منه بنو آدم ، ولذلك استحبّ الفقهاء استياك المحتضر عند الموت ، وقالوا : إنّه يسهّل خروج الرّوح ، لنفس العلّة .

ويستحبّ كذلك الاستياك عند قيام اللّيل ، لما روى حذيفة قال : « كان النّبىّ صلى الله عليه وسلم إذا قام من اللّيل يشوص فاه بالسّواك » . ولما رواه مسلمٌ عن ابن عبّاسٍ وعائشة من الأحاديث فى هذا الباب .

مواضع أخرى لاستحباب الاستياك :

١٠ – يستحبّ الاستياك لإذهاب رائحة الفم وترطيبه ، وإزالة صفرة الأسنان قبل الاجتماع بالنّاس لمنع التّأذّى ، وهذا من تمام هيئة المسلم ، وكذلك يستحبّ فى مواطن أخرى ، مثل دخول المسجد ، لأنّ هذا

من تمام الزّينة الّتى أمر اللّه سبحانه وتعالى بها عند كلّ مسجدٍ ، ولما فيه من حضور الملائكة واجتماع النّاس ، وكذلك عند دخول المنزل للالتقاء بالأهل والاجتماع بهم ، لما روى مسلمٌ عن « عائشة رضى الله عنها حينما سئلت بأىّ شىءٍ يبدأ الرّسول صلى الله عليه وسلم : إذا دخل بيته قالت : كان إذا دخل بيته بدأ بالسّواك » . ويستحبّ كذلك عند النّوم ، والجماع ، وأكل ما له رائحةٌ كريهةٌ ، وتغيّر الفم بعطشٍ أو جوعٍ ، أو غيرهما ، أو قيامٍ من نومٍ ، أو اصفرار سنٍّ ، وكذلك لإرادة أكلٍ أو فراغٍ منه . على أنّ السّواك مستحبٌّ فى جميع الأوقات من ليلٍ أو نهارٍ ، لأنّه مطهرةٌ للفم مرضاةٌ للرّبّ كما ورد فى الحديث .

ما يستاك به :

١١ – يستاك بكلّ عودٍ لا يضرّ ، وقد قسّمه الفقهاء بحسب أفضليّته إلى أربعة أقسامٍ :

الأوّل : اتّفق فقهاء المذاهب الأربعة على أنّ أفضله جميعاً : الأراك ، لما فيه من طيبٍ وريحٍ وتشعيرٍ يخرج وينقّى ما بين الأسنان . ولحديث « أبى خيرة الصّباحىّ رضى الله عنه قال : كنت فى الوفد ، يعنى وفد عبد القيس الّذين وفدوا على رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فأمر لنا بأراكٍ فقال : استاكوا بهذا » ولأنّه آخر سواكٍ استاك به رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وللاتّباع سواءٌ كان العود طيّباً أم لا . كما اقتضاه كلام الشّيخين النّووىّ والرّافعىّ . الثّانى : قال به المالكيّة والشّافعيّة والحنابلة ، يأتى بعد الأراك فى الأفضليّة : جريد النّخل ، لما روى« أنّه آخر سواكٍ استاك به رسول اللّه صلى الله عليه وسلم »وقيل وقع الاستياك آخراً بالنّوعين ، فكلٌّ من الصّحابيّين روى ما رأى . ولم يتكلّم الحنفيّة على النّخل .

الثّالث : الزّيتون . وقد استحبّه فقهاء المذاهب الأربعة ، لحديث « نعم السّواك الزّيتون من شجرةٍ مباركةٍ ، تطيّب الفم وتذهب الحفر وهو سواكى وسواك الأنبياء قبلى » .

الرّابع : ثمّ بما له رائحةٌ ذكيّةٌ ولا يضرّ . قال الحنفيّة والشّافعيّة والمالكيّة : يستاك بقضبان الأشجار النّاعمة الّتى لا تضرّ ، ولها رائحةٌ طيّبةٌ تزيل القلح كالقتادة والسّعد . وقال الحنابلة : يكره بكلّ ذى رائحةٍ ذكيّةٍ ، ولم يقيّدوه بالضّرر . ومثّلوا له بالرّيحان والرّمّان .

ما يحظر الاستياك به أو يكره :

١٢ – يكره الاستياك بكلّ عودٍ يدمى مثل الطّرفاء والآس ، أو يحدث ضرراً أو مرضاً مثل الرّيحان والرّمّان ، لما روى الحارث فى مسنده عن ضمير بن حبيبٍ قال « نهى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم عن السّواك بعود الرّيحان وقال : إنّه يحرّك عرق الجذام » ويعرف ذلك أهل الطّبّ ، نصّوا على ذلك فقالوا : يكره كلّ ما يقول الأطبّاء إنّ فيه فساداً . ويحرم الاستياك بالأعواد السّامّة لإهلاكها أو شدّة ضررها . وهذا لا يعلم فيه خلافٌ بين العلماء . وفى حصول السّنّة بالاستياك بالمحظور قولان للشّافعيّة :

الأوّل : إنّه محصّلٌ للسّنّة ، لأنّ الكراهة والحرمة لأمرٍ خارجٍ ، وحملوا الطّهارة على الطّهارة اللّغويّة (أى النّظافة) .

الثّانى ، وهو المعتمد عندهم : لا تحصل به السّنّة ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « السّواك مطهرةٌ للفم » . وهذا منجّسٌ بجرحه اللّثة وخروج الدّم ، لخشونته .

صفات السّواك :

١٣ – يسحب أن يكون الاستياك بعودٍ متوسّطٍ فى غلظ الخنصر ، خالٍ من العقد ، لا رطباً يلتوى ، لأنّه لا يزيل القلح (وسخ الأسنان) ولا يابساً يجرح اللّثة ، ولا يتفتّت فى الفم ، والمراد أن يكون ليّناً ، لا غاية فى النّعومة ، ولا فى الخشونة .

السّواك بغير عودٍ :

١٤ – أجاز بعض الفقهاء الاستياك بغير عودٍ ، مثل الغاسول والأصبع ، واعتبروه محصّلاً للسّنّة ، ونفاه آخرون ولم يعتبروه . والمسألة فى الغاسول (الأشنان) على رأيين : فالحنفيّة ، والشّافعيّة : أجازوا استعمال الغاسول فى الاستياك ، وقالوا : إنّه محصّلٍ للمقصود ومزيلٌ للقلح ، ويتأدّى به أصل السّنّة ، وأجاز الحنفيّة العلك للمرأة بدل السّواك . أمّا المالكيّة ، والحنابلة فقالوا : لو استعمل الغاسول عوضاً عن العيدان لم يأت بالسّنّة .

أمّا الاستياك بالأصبع ففيه ثلاثة أقوالٍ :

الأوّل : تجزئ الأصبع فى الاستياك مطلقاً ، فى رأىٍ لكلٍّ من المالكيّة والشّافعيّة والحنابلة ، لما روى عن « علىّ بن أبى طالبٍ رضى الله عنه أنّه توضّأ فأدخل بعض أصابعه فى فيه ... وقال : هكذا كان وضوء نبىّ اللّه صلى الله عليه وسلم » .

الثّانى : تجزئ الأصبع عند عدم وجود غيرها ، وهو مذهب الحنفيّة ، وهو رأىٌ آخر لكلٍّ من المالكيّة والشّافعيّة ، لما رواه أنس بن مالكٍ رضى الله عنه « أنّ رجلاً من بنى عمرو بن عوفٍ قال : يا رسول اللّه إنّك رغّبتنا فى السّواك ، فهل دون ذلك من شىءٍ قال : أصبعيك سواكٌ عند وضوئك ، أمرّهما على أسنانك » .

الثّالث : لا تجزئ الأصبع فى الاستياك . وهو رأىٌ ثالثٌ للشّافعيّة ، والرّأى الآخر للحنابلة ، وعلّلوا ذلك بأنّ الشّرع لم يرد به ولا يحصل الإنقاء به حصوله بالعود .

كيفيّة الاستياك :

١٥ – يندب إمساك السّواك باليمنى ، لأنّه المنقول عن النّبىّ صلى الله عليه وسلم فيما اتّفق عليه من حديث عائشة رضوان اللّه عليها قالت : « كان النّبىّ صلى الله عليه وسلم يعجبه التّيامن فى تنعّله وترجّله وطهوره ، وفى شأنه كلّه » وفى روايةٍ « وسواكه » ،« ثمّ يجعل الخنصر أسفل السّواك والأصابع فوقه ، كما رواه ابن مسعودٍ عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ». ويبدأ من الجانب الأيمن ويمرّ به عرضاً أى عرض الأسنان ، لأنّ استعماله طولاً قد يجرح اللّثة ، لما روى عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أنّه قال : « استاكوا عرضاً وادّهنوا غبّاً » أى يوماً بعد يومٍ « واكتحلوا وتراً » . ثمّ يمرّ به على أطراف الأسنان العليا والسّفلى ظهراً وبطناً ، ثمّ على كراسىّ الأضراس ، ثمّ على اللّثة واللّسان وسقف الحلق بلطفٍ . ومن لا أسنان له يستاك على اللّثة واللّسان وسقف الحلق ، لأنّ السّواك وإن كان معقول المعنى إلاّ أنّه ما عرى عن معنى التّعبّد ، وليحصل له ثواب السّنّة .

وهذه الكيفيّة لا يعلم فيها خلافٌ .

آداب السّواك :

١٦ – ذكر الفقهاء آداباً للمستاك يستحبّ اتّباعها ، منها :

أ – يستحبّ ألاّ يستاك بحضرة الجماعة ، لأنّه ينافى المروءة ، ويتجنّب الاستياك فى المسجد ، وفى المجالس الحافلة خلافاً لابن دقيق العيد .

ب – ويستحبّ أن يغسل سواكه بعد الاستياك لتخليصه ممّا علق به ، لحديث عائشة « كان النّبىّ صلى الله عليه وسلم يستاك ، فيعطينى السّواك لأغسله ، فأبدأ به فأستاك ، ثمّ أغسله وأدفعه إليه » كما يسنّ غسله للاستياك به مرّةً أخرى .

ج – ويستحبّ حفظ السّواك بعيداً عمّا يستقذر .

تكرار الاستياك ، وبيان أكثره وأقلّه :

١٧ – اتّفق الفقهاء على تكرار الاستياك حتّى يزول القلح ، ويطمئنّ على زوال الرّائحة إذا لم يزل إلاّ بالتّكرار ، لما روى عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أنّه قال : « إنّى لأستاك حتّى لقد خشيت أن أحفى مقادم فمى » . واختلفوا فى أقلّه على ثلاثة آراءٍ :

١ – أن يمرّ السّواك على أسنانه ثلاث مرّاتٍ . وهو المستحبّ عند الحنفيّة ، والأكمل عند الشّافعيّة للسّنّة فى التّثليث ، وليطمئنّ القلب بزوال الرّائحة واصفرار السّنّ .

٢ – يكفى مرّةً واحدةً إذا حصل بها الإنقاء ، وهو رأىٌ للشّافعيّة ، وتحصل السّنّة الكاملة بالنّيّة .

٣ – لا حدّ لأقلّه ، والمراد هو زوال الرّائحة ، فما زالت به الرّائحة حصلت به السّنّة ، وهو روايةٌ للحنفيّة وقول المالكيّة ، والحنابلة .

إدماء السّواك للفم :

١٨ – إذا عرف أنّ من عادته إدماء السّواك لفمه استاك بلطفٍ ، فإن أدمى بعد ذلك ، كان الحكم على حالتين :

الأولى : إن لم يجد ماءً وضاق الوقت عن الصّلاة حرم الاستياك خشية تنجيس فمه .

الثّانية : إن وجد الماء واتّسع الوقت قبل الصّلاة لم يندب ، بل يجوز لما فيه من المشقّة والحرج .

استيامٌ ❊

انظر : سومٌ .

استيداعٌ ❊

انظر : وديعةٌ .

استيطانٌ ❊

انظر : وطنٌ .

استيعابٌ ❊

التعريف :

١ – الاستيعاب فى اللّغة : الشّمول والاستقصاء والاستئصال فى كلّ شىءٍ . يقال فى الأنف أوعب جدعه : إذا قطعه كلّه ولم يبق منه شيئاً .

والفقهاء يستعملون الاستيعاب بهذا المعنى . فيقولون : استيعاب العضو بالمسح أو الغسل ، ويعنون به شمول المسح أو الغسل كلّ ، جزءٍ من أجزاء العضو .

الألفاظ ذات الصّلة :

أ – الإسباغ :

٢ – الإسباغ هو : الإتمام والإكمال . يقال : أسبغ الوضوء إذا عمّ بالماء جميع الأعضاء بحيث يجرى عليها ، فالإسباغ والاستيعاب متقاربان .

ب – الاستغراق :

٣ – الاستغراق هو : الشّمول لجميع الأفراد دفعةً واحدةً ، فالفرق بينه وبين الاستيعاب أنّ الاستغراق لا يستعمل إلاّ فيما له أفرادٌ بخلاف الاستيعاب .

الحكم الإجمالىّ ومواطن البحث :

يختلف الحكم التّكليفىّ للاستيعاب حسب مواطنه المختلفة فى العبادات وغيرها .

أ – الاستيعاب الواجب :

٤ – حيثما كان غسل اليدين أو الأعضاء فى الطّهارة واجباً كان الاستيعاب واجباً فيه أيضاً ، بخلاف ما وجب مسحه كالرّأس فلا يجب استيعابه على خلافٍ فى ذلک .

ومن الواجب استيعاب الأوقات الّتى لا تسع من الأعمال غير ما عيّن لها كالصّوم يستوعب جميع الشّهر وجميع النّهار ، وكمن نذر الاشتغال بالقرآن وعيّن كلّ ما بين المغرب والعشاء ، يجب عليه استيعاب ذلک الوقت . واستيعاب النّيّة للعبادة ، فلا يصحّ إخلاء جزءٍ منها من النّيّة ، لذلک وجب أن يقترن أوّل العبادة بالنّيّة ، ثمّ لا تنقطع إلى آخر العمل ، فإن انقطعت فسدت العبادة على خلافٍ وتفصيلٍ بين الفقهاء يرجع إليه فى مصطلح (نيّةٌ) .

ويستثنى من ذلک الحجّ والعمرة حيث لا يفسدهما انقطاع النّيّة .

واستيعاب النّصاب كلّ الحول مختلفٌ فيه ، فبعضهم يرى اشتراطه لوجوب الزّكاة وبعضهم يكتفى فى ذلک بتمامه فى طرفى الحول . انظر (زكاةٌ) .

ب – الاستيعاب المندوب :

٥ – منه استيعاب الرّأس بالمسح ، فهو مندوبٌ عند الحنفيّة ، والشّافعيّة ، وهو روايةٌ عن أحمد ، وواجبٌ عند المالكيّة ، وروايةٌ أخرى عن أحمد . وتفصيل ذلک فى (وضوءٌ) . ومنه استيعاب المزكّى الأصناف الثّمانية فى مصارف الزّكاة ، والّذين قالوا باستحبابه قالوه خروجاً من خلاف الشّافعيّة ، والقائلين بوجوبه .

٦ – ومن خطاب الوضع إذا استوعب الإغماء أو الجنون يوماً كاملاً تسقط الصّلاة على خلافٍ موطن بيانه فى مصطلحات (صلاةٌ) ، (إغماءٌ) ، (جنونٌ) .

ج – الاستيعاب المكروه :

٧ – يكره للإنسان استيعاب جميع ماله بالتّبرّع أو الصّدقات ، وقد فصّل الفقهاء ذلک فى كتاب الصّدقات .

استيفاءٌ ❊

التعريف :

١ – الاستيفاء : مصدر استوفى ، وهو أخذ صاحب الحقّ حقّه كاملاً ، دون أن يترک منه شيئاً . ولا يخرج استعمال الفقهاء عن هذا المعنى .

الألفاظ ذات الصّلة :

القبض :

٢ – قبض الدّين أخذه ، وهو كما يكون فى الدّيون يكون كذلك فى الأعيان ، فالقبض أعمّ من الاستيفاء .

علاقة الاستيفاء بالإبراء والحوالة :

٣ – من تقسيمات الإبراء عند الحنفيّة أنّه : إمّا إبراء إسقاطٍ ، أو إبراء استيفاءٍ ، ففى الكفالة لو قال الدّائن للكفيل : برئت إلىّ من المال ، كان إبراء استيفاء لكلٍّ من الكفيل والدّائن ، أمّا لو قال : أبرأتك ، فإنّه يكون إبراء إسقاطٍ ، يبرّأ به الكفيل فقط .

وتفصيله فى مصطلح (إبراءٌ) .

وقد اختلف الفقهاء فى ترجيح حقيقة الحوالة ، هل هى بيعٌ أو استيفاءٌ ؟ قال النّووىّ : والتّرجيح مختلفٌ فى الفروع بحسب المسائل ، لقوّة الدّليل وضعفه ، ومن أمثلة ذلك : لو خرج المحال عليه مفلساً ، وقد شرط يساره ، فالأصحّ لا رجوع للمحال ، بناءً على أنّها استيفاءٌ ، ومقابله : له الرّجوع بناءً على أنّها بيعٌ .

من له حقّ الاستيفاء :

٤ – يختلف من له حقّ الاستيفاء باختلاف الحقّ المراد استيفاؤه ، إذ هو إمّا حقٌّ خالصٌ للّه سبحانه وتعالى ، أو حقٌّ خالصٌ للعبد ، كالدّيون ، أو حقٌّ مشتركٌ . وبعض الفقهاء يقسّم هذا الحقّ المشترك إلى قسمين : ما غلب فيه حقّ اللّه كحدّ السّرقة ، وما غلب فيه حقّ العبد كالقصاص . والمراد بحقّ العبد المحض : ما يملك إسقاطه ، على معنى أنّه لو أسقطه لسقط ، وإلاّ فما من حقٍّ للعبد إلاّ وفيه حقٌّ للّه تعالى ، وهو أمره بإيصال ذلك الحقّ إلى مستحقّه ، فيوجد حقٌّ للّه تعالى دون حقٍّ للعبد ، ولا يوجد حقٌّ لعبدٍ إلاّ وفيه حقٌّ للّه تعالى .

استيفاء حقوق اللّه تعالى

أوّلاً : استيفاء الحدود :

٥ – يجب على ولىّ الأمر إنفاذ الحدود ، ولا يملك ولىّ الأمر ولا غيره إسقاطها بعد ثبوتها لديه ، والّذى يتولّى استيفاءها هو ولىّ الأمر أو من ينيبه ، فإن استوفاها غيره دون إذنه يعزّر لافتياته عليه .

أ – كيفيّة استيفاء حدّ الزّنا :

٦ – حدّ الزّنا إمّا الرّجم ، وإمّا الجلد : وعلى كلٍّ فإمّا أن يكون الزّنا قد ثبت بالبيّنة أو بالإقرار ، فإن كان قد ثبت بالبيّنة ، فالحنفيّة يشترطون أن يحضر الشّهود ، وأن يبدءوا بالرّجم ، فإن امتنعوا سقط الحدّ .

وغير الحنفيّة لا يشترطون حضور الشّهود ، إلاّ أنّ الشّافعيّة والحنابلة يرون حضورهم مستحبّاً ، أمّا

المالكيّة فلا يرون حضورهم واجباً ولا مستحبّاً . والكلّ مجمعٌ فى هذه الحالة على أنّه إن حاول الهرب لا يمكّن من ذلک ، بل قال بعضهم بأنّه إن خيف هربه يقيّد أو يحفر له . وإن كانت امرأةً يحفر لها ، أو تربط عليها ثيابها حتّى لا تتكشّف . وأمّا إن كان قد ثبت بالإقرار ، فهم مجمعون على أنّه إن حاول الهرب لم يتّبع ، ويوقف التّنفيذ ، جلداً كان أو رجماً ، ويعتبر ذلک رجوعاً عن إقراره . وهناک تفصيلاتٌ وخلافٌ فى بعض هذه الأحكام يرجع إليها فى مصطلح (حدّ الزّنا) .

وإذا كان الحدّ جلداً فالكلّ مجمعٌ على نزع ما يلبسه من حشوٍ أو فروٍ .

فإن كان رجلاً ينزع عنه ثيابه إلاّ ما يستر عورته ، ثمّ إن كان المحدود بالجلد مريضاً مرضاً يرجى شفاؤه أرجئ التّنفيذ إلى أن يبرأ ، وإن كان امرأةً حاملاً أرجئ الحدّ مطلقاً – رجماً أو جلداً – إلى أن تضع حملها ، ويستغنى ولدها عن الرّضاع منها .

ب – كيفيّة استيفاء حدّ القذف وحدّ شرب الخمر :

٧ – سبق ما يتّصل بالجلد وحدّ الزّنا ، على أنّه ينبغى فى الجلد فى حدّ الزّنا أن يكون أشدّ منه فى حدّ القذف ، وأن يكون فى حدّ القذف أشدّ منه فى حدّ شرب الخمر .

ويرجع فى تفصيل ذلک إلى (حدّ القذف) (وحدّ الخمر) .

هذا ، وللفقهاء تفصيلاتٌ فى آلة الاستيفاء فى الجلد وملابساته ، ترجع إلى تحقيق عدم تعريض المستوفى منه الحدّ إلى التّلف جزئيّاً أو كلّيّاً ، وتفصيلات ذلک فى الحدود . وانظر أيضاً مصطلح (جلدٌ) ومصطلح (رجمٌ) . هذا ، وقد صرّح الفقهاء بأنّ مبنى إقامة الحدود على العلانية ، وذلک لقوله تعالى : { وليشهد عذابهما طائفةٌ من المؤمنين } ولكى يحصل الرّدع والزّجر ، فيأمر الإمام قوماً غير من يقيمون الحدّ بالحضور .

ج – كيفيّة استيفاء حدّ السّرقة :

٨ – حدّ السّرقة من الحقوق المشتركة كحدّ القذف ، ولا خلاف بين الفقهاء فى أنّ الّذى يقيم حدّ القذف وحدّ السّرقة هو الإمام .

والتّفصيل فى شروط ثبوت الحدود ، وحالات سقوطها يذكر فى أبواب الحدود .

أمّا كيفيّة الاستيفاء فى حدّ السّرقة ، فالفقهاء صرّحوا بأنّه إذا وجب القطع فى حدّ السّرقة بشروطه المبيّنة فى بابه ، فإنّه يستوفى بقطع اليد اليمنى من مفصل الكفّ ، بطريقة تؤمن معها السّراية ، كالحسم بالزّيت أو غيره من الوسائل . لحديث : « اقطعوه ثمّ احسموه » .

د – مكان استيفاء الحدود :

٩ – لا يستوفى حدٌّ ولا قصاصٌ فى المسجد ، حتّى لو وقعت الجناية فيه ، لئلاّ يؤدّى ذلك إلى تلويثه ، أمّا إذا وقعت الجناية فى الحرم دون المسجد فالإجماع على أنّه يقتصّ منه فيه . أمّا إذا وقعت فى الحلّ ولجأ الجانى إلى الحرم ، فقد اختلف فيه : فذهب الحنابلة ومحمّدٌ إلى أنّه لا يخرج ، بل يضطرّ للخروج بمنع الطّعام والشّراب عنه . واستدلّوا بعموم قوله تعالى : { ومن دخله كان آمناً } . وقال أبو يوسف : يباح إخراجه .

وقال المالكيّة : لا يؤخّر بل يقام عليه الحدّ أو القصاص خارج المسجد .

قال فى نهاية المحتاج : لخبر الصّحيحين « إنّ الحرم لا يعيذ فارّاً بدمٍ » .

ثانياً : استيفاء التّعزيرات :

١٠ – التّعزيرات الّتى ترجع إلى حقّ اللّه تعالى ، اختلف الفقهاء فيها ، فقال مالكٌ : وجب التّعزير لحقّ اللّه كالحدود ، إلاّ أن يغلب على ظنّ الإمام أنّ غير الضّرب مصلحةٌ من الملامة والكلام . وذهب الحنفيّة والحنابلة إلى أنّه إذا كان منصوصاً من الشّارع على التّعزير وجب ، وإلاّ فللإمام إقامته أو العفو عنه ، حسب المصلحة وحصول الانزجار به أو بدونه ،

وقال الشّافعيّة : هو غير واجبٍ على الإمام ، إن شاء أقامه وإن شاء تركه . وينظر تفصيل هذا وأدلّته فى مصطلح (تعزيرٌ) .

ثالثاً : استيفاء حقوق اللّه الماليّة :

أ – استيفاء الزّكوات :

١١ – مال الزّكاة نوعان : ظاهرٌ ، وهو المواشى والزّروع والمال الّذى يمرّ به التّاجر على العاشر ، وباطنٌ : وهو الذّهب والفضّة ، وأموال التّجارة فى مواضعها .

وولاية أخذ الزّكاة فى الأموال الظّاهرة للإمام فى مذاهب : الحنفيّة ، والمالكيّة ، وأحد قولى الشّافعيّة . ودليل ذلك قول اللّه تعالى : { خذ من أموالهم صدقةً } والّذى عليه عامّة أهل التّأويل أنّ المراد بالصّدقة الزّكاة ، وكذلك قوله تعالى : { إنّما الصّدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها } فقد جعل اللّه تعالى للعاملين عليها حقّاً ولو لم يكن للإمام أن يطالب أرباب الأموال بصدقات الأنعام والزّروع فى أماكنها ، وكان أداؤها إلى أرباب الأموال ، لم يكن لذكر العاملين وجهٌ . وكان الرّسول عليه الصلاة والسلام والأئمّة بعده يبعثون المصدّقين إلى أحياء العرب والبلدان والآفاق ، لأخذ الصّدقات من الأنعام والمواشى فى أماكنها .

وقال الحنفيّة : إنّه يلحق بالأموال الظّاهرة المال الباطن إذا مرّ به التّاجر على العاشر ، فله أن يأخذ منه الزّكاة فى الجملة ، لأنّه لمّا سافر به وأخرجه من العمران صار ظاهراً والتحق بالسّوائم ، وهذا لأنّ الإمام إنّما كان له المطالبة بزكاة المواشى فى أماكنها لمكان الحماية ، لأنّ المواشى فى البرارىّ لا تصير محفوظةً إلاّ بحفظ السّلطان وحمايته ، وهذا المعنى موجودٌ فى مالٍ يمرّ به التّاجر على العاشر فكان كالسّوائم . وعليه إجماع الصّحابة رضى الله عنهم . وهذا الحكم (دفع زكاة الأموال الظّاهرة إلى الأئمّة) إذا كان الأئمّة عدولاً فى أخذها وصرفها . وإن كانوا غير عدولٍ فى غير ذلك ، وذلك مذهب المالكيّة ، فإن طلبها الإمام العدل فادّعى المزكّى إخراجها لم يصدّق ، والّذى فى كتب الحنفيّة أنّ السّلاطين الّذين لا يضعون الزّكاة مواضعها إذا أخذوا الزّكاة أجزأت عن المزكّين ، لأنّ ولاية الأخذ لهم ، فلا تعاد . وقال بعضهم : يسقط الخراج ولا تسقط الزّكوات . ومؤدّى هذا أنّه إذا كان الإمام غير عادلٍ فللمزكّى إخراج زكاته .

والمنصوص عليه فى مذهب الشّافعيّة . أنّه إذا كان الإمام عدلاً ففيها قولان : أحدهما أنّه محمولٌ على الإيجاب ، وليس لهم التّفرّد بإخراجها ، ولا تجزّئهم إن أخرجوها .

ومذهب الحنابلة لا يختلف عن الجمهور فى الأموال الظّاهرة ، أمّا فى الأموال الباطنة فقد صرّح أبو يعلى بأنّه ليس لوالى الصّدقات نظرٌ فى زكاتها ، وأربابها أحقّ منه بإخراجها إلاّ أن يبذل ربّ المال زكاتها طوعاً ، والمذهب أنّ للإمام طلب زكاة الأموال الباطنة أيضاً . وإذا تأكّد الإمام أنّ أرباب الأموال لا يؤدّون زكاتها أجبرهم على إيتائها ولو بالقتال ، كما فعل أبو بكرٍ رضى الله عنه بما يفى الزّكاة ، وهذا إن كان الإمام يضعها موضعها ، وإلاّ فلا يقاتلهم .

ب – استيفاء الكفّارات والنّذور :

١٢ – ليس للإمام ولاية استيفاء الكفّارات والنّذور ، وإنّما يؤدّيها من وجبت عليه .

وعند الحنابلة يجوز للإمام طلب النّذر والكفّارة على الصّحيح من المذهب ، وهذا هو مذهب الشّافعيّة فى الكفّارة .

استيفاء حقوق العباد :

أوّلاً : استيفاء القصاص :

١٣ – استيفاء القصاص لا بدّ له من إذن الإمام ، فإن استوفاه صاحب الحقّ بدون إذنه وقع موقعه ، وعزّر لافتياته على الإمام . ثمّ إنّ الّذى يستوفى القصاص فيما دون النّفس هو الإمام ، وليس للأولياء ذلك ، لأنّه لا يؤمن منهم التّجاوز أو التّعذيب .

أمّا إن كان القصاص فى النّفس ، فالجمهور على أنّ الولىّ هو الّذى يتولاّه ، لقوله تعالى : { ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً } . وللحديث الّذى فيه : « أنّ الرّسول صلى الله عليه وسلم دفع القاتل إلى أخ المقتول وقال له : دونک صاحبک » . رواه مسلمٌ . وله أن يوكّل فيه ، وإن كانوا أكثر من واحدٍ وكّلوا أحدهم . وذهب الشّافعيّة إلى أنّ الأصل تولّى الإمام أو من ينيبه ذلک ، فإن طلب المستحقّ استيفاء القصاص بنفسه ، ورآه الإمام أهلاً أجابه إلى ذلک ، وإلاّ لم يجبه . وتفصيل الكلام فى هذه المسائل فى مصطلح : (قصاصٌ) . هذا ، وقد صرّح الحنابلة بوجوب حضور الإمام أو نائبه ، ليؤمن التّجاوز أو التّعذيب ، وحضور القاضى الّذى حكم بالقصاص مسنونٌ عند الشّافعيّة . وصرّح الحنفيّة بوجوب حضور صاحب الحقّ رجاء أن يعفو .

أ – كيفيّة استيفاء القصاص فى النّفس :

١٤ – قال الحنفيّة ، وهو روايةٌ عن الحنابلة : إنّ القصاص لا يستوفى إلاّ بالسّيف ، لقول النّبىّ عليه الصلاة والسلام : « لا قود إلاّ بالسّيف » . والقود هو القصاص ، فكان هذا نفى استيفاء القصاص بغير السّيف . وإن أراد الولىّ أن يقتل بغير السّيف لا يمكّن للحديث ، ولو فعل يعزّر ، لكن لا ضمان عليه ، لأنّ القتل حقّه ، فإذا قتله فقد استوفى حقّه بأىّ طريقٍ كان ، إلاّ أنّه يأثم بالاستيفاء بطريقٍ غير مشروعٍ ، لمجاوزته حدّ الشّرع .

وعند المالكيّة والشّافعيّة – وهو إحدى روايتين للحنابلة – أنّ القاتل يقتل بمثل ما قتل به ، ودليله : حديث « اليهودىّ الّذى رضّ رأس مسلمةٍ بين حجرين ، فأمر النّبىّ صلى الله عليه وسلم أن يرضّ رأسه كذلک » . وهذا إن ثبت القتل ببيّنةٍ أو اعترافٍ .

فإن ثبت بقسامةٍ قتل بالسّيف ، إلاّ أن يقع القتل بما هو محرّمٌ .

ب – تأخير استيفاء القصاص :

١٥ – إذا كان ولىّ الدّم واحداً أو أكثر ، وكانوا جميعاً عقلاء بالغين حاضرين ، وطلبوا الاستيفاء أجيبوا . أمّا إذا كان ولىّ الدّم واحداً صغيراً أو مجنوناً ، فقد ذهب الشّافعيّة والحنابلة – وهو قولٌ للحنفيّة – إلى أنّه ينتظر البلوغ أو الإفاقة ، لاحتمال العفو آنئذٍ . وذهب المالكيّة إلى أنّه لا ينتظر ، بل الاستيفاء لولىّ الصّغير ، والقيّم على المجنون . والقول الآخر للحنفيّة أنّ الّذى يستوفى القصاص فى هذه الحال هو القاضى .

وللحنفيّة قولٌ ثالثٌ بأنّ الولىّ إذا كان أباً أو جدّاً يستوفى القصاص عن الصّغير ، وليس ذلک للوصىّ .

أمّا إذا تعدّد أولياء الدّم وكان فيهم كبارٌ وصغارٌ ، فقد ذهب الشّافعيّة وأبو يوسف – وهو روايةٌ عن أحمد – إلى أنّه ينتظر بلوغ الصّغير . وذهب المالكيّة وأبو حنيفة – وهو الرّواية الثّانية عن أحمد – إلى أنّه يستوفيه الكبار . أمّا إن كان بعض الأولياء غائبين فإنّ انتظارهم واجبٌ عند أبى حنيفة والشّافعىّ وأحمد ،

وفصّل المالكيّة فقالوا : ينتظر الغائب إن كانت غيبته قريبةً دون الغائب غيبةً بعيدةً ، وكذلك المجنون جنوناً غير مطبقٍ فإنّه ينتظر .

ج – وقت استيفاء القصاص فيما دون النّفس :

١٦ – ذهب الحنفيّة والمالكيّة والحنابلة إلى أنّه لا يقام القصاص فيما دون النّفس قبل برء المجروح ، لحديث : « لا يستقاد من الجراحة حتّى يبرأ » . والشّافعيّة قالوا : إنّه يقتصّ من الجانى على الفور . وتفصيل ذلك فى مصطلح : (قصاصٌ) .

ثانياً : استيفاء حقوق العباد الماليّة :

أ – استيفاء الحقّ من مال الغير بصفةٍ عامّةٍ :

١٧ – قال ابن قدامة : إذا كان لرجلٍ على غيره حقٌّ ، وهو مقرٌّ به باذلٌ له ، لم يكن له أن يأخذ من ماله إلاّ ما يدليه بلا خلافٍ بين أهل العلم ، فإن أخذ من ماله شيئاً بغير إذنه لزمه ردّه إليه ، وإن كان قدر حقّه ، لأنّه لا يجوز له أن يملك عليه عيناً من أعيان ماله بغير اختياره لغير ضرورةٍ ، وإن كانت من جنس حقّه ، لأنّه قد يكون للإنسان غرضٌ فى العين ، فإن أتلفه أو تلفت فصارت ديناً فى ذمّته ، وكان الثّابت فى ذمّته من جنس حقّه تقاصّا فى قياس المذهب . والمشهور من مذهب الشّافعىّ ، وإن كان المدين مانعاً لأداء الدّين لأمرٍ يبيح المنع كالتّأجيل والإعسار لم يجز أخذ شىءٍ من ماله بغير خلافٍ ، وإن أخذ شيئاً لزمه ردّه إن كان باقياً ، أو عوّضه إن كان تالفاً ، ولا يحصل التّقاصّ هاهنا ، لأنّ الدّين الّذى له لا يستحقّ أخذه فى الحال بخلاف ما ذكر قبل .

وإن كان مانعاً له بغير حقٍّ ، وقدر على استخلاصه بالحاكم أو السّلطان لم يجز له الأخذ أيضاً بغير السّلطان أو الحاكم ، لأنّه قدر على استيفاء حقّه بمن يقوم مقامه ، فأشبه ما لو قدر على استيفائه من وكيله . وإن لم يقدر على ذلك لكونه جاحداً له ، ولا بيّنة له به ، أو لكونه لا يجيبه إلى المحاكمة ولا يمكنه إجباره على ذلك ، أو نحو هذا ، فالمشهور فى المذهب أنّه ليس له أخذ قدر حقّه ، وهو إحدى الرّوايتين عن مالكٍ .

قال ابن عقيلٍ : وقد جعل أصحابنا المحدّثون لجواز الأخذ وجهاً فى المذهب ، أخذاً من حديث هندٍ حين قال لها النّبىّ صلى الله عليه وسلم : « خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف » . قال أبو الخطّاب : ويتخرّج لنا جواز الأخذ ، فإن كان المقدور عليه من جنس حقّه أخذ بقدره ، وإن كان من غير جنسه تحرّى واجتهد فى تقويمه ، مأخوذٌ من حديث هندٍ ، ومن قول أحمد فى المرتهن " يركب ويحلب بقدر

ما ينفق " . والمرأة تأخذ مئونتها وبائع السّلعة يأخذها من مال المفلس بغير رضاً . واحتجّ من أجاز الأخذ بحديث هندٍ السّابق .

وقال الشّافعيّ : إن لم يقدر على استخلاص حقّه بعينه فله أخذ قدر حقّه من جنسه ، أو من غير جنسه ، إن لم يخف الفتنة . وإن كانت له بيّنةٌ وقدر على استخلاص حقّه فالمذهب عند الشّافعيّة : أنّ له أخذ جنس حقّه من ماله ، وكذا غير جنسه للضّرورة .

وفى قولٍ آخر : المنع ، لأنّه لا يتمكّن من تملّكه ، وما كان كذلك لا بدّ فيه من التّراضى .

١٨ – هذا ، وانفرد الشّافعيّة على المذهب أيضاً بأنّ لصاحب الحقّ أخذ حقّه استقلالاً ، ولو كان على مقرٍّ ممتنعٍ ، أو على منكرٍ ولصاحب الحقّ عليه بيّنةٌ ، لأنّ فى الرّفع إلى القضاء مئونةً ومشقّةً وتضييع زمانٍ . والقول الآخر عندهم : يجب الرّفع إلى القاضى ، لإمكان حصوله على حقّه مع وجود الإقرار أو البيّنة .

والرّواية الأخرى من مذهب مالكٍ : أنّه إن لم يكن لغيره عليه دينٌ فله أن يأخذ بقدر حقّه ، وإن كان عليه دينٌ لم يجز ، لأنّهما يتحاصّان فى ماله إذا أفلس . وقال أبو حنيفة : له أن يأخذ بقدر حقّه إن كان نقداً أو من جنس حقّه ، وإن كان المال عرضاً لم يجز ، لأنّ أخذ العوض عن حقّه اعتياضٌ ، ولا تجوز المعاوضة إلاّ بالتّراضى ، لكنّ المفتى به عند الحنفيّة جواز الأخذ من خلاف الجنس . واحتجّ المانعون من الحنابلة بقول النّبىّ صلى الله عليه وسلم : « أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك » ، ومن أخذ منه قدر حقّه من ماله بغير علمه فقد خانه ، فيدخل فى عموم الخبر . وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يحلّ مال امرئٍ مسلمٍ إلاّ عن طيب نفسٍ منه » . ولأنّه إن أخذ من غير جنس حقّه ، كان معاوضةً بغير تراضٍ ، وإن أخذ من جنس حقّه ، فليس له تعيين الحقّ بغير رضا صاحبه فإنّ التّعيين إليه ، ألا ترى أنّه لا يجوز له أن يقول : اقض حقّى من هذا الكيس دون هذا ، ولأنّ كلّ ما لا يجوز له تملّكه إذا لم يكن له دينٌ لا يجوز له أخذه إذا كان له دينٌ ، كما لو كان باذلاً له . لكنّ المانعين استثنوا النّفقة ، لأنّها تراد لإحياء النّفس وإبقاء المهجة ، وهذا ممّا لا يصبر عنه ، ولا سبيل إلى تركه ، فجاز أخذ ما تندفع به الحاجة ، بخلاف الدّين ، ولذلك لو صارت النّفقة ماضيةً لم يكن لها أخذها ، ولو وجب لها عليه دينٌ آخر غير النّفقة لم يكن لها أخذه . وتفصيل ذلك فى مصطلح (نفقةٌ) .

ب – استيفاء المرتهن قيمة الرّهن من المرهون :

١٩ – حقّ المرتهن فى الرّهن أن يمسكه حتّى يؤدّى الرّاهن ما عليه ، فإن لم يأت به عند حلول الأجل كان له أن يرفعه إلى القاضى فيبيع عليه الرّهن ، وينصفه منه ، إن لم يجبه الرّاهن إلى البيع . وكذلك إن كان غائباً ، خلافاً للحنفيّة . وإن وكّل الرّاهن المرتهن على بيع الرّهن عند حلول الأجل جاز ، وكرهه الإمام مالكٌ ، إلاّ أن يرفع الأمر إلى القاضى .

والرّهن عند الجمهور يتعلّق بجملة الحقّ المرهون فيه وببعضه . على معنى أنّ الرّاهن لو أدّى بعض الدّين وبقى بعضه ، فإنّ الرّهن جميعه يبقى بيد المرتهن حتّى يستوفى كلّ حقّه . وقال بعض الفقهاء : بل يبقى من الرّهن بيد المرتهن بقدر ما يبقى من الحقّ .

وحجّة الجمهور أنّه محبوسٌ بحقٍّ ، فوجب أن يكون محبوساً بكلّ جزءٍ منه ، أصله حبس التّركة عن الورثة حتّى يؤدّوا الدّين الّذى على الميّت . وحجّة الفريق الثّانى أنّ جميعه محبوسٌ بجميعه ، فوجب أن تكون أبعاضه محبوسةً بأبعاضه ، أصله الكفالة .

والمرتهن أحقّ بثمن الرّهن من جميع الغرماء ، حتّى يستوفى حقّه ، حيّاً كان الرّاهن أو ميّتاً ، فإذا ضاق مال الرّاهن عن ديونه وطالب الغرماء بديونهم ، أو حجر عليه لفلسه ، وأريد قسمة ماله بين غرمائه ، فإنّ من له رهنٌ يختصّ بثمنه عن سائر الغرماء ، لأنّ حقّه متعلّقٌ بعين الرّهن وذمّة الرّاهن معاً ، وباقى الغرماء يتعلّق حقّهم بذمّة الرّاهن دون عين الرّهن ، فكان حقّ المرتهن أقوى ، وهذا من أكثر فوائد الرّهن ، وهو تقديمه بحقّه عند تزاحم الغرماء ، وليس فى هذا خلافٌ بين المذاهب ، فيباع الرّهن ، فإن كان ثمنه قدر الدّين أخذه المرتهن ، وإن كان فيه زيادةٌ عن دينه ردّ الباقى على الغرماء ، وإن فضل من دينه شىءٌ أخذ ثمنه وشارك الغرماء ببقيّة دينه . وللتّفصيل يرجع إلى باب الرّهن .

ج – حبس المبيع لاستيفاء الثّمن :

٢٠ – المنصوص عليه عند المالكيّة والحنفيّة – وهو قول الحنابلة اختاره ابن قدامة – أنّه إن كان الثّمن ديناً فللبائع أن يمتنع عن تسليم المبيع إلى المشترى حتّى يقضى الثّمن ، ويجبر المشترى على تسليم الثّمن قبل الاستيفاء كالمرتهن . واستدلّوا بأنّه لمّا كان الثّمن غير معيّنٍ وجب دفعه أوّلاً ليتعيّن . وفى رأىٍ للشّافعيّة والحنابلة أنّه إن قال البائع : لا أسلّم المبيع حتّى أقبض الثّمن ، وقال المشترى : لا أسلّمه حتّى أقبض المبيع ، وكان الثّمن عيناً أو عرضاً ، جعل بينهما عدلٌ يقبض منهما ، ويسلّم إليهما . مستدلّين على ذلك بأنّ حقّ البائع قد تعلّق بعين الثّمن ، كما تعلّق حقّ المشترى بعين المبيع فاستويا ، وقد وجب لكلّ واحدٍ منهما على الآخر حقٌّ قد استحقّ قبضه ، فأجبر كلّ واحدٍ منهما على إيفاء صاحبه حقّه ، وهذا قول الثّوريّ . وفى قولٍ للإمام أحمد ، وهو قولٌ ثانٍ للإمام الشّافعيّ : أنّه يجب تسليم المبيع أوّلاً ، ويجبر على ذلك البائع ، لأنّ تسليم المبيع يتعلّق به استقرار البيع وتمامه ، فكان تقديمه أولى ، وإن كان ديناً أجبر البائع على تسليم المبيع ، ثمّ أجبر المشترى على تسليم الثّمن ، لأنّ حقّ المشترى تعلّق بعين المبيع ، وحقّ البائع تعلّق بالذّمّة ، وتقديم ما تعلّق بالعين أولى لتأكّده ، وهذا إن كان الثّمن غير مؤجّلٍ .

د – الاستيفاء فى الإجارة :

١ – استيفاء المنفعة :

٢١ – المنفعة تختلف فى كلّ عقدٍ بحسب المعقود عليه ، واستيفاؤها يكون بتمكين المؤجّر للمستأجر من محلّ العقد . ويكون الاستيفاء فى الأجير الخاصّ (ويسمّى أجير الوحد) بتسليم نفسه مع استعداده للعمل . واستيفاء الإجارة على عملٍ فى عينٍ – كخياطة ثوبٍ مثلاً – يكون بتسليم العين مصنوعةً حسب الاتّفاق .

٢ – استيفاء الأجرة :

٢٢ – استيفاء الأجرة يكون بأحد أمورٍ : إمّا بتعجيل الأجرة من غير شرطٍ ، وإمّا باستيفاء المنفعة فعلاً ، أو التّمكّن منها ، وإمّا باشتراط تعجيلها ، أو التّعارف على التّعجيل كما صرّح به المالكيّة . وفى المسألة خلافٌ وتفصيلٌ يرجع إليه فى مصطلح (إجارةٌ) .

هـ – استيفاء المستعير منفعة ما استعاره :

٢٣ – أورد صاحب المغنى أحكام استيفاء المنفعة فى الإعارة فقال : وإن استعار شيئاً فله استيفاء منفعته بنفسه وبوكيله ، لأنّ وكيله نائبٌ عنه ، ويده كيده ، وليس له أن يؤجّره ، لأنّه لم يملك المنافع ، فلا يصحّ أن يملكها ، ولا نعلم فى هذا خلافاً ، ولا خلاف بينهم أنّ المستعير لا يملك العين ، وأجمعوا على أنّ للمستعير استعمال المعار فيما أذن له فيه ، أمّا إعارته لغيره ففيه خلافٌ وتفصيلٌ موطنه مصطلح (إعارةٌ) .

و – النّيابة فى الاستيفاء :

١ – استخلاف الإمام غيره فى إقامة الحدود :

٢٤ – أجمع فقهاء المذاهب على أنّ للإمام أن يستخلف غيره على إقامة الحدود ، لأنّه لا يقدر على استيفاء الجميع بنفسه ، لأنّ أسباب وجوبها توجد فى أقطار دار الإسلام ، ولا يمكنه الذّهاب إليها ، وفى الإحضار إلى مكان الإمام حرجٌ عظيمٌ ، فلو لم يجز الاستخلاف لتعطّلت الحدود وهذا لا يجوز ، ولهذا « كان عليه الصلاة والسلام يجعل إلى أمرائه تنفيذ الأحكام ، وإقامة الحدود » . والاستخلاف نوعان : تنصيصٌ ، وتوليةٌ .

أمّا التّنصيص : فهو أن ينصّ على إقامة الحدود ، فيجوز للنّائب إقامتها بلا شكٍّ .

والتّولية على نوعين : خاصّةٌ ، وعامّةٌ .

فالعامّة : هى أن يولّى الإمام رجلاً ولايةً عامّةً ، مثل إمارة إقليمٍ أو بلدٍ عظيمٍ ، فيملك المولّى إقامة الحدود وإن لم ينصّ عليها ، لأنّه لمّا قلّده إمارة ذلك البلد فقد فوّض إليه القيام بمصالح المسلمين ، وإقامة الحدود من أعظم مصالحهم ، فيملكها .

والخاصّة : هى أن يولّى رجلاً ولايةً خاصّةً ، مثل جباية الخراج ونحو ذلك ، فلا يملك إقامة الحدود ، لأنّ هذه التّولية لم تتناول إقامة الحدود ، ولو استعمل أميراً على الجيش الكبير ، فإن كان أمير مصرٍ أو مدينةٍ فغزا بجنده ، فإنّه يملك إقامة الحدود فى معسكره ، لأنّه كان يملك الإقامة فى بلده ، فإذا خرج بأهله أو ببعضهم ملك عليهم ما كان يملك فيهم قبل الخروج ، وأمّا من أخرجه أمير البلد غازياً فمن كان يملك إقامة الحدود عليهم قبل خروجه وبعده لم يفوّض إليه الإقامة ، فلا يملك الإقامة .

٢ – الوكالة بالاستيفاء :

٢٥ – ذهب المالكيّة والشّافعيّة وهو الرّاجح عند الحنابلة إلى أنّ كلّ ما يملك الإنسان من التّصرّفات فله أن يوكّل فيه ، ومن ذلك القود والحدود . وقال الحنفيّة : كلّ ما يملك الإنسان أن يستوفيه من الحقوق بنفسه ، يجوز أن يوكّل فيه إلاّ الحدود والقصاص ، فلا يجوز أن يستوفيها الوكيل فى غيبة الموكّل عن مجلس الاستيفاء ، لأنّها تندرئ بالشّبهات . واستدلّ الأئمّة الثّلاثة على جواز التّوكيل فى القود والحدود ، بأنّ النّبىّ عليه الصلاة والسلام قال : « اغد يا أنيس إلى امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها . فاعترفت فرجمت » ولأنّ الحاجة تدعو إلى ذلك ، لأنّ الإمام لا يمكنه تولّى ذلك بنفسه .

ويجوز التّوكيل فى إثباتها . ووافق بعض الحنابلة الحنفيّة على ما قالوه من عدم جواز استيفاء القصاص وحدّ القذف فى غيبة الموكّل .

استيلاءٌ ❊

التّعريف :

١ – من معانى الاستيلاء لغةً : وضع اليد على الشّىء ، والغلبة عليه ، والتّمكّن منه .

وفى اصطلاح الفقهاء : إثبات اليد على المحلّ ، أو الاقتدار على المحلّ حالاً ومآلاً ، أو القهر والغلبة ولو حكماً . وأمّا الفعل المادّىّ الّذى يتحقّق به الاستيلاء فإنّه يختلف تبعاً للأشياء والأشخاص ، أى أنّ مدار الاستيلاء على العرف .

الألفاظ ذات الصّلة :

أ – الحيازة :

٢ – الحيازة والحوز لغةً : الجمع والضّمّ . وشرعاً : وضع اليد على الشّىء والاستيلاء عليه ، كما قال الدّردير .

ب – الغصب :

٣ – الغصب لغةً : أخذ الشّىء قهراً وظلماً . وشرعاً : الاستيلاء على حقّ الغير بلا حقٍّ . فالغصب أخصّ من الاستيلاء ، لأنّ الاستيلاء يكون بحقٍّ وبغير حقٍّ .

ج – وضع اليد :

٤ – يستفاد من كلام الفقهاء أنّ وضع اليد هو : الاستيلاء على الشّىء بالحيازة .

قال ابن عابدين : إنّ وضع اليد والتّصرّف من أقوى ما يستدلّ به على الملك ، ولذا تصحّ الشّهادة بأنّه ملكه ، وليس للإمام أن يخرج شيئاً من يد أحدٍ إلاّ بحقٍّ ثابتٍ معروفٍ ، وفى ذلك خلافٌ وتفصيلٌ .

د – الغنيمة :

٥ – الاغتنام : أخذ الغنيمة ، وهى كما قال أبو عبيدٍ : ما أخذ من أهل العدوّ عنوةً فالاغتنام أخصّ من الاستيلاء .

هـ– الإحراز :

٦ – الإحراز لغةً : جعل الشّىء فى الحرز ، وهو الموضع الحصين الّذى يحفظ فيه الشّىء . وفى الشّرع : حفظ المال فيما يحفظ فيه عادةً ، كالدّار والخيمة ، أو بالشّخص نفسه .

وبين الإحراز والاستيلاء عمومٌ وخصوصٌ . ولذا كان الإحراز شرطاً لترتّب الملك على الاستيلاء فى بعض الصّور ، فينفرد الاستيلاء فى مثل استيلاء الكفّار على أموال المسلمين فى دار الإسلام ، فليس ذلك إحرازاً .

صفة الاستيلاء : حكمه التّكليفىّ :

٧ – يختلف حكم الاستيلاء بحسب الشّىء المستولى عليه ، وتبعاً لكيفيّة الاستيلاء ، فالأصل بالنّسبة للمال المعصوم المملوك للغير أنّ الاستيلاء عليه محرّمٌ ، إلاّ إذا كان مستنداً إلى طريقٍ مشروعٍ . أمّا المال غير المعصوم فإنّه يجوز الاستيلاء عليه وإن كان مملوكاً ، وكذا المال المباح فإنّه يملك بالاستيلاء عليه على ما سيأتى بيانه .

أثر الاستيلاء فى الملك والتّملّك :

٨ – الاستيلاء يفيد الملك إذا ورد على مالٍ مباحٍ غير مملوكٍ لأحدٍ ، على تفصيلٍ يأتى بيانه ، أو كان فى حكم المباح لعدم العصمة ، بأن كان مالاً للحربيّين فى دار الحرب . وهذا إمّا أن يكون منقولاً ، أو عقاراً ، ولكلٍّ حكمه الخاصّ .

٩ – فإن كان المال الّذى تمّ الاستيلاء عليه من الحربيّين منقولاً أخذ بالقهر والغلبة ، فإنّ الملك لا يتحقّق فيه إلاّ بالقسمة بين الغانمين ، فالملك موقوفٌ عليها . وفى قولٍ عند الشّافعيّة أنّ الملك يثبت بنفس الاستيلاء بدار الحرب بعد الفراغ من القتال ، لزوال ملك الكفّار بالاستيلاء ، ووجود مقتضى التّمليك ، وهو انقضاء القتال ، وفى قولٍ أنّ الملك موقوفٌ ، فإن سلّمت الغنيمة إلى القسمة بأنّ ملكهم على الشّيوع . وبالقسمة – ولو فى دار الحرب – ثبت الملك ، ويستقرّ عند جمهور الفقهاء : المالكيّة ، والشّافعيّة ، والحنابلة . وبهذا قال الأوزاعىّ وابن المنذر وأبو ثورٍ ، لما روى أبو إسحاق الفزارىّ قال : قلت للأوزاعىّ : هل قسم رسول اللّه صلى الله عليه وسلم شيئاً من الغنائم بالمدينة ؟ قال : لا أعلمه ، إنّما كان النّاس يتّبعون غنائمهم ويقسمونها فى أرض عدوّهم ،« ولم يقفل رسول اللّه صلى الله عليه وسلم عن غزاةٍ قطّ ، أصاب فيها غنيمةً إلاّ خمّسه وقسّمه من قبل أن يقفل »، ولأنّ الملك ثبت فيها بالقهر والاستيلاء ، فصحّت قسمتها كما لو أحرزت بدار الإسلام ، لأنّ سبب الملك الاستيلاء التّامّ وقد وجد ، فإنّنا أثبتنا أيدينا عليها حقيقةً ، وقهرناهم ونفيناهم عنها ، والاستيلاء يدلّ على حاجة المستولى فيثبت الملك كالمباحات .

١٠ – لكنّ الحنفيّة يرون أنّ الملك لا يثبت للغزاة بدار الحرب بالاستيلاء ، ولكن ينعقد سبب الملك فيها ، على أن يصير علّةً عند الإحراز بدار الإسلام ، وعلى هذا فلم يعتبروا قسمة الغنائم فى دار الحرب قسمة تمليكٍ ، وإنّما هى قسمة حملٍ ، لأنّ ملك الكفّار قائمٌ ، إذ الملك لا يتمّ عليها إلاّ بالاستيلاء التّامّ ، ولا يحصل إلاّ بإحرازها فى دار الإسلام ، وما دام الغزاة فى دار الحرب فاسترداد الكفّار ليس بنادرٍ بل هو محتملٌ .

١١ – وأمّا إن كان المال المستولى عليه من الكفّار بالقهر والغلبة أرضاً ، فإنّ للفقهاء ثلاثة اتّجاهاتٍ : فالحنفيّة ، والحنابلة فى روايةٍ – عليها المذهب عندهم – صرّحوا بأنّ الإمام مخيّرٌ بين أن يقسمها أو يتركها فى يد أهلها بالخراج .

وقال المالكيّة فى المشهور عندهم : إنّها لا تقسم ، ويرصد خراجها فى مصالح المسلمين ، إلاّ أن يرى الإمام فى وقتٍ أنّ المصلحة تقتضى القسمة ، والقول بأنّها تصير وقفاً بالاستيلاء ، ويرصد خراجها لصالح المسلمين روايةٌ عند الحنابلة . وقال الشّافعيّة : إنّها تملك للفاتحين كالمنقول . وهو روايةٌ عند الحنابلة ،

وبه قال ابن رشدٍ المالكىّ ، وهو قولٌ عند المالكيّة يقابل المشهور ، وقالوا : إنّ الاستيلاء الحكمىّ كالحقيقىّ فى ترتّب الملك على الاستيلاء .

١٢ أمّا الأرض الّتى استولى عليها المسلمون بعد جلاء الكفّار عنها خوفاً ، فإنّها تصير بالاستيلاء عليها وقفاً لمصالح المسلمين . وأمّا الأرض الّتى استولى عليها المسلمون صلحاً فإنّها تبقى فى أيدى أصحابها ، إذا كان الصّلح على أن تبقى فى ملكيّتهم ، ويوضع عليها الخراج . أمّا إذا كان الصّلح على أن يتملّكها المسلمون فإنّها تكون وقفاً لمصالح المسلمين .

١٣ – وأمّا إذا كان الاستيلاء على مالٍ معصومٍ مملوكٍ للغير بطريقٍ من طرق التّملّك ، فإنّ الاستيلاء وحده لا يكسب ملكيّةً ، وإنّما حدوث التّملّك يكون بالسّبب المشروع الّذى يقتضيه كالشّراء والهبة ، وحقّ الاستيلاء فى هذه الحالة يكون أثراً ونتيجةً للتّملّك وليس سبباً له . وأمّا إذا كان الاستيلاء عدواناً ، فإنّه لا يفيد ملكاً .

وبيان ذلك فى مصطلحات (غصبٌ) (وسرقةٌ) .

١٤ – واستيلاء الحاكم على ما يحتكره التّجّار له أثرٌ فى إزالة ملكيّتهم ، إذ للحاكم رفع يد المحتكرين عمّا احتكروه وبيعه للنّاس جبراً ، والثّمن لمالكيه ، على خلافٍ وتفصيلٍ مبيّنٍ فى مصطلح (احتكارٌ) .

ومن ذلك ما قالوه من استيلاء الحاكم على الفائض من الأقوات بالقيمة لإمداد جهةٍ انقطع عنها القوت أو إمداد جنوده ، لأنّ للإمام أن يخرج ذلك إذا كان بحقٍّ ثابتٍ معروفٍ كما يفهم من حاشية ابن عابدين ، والاستيلاء على عمل الصّانع إذا احتاج النّاس إلى صناعة طائفةٍ كالفلاحة والنّساجة ، ومدار الاستيلاء فى الصّورتين على العرف .

استيلاء الكفّار الحربيّين على أموال المسلمين :

١٥ – اختلف الفقهاء فى هذا على ثلاثة أقوالٍ مشهورةٍ :

١ – إنّ ما استردّه المسلمون من أيدى الحربيّين فهو لأربابه ، بناءً على أنّ الكفّار لا يملكون أموال المسلمين بالاستيلاء عليها أصلاً ، وممّن قال بهذا الشّافعيّة ، وأبو ثورٍ وأبو الخطّاب من الحنابلة ، واحتجّوا بما رواه عمران بن حصينٍ أنّه « أسرت امرأةٌ من الأنصار ، وأصيبت العضباء ، فكانت المرأة فى الوثاق ، وكان القوم يريحون نعمهم بين يدى بيوتهم ، فانفلتت مع نعمها ذات ليلةٍ من الوثاق ، فأتت الإبل ، فجعلت إذا دنت من البعير رغا فتتركه ، حتّى تنتهى إلى العضباء ، فلم ترغ . قال : وناقةٌ منوّقةٌ . فقعدت فى عجزها ثمّ زجرتها فانطلقت ، ونذروا بها ، فطلبوها فأعجزتهم . قال : ونذرت للّه إن نجّاها اللّه عليها لتنحرنّها ، فلمّا قدمت المدينة رآها النّاس ، فقالوا : العضباء ناقة رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ، فقالت : إنّها نذرت إن نجّاها اللّه عليها لتنحرنّها . فأتوا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فذكروا ذلك له فقال :

سبحان اللّه ، بئسما جزتها ، نذرت للّه إن نجّاها اللّه عليها لتنحرنّها لا وفاء لنذرٍ فى معصيةٍ ، ولا فيما لا يملك العبد » وفى رواية ابن حجرٍ « لا نذر فى معصية اللّه » .

٢- إنّ ما غنمه الكفّار يملكونه بمجرّد الاستيلاء عليه ، سواءٌ أحرزوه بدارهم أو لم يحرزوه ، وهو روايةٌ عن أحمد . ووجهه أنّ القهر سببٌ يملك به المسلم مال الكافر ، فملك به الكافر مال المسلم ، وعلى هذا إذا استردّ المسلمون ذلك كان غنيمةً سواءٌ بعد الإحراز أو قبله .

٣- إنّ الكفّار يملكون أموال المسلمين بالاستيلاء عليها شرط إحرازها بدارهم ، وهو مذهب الحنفيّة والمالكيّة وروايةٌ عن أحمد ، ودليله « قول النّبىّ صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكّة : وهل ترك لنا عقيلٌ من رباعٍ » ولأنّ العصمة تزول بالإحراز بدار الحرب ، إذ المالك لا يمكنه الانتفاع به إلاّ بعد الدّخول لما فيه من مخاطرةٍ ، إذ الدّار دارهم ، فإذا زال معنى الملك أو ما شرع له الملك يزول الملك ضرورةً ، فباسترداد المسلمين لذلك يكون غنيمةً .

استيلاء الكفّار على بلدٍ إسلامىٍّ :

١٦ - إذا استولى الكفّار على بلدٍ إسلامىٍّ فهل تصير دار حربٍ أم تبقى كما هى دار إسلامٍ ؟ فى هذه المسألة خلافٌ وتفصيلٌ ، فذهب أبو يوسف ومحمّدٌ إلى أنّ دار الإسلام تصير دار كفرٍ بشرطٍ واحدٍ ، وهو إظهار أحكام الكفر . وتفصيل ذلك فى مصطلح (دار الإسلام ودار الحرب) .

إسلام الحربىّ بعد استيلائه على مال المسلم :

١٧ - إذا استولى الحربىّ على مال مسلمٍ بالقهر والغلبة ، وحكم بملكيّته له شرعاً ، ثمّ دخل إلى دار الإسلام مسلماً وهو فى يده ، فهو له ، لقول الرّسول صلى الله عليه وسلم : « من أسلم على شىءٍ فهو له » ولأنّ إسلامه يعصم دمه وماله لخبر الصّحيحين أنّ الرّسول صلى الله عليه وسلم قال : « أمرت أن أقاتل النّاس حتّى يقولوا : لا إله إلاّ اللّه ، فمن قالها فقد عصم منّى ماله ونفسه إلاّ بحقّه ، وحسابه على اللّه » . واستثنى الجمهور من ذلك استيلاءه على الحرّ المسلم فلا يقرّ عليه . قال أبو يوسف : كلّ ملكٍ لا يجوز فيه البيع فإنّ أهل الحرب لا يملكونه إذا أصابوه وأسلموا عليه ، وصرّح المالكيّة بأنّ مثله : الوقف المحقّق ، والمسروق فى فترة عهده ، واللّقطة ، والدّين فى ذمّته ، الوديعة ، وما استأجره من المسلمين حال كفره فلا يقرّ على شىءٍ من ذلك . وقواعد المذاهب الأخرى لا تأبى ذلك .

١٨ - وإذا استولى الكافر الحربىّ على مال مسلمٍ بطريق السّرقة ، أو الاغتصاب من حربىٍّ آخر ، ثمّ أسلم ودخل دار الإسلام وهو فى يده ، فهو له أيضاً عند جمهور الفقهاء ، لأنّه استولى عليه حال كفره فأشبه ما استولى عليه بقهره للمسلمين . وعن أحمد أنّ صاحبه أحقّ به بالقيمة .

الاستيلاء على المال المباح :

١٩ – المال المباح كلّ ما خلقه اللّه لينتفع به النّاس على وجهٍ معتادٍ ، وليس فى حيازة أحدٍ مع إمكان حيازته ، ويكون حيواناً : برّيّاً أو بحريّاً ، ويكون نباتاً : حشائش وأعشاباً وحطباً ، ويكون جماداً : أرضاً مواتاً وركازاً ، كما يكون ماءً وهواءً ، ومن حقّ أىّ إنسانٍ أن يتملّك منه ، ويكون ذلك بالاستيلاء عليه ، ويتحقّق الاستيلاء وتستقرّ الملكيّة إذا كان الاستيلاء بفعلٍ يؤدّى إلى التّمكّن من وضع اليد . روى أبو داود عن أمّ جندبٍ أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال : « من سبق إلى ما لم يسبق إليه مسلمٌ فهو له » وعن جابر بن عبد اللّه قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : « من أحاط حائطاً على أرضٍ فهى له » وفى روايةٍ : « من أحيا أرضاً ميّتةً فهى له » وإذا ثبت هذا بالنّسبة للعقار المباح فهو بالنّسبة للمنقول من المباحات أولى ، لظهور الاستئثار به ظهوراً لا يكون فى العقار .

ولا يحدّ من سلطان النّاس فى الاستيلاء على المال المباح إلاّ القواعد العامّة لتنظيم الانتفاع ومنع الضّرر .

٢٠ – ولكلّ نوعٍ من الأموال المباحة طريقٌ للاستيلاء عليه ، فالاستيلاء على الماء المباح والرّكاز يكون بالحوز والكشف ، والاستيلاء على الكلأ والعشب يكون بالحشّ ، والاستيلاء على حيوان البرّ والبحر يكون بالاصطياد ، والاستيلاء على الأرض الموات يكون بالإحياء ، وبإقطاع التّمليك .

تنوّع الاستيلاء :

٢١ – الاستيلاء يكون حقيقيّاً بوضع اليد على الشّىء المباح فعلاً ، وهذا لا يحتاج إلى نيّةٍ وقصدٍ ، صرّح بذلك الشّافعيّة ، قال الرّملىّ فى نهاية المحتاج : يملك الصّيد بضبطه باليد ، لأنّه مباحٌ ، فملك بوضع اليد عليه كسائر المباحات ، سواءٌ أقصد بذلك ملكه أم لا ، حتّى لو أخذه لينظر إليه ملكه . ويفهم ذلك من كلام سائر المذاهب ، وإنّما تثبت بالاستيلاء الحقيقىّ الملكيّة مستقرّةٌ ، وكذلك يكون الاستيلاء حقيقيّاً إذا كان بآلةٍ أعدّت لذلك ، وكان واضعها قريباً منها ، بحيث لو مدّ يده إليها لأمسك الصّيد ، لأنّه ليس بممتنعٍ عليه .

ومن هذا لو نصب شبكةً للصّيد فوقع فيها طائرٌ وامتنع عليه الطّيران ، أو أغرى كلباً معلّماً فاصطاد حيواناً ، فإنّ من نصب الشّبكة ومن أغرى الكلب يتملّك الصّيد ، سواءٌ أكان هو مالك الشّبكة والكلب أم كان المالك غيره .

٢٢ – ويكون الاستيلاء حكميّاً ، وهو ما كان بواسطة الآلة وحدها الّتى تهيّئ المباح لوضع اليد عليه ، ولم يكن واضعها قريباً منها . كحفرةٍ فى جورة المنتفع بالأرض أو مالكها تجمّع فيها ماء المطر ، فلا بدّ لتملّك

ما تجمّع فيها من ماءٍ من وجود القصد ، أمّا من غير قصدٍ فإنّ الملكيّة تثبت غير مستقرّةٍ ، ولا تستقرّ إلاّ بصيرورة الاستيلاء حقيقيّاً ، وهذا باتّفاق المذاهب .

٢٣ – وقد سئل الحلوانيّ الحنفيّ عمّن علّق كوزه ، أو وضعه فى سطحه ، فأمطر السّحاب وامتلأ الكوز من المطر ، فجاء إنسانٌ وأخذ ذلک الكوز مع الماء ، هل لصاحب الكوز أن يستردّه مع الماء ؟ فقال : لا إشكال فى استرداد الكوز ، وأمّا الماء فإن كان قد أعدّ الكوز لذلک حقّ له أن يستردّه ، وإن لم يعدّه لذلک لم يستردّه .

ولو التجأ صيدٌ إلى أرض رجلٍ أو إلى داره ، فلا يعدّ ذلک استيلاءً من صاحب الأرض أو الدّار ، لأنّهما لم يعدّا للاصطياد ، لأنّه لم يحدث منه فعل الاستيلاء ، أمّا إذا ردّ عليه صاحب الدّار الباب بنيّة أخذه ملكه ، لتحقّق الاستيلاء عليه بفعله مع إمكان أخذه .

ومن نصب فسطاطاً فالتجأ إليه صيدٌ لم يملک ، لأنّ الفسطاط لم يكن آلة صيدٍ ، وما كان نصبه بقصد الاستيلاء على الصّيد ، وكذا لو نصب شبكةً للتّجفيف فتعلّق بها صيدٌ ولم يكن من علّق الشّبكة حاضراً بالقرب منها فإنّه لا يملكه ، إذ القصد مرعيٌّ فى التّملّک ، ومع هذا فإنّه أحقّ به من غيره إن حضر وهو معلّقٌ بالشّبكة .

وتفصيل كلّ ذلک فى مصطلح (اصطيادٌ) .

استيلادٌ ❊

التعريف :

١ – الاستيلاد لغةً : مصدر استولد الرّجل المرأة إذا أحبلها ، سواءٌ أكانت حرّةً أم أمةً . واصطلاحاً كما عرّفه الحنفيّة : تصيير الجارية أمّ ولدٍ . وعرّف غيرهم أمّ الولد بتعاريف منها : قول ابن قدامة : إنّها الأمة الّتى ولدت من سيّدها فى ملكه . فأمّ الولد نوعٌ من أنواع الرّقيق الّذى له فى الفقه أحكامٌ خاصّةٌ من حيث نشوءه وما يتلوه ، وللتّفصيل ينظر (استرقاقٌ ورقٌّ) ، والكلام هنا منحصرٌ فيما تنفرد به أمّ الولد عن سائر الرّقيق من أحكامٍ خاصّةٍ ، وكذلک أحكام ولدها .

الألفاظ ذات الصّلة :

العتق :

٢ – من معانى العتق فى اللّغة : السّراح والاستقلال .

وشرعاً : رفع ملك الآدميّين عن آدميٍّ مطلقاً تقرّباً إلى اللّه تعالى ، فهو يجتمع مع الاستيلاد فى أنّ كلاًّ منهما سببٌ للحرّيّة ، غير أنّ العتق قد يكون منجزاً ، أمّا أمّ الولد فتصير حرّةً بعد موت سيّدها غالباً ، إذ يجوز عتقها وهى أمّ ولدٍ حال حياة السّيّد .

التّدبير :

٣ – التّدبير : تعليق العتق بالموت ، كأن يقول السّيّد لعبده أو أمته : أنت حرٌّ أو أنت حرّةٌ دبر موتى أى بعد موتى أو ما شابه ذلك من الألفاظ ، فهو يجتمع مع الاستيلاد فى أنّ كلاًّ منهما سببٌ للحرّيّة بعد الموت ، لكنّ التّدبير بالقول ، والاستيلاد بالفعل .

الكتابة :

٤ – الكتابة والمكاتبة : بيع السّيّد نفس رقيقه منه بمالٍ فى ذمّته ، فيعتق العبد أو الأمة بعد أداء ما كوتب عليه ، فكلٌّ من الاستيلاد والمكاتبة سببٌ للحرّيّة إلاّ أنّ المكاتبة عقدٌ بعوضٍ .

التّسرّى :

٥ – التّسرّى إعداد الرّجل أمته لأن تكون موطوءةً ، فالفرق بينه وبين الاستيلاد حصول الولادة .

صفة الاستيلاد ، وحكمه التّشريعىّ ، وحكمة التّشريع :

٦ – قال صاحب المغنى : لا خلاف فى إباحة التّسرّى ووطء الإماء ، لقول اللّه تعالى { والّذين هم لفروجهم حافظون إلاّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، فإنّهم غير ملومين } وقد كانت مارية القبطيّة أمّ ولد النّبىّ صلى الله عليه وسلم حيث ولدت له إبراهيم ، وكانت هاجر أمّ إسماعيل سرّيّة سيّدنا إبراهيم ، وكان لعمر بن الخطّاب أمّهات أولادٍ ، وكذلك لعلىّ بن أبى طالبٍ ، ولكثيرٍ من الصّحابة رضى الله عنهم ، وكان علىٌّ زين العابدين بن الحسين ، والقاسم بن محمّد بن أبى بكرٍ ، وسالم بن عبد اللّه بن عمر ، من أمّهات الأولاد ، وروى أنّ النّاس لم يكونوا يرغبون فى أمّهات الأولاد حتّى ولد هؤلاء الثّلاثة من أمّهات الأولاد ، فرغب النّاس فيهنّ . ويقصد بالاستيلاد الولد ، فقد يرغب الشّخص فى الأولاد ولا يتيسّر له ذلك من الحرائر ، وأباح اللّه له أن يتسرّى من تلد له . ومن تحمل من سيّدها تعتق عليه بموته من كلّ ماله تبعاً لولدها . والأصل فى ذلك قول النّبىّ « أيّما أمةٍ ولدت من سيّدها فهى حرّةٌ عن دبرٍ منه » . والاستيلاد وسيلةٌ للعتق ، والعتق من أعظم القرب .

حكم ولد المستولدة من غير سيّدها :

٧ – إذا صارت الأمة أمّ ولدٍ بولادتها من سيّدها ، ثمّ ولدت من غيره ، كان لذلك الولد حكم أمّه فى العتق بموت سيّدها ، وغيره من أحكامها ، وأمّا أولادها الّذين ولدتهم قبل ثبوت حكم الاستيلاد لها فلا يتّبعونها ، ولا يكون لهم حكم أمّهم .

ما يتحقّق به الاستيلاد وشرائطه :

٨ – يتحقّق الاستيلاد (بمعنى أن تصير الجارية أمّ ولدٍ) بولادة الولد الحىّ أو الميّت ، لأنّ الميّت ولدٌ ، به تتعلّق أحكام الولادة فتنقضى به العدّة ، وتصير المرأة نفساء ، وكذا إذا أسقطت سقطاً مستبيناً خلقه أو بعض خلقه وأقرّ السّيّد بوطئها ، فهو بمنزلة الحىّ الكامل الخلقة ، ويترتّب على هذا ثبوت النّسب إذا أقرّ السّيّد بالوطء عند الجمهور ، خلافاً للحنفيّة حيث اشترطوا إقراره بأنّ الولد منه . وإذا تزوّج الشّخص أمة غيره فأولدها أو أحبلها ثمّ ملكها بشراءٍ أو غيره لم تصر أمّ ولدٍ له بذلك ، سواءٌ ملكها حاملاً فولدت فى ملكه ، أو ملكها بعد ولادتها ، وبهذا قال الشّافعيّة والحنابلة ، لأنّها علقت منه بمملوكٍ فلم يثبت لها حكم الاستيلاد . ونقل عن الإمام أحمد أنّها تصير أمّ ولدٍ فى الحالين ، وهو قول أبى حنيفة ، لأنّها أمّ ولدٍ وهو مالكٌ لها ، فثبت لها حكم الاستيلاد ، كما لو حملت فى ملكه .

وعند المالكيّة إن اشتراها حاملاً فإنّها تصير أمّ ولدٍ بهذا الحمل .

ما يملكه السّيّد فى أمّ الولد :

٩ – إذا حبلت الأمة من سيّدها وولدت فحكمها حكم الإماء فى حلّ وطء سيّدها لها ، واستخدامها ، وملك كسبها ، وتزويجها ، وإجارتها ، وعتقها ، وهذا قول أكثر أهل العلم . وقال المالكيّة : لا يجوز لسيّدها تزويجها بغير رضاها ، فإن رضيت جاز مع الكراهة ، قالوا : لأنّ ذلك ليس من مكارم الأخلاق ، وقالوا : إنّ إجارتها كذلك لا تجوز إلاّ برضاها وإلاّ فسخت ، وللسّيّد قليل خدمتها .

ما لا يملكه السّيّد :

١٠ – جمهور الفقهاء – وعليه أكثر التّابعين – على أنّ السّيّد لا يجوز له فى أمّ ولده التّصرّف بما ينقل الملك ، فلا يجوز بيعها ، ولا وقفها ، ولا رهنها ، ولا تورث ، بل تعتق بموت السّيّد من كلّ المال ويزول الملك عنها . روى عن عبيدة قال : خطب علىٌّ النّاس ، فقال : (شاورنى عمر فى أمّهات الأولاد فرأيت أنا وعمر أن أعتقهنّ ، فقضى به عمر حياته ، وعثمان حياته ، فلمّا ولّيت رأيت أن أرقّهنّ). قال عبيدة : فرأى عمر وعلىٍّ فى الجماعة أحبّ إلينا من رأى علىٍّ وحده . وروى القول بهذا أيضاً عن عثمان وعائشة ، وروى الخلاف فى ذلك عن علىٍّ وابن عبّاسٍ وابن الزّبير قالوا بإباحة بيع أمّ الولد .

والأصل فى الباب حديث « أيّما أمةٍ ولدت من سيّدها فهى حرّةٌ عن دبرٍ منه » وخبر أنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم « نهى عن بيع أمّهات الأولاد ، لا يوهبن ولا يورثن ، يستمتع بها سيّدها ما دام حيّاً ، فإذا مات فهى حرّةٌ » .

أثر اختلاف الدّين فى الاستيلاد :

١١ – قال الفقهاء : يصحّ استيلاد الكافر ، ذمّيّاً أو مستأمناً أو مرتدّاً ، كما يصحّ منه العتق . وإذا استولد الذّمّىّ أمته الذّمّيّة ثمّ أسلمت لم تعتق فى الحال عند الشّافعيّة ، وفى الرّواية المعتمدة عند الحنابلة . وعند المالكيّة تعتق إذ لا سبيل إلى بيعها ، ولا إلى إقرار ملكه عليها ، لما فيه من إثبات ملك الكافر على مسلمةٍ ، فلم يجز كالأمة .

وعن الإمام أحمد روايةٌ أخرى أنّها تستسعى ، فإن أرادت عتقت ، وهو قول أبى حنيفة إذا لم يسلم مالكها ، لأنّ فى الاستسعاء جمعاً بين الحقّين : حقّها فى ألاّ تبقى ملكاً للكافر ، وحقّه فى حصول عوضٍ عن ملكه ، فأشبه بيعها إذا لم تكن أمّ ولدٍ ، وإذا أسلمت أمّ ولدٍ لكافرٍ منع من وطئها أو التّلذّذ بها ، ويحال بينه وبينها ، ويجبر على نفقتها فإذا أسلم حلّت له .

ما تختصّ به المستولدة :

الأصل فى أحكام أمّهات الأولاد أنّها كأحكام الإماء فى جميع الأمور ، إلاّ أنّ بى الولد تختصّ بما يلى :

أ – العدّة :

١٢ – إذا مات السّيّد عن أمّ ولده فعند المالكيّة ، والشّافعيّة ، والحنابلة تستبرأ بحيضةٍ ، وأمّا مذهب الحنفيّة فعليها العدّة ، وعدّتها بالحيض فلا يكتفى بحيضةٍ ، وإنّما كانت عدّتها بالحيض فى الموت وغيره كتفريق القاضى لأنّ عدّتها لتعرف براءة الرّحم ، وهذا إذا كانت غير يائسةٍ وغير حاملٍ ، فإنّ عدّة اليائسة شهران ، وعدّة الحامل وضع الحمل ، ولا نفقة لها فى مدّة العدّة عند كلّ الفقهاء ، لأنّها عدّة وطء لا عدّة عقدٍ .

ب – العورة :

١٣ – عورة أمّ الولد ما بين السّرّة والرّكبة والظّهر والبطن ، وهذا عند الحنفيّة ، وروايةٌ عن المالكيّة ، وفى روايةٍ أخرى أنّها لا تصلّى إلاّ بقناعٍ ، وعند الشّافعيّة ، وهو الصّحيح عند الحنابلة أنّ عورتها ما بين السّرّة والرّكبة .

جناية أمّ الولد :

١٤ – اتّفق الفقهاء على أنّ أمّ الولد إذا جنت جنايةً أوجبت المال ، أو أتلفت شيئاً ، فعلى السّيّد فداؤها بأقلّ الأمرين : من قيمتها يوم الحكم على أنّها أمةٌ بدون مالها ، أو الأرش ، حتّى وإن كثرت الجنايات . وحكى قولٌ آخر عن الحنابلة أنّ على السّيّد فداءها بأرش جنايتها بالغةً ما بلغت ، كالقنّ .

إقرار أمّ الولد بجنايةٍ :

١٥ – إذا أقرّت أمّ الولد بجنايةٍ توجب المال لم يجز إقرارها ، لأنّه إقرارٌ على السّيّد ، وهذا بخلاف الإقرار بالقتل عمداً ، فإنّه يصحّ إقرارها على نفسها فتقتل به . وهذا عند الحنفيّة والمالكيّة والشّافعيّة وأبى الخطّاب من الحنابلة . ومذهب الحنابلة : أنّ العبد – وأمّ الولد مثله – يصحّ إقراره بالحدّ والقصاص فيما دون النّفس ، لأنّ الحقّ له دون سيّده .

وأمّا إقراره بما يوجب القصاص فى النّفس فالمنصوص عن أحمد أنّه لا يقبل ، ويتبع به بعد العتق ، لأنّه يسقط حقّ سيّده بإقراره ، ولأنّه متّهمٌ فى أنّه يقرّ لرجلٍ ليعفو عنه ويستحقّ أخذه ، فيتخلّص به من سيّده . واختار أبو الخطّاب أنّه يصحّ إقراره به ، لأنّه أحد فرعى القصاص ، فيصحّ إقراره بما دون النّفس .

الجناية على جنين أمّ الولد من سيّدها :

١٦ – تقدّم أنّ حمل أمّ الولد من سيّدها حرٌّ ، فلو ضربها أحدٌ فألقت جنينها ففيه دية جنين الحرّة ، انظر مصطلح (إجهاضٌ) .

الجناية عليها :

١٧ – إذا قتل المستولدة حرٌّ ، فلا قصاص عليه لعدم المكافأة ، وعليه قيمتها بالغةً ما بلغت ، وإن زادت على دية الحرّة ، وذلك عند المالكيّة والشّافعيّة والحنابلة وأبى يوسف .

وقال أبو حنيفة ومحمّدٌ : دية العبد قيمته . فإن بلغت دية الحرّ ، أو بلغت قيمة الأمة قيمة دية الحرّة ينقص كلٌّ من دية العبد أو الأمة عشرة دراهم ، إظهاراً لانحطاط مرتبة الرّقيق عن الحرّ . وتعيين العشرة بأثر ابن مسعودٍ . أمّا إذا قتلها رقيقٌ فيقتل بها لأنّها أكمل منه .

أثر موت المستولدة فى حياة سيّدها عليها ، وعلى ولدها من غيره :

١٨ – إذا ماتت أمّ الولد قبل سيّدها لا يبطل حكم الاستيلاد فى الولد الّذين ولدتهم بعد ثبوت حكم الاستيلاد لها ، بل يعتقون بموت السّيّد .

الوصيّة للمستولدة وإليها :

١٩ – تصحّ الوصيّة لأمّ الولد ، قال صاحب المغنى : لا نعلم فيه خلافاً بين أهل العلم القائلين بثبوت حكم الاستيلاد . فقد روى أنّ عمر بن الخطّاب " أوصى لأمّهات أولاده بأربعة آلافٍ ، أربعة آلافٍ لكلّ امرأةٍ

منهنّ ولأنّ بى الولد حرّةٌ فى حال نفاذ الوصيّة لأنّ عتقها يتنجّز بموته ، فلا تقع الوصيّة لها إلاّ فى حال حرّيّتها ، وذلک إذا احتملها الثّلث ، فما زاد يتوقّف على إجازة الورثة ، فإن أجازوه جاز إلاّ ردّ إليهم . وكذلک تجوز الوصيّة إلى المستولدة بعد وفاة سيّدها إذا كانت صالحةً لذلک ، لأنّها بعد عتقها بموت سيّدها كسائر الحرائر ، فتجوز الوصيّة إليها .

أسرٌ ❊

انظر : أسرى .

إسرارٌ ❊

التعريف :

١ – من معانى الإسرار فى اللّغة : الإخفاء . ومنه قوله تعالى : { وإذ أسرّ النّبىّ إلى بعض أزواجه حديثاً } . وأسررت الشّىء : أخفيته .

أمّا فى الاصطلاح فيأتى (الإسرار) بالمعانى التّالية :

أ – أن يسمع نفسه دون غيره ، وأدناه ما كان بحركة اللّسان ، وهذا المعنى يستعمله الفقهاء فى أقوال الصّلاة والأذكار .

ب – أن يسمع غيره على سبيل المناجاة ، مع الكتمان عن الآخرين ، وهذا المعنى يرد فى السّرّ وإفشائه ، ويرجع إليه فى مصطلح (إفشاء السّرّ) .

ج – أن يخفى فعله عمّن سواه ، وهذا المعنى يرد فى أداء العبادات كالصّلاة والزّكاة ونحوهما .

الألفاظ ذات الصّلة :

أ – المخافتة :

٢ – من معانى المخافتة فى اللّغة : خفض الصّوت . أمّا فى الاصطلاح فقد اختلفوا فى حدّ وجود القراءة على ثلاثة أقوالٍ :

فشرط الهندوانىّ والفضلىّ من الحنفيّة لوجودها خروج صوتٍ يصل إلى أذنه ، وبه قال الشّافعىّ . وشرط الإمام أحمد وبشرٌ المريسىّ خروج الصّوت من الفم وإن لم يصل إلى أذنه ، لكن بشرط كونه مسموعاً فى الجملة ، حتّى لو أدنى أحدٌ صماخه إلى فيه يسمع ، ولم يشترط الكرخىّ وأبو بكرٍ البلخىّ السّماع ، واكتفيا بتصحيح الحروف .

واختار شيخ الإسلام قاضى خان وصاحب المحيط والحلوانىّ قول الهندوانىّ ، كما فى معراج الدّراية . فظهر بهذا أنّ أدنى المخافتة إسماع نفسه ، أو من بقربه من رجلٍ أو رجلين مثلاً ، وأعلاها مجرّد تصحيح

الحروف ، كما هو مذهب الكرخىّ ، وأدنى الجهر إسماع غيره ممّن ليس بقربه ، كأهل الصّفّ الأوّل ، وأعلاه لا حدّ له .

ب – الجهر :

٣ – من معانى الجهر فى اللّغة : رفع الصّوت . يقال : جهر بالقول رفع به صوته .

وفى الاصطلاح : أن يسمع غيره ممّن يليه ، وأعلاه لا حدّ له ، فالجهر مباينٌ للإسرار .

ج – الكتمان :

٤ – من معانيه فى اللّغة : أنّه خلاف الإعلان . وهو فى الاصطلاح : السّكوت عن البيان . قال تعالى { إنّ الّذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهدى من بعد ما بيّنّاه للنّاس فى الكتاب أولئک يلعنهم اللّه ويلعنهم اللاّعنون ، إلاّ الّذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا ، فأولئک أتوب عليهم وأنا التّوّاب الرّحيم } .

د – الإخفاء :

٥ – الإحفاء بمعنى الإسرار لغةً واصطلاحاً ، إلاّ أنّ استعمال الإخفاء يغلب فى الأفعال ، أمّا الإسرار فيغلب فى الأقوال . وينظر مصطلح (اختفاءٌ) .

صفة الإسرار : حكمه التّكليفىّ :

أوّلاً – الإسرار بمعنى إسماع نفسه فقط :

الإسرار فى العبادات :

٦ – الصّلوات السّرّيّة : المراد بها الّتى لا جهر فيها ، وهى الظّهر والعصر فى الفرائض والنّوافل ، وصلاة التّطوّع فى النّهار . والإسرار فيها مستحبٌّ عند الشّافعيّة والحنابلة والمالكيّة فى قولٍ لهم ، وفى آخر مندوبٌ ، وواجبٌ عند الحنفيّة . وإنّما كانت سرّيّةً ، لأنّها صلاة نهارٍ ، وصلاة النّهار عجماء كما ورد فى الخبر ، أى ليست فيها قراءةٌ مسموعةٌ ، وذلک بالنّسبة لكلّ مصلٍّ ، سواءٌ أكان إماماً أم منفرداً أم مأموماً عند غير الحنفيّة ، فإنّ المأموم عندهم لا قراءة عليه .

الإسرار فى أقوال الصّلاة :

أ – تكبيرة الإحرام :

٧ – يستحبّ للإمام أن يجهر بالتّكبير بحيث يسمع المأمومين ليكبّروا ، فإنّهم لا يجوز لهم التّكبير إلاّ بعد تكبيره . فإن لم يمكنه إسماعهم جهر بعض المأمومين ليسمعهم ، أو ليسمع من لا يسمع الإمام ، لما روى جابرٌ قال « صلّى بنا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وأبو بكرٍ خلفه ، فإذا كبّر رسول اللّه صلى الله عليه وسلم كبّر أبو بكرٍ ليسمعنا » متّفقٌ عليه .

ب – دعاء الاستفتاح :

٨ – وهو ما تستفتح به الصّلاة من الأدعية المأثورة لذلك ، نحو « سبحانك اللّهمّ وبحمدك ... » أو « وجّهت وجهى ... » وهو سنّةٌ عند الحنفيّة والشّافعيّة والحنابلة ، خلافاً للمالكيّة فإنّهم لا يقولون به . والسّنّة عند من يقول بمشروعيّته أن يأتى به سراًّ ، ويكره الجهر به ولا تبطل الصّلاة . انظر (استفتاحٌ) .

ت – التّعوّذ :

٩ – والقول فى الإسرار به كالقول فى الاستفتاح سواءٌ .

ث – البسملة لغير المؤتمّ فى أوّل كلّ ركعةٍ :

١٠ – وهى سنّةٌ عند الحنفيّة والحنابلة ، واجبةٌ عند الشّافعيّة فى الصّلاة ، ولا يقول بها المالكيّة فى الفرض لكراهيتها فى المشهور ، وأجازوها فى النّافلة من غير كراهةٍ ، فيسنّ الإسرار بها عند الحنفيّة والحنابلة ، أمّا عند الشّافعيّة فهى تابعةٌ لكيفيّة القراءة من جهرٍ أو إسرارٍ ، وتفصيله فى مصطلح (بسملةٌ) .

ج – قراءة الفاتحة :

١١ – وتقرأ سراًّ فى الصّلاة السّرّيّة ، للإمام والمنفرد ، وفى الرّكعتين الثّالثة والرّابعة من الصّلاة الجهريّة للإمام والمنفرد ، أمّا قراءة المأموم لها عند من قال بذلك فهى كلّها سرّيّةٌ . أمّا المنفرد فى الصّلاة الجهريّة ، فهو مخيّرٌ بين الجهر والإسرار عند الحنفيّة والحنابلة ، ويستحبّ له الجهر عند الشّافعيّة .

ويسرّ فى النّوافل النّهاريّة وجوباً عند الحنفيّة ، واستحباباً عند المالكيّة والشّافعيّة والحنابلة ، ويسرّ فى قضاء الصّلاة السّرّيّة إذا قضاها ليلاً ، وصرّح ابن قدامة بأنّه لا يعلم فيه خلافاً . وإذا قضى الصّلاة الجهريّة نهاراً وكان إماماً جهر وجوباً عند الحنفيّة والمالكيّة ، وأسرّ عند الشّافعيّة ، وللحنابلة قولان . ويجهر بالقراءة فى الجمعة والعيدين والاستسقاء .

ح – تأمين الإمام والمأموم والمنفرد :

١٢ – يقولونه سراًّ عند الحنفيّة والمالكيّة ، وجهراً عند الشّافعيّة والحنابلة .

واستدلّ القائلون بالإسرار بأنّه دعاءٌ ، والأصل فى الأدعية الإسرار ، كالتّشهّد .

واستدلّ من قال بالجهر « بأنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم قال : آمين ورفع بها صوته » ، « ولأنّه صلى الله عليه وسلم أمر بالتّأمين عند تأمين الإمام »، فلو لم يجهر بها لم يعلّق عليه كحالة الإخفاء .

خ – تسبيح الرّكوع :

١٣ – الإسرار بالتّسبيح سنّةٌ اتّفاقاً .

د – التّسميع والتّحميد حال رفع الرّأس من الرّكوع للقيام :

١٤ – يسمّع الإمام جهراً ، ويحمد الجميع سرّاً .

ذ – التّسبيح فى السّجدتين :

١٥ – يقوله المصلّى سرّاً ، إماماً كان أو مأموماً أو منفرداً . وكذلك الأذكار بين السّجدتين ، والتّشهّد الأوّل والأخير ، والصّلاة على النّبىّ صلى الله عليه وسلم ، والأدعية فى آخر الصّلاة . أمّا التّسليم فيجهر به الإمام دون المأموم أو المنفرد .

الإسرار بالاستعاذة والبسملة خارج الصّلاة :

١٦ – للفقهاء والقرّاء فى الجهر بالاستعاذة أو الإسرار بها آراءٌ :

أ – استحباب الجهر بها ، وهو قول الشّافعيّة ، وروايةٌ عن أحمد ، والمختار عند أئمّة القرّاء .

ب – لم يخالف فى ذلك إلاّ حمزة ومن وافقه .

ج – التّخيير بين الجهر والإسرار ، وهو الصّحيح عند الحنفيّة ، وقولٌ للحنابلة .

د – الإخفاء مطلقاً ، وهو قولٌ للحنفيّة ، وروايةٌ عند الحنابلة ، وروايةٌ عن حمزة .

هـ – الجهر بالتّعوّذ فى أوّل الفاتحة فقط ، والإخفاء فى سائر القرآن ، وهو روايةٌ ثانيةٌ عن حمزة . وحكم البسملة فى ذلك تابعٌ لحكم الاستعاذة ، إلاّ ما روى عن نافعٍ أنّه كان يخفى الاستعاذة ويجهر بالبسملة عند افتتاح السّور ورءوس الآيات فى جميع القرآن .

هذا بالنّسبة للرّجل ، أمّا المرأة فجهرها إسماع نفسها فقط ، والجهر فى حقّها كالإسرار ، فيكون أعلى جهرها وأدناه واحداً ، وعلى هذا فيستوى فى حقّها السّرّ والجهر ، لأنّ صوتها كالعورة ، وربّما كان سماعه فتنةً ، بل جهرها مرتبةٌ واحدةٌ ، وهو أن تسمع نفسها فقط ، وليس هذا إسراراً منها ، بل إسرارها مرتبةٌ أخرى ، وهو أن تحرّك لسانها دون إسماع نفسها ، فليس لإسرارها أعلى وأدنى ، كما أنّ جهرها كذلك .

وانظر للتّفصيل مصطلحى (استعاذةٌ) (وبسملةٌ) .

ثانياً: الإسرار فى الأفعال :

الزّكاة :

١٧ – قال أبو بكر بن العربىّ : لا خلاف فى أنّ إظهار صدقة الفرض أفضل ، كصلاة الفرض وسائر فرائض الشّريعة ، لأنّ المرء يحرز بها إسلامه ويعصم ماله . وقال الحنفيّة والمالكيّة : إنّه لا يشترط علم الفقير أنّ ما أعطى له زكاةٌ على الأصحّ ، لما فى ذلك من كسر قلبه ، ولذا فإنّ الإسرار فى إعطائها إليه أفضل من إعلانه بها . وقال الشّافعيّة : إنّ الأفضل فيها إظهار إخراجها ليراه غيره فيعمل عمله ، ولئلاّ

يساء الظّنّ به . واستحبّ الحنابلة إظهار إخراجها ، سواءٌ أكان الإخراج بموضعٍ يخرج أهله الزّكاة أم لا ، وسواءٌ أنفى عنه ظنّ السّوء بإظهار إخراجها أم لا ، لما فيه من نفى الرّيبة عنه ، ولعلّه يقتدى به ، ومن علم أهليّته أخذ الزّكاة – ولو بغلبة الظّنّ – كره أن يعلمه أنّها زكاةٌ ، ومع عدم عادة الآخذ بأخذ الزّكاة لا يجزئ دفعها إليه إلاّ أن يعلمه أنّها زكاةٌ ، لأنّه لا يقبل زكاةً ظاهراً .

صدقات التّطوّع :

١٨ – قال الحنفيّة والمالكيّة والشّافعيّة والحنابلة : إنّ الإسرار بها أفضل من الجهر ، ولذا يسنّ لمعطيها أن يسرّ بها ، لقوله تعالى { إن تبدوا الصّدقات فنعمّا هى ، وإن تحفوها وتؤتوها الفقراء فهو خيرٌ لكم ويكفّر عنكم من سيّئاتكم واللّه بما تعملون خبيرٌ } . ولما روى عن أبى هريرة مرفوعاً « سبعةٌ يظلّهم اللّه فى ظلّه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه وذكر منهم رجلاً تصدّق بصدقةٍ فأخفاها حتّى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله » . ولما روى أنّ رسول قال : « صنائع المعروف تقى مصارع السّوء ، وصدقة السّرّ تطفئ غضب الرّبّ ، وصلة الرّحم تزيد فى العمر » ولأنّ إعطاءها على هذا النّحو يراد به اللّه عزّ وجلّ وحده ، وقد قال ابن عبّاسٍ رضى الله عنهما " جعل اللّه صدقة السّرّ فى التّطوّع تفضل علانيتها بسبعين ضعفاً .

قيام اللّيل :

١٩ – ذهب الحنفيّة والحنابلة إلى أنّ المتنفّل ليلاً يخيّر بين الجهر بالقراءة والإسرار بها ، إلاّ أنّه إن كان الجهر أنشط له فى القراءة ، أو كان بحضرته من يستمع قراءته ، أو ينتفع بها فالجهر أفضل ، وإن كان قريباً منه من يتهجّد ، أو من يتضرّر برفع صوته فالإسرار أولى ، وإن لم يكن لا هذا ولا هذا فليفعل ما شاء . « قال عبد اللّه بن أبى قيسٍ : سألت عائشة كيف كانت قراءة رسول اللّه ؟ فقالت : كلّ ذلك كان يفعل . ربّما أسرّ ، وربّما جهر » . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : « كانت قراءة النّبىّ صلى الله عليه وسلم باللّيل يرفع طوراً ، يخفض طوراً » وقال المالكيّة : إنّ المستحبّ فى نوافل اللّيل الإجهار ، وهو أفضل من الإسرار ، لأنّ صلاة اللّيل تقع فى الأوقات المظلمة فينبّه القارئ بجهره المارّة ، وللأمن من لغو الكافر عند سماع القرآن ، لاشتغاله غالباً فى اللّيل بالنّوم أو غيره ، بخلاف النّهار . وقال الشّافعيّة : إنّه يسنّ فى نوافل اللّيل المطلقة التّوسّط بين الجهر والإسرار إن لم يشوّش على نائمٍ أو مصلٍّ أو نحوه ، إلاّ التّراويح فيجهر بها . والمراد بالتّوسّط أن يزيد على أدنى ما يسمع نفسه من غير أن تبلغ تلك الزّيادة سماع من يليه ، والّذى ينبغى فيه ما قاله بعضهم : إنّه يجهر تارةً ، ويسرّ أخرى .

الأدعية والأذكار فى غير الصّلاة :

٢٠ – قال الحنفيّة والشّافعيّة والحنابلة : إنّ الإسرار بالأدعية والأذكار من حيث الجملة أفضل من الجهر بها ، فالإسرار بها سنّةٌ عند الحنفيّة والحنابلة ، ومندوبٌ عند الشّافعيّة . لقوله تعالى : { ادعوا ربّكم تضرّعاً وخفيةً } أى سرّاً فى النّفس ، ليبعد عن الرّياء ، وبذلک أثنى اللّه تعالى على نبيّه زكريّا عليه السلام ، إذ قال مخبراً عنه : { إذ نادى ربّه نداءً خفيّاً } ، ولأنّه أقرب إلى الإخلاص ، وقد ورد « خير الذّكر الخفىّ » .

أمّا فى عرفة فرفع الصّوت بذلک وبالتّلبية أفضل من الإسرار به ، إذ رفع الصّوت بالتّلبية والدّعاء بعرفة سنّةٌ عند الحنفيّة والحنابلة ، ومندوبٌ عند الشّافعيّة ، بحيث لا يجهد نفسه ، ولا يفرط فى الجهر بالدّعاء بها ، لما روى أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال : « جاءنى جبريل عليه السلام فقال : يا محمّد ، مر أصحابک فليرفعوا أصواتهم بالتّلبية ، فإنّها من شعار الحجّ » وقال : « أفضل الحجّ العجّ والثّجّ » فالعجّ : رفعه الصّوت بالتّلبية ، والثّجّ : إسالة دماء الهدى . هذا ، وإنّ لبعض الأذكار صفةً خاصّةً من الجهر أو الإسرار ، كالتّلبية ، والإقامة ، وأذكار ما بعد الصّلاة ، والتّسمية على الذّبيحة ، والأذكار من المرأة ، وتنظر فى مواضعها الخاصّة .

الإسرار باليمين :

٢١ – الإسرار باليمين – إذا أسمع نفسه – كالجهر بها . والإسرار بالاستثناء كالإسرار باليمين متى توافرت عناصره ، وكان الاستثناء متّصلاً بالمستثنى منه ، إلاّ لعارضٍ كسعالٍ أو عطاسٍ أو انقطاع نفسٍ . وتفصيل ذلک يرجع إليه فى (استثناءٌ) (وأيمانٌ) .

الإسرار بالطّلاق :

٢٢ – الإسرار فى الطّلاق بإسماع نفسه كالجهر به ، فمتى طلّق امرأته إسراراً بلفظ الطّلاق ، صريحاً كان أو كنايةً مستوفيةً شرائطها على الوجه المذكور ، فإنّ طلاقه يقع ، وتترتّب عليه آثاره ، ومتى لم تتوافر شرائطه فإنّ الطّلاق لا يقع ، كما لو أجراه على قلبه دون أن يتلفّظ به إسماعاً لنفسه أو بحركة لسانه . هذا ، وقد قال المالكيّة فى لزومه بكلامه النّفسىّ ، كأن يقول بقلبة أنت طالقٌ : أنّ فيه خلافاً ، والمعتمد عندهم عدم اللّزوم .

والكلام فى الاستثناء فى الطّلاق كالكلام فى الطّلاق .

إسرافٌ ❊

التعريف :

١ – من معانى الإسراف فى اللّغة : مجاوزة القصد ، يقال : أسرف فى ماله أى أنفق من غير اعتدالٍ ، ووضع المال فى غير موضعه . وأسرف فى الكلام ، وفى القتل : أفرط . وأمّا السّرف الّذى نهى اللّه تعالى عنه فهو ما أنفق فى غير طاعة اللّه ، قليلاً كان أو كثيراً .

أمّا فى الاصطلاح الشّرعىّ ، فقد ذكر القليوبىّ للإسراف المعنى اللّغوىّ نفسه ، وهو : مجاوزة الحدّ . وخصّ بعضهم استعمال الإسراف بالنّفقة والأكل . يقول الجرجانىّ فى التّعريفات : الإسراف تجاوز الحدّ فى النّفقة . وقيل : أن يأكل الرّجل ما لا يحلّ له ، أو يأكل ما يحلّ له فوق الاعتدال ومقدار الحاجة . وقيل : الإسراف تجاوز الكميّة ، فهو جهلٌ بمقادير الحقوق . والسّرف : مجاوزة الحدّ بفعل الكبائر ، ومنه قوله تعالى : { ربّنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا } .

الألفاظ ذات الصّلة :

أ – التّقتير :

٢ – وهو يقابل الإسراف ، ومعناه : التّقصير ، قال اللّه تعالى : { والّذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواماً }

ب – التّبذير :

٣ – التّبذير : هو تفريق المال فى غير قصدٍ ، ومنه البذر فى الزّراعة .

وقيل : هو إفساد المال وإنفاقه فى السّرف . قال تعالى : { ولا تبذّر تبذيراً } وخصّه بعضهم بإنفاق المال فى المعاصى ، وتفريقه فى غير حقٍّ . ويعرّفه بعض الفقهاء بأنّه : عدم إحسان التّصرّف فى المال ، وصرفه فيما لا ينبغى ، فصرف المال إلى وجوه البرّ ليس بتبذيرٍ ، وصرفه فى الأطعمة النّفيسة الّتى لا تليق بحاله تبذيرٌ . وعلى هذا فالتّبذير أخصّ من الإسراف ، لأنّ التّبذير يستعمل فى إنفاق المال فى السّرف أو المعاصى أو فى غير حقٍّ ، والإسراف أعمّ من ذلك ، لأنّه مجاوزٌ الحدّ ، سواءٌ أكان فى الأموال أم فى غيرها ، كما يستعمل الإسراف فى الإفراط فى الكلام أو القتل وغيرهما . وقد فرّق ابن عابدين بين الإسراف والتّبذير من جهةٍ أخرى ، فقال : التّبذير يستعمل فى المشهور بمعنى الإسراف ، والتّحقيق أنّ بينهما فرقاً ، وهو أنّ الإسراف : صرف الشّىء فيما ينبغى زائداً على ما ينبغى ، والتّبذير : صرف الشّىء فيما لا ينبغى . ومثله ما جاء فى نهاية المحتاج نقلاً عن الماوردىّ ، التّبذير : الجهل بمواقع الحقوق ، والسّرف : الجهل بمقادير الحقوق .

ج – السّفه :

٤ – السّفه فى اللّغة : خفّة العقل والطّيش والحركة . وفى الشّريعة : تضييع المال وإتلافه على خلاف مقتضى الشّرع والعقل . وقد عرّفه بعضهم بالتّبذير والإسراف فى النّفقة ، فقد جاء فى بلغة السّالک : أنّ السّفه هو التّبذير ، وورد فى أسنى المطالب أنّ السّفيه هو : المبذّر ، والأصل أنّ السّفه سبب التّبذير والإسراف ، وهما أثران للسّفه ، كما يتبيّن ممّا قاله الجرجانىّ فى التّعريفات : السّفه خفّةٌ تعرض للإنسان من الفرح والغضب ، فيحمله على العمل بخلاف طور العقل ومقتضى الشّرع . وجاء فى دستور العلماء ما يؤيّد ذلک ، حيث قال : ومن عادة السّفيه التّبذير والإسراف فى النّفقة . ويؤيّد هذه التّفرقة المعنى اللّغوىّ للسّفه من أنّه : خفّة العقل . وعلى ذلک فالعلاقة بين السّفه والإسراف علاقة السّبب والمسبّب .

حكم الإسراف :

٥ – يختلف حكم الإسراف بحسب متعلّقه ، كما تبيّن فى تعريف الإسراف ، فذهب بعض الفقهاء إلى أنّ صرف المال الكثير فى أمور البرّ والخير والإحسان لا يعتبر إسرافاً ، فلا يكون ممنوعاً . أمّا صرفه فى المعاصى والتّرف وفيما لا ينبغى فيعتبر إسرافاً منهيّاً عنه ، ولو كان المال قليلاً . وقد نقل عن مجاهدٍ أنّه قال : لو كان جبل أبى قبيسٍ ذهباً لرجلٍ ، فأنفقه فى طاعة اللّه لم يكن مسرفاً ، ولو أنفق درهماً أو مدّاً فى معصية اللّه كان مسرفاً ، ويرى بعض الفقهاء أنّ الإسراف كما يكون فى الشّرّ ، يكون فى الخير ، كمن تصدّق بجميع ماله ، واستدلّ لذلک بقوله تعالى : { وآتوا حقّه يوم حصاده ولا تسرفوا } أى لا تعطوا أموالكم كلّها فتقعدوا فقراء ، وروى أنّ ثابت بن قيس بن شمّاسٍ أنفق جذاذ خمسمائة نخلةٍ ، ولم يترک لأهله شيئاً ، فنزلت الآية السّابقة . وقيل : إنّها نزلت فى معاذ بن جبلٍ بفعله مثل ذلک . كذلک يختلف حكم الإسراف إذا كان فى العبادات عمّا إذا كان فى المحظورات أو المباحات ، أو فى استعمال الحقّ والعقوبات ، وسيأتى تفصيل هذه الأنواع .

الإسراف فى الطّاعات :

أوّلاً – الإسراف فى العبادات البدنيّة :

أ – الإسراف فى الوضوء :

وذلک يتحقّق فى حالتين :

الحالة الأولى : تكرار غسل الأعضاء :

٦ – صرّح الحنفيّة والشّافعيّة والحنابلة : أنّ تكرار غسل الأعضاء إلى ثلاثٍ مسنونٌ . جاء فى المغنى أنّ الوضوء مرّةً أو مرّتين يجزئ ، والثّلاث أفضل . والمشهور فى مذهب مالکٍ أنّ الغسلة الثّانية والثّالثة فضيلتان . وعلى ذلک فغسل الأعضاء ثلاث مرّاتٍ لا يعتبر إسرافاً ، بل هو سنّةٌ أو مندوبٌ . أمّا الزّيادة

على الثّلاث الموعبة فمكروهٌ عند الجمهور : الحنفيّة والشّافعيّة والحنابلة ، وهو الرّاجح فى مذهب المالكيّة ، لأنّها من السّرف فى الماء ، والقول الثّانى للمالكيّة أنّها تمنع . والكراهة فيما إذا كان الماء مملوكاً أو مباحاً ، أمّا الماء الموقوف على من يتطهّر به – ومنه ماء المدارس – فإنّ الزّيادة فيه على الثّلاث حرامٌ عند الجميع ، لكونها غير مأذونٍ بها ، لأنّه إنّما يوقف ويساق لمن يتوضّأ الوضوء الشّرعىّ ، ولم يقصد إباحتها لغير ذلک . واستدلّوا على كراهة الزّيادة على الثّلاث بحديث عمرو بن شعيبٍ عن أبيه عن جدّه « أنّ رجلاً أتاه صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول اللّه كيف الطّهور ؟ فدعا بماءٍ فى إناءٍ فغسل كفّيه ثلاثاً ، ثمّ غسل وجهه ثلاثاً ، ثمّ غسل ذراعيه ثلاثاً ، ثمّ مسح برأسه ، وأدخل أصبعيه السّبّاحتين فى أذنيه ، ومسح بإبهاميه على ظاهر أذنيه ، وبالسّبّاحتى ن باطن أذنيه ، ثمّ غسل رجليه ثلاثاً ثلاثاً ، ثمّ قال : هكذا الوضوء ، فمن زاد على هذا أو نقص فقد أساء وظلم أو ظلم وأساء » . وقد ذكر بعض الفقهاء أنّ الوعيد فى الحديث لمن زاد أو نقص مع عدم اعتقاد الثّلاث سنّةٌ ، أمّا إذا زاد – مع اعتقاد سنّيّة الثّلاث – لطمأنينة القلب عند الشّكّ ، أو بنيّة وضوءٍ آخر فلا بأس به ، فإنّ الوضوء على الوضوء نورٌ على نورٍ ، وقد أمر بترک ما يريبه إلى ما لا يريبه ، ولهذا جاء فى ابن عابدين نقلاً عن البدائع : إذا زاد أو نقص ، واعتقد أنّ الثّلاث سنّةٌ ، لا يلحقه الوعيد . ثمّ بيّن أنّ المنفىّ فى هذه الحالة إنّما هو الكراهة التّحريميّة ، فتبقى الكراهة التّنزيهيّة . وقيّد الشّافعيّة ، وبعض الحنفيّة ، أفضليّة الوضوء على الوضوء بألاّ يكون فى مجلسٍ واحدٍ ، أو كان قد صلّى بالضّوء الأوّل صلاةً ، وإلاّ يكره التّكرار ويعتبر إسرافاً ، وقال القليوبىّ : الوجه الحرمة . أمّا لو كرّره ثالثاً أو رابعاً بغير أن تتخلّله صلاةٌ فيعتبر إسرافاً محضاً عند الجميع .

الحالة الثّانية – استعمال الماء أكثر ممّا يكفيه :

٧ – اتّفق الفقهاء على أنّ ما يجزئ فى الوضوء والغسل غير مقدّرٍ بمقدارٍ معيّنٍ ، ونقل ابن عابدين الإجماع على ذلک وقال : إنّ ما ورد فى الحديث : أنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم « كان يتوضّأ بالمدّ ويغتسل بالصّاع » ليس بتقديرٍ لازمٍ ، بل هو بيان أدنى القدر المسنون ، حتّى إنّ من أسبغ بدون ذلک أجزأه ، وإن لم يكفه زاد عليه ، لأنّ طباع النّاس وأحوالهم مختلفةٌ . واتّفقوا كذلک على أنّ الإسراف فى استعمال الماء مكروهٌ ، ولهذا صرّح الحنابلة بأنّه يجزئ المدّ وما دون ذلک فى الوضوء ، وإن توضّأ بأكثر من ذلک جاز ، إلاّ أنّه يكره الإسراف . ومع ذلک قال الشّافعيّة : يسنّ أن لا ينقص ماء الوضوء فيمن اعتدل جسمه عن مدٍّ تقريباً ، لأنّه صلى الله عليه وسلم « كان يوضّئه المدّ » ولا حدّ لماء الوضوء ، لكنّه يشترط الإسباغ . وقال المالكيّة : من مستحبّات الوضوء تقليل الماء من غير تحديدٍ فى ذلک ، وأنكر مالکٌ قول من قال : حتّى يقطر الماء أو يسيل ، يعنى أنكر السّيلان عن العضو لا السّيلان على العضو ، إذ لا بدّ منه ، وإلاّ فهو مع عدم السّيلان مسحٌ بلا شکٍّ ، وإنّما يراعى القدر الكافى فى حقّ كلّ واحدٍ ، فما

زاد على قدر ما يكفيه فهو بدعةٌ وإسرافٌ ، وإن اقتصر على قدر ما يكفيه فقد أدّى السّنّة ، فالمستحبّ لمن يقدر على الإسباغ بقليلٍ أن يقلّل الماء ، ولا يستعمل زيادةً على الإسباغ ، أى فى كلّ مرّةٍ .

ومعيار الإسراف عند الحنفيّة هو أن يستعمل الماء فوق الحاجة الشّرعيّة ، وذكر أكثر الأحناف أنّ ترك التّقتير – بأن يقترب إلى حدّ الدّهن ، ويكون التّقاطر غير ظاهرٍ – وترك الإسراف – بأن يزيد على الحاجة الشّرعيّة – سنّةٌ مؤكّدةٌ ، وعلى هذا فيكون الإسراف فى استعمال الماء فى الوضوء مكروهاً تحريماً ، كما صرّح به صاحب الدّرّ ، لكن رجّح ابن عابدين كونه مكروهاً تنزيهاً . واستدلّ الفقهاء على كراهة الإسراف فى الماء بحديث عبد اللّه بن عمر وأنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم « مرّ بسعدٍ وهو يتوضّأ ، فقال : ما هذا السّرف ؟ فقال : أفى الوضوء إسرافٌ ؟ فقال : نعم ، وإن كنت على نهرٍ جارٍ » .

وهذا كلّه فى غير الموسوس ، أمّا الموسوس فيغتفر فى حقّه لما ابتلى به .

ب – الإسراف فى الغسل :

٨ – من سنن الغسل التّثليث ، بأن يفيض الماء على كلّ بدنه ثلاثاً مستوعباً ، والزّائد على ذلك يعتبر إسرافاً مكروهاً ، ولا يقدّر الماء الّذى يجزئ الغسل به ، لأنّ الحاجة الشّرعيّة تختلف باختلاف الأشخاص والأحوال ، فما زاد على الكفاية أو بعد تيقّن الواجب فهو سرفٌ مكروهٌ ، وهذا القدر متّفقٌ عليه ، أمّا ما ورد فى الحديث : « كان رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يغتسل بالصّاع » فهو بيانٌ لأقلّ ما يمكن به أداء السّنّة عادةً ، وليس تقديراً لازماً .

ج – الإسراف فى الصّلاة والصّوم :

٩ – الإنسان مأمورٌ بالاقتصاد ومراعاة الاعتدال فى كلّ أمرٍ ، حتّى فى العبادات الّتى تقرّب إلى اللّه تعالى كالصّلاة والصّيام ، قال اللّه تعالى : { يريد اللّه بكم اليسر ولا يريد بكم العسر } . فالعبادات إنّما أمر بفعلها مشروطةً بنفى العسر والمشقّة الخارجة عن المعتاد ، ومن هنا أبيح الإفطار فى حالة السّفر والحامل والمريض والمرضع وكلّ من خشى ضرر الصّوم على نفسه فعليه أن يفطر ، لأنّ فى ترك الإفطار عسراً ، وقد نفى اللّه عن نفسه إرادة العسر . فلا يجوز فيها الإسراف والمبالغة . وقد صحّ عنه صلى الله عليه وسلم أنّه قال : « هلك المتنطّعون » أى المبالغون فى الأمر . وروى عن أنسٍ أنّه « جاء ثلاثة رهطٍ إلى بيوت أزواج النّبىّ صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النّبىّ صلى الله عليه وسلم فلمّا أخبروا كأنّهم تقالّوها ، فقالوا : وأين نحن من النّبىّ صلى الله عليه وسلم ؟ قد غفر اللّه له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر . قال أحدهم : أمّا أنا فأنا أصلّى اللّيل أبداً ، وقال آخر : أنا أصوم الدّهر ولا أفطر ، وقال آخر : أنا أعتزل النّساء فلا أتزوّج أبداً . فجاء رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فقال : أنتم الّذين قلتم كذا وكذا ؟ أما واللّه

إنّى لأخشاكم للّه ، وأتقاكم له ، لكنّى أصوم وأفطر ، وأصلّى وأرقد ، وأتزوّج النّساء ، فمن رغب عن سنّتى فليس منّى » .

قال فى نيل الأوطار : فيه دليلٌ على أنّ المشروع هو الاقتصاد فى الطّاعات ، لأنّ إتعاب النّفس فيها والتّشديد عليها يفضى إلى ترك الجميع ، والدّين يسرٌ ، ولن يشادّ أحدٌ الدّين إلاّ غلبه ، والشّريعة النّبويّة بنيت على التّيسير وعدم التّنفير . ولهذا صرّح بعض الفقهاء بكراهة صوم الوصال وصوم الدّهر ، كما ورد عن النّبىّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال : « من صام الدّهر فلا صام ولا أفطر » وقالوا بكراهة قيام اللّيل كلّه ، لما روى عن « عائشة رضى الله عنها أنّها قالت : لا أعلم نبىّ اللّه صلى الله عليه وسلم قام ليلةً حتّى الصّباح ، ولا صام شهراً قطّ غير رمضان » . قال ابن عابدين : الظّاهر من إطلاق الأحاديث الواردة فى إحياء اللّيل الاستيعاب ، لكنّه نقل عن بعض المتقدّمين أنّه فسّر ذلك بنصفه ، لأنّ من أحيا نصف اللّيل فقد أحيا اللّيل ، ويؤيّد هذا التّفسير حديث عائشة المتقدّم ، فيترجّح إرادة الأكثر أو النّصف ، والأكثر أقرب إلى الحقيقة . وأوضح ما جاء فى منع الإسراف والمبالغة فى الصّلاة والصّيام حديث عبد اللّه بن عمر وقال : « دخل رسول اللّه صلى الله عليه وسلم حجرتى ، فقال : ألم أخبر أنّك تقوم اللّيل وتصوم النّهار ؟ ، قلت : بلى ، قال : فلا تفعلنّ ، نم وقم ، وصم وأفطر ، فإنّ لعينيك عليك حقّاً ، وإن لجسدك عليك حقّاً ، وإنّ لزوجتك عليك حقّاً ، وإنّ لصديقك عليك حقّاً ، وإنّ لضيفك عليك حقّاً ، وإن عسى أن يطول بك عمرٌ ، وأنّه حسبك أن تصوم من كلّ شهرٍ ثلاثاً ، فذلك صيام الدّهر كلّه ، وإنّ الحسنة بعشر أمثالها » . وقال النّووىّ من الشّافعيّة : ويكره أن يقوم كلّ اللّيل دائماً ، للحديث المذكور فى الكتاب ، فإن قيل : ما الفرق بينه وبين صوم الدّهر – غير أيّام النّهى – فإنّه لا يكره عندنا ؟ فالجواب أنّ صلاة اللّيل كلّه دائماً يضمر العين وسائر البدن ، كما جاء فى الحديث الصّحيح ، بخلاف الصّوم فإنّه يستوفى فى اللّيل ما فاته من أكل النّهار ، ولا يمكنه نوم النّهار إذا صلّى اللّيل ، لما فيه من تفويت مصالح دينه ودنياه . هذا حكم قيام اللّيل دائماً ، فأمّا بعض اللّيل فلا يكره إحياؤه ، فقد ثبت فى الصّحيحين عن عائشة رضى الله عنها أنّ « النّبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل العشر الأواخر من رمضان أحيا اللّيل » واتّفق أصحابنا على إحياء ليلتى العيدين ، واللّه أعلم .

ثانياً – الإسراف فى العبادات الماليّة :

أ – الإسراف فى الصّدقة :

١٠ – الصّدقات الواجبة المحدّدة المقدار ، كالزّكاة والنّذر وصدقة الفطر ، لا يتصوّر فيها الإسراف ، لأنّ أداءها بالقدر المحدّد واجبٌ شرعاً . وتفصيل شروط الوجوب ، ومقدار ما وجب فى هذه الصّدقات مذكورٌ فى موضعها .

أمّا الصّدقات المندوبة – وهى الّتى تعطى للمحتاجين لثواب الآخرة – فرغم حثّ الإسلام على الإنفاق على الفقراء والمساكين والمحتاجين فى كثيرٍ من الآيات والأحاديث ، فقد أمر اللّه بالقصد والاعتدال وعدم التّجاوز إلى حدٍّ يعتبر إسرافاً ، بحيث يؤدّى إلى فقر المنفق نفسه حتّى يتكفّف النّاس . قال اللّه تعالى فى صفات المؤمنين : { والّذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلک قواماً } . وكذلک قال سبحانه : { ولا تجعل يدک مغلولةً إلى عنقک ، ولا تبسطها كلّ البسط فتقعد ملوماً محسوراً } قال المفسّرون فى تفسير هذه الآية : ولا تخرج جميع ما فى يدک مع حاجتک وحاجة عيالک إليه ، فتقعد منقطعاً عن النّفقة والتّصرّف ، كما يكون البعير الحسير ، وهو الّذى ذهبت قوّته فلا انبعاث به ، وقيل : لئلاّ تبقى ملوماً ذا حسرةٍ على ما فى يدک ، لكنّ المراد بالخطاب غير النّبىّ صلى الله عليه وسلم لأنّه لم يكن ممّن يتحسّر على إنفاق ما حوته يده فى سبيل اللّه ، وإنّما نهى اللّه عن الإفراط فى الإنفاق وإخراج جميع ما حوته يده من المال من خيف عليه الحسرة على ما خرج عن يده ، وقد قال النّبىّ صلى الله عليه وسلم : « يأتى أحدكم بما يملک ، فيقول : هذه صدقةٌ ، ثمّ يقعد يستكفّ النّاس ، ، خير الصّدقة ما كان عن ظهر غنًى » فأمّا من وثق بموعود اللّه وجزيل ثوابه فيما أنفقه فغير مرادٍ بالآية ، وقد كان كثيرٌ من فضلاء الصّحابة ينفقون فى سبيل اللّه جميع أموالهم ، فلم يعنّفهم النّبىّ صلى الله عليه وسلم لصحّة يقينهم وشدّة بصائرهم . وفى ضوء هذه الآيات والأحاديث صرّح الفقهاء أنّ الأولى أن يتصدّق من الفاضل عن كفايته وكفاية من يموّنه على الدّوام ، ومن أسرف بأن تصدّق بما ينقصه عن كفاية من تلزمه مؤنته ، أو ما يحتاج إليه لنفقة نفسه – ولا كسب له – فقد أثم ، لقول النّبىّ صلى الله عليه وسلم : « كفى بالمرء إثماً أن يضيّع من يموّنه » ولأنّ نفقة من يموّنه واجبةٌ ، والتّطوّع نافلةٌ ، وتقديم النّفل على الفرض غير جائزٍ ، ولأنّ الإنسان إذا أخرج جميع ماله لا يأمن فتنة الفقر وشدّة نزاع النّفس إلى ما خرج منه ، فيذهب ماله ، ويبطل أجره ، ويصير كلاًّ على النّاس . أمّا من يعلم من نفسه حسن التّوكّل ، والصّبر على الفقر ، والتّعفّف عن المسألة ، أو كان ذا مكسبٍ واثقاً من نفسه ، فله أن يتصدّق بكلّ ماله عند الحاجة ، ولا يعتبر هذا فى حقّه إسرافاً . لما روى أنّ أبا بكرٍ أتى النّبىّ صلى الله عليه وسلم بكلّ ما عنده ، فقال له : « ما أبقيت لأهلک ؟ قال : أبقيت لهم اللّه ورسوله » فهذا كان فضيلةً فى حقّ أبى بكرٍ ، لقوّة يقينه وكمال إيمانه ، وكان أيضاً تاجراً ذا مكسبٍ .

ب – الإسراف فى الوصيّة :

١١ – الوصيّة تمليكٌ مضافٌ إلى ما بعد الموت بطريق التّبرّع ، أو هى التّبرّع بالمال بعد الموت ، وهى مستحبّةٌ بجزءٍ من المال لمن ترک خيراً فى حقّ من لا يرث ، وقد حدّد الشّرع حدودها بأن لا تزيد عن الثّلث ، ورغّب فى التّقليل من الثّلث ، وذلک لتجنّب الإسراف ، وإيقاع الضّرر بالورثة .

فإذا وجد للميّت وارثٌ ، نفّذت الوصيّة فى الثّلث ، وبطلت فى الزّائد منه اتّفاقاً إن لم يجزها الورثة ، لحديث سعد بن أبى وقّاصٍ قال : « كان رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يعودنى عام حجّة الوداع من وجعٍ اشتدّ بى ، فقلت : إنّى قد بلغ بى من الوجع ، وأنا ذو مالٍ ، ولا يرثنى إلاّ ابنةٌ ، أفأتصدّق بثلثى مالى ؟ قال : لا ، فقلت : بالشّطر ، فقال : لا ، ثمّ قال : الثّلث ، والثّلث كبيرٌ أو كثيرٌ ، إنّك إن تذر ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تذرهم عالةً يتكفّفون النّاس » . فالثّلث هو الحدّ الأعلى فى الوصيّة إذا كان للميّت وارثٌ ، ولم يتّفقوا على الحدّ الأدنى ، مع استحبابهم الأقلّ من الثّلث ، وأن تكون الوصيّة للأقارب غير الوارثين ، لتكون صدقةً وصلةً معاً . وذكر صاحب المغنى أنّ الأفضل للغنىّ الوصيّة بالخمس ، ونحو ذلك يروى عن أبى بكرٍ وعلىّ بن أبى طالبٍ أمّا إذا لم يكن للميّت وارثٌ ، أو كان له وارثٌ وأجاز الزّيادة على الثّلث ، ففيه خلافٌ وتفصيلٌ موضعه مصطلح (وصيّةٌ) .

ثالثاً : الإسراف فى سفك دماء العدوّ فى القتال :

١٢ – الإسراف بمعنى مجاوزة الحدّ منهىٌّ عنه فى كلّ حالةٍ ، حتّى فى المقابلة مع الأعداء فى الجهاد والقتال ، فالمسلم مأمورٌ بمراعاة القصد والاعتدال فى جميع الأحوال ، يقول اللّه تعالى : { ولا تعتدوا إنّ اللّه لا يحبّ المعتدين } ويقول سبحانه : { ولا يجرمنّكم شنآن قومٍ على ألاّ تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتّقوى } .

ولهذا صرّح الفقهاء بأنّه إن كان العدوّ ممّن لم تبلغهم الدّعوة لم يجز قتالهم ، حتّى يدعوهم إلى الإسلام ، ويكره نقل رءوس المشركين ، على تفصيلٍ فى ذلك ، وتكره المثلة بقتلاهم وتعذيبهم . لقول النّبىّ صلى الله عليه وسلم : « إنّ أعفّ النّاس قتلةً أهل الإيمان » .

ولا يجوز قتل الصّبيان والمجانين بلا خلافٍ ، ولا تقتل امرأةٌ ولا شيخٌ فانٍ ، ولا يقتل زمنٌ ولا أعمى ولا راهبٌ عند الجمهور : الحنفيّة ، والمالكيّة ، والحنابلة ، وروايةٍ عند الشّافعيّة ، إلاّ إذا اشتركوا فى المعركة ، أو كانوا ذا رأىٍ وتدبيرٍ ومكايد فى الحرب ، أو أعانوا الكفّار بوجهٍ آخر ولا يجوز الغدر والغلول ، ولا يجوز الإحراق بالنّار إن أمكن التّغلّب عليهم بدونها ، ولا يجوز التّمثيل بالقتل ، لقول النّبىّ صلى الله عليه وسلم : « إنّ اللّه كتب الإحسان على كلّ شىءٍ ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذّبحة » ويجوز معهم عقد الأمان والصّلح بمالٍ لو كان ذلك خيراً للمسلمين ، لقوله تعالى : { وإن جنحوا للسّلم فاجنح لها } . ولو حاصرناهم دعوناهم إلى الإسلام ، فإن أسلموا فيها ، وإلاّ فرضنا عليهم الجزية إن لم يكونوا مرتدّين ولا من مشركى العرب ، فإن قبلوا ذلك فلهم منّا المعاملة بالعدل والقسط على حسب شروط عقد الذّمّة ، وإن أبوا قاتلناهم حتّى نغلبهم عنوةً .

وتفصيل هذه الأحكام ر : (جهادٌ) (وجزيةٌ) .

الإسراف فى المباحات :

أ – الإسراف فى الطّعام والشّراب :

١٣ – الأكل والشّرب بقدر ما يندفع به الهلاك فرضٌ ، وهو بقدر الشّبع مباحٌ ، فإذا نوى بالشّبع ازدياد قوّة البدن على الطّاعة وأداء الواجبات فهو مندوبٌ ، وما زاد على الشّبع فهو مكروهٌ أو محظورٌ ، على الخلاف بين الفقهاء ، إلاّ إذا قصد به التّقوّى على صوم الغد ، أو لئلاّ يستحى الضّيف . قال اللّه تعالى : { كلوا واشربوا ولا تسرفوا } .

فالإنسان مأمورٌ بأن يأكل ويشرب بحيث يتقوّى على أداء المطلوب ، ولا يتعدّى إلى الحرام ، ولا يكثر الإنفاق المستقبح ، ولا يتناول مقداراً كثيراً يضرّه ولا يحتاج إليه ، فإن تعدّى ذلك إلى ما يمنعه القيام بالواجب حرم عليه ، وكان قد أسرف فى مطعمه ومشربه ، ولأنّه إضاعة المال وإمراض النّفس . وقد ورد عن النّبىّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال : « ما ملأ آدميٌّ وعاءً شراًّ من بطنٍ ، بحسب ابن آدم أكلاتٌ يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلثٌ لطعامه ، وثلثٌ لشرابه ، وثلثٌ لنفسه » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إنّ من السّرف أن تأكل كلّ ما اشتهيت » .

وقد نقل القرطبىّ فى الحضّ على تقليل الطّعام ما ثبت عن النّبىّ صلى الله عليه وسلم أنّه « قال لأبى جحيفة حينما أتاه يتجشّأ : اكفف عليك من جشائك أبا جحيفة ، فإنّ أكثر النّاس شبعاً فى الدّنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة » . وهذا القدر ممّا لا خلاف فيه بين الفقهاء . وقال المالكيّة : يطلب تخفيف المعدة بتقليل الطّعام والشّراب على قدرٍ لا يترتّب عليه ضررٌ ولا كسلٌ عن عبادةٍ ، فقد يكون للشّبع سبباً فى عبادةٍ فيجب ، وقد يترتّب عليه ترك واجبٍ فيحرم ، أو ترك مستحبٍّ فيكره . وقال الغزالىّ : صرف المال إلى الأطعمة النّفيسة الّتى لا يليق بحاله تبذيرٌ . فيكون سبباً للحجر كما سيأتى .

وقال القليوبىّ : إنّ هذا هو أحد القولين عند الشّافعيّة ، والقول الثّانى عندهم أنّه لا يعتبر تبذيراً ما لم يصرف فى محرّمٍ ، فيعتبر عندئذٍ إسرافاً وتبذيراً إجماعاً .

وصرف الحنابلة أنّ أكل المتخوم ، أو الأكل المفضى إلى تخمةٍ سببٌ لمرضه وإفساد بدنه ، وهو تضييع المال فى غير فائدةٍ . وقالوا : لا بأس بالشّبع ، لكن يكره الإسراف ، والإسراف فى المباحات هو مجاوزة الحدّ ، وهو من العدوان المحرّم .

ب – الإسراف فى الملبس والزّينة :

١٤ – الإسراف فى الملبس والزّينة ممنوعٌ ، لما ورد فى الحديث أنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « البسوا ما لم يخالطه إسرافٌ أو مخيلةٌ » .

قال ابن عابدين : يلبس بين الخسيس والنّفيس ، إذ خير الأمور أوسطها ، وللنّهى عن الشّهرتين ، وهو ما كان فى نهاية النّفاسة أو الخساسة . ويندب لبس الثّوب الجميل للتّزيّن فى الأعياد والجمع ومجامع النّاس ، لحديث ابن مسعودٍ مرفوعاً : « لا يدخل الجنّة من كان فى قلبه ذرّةٌ من كبرٍ ، قال رجلٌ : إنّ الرّجل يحبّ أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً ، قال : إنّ اللّه جميلٌ يحبّ الجمال ، الكبر بطر الحقّ وغمط النّاس » .

الإسراف فى المهر :

١٥ – المهر يجب إمّا بالتّسمية أو بالعقد . فإذا سمّى فى العقد ، وعّين مقداره ، وجب المسمّى ، وإلاّ وجب مهر المثل ، وهذا متّفقٌ عليه بين الفقهاء .

ولم يحدّد الشّافعيّة والحنابلة ، وكذلك المالكيّة فى روايةٍ أقلّ المهر ، وحدّد الحنفيّة أقلّ المهر بعشرة دراهم ، وقال المالكيّة فى المشهور عندهم : أقلّه ربع دينارٍ شرعىٍّ ، أو ثلاثة دراهم فضّةً خالصةً . ولا حدّ لأكثر المهر إجماعاً بين الفقهاء . والدّليل عليه قوله تعالى : { وإن أردتم استبدال زوجٍ مكان زوجٍ وآتيتم إحداهنّ قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً } . لأنّ القنطار يطلق على المال الكثير .

ولكن حذّر الفقهاء من الإسراف والمغالاة فى المهر ، وقالوا : تكره المغالاة فى الصّداق ، لما روى عن عائشة عن النّبىّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال : « أعظم النّساء بركةً أيسرهنّ مؤنةً » وفسّروا المغالاة فى المهر بما خرج عن عادة أمثال الزّوجة ، وهى تختلف باختلاف أمثالها ، إذ المائة قد تكون كثيرةً جدّاً بالنّسبة لامرأةٍ ، وقليلةً جدّاً بالنّسبة لأخرى . واستدلّوا كذلك بكراهة الإسراف فى المهر بأنّ الرّجل يغلى بصدقة المرأة (أى فوق طاقته) ، حتّى يكون لها عداوةٌ فى قلبه ، ولأنّه إذا كثر بما تعذّر عليه فيتعرّض للضّرر فى الدّنيا والآخرة . ولتفصيل الموضوع راجع مصطلح : (مهرٌ) .

الإسراف فى التّكفين والتّجهيز :

١٦ – اتّفق الفقهاء على أنّ الواجب فى الكفن هو الثّوب الواحد . والإيتار فيه إلى ثلاثٍ للرّجل ، وإلى خمسٍ للمرأة سنّةٌ ، لما روت عائشة رضى الله عنها قالت : « إنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم كفّن فى ثلاثة أثوابٍ يمانيّةٍ بيضٍ سحوليّةٍ ... » .

وروى عن النّبىّ صلى الله عليه وسلم أنّه « أعطى اللّواتى غسّلن ابنته خمسة أثوابٍ » ولأنّ عدد الثّلاث أكثر ما يلبسه الرّجل فى حياته ، فكذا بعد مماته ، والمرأة تزيد فى حال حياتها على الرّجل فى السّتر ، لزيادة عورتها على عورته ، فكذلك بعد الموت .

وتكره الزّيادة على الأثواب الثّلاثة للرّجل ، والخمسة للمرأة عند الجمهور : الشّافعيّة ، والحنابلة ، وروايةٍ عند الحنفيّة ، لما فيها من الإسراف وإضاعة المال المنهىّ عنهما ، وقد روى عن النّبىّ صلى الله عليه

وسلم أنّه قال : « لا تغالوا فى الكفن ، فإنّه يسلب سلباً سريعاً » وما روى عنه صلى الله عليه وسلم فى تحسين الكفن : « إذا كفّن أحدكم أخاه فليحسن كفنه » . معناه بياضه ونظافته ، لا كونه ثميناً حليةً .

ولا بأس عند المالكيّة بالزّيادة إلى خمسةٍ فى الرّجل ، وإلى سبعةٍ فى المرأة ، وقالوا : إنّ الزّيادة على الخمسة فى الرّجل ، والسّبعة فى المرأة إسرافٌ ، وثلاثةٌ أولى من أربعةٍ ، وخمسةٌ أولى من ستّةٍ . فعلم من ذلك أنّ الإسراف محظورٌ فى الكفن فى جميع المذاهب . والقاعدة فى ذلك أنّ الكفن يكون وفقاً لما يلبسه الميّت حال حياته عادةً .

وينظر تفصيل هذا الموضوع فى مصطلح (كفنٌ) .

الإسراف فى المحرّمات :

١٧ – المحظور فى اصطلاح الفقهاء : هو ما منع من استعماله شرعاً ، ويشمل بالمعنى الأعمّ الحرام والمكروه كراهة تحريمٍ ، فالمحظورات بهذا المعنى هى الممنوعات الشّرعيّة الّتى توجب العقاب .

وارتكاب المحرّمات يعتبر بنفسه إسرافاً ، لأنّه مجاوزة الحدّ المشروع . يقول الرّازىّ فى تفسير قوله تعالى : { ربّنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا } : الإسراف فى كلّ شىءٍ الإفراط فيه ، والمراد هنا الذّنوب العظيمة الكبيرة . قال أبو حيّان الأندلسىّ : (ذنوبنا وإسرافنا) متقاربان من حيث المعنى ، فجاء ذلك على سبيل التّأكيد . وقيل : الذّنوب ما دون الكبائر . ثمّ إنّ المبالغة فى ارتكاب الممنوع توجب تشديد العقاب ، فالعقوبة بقدر الجريمة ، كما قرّره الفقهاء ، والإصرار على الصّغيرة وإدامتها يأخذ حكم الكبيرة فى إسقاط العدالة ، فلا تقبل شهادة من كثرت صغائره وأصرّ عليها .

١٨ – لكن هناك حالاتٌ خاصّةٌ يجوز للشّخص الإتيان بالمحرّم ، بشرط ألاّ يسرف أى لا يجاوز الحدّ المشروع وذلك مثل :

أ – حالة الإكراه : كما إذا أجبر شخصٌ آخر بأكل أو شرب ما حرّم اللّه ، كالميتة والدّم والخمر وغيرها .

ب – حالة الاضطرار : كما إذا وجد الشّخص فى حالةٍ لو لم يتناول المحرّم هلك ، ولا تكون للخروج عن هذه الحالة وسيلةٌ أخرى ، كحالة الجوع والعطش الشّديدين .

ففى هذه الحالات يجوز اتّفاقاً – بل يجب عند الأكثر – أكل ما حرّم اللّه من الميتة والدّم والأموال المحرّمة ، بشرط ألاّ يسرف الآكل والشّارب ، ولا يتجاوز الحدود الشّرعيّة المقرّرة الّتى سيأتى تفصيلها .

وتتّفق حالة الإكراه مع حالة الاضطرار فى الحكم ، ولكنّهما تختلفان فى سبب الفعل ، ففى الإكراه يدفع المكره إلى إتيان الفعل المحرّم شخصٌ آخر ويجبره على العمل ، أمّا فى حالة الاضطرار فيوجد الفاعل فى ظروفٍ تقتضى الخروج منها ، أن يرتكب الفعل المحرّم لينجى نفسه . وبهذا نكتفى بذكر حكم الإسراف فى حالة الاضطرار فقط .

١٩ – اتّفق الفقهاء على أنّ المضطرّ يجوز له الانتفاع بالمحرّم ، ولو كان ميتةً أو دماً أو لحم خنزيرٍ أو مال الغير ، واستدلّوا بقوله تعالى : { فمن اضطرّ غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه } لكنّ الأكل والشّرب من المحرّم حال الاضطرار محدودٌ بحدودٍ لا يجوز التّجاوز عنها والإسراف فيها ، وإلاّ يعتبر مسيئاً وآثماً .

والجمهور : الحنفيّة ، والحنابلة ، وهو قولٌ عند الشّافعيّة ، ذهبوا إلى أنّ مقدار ما يجوز للمضطرّ أكله أو شربه من المحرّم هو ما يسدّ الرّمق ، فمن زاد عن هذا المقدار يعتبر مجاوزاً للحدّ . فلا يجوز له الأكل إلى حدّ الشّبع والتّزوّد بالمحرّم ، لأنّ اللّه سبحانه وتعالى قيّد جواز الانتفاع بالمحرّم فى حالة الاضطرار بقوله : { غير باغٍ ولا عادٍ } ، والمراد ألاّ يكون المضطرّ باغياً فى أكل المحرّم تلذّذاً ، ولا متعدّياً بالحدّ المشروع ، فيكون مسرفاً فى الأكل إذا تناول منها أكثر من المقدار الّذى يمسك الرّمق ، فمتى أكل بمقدار ما يزول عنه الخوف من الضّرر فى الحال فقد زالت الضّرورة ، ولا اعتبار فى ذلك لسدّ الجوعة ، لأنّ الجوع فى الابتلاء لا يبيح أكل الميتة إذا لم يخف ضرراً بتركه .

ومذهب المالكيّة ، وهو قولٌ عند الشّافعيّة ، وروايةٌ عن أحمد ، أنّ للمضطرّ أن يأكل من الميتة إلى حدّ الشّبع إذا لم يوجد غيرها ، لأنّ ما جاز سدّ الرّمق به جاز الشّبع منه كالمباح ، بل المالكيّة جوّزوا التّزوّد من الميتة ، وقالوا : إنّه يأكل منها حتّى يشبع ، ويتزوّد منها ، فإن وجد عنها غنًى طرحها ، لأنّ المضطرّ ليس ممّن حرمت عليه الميتة ، فإذا كانت حلالاً له الأكل منها ما شاء ، حتّى يجد غيرها فتحرم عليه ، وجواز التّزوّد للمضطرّ من لحم الميتة روايةٌ عند الحنابلة . وعلى ذلك فالأكل إلى حدّ الشّبع لا يعتبر إسرافاً عند هؤلاء ، كما أنّ التّزوّد من الميتة لا يعدّ إسرافاً عند المالكيّة ، وفى روايةٍ عند الحنابلة .

ولتفصيل الموضوع ر : (اضطرارٌ) .

الإسراف فى العقوبة :

٢٠ – الأصل فى الشّريعة أنّ العقوبة بقدر الجريمة ، قال سبحانه وتعالى : { وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به } وقال سبحانه : { فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم } فلا تجوز فيها الزّيادة والإسراف قطعاً ، لأنّ الزّيادة تعتبر تعدّياً منهيّاً عنه بقوله تعالى : { ولا تعتدوا إنّ اللّه لا يحبّ المعتدين } وبيان ذلك فيما يلى :

أ – الإسراف فى القصاص :

٢١ – اتّفق الفقهاء على أنّ مبنى القصاص على المساواة ، فلا يجوز فيه الإسراف والزّيادة . قال اللّه تعالى : { ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً فلا يسرف فى القتل إنّه كان منصوراً } قال المفسّرون فى تفسير هذه الآية : لا يسرف فى القتل أى لا يتجاوز الحدّ المشروع فيه ، فلا يقتل غير قاتله ، ولا

يمثّل بالقاتل كعادة الجاهليّة ، لأنّهم كانوا إذا قتل منهم واحدٌ قتلوا به جماعةً ، وإذا قتل من ليس شريفاً لم يقتلوه ، وقتلوا به شريفاً من قومه ، فنهى عن ذلك .

٢٢ – وصرّح الفقهاء أنّه إذا وجب القصاص على حاملٍ لم تقتل حتّى تضع حملها ، وإذا وضعت لم تقتل حتّى تسقى ولدها اللّبأ ، فإن لم يكن للولد من يرضعه لم يجز قتلها حتّى يجيء أوان فطامه ، لما ورد فى الحديث : « إذا قتلت المرأة عمداً لم تقتل حتّى تضع ما فى بطنها إن كانت حاملاً ، وحتّى تكفل ولدها » . ولأنّ فى قتل الحامل قتلاً لولدها ، فيكون إسرافاً فى القتل ، واللّه سبحانه قال : { فلا يسرف فى القتل } ، ولأنّ فى القصاص من الحامل قتلاً لغير الجانى وهو محرّمٌ ، إذ { لا تزر وازرةٌ وزر أخرى } .

٢٣ – ونشترط المماثلة فى قصاص الأعضاء فى المحلّ والمقدار والصّفة ، بألاّ يكون العضو المقتصّ منه أحسن حالاً من العضو التّالف ، وإلاّ يعتبر إسرافاً منهيّاً عنه ، فلا تؤخذ يدٌ صحيحةٌ بيدٍ شلاّء ، ولا رجلٌ صحيحةٌ برجلٍ شلاّء ، ولا تؤخذ يدٌ كاملةٌ بيدٍ ناقصةٍ ، لأنّه ليس للمجنىّ عليه أن يأخذ فوق حقّه ، ولو وجب له قصاصٌ فى أنملةٍ فقطع أنملتين ، فإن كان عامداً وجب عليه القصاص فى الزّيادة ، وهذا ما لا خلاف فيه بين الفقهاء .

٢٤ – ولكى يؤمن الإسراف والتّعدّى ، صرّح الفقهاء أنّه لا يستوفى القصاص فيما دون النّفس إلاّ بحضرة السّلطان أو نائبه ، لأنّه يفتقر إلى اجتهاده ، ولا يؤمن فيه الحيف مع قصد التّشفّى ، ويلزم ولىّ الأمر تفقّد آلة الاستيفاء ، والأمر بضبط المقتصّ منه فى غير النّفس ، حذراً من الزّيادة واضطرابه ، وإذا سلّم الحاكم القاتل لولىّ الدّم ليقتله نهى الحاكم الولىّ عن التّمثيل بالقاتل والتّشديد عليه فى قتله .

وفى قصاص الأطراف يشترط إمكان الاستيفاء من غير حيفٍ ولا زيادةٍ ، بأن يكون القطع من مفصلٍ ، فإن كان القطع من غير مفصلٍ فلا قصاص فيه من موضع القطع ، حذراً من الإسراف . ولأنّ الجرح الّذى يمكن استيفاء القصاص فيه من غير حيفٍ ولا زيادةٍ هو كلّ جرحٍ ينتهى إلى عظمٍ كالموضحة ، اتّفقت كلمة الفقهاء على أنّ فيها القصاص ، واتّفقوا كذلك على عدم القصاص فيما بعد الموضحة لأنّه يعظم فيه الخطر ، أمّا فى غيرها من الجروح فاختلفوا فى ذلك ، لاحتمال الزّيادة والحيف خوفاً من الإسراف ، ولو زاد المقتصّ عمداً فى موضحةٍ على حقّه لزمه قصاص الزّيادة لتعمّده ، كما نصّوا على ذلك .

وتفصيل هذه المسائل فى مصطلح (قصاصٌ) .

ب – الإسراف فى الحدود :

٢٥ – الحدّ عقوبةٌ مقدّرةٌ واجبةٌ حقّاً للّه . والمراد بالعقوبة المقدّرة : أنّها معيّنةٌ ومحدّدةٌ لا تقبل الزّيادة والنّقصان ، فحدّ من سرق ربع دينارٍ أو مائة ألف دينارٍ واحدٌ . ومعنى أنّها حقّ اللّه تعالى : أنّها لا تقبل العفو والإسقاط بعد ثبوتها ، ولا يمكن استبدال عقوبةٍ أخرى بها ، لأنّها ثبتت بالأدلّة القطعيّة ، فلا يجوز

فيها التّعدّى والإسراف ، وهذا ممّا لا خلاف فيه بين الفقهاء . ولهذا صرّح الفقهاء بأنّه لا يقام الحدّ على الحامل ، لأنّ فيه هلاك الجنين بغير حقٍّ ، وهذا إسرافٌ بلا شكٍّ . ويشترط فى الحدود الّتى عقوبتها الجلد ، كالقذف والشّرب والزّنى فى حالة عدم الإحصان ألاّ يكون فى الجلد خوف الهلاك ، لأنّ هذا الحدّ شرع زاجراً لا مهلكاً ، ويكون الضّرب وسطاً ، لا مبرّحاً ولا خفيفاً ، ولا يجمع فى عضوٍ واحدٍ ، ويتّقى المقاتل ، وهى الرّأس والوجه والفرج ، لما فيها من خوف الهلاك ، وينبغى أن يكون الجلاّد عاقلاً بصيراً بأمر الضّرب ، وذلك كلّه للتّحرّز عن التّعدّى والإسراف .

فإن أتى بالحدّ على الوجه المشروع من غير زيادةٍ وإسرافٍ لا يضمن من تلف به ، وهذا معنى قولهم : إنّ إقامة الحدّ غير مشروطةٍ بالسّلامة ، أمّا إذا أسرف وزاد على الحدّ فتلف المحدود وجب الضّمان بالاتّفاق . وينظر تفصيل هذه المسائل فى مواضعها .

ج – الإسراف فى التّعزير :

٢٦ – التّعزير هو : التّأديب على ذنوبٍ لم يشرع فيها حدٌّ ولا كفّارةٌ . وهو عقوبةٌ غير مقدّرةٍ تختلف باختلاف الجناية وأحوال النّاس ، فتقدّر بقدر الجناية ، ومقدار ما ينزجر به الجانى ، ومن النّاس من ينزجر باليسير ، ومنهم من لا ينزجر إلاّ بالكثير ، ولهذا قرّر الفقهاء فى الضّرب للتّأديب ألاّ يكون مبرّحاً ، ولا يكون على الوجه ، ولا على المواضع المخوفة ، وأن يكون ممّا يعتبر مثله تأديباً ، فإنّ المقصود منه الصّلاح لا غير ، فإن غلب على ظنّه أنّ الضّرب لا يفيد إلاّ أن يكون مخوفاً لم يجز التّعزير بالضّرب ، وإلاّ كان ضامناً بلا خلافٍ ، لأنّ الضّرب غير المعتاد ، والّذى لا يعتبر مثله أدباً تعدٍّ وإسرافٌ فيوجب الضّمان .

٢٧ – أمّا إذا ضرب للتّأديب على النّحو المشروع من غير إسرافٍ – كما فسّره الرّملىّ – بأن يكون الضّرب معتاداً كمّاً وكيفاً ومحلاً – كما عبّر الطّحطاوىّ – فتلف ، كضرب الزّوج زوجته لنشوزها ، فتلفت من التّأديب المشروع ، لا يضمن عند المالكيّة والحنابلة ، ويضمن عن التّلف عند الحنفيّة والشّافعيّة ولو كان الضّرب معتاداً ، لأنّ التّأديب حقٌّ ، واستعمال الحقّ يقيّد بالسّلامة عندهما ، ولا يقيّد بها عند المالكيّة والحنابلة ، كما هو مبيّنٌ فى موضعها . وأكثر الفقهاء (منهم أبو حنيفة ، ومحمّدٌ ، والشّافعىّ فى الأصحّ ، وأحمد فى روايةٍ) على أنّ عقوبة الجلد فى التّعزير لا تتجاوز تسعةً وثلاثين سوطاً ، لما ورد فى الحديث الصّحيح أنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « من بلغ حدّاً فى غير حدٍّ فهو من المعتدين » . لأنّ الأربعين حدٌّ كاملٌ للرّقيق ، فإذا نقصت سوطاً أصبح الحدّ الأعلى للتّعزير تسعةً وثلاثين ، وقيّد بعضهم هذا فيما يكون فى جنسه حدٌّ .

وفى روايةٍ عن أحمد ، وهو قول ابن وهبٍ من المالكيّة ، أنّه لا يزاد على عشر جلداتٍ ، وقال ابن قدامة نقلاً عن القاضى : إنّ هذا هو المذهب . ويفوّض مقداره مطلقاً – وإن زائداً على الحدّ – للحاكم بشرط ألاّ يتجاوز عمّا يكفى لزجر الجانى عند المالكيّة . وليس لأقلّ التّعزير حدٌّ معيّنٌ فى الرّاجح عند الفقهاء ، فلو رأى القاضى أنّه ينزجر بسوطٍ واحدٍ اكتفى به ، فلا يجوز الإسراف والزّيادة فى التّعزير على مقدار ما ينزجر به المجرم فى المذاهب كلّها .

الحجر على المسرف :

٢٨ – المسرف فى الأموال يعتبر سفيهاً عند الفقهاء ، لأنّه يبذّر الأموال ويضيّعها على خلاف مقتضى الشّرع والعقل ، وهذا هو معنى السّفه عندهم . ولهذا جرى على لسان الفقهاء : أنّ السّفه هو التّبذير ، والسّفيه هو المبذّر . وعلى ذلك فالإسراف النّاشئ عن السّفه سببٌ للحجر عند جمهور الفقهاء : المالكيّة والشّافعيّة والحنابلة ، وهو رأى الصّاحبين : أبى يوسف ومحمّدٍ من الحنفيّة ، وعليه الفتوى عندهم خلافاً لأبى حنيفة ، فلا يحجر على المكلّف لسبب السّفه والتّبذير . ولتفصيل ذلك انظر مصطلح (حجرٌ) .

أسرى ❊

التعريف :

١ – الأسرى جمع أسيرٍ ، ويجمع أيضاً على أسارى وأسارى .

والأسير لغةً : مأخوذٌ من الإسار ، وهو القيد ، لأنّهم كانوا يشدّونه بالقيد . فسمّى كلّ أخيذٍ أسيراً وإن لم يشدّ به . وكلّ محبوسٍ فى قيدٍ أو سجنٍ أسيرٌ . قال مجاهدٌ فى تفسير قول اللّه سبحانه : { ويطعمون الطّعام على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً } الأسير : المسجون .

٢ – وفى الاصطلاح : عرّف الماوردىّ الأسرى بأنّهم : الرّجال المقاتلون من الكفّار ، إذا ظفر المسلمون بهم أحياءً . وهو تعريفٌ أغلبىٌّ ، لاختصاصه بأسرى الحربيّين عند القتال ، لأنّه بتتبّع استعمالات الفقهاء لهذا اللّفظ يتبيّن أنّهم يطلقونه على كلّ من يظفر بهم من المقاتلين ومن فى حكمهم ، ويؤخذون أثناء الحرب أو فى نهايتها ، أو من غير حربٍ فعليّةٍ ، ما دام العداء قائماً والحرب محتملةٌ .

من ذلك قول ابن تيميّة : أوجبت الشّريعة قتال الكفّار ، ولم توجب قتل المقدور عليهم منهم ، بل إذا أسر الرّجل منهم فى القتال أو غير القتال ، مثل أن تلقيه السّفينة إلينا ، أو يضلّ الطّريق ، أو يؤخذ بحيلةٍ فإنّه يفعل به الإمام الأصلح . وفى المغنى : هو لمن أخذه ، وقيل : يكون فيئاً . ويطلق الفقهاء لفظ الأسير أيضاً على : من يظفر به المسلمون من الحربيّين إذا دخلوا دار الإسلام بغير أمانٍ ، وعلى من يظفرون به

من المرتدّين عند مقاتلتهم لنا . يقول ابن تيميّة : ومن أسر منهم أقيم عليه الحدّ . كما يطلقون لفظ الأسير على : المسلم الّذى ظفر به العدوّ . يقول ابن رشدٍ : وجب على الإمام أن يفكّ أسرى المسلمين من بيت المال ... ويقول : وإذا كان الحصن فيه أسارى من المسلمين ، وأطفالٌ من المسلمين ... إلخ .

الألفاظ ذات الصّلة

أ – الرّهينة :

٣ – الرّهينة : واحدة الرّهائن وهى كلّ ما احتبس بشىءٍ ، والأسير والرّهينة كلاهما محتبسٌ ، إلاّ أنّ الأسير يتعيّن أن يكون إنساناً ، واحتباسه لا يلزم أن يكون مقابل حقٍّ .

ب – الحبس :

٤ – الحبس : ضدّ التّخلية ، والمحبوس : الممسك عن التّوجّه حيث يشاء ، فالحبس أعمّ من الأسر .

ج – السّبى :

٥ – السّبى والسّباء : الأسر ، فالسّبى أخذ النّاس عبيداً وإماءً ، والفقهاء يطلقون لفظ السّبى على من يظفر به المسلمون حيّاً من نساء أهل الحرب وأطفالهم . ويخصّصون لفظ الأسرى – عند مقابلته بلفظ السّبايا – بالرّجال المقاتلين ، إذا ظفر المسلمون بهم أحياءً .

صفة الأسر : حكمه التّكليفىّ :

٦ – الأسر مشروعٌ ، ويدلّ على مشروعيّته النّصوص الواردة فى ذلك ، ومنها قول اللّه سبحانه : { فإذا لقيتم الّذين كفروا فضرب الرّقاب حتّى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق ... } ولا يتنافى ذلك مع قول اللّه تعالى { ما كان لنبىٍّ أن يكون له أسرى حتّى يثخن فى الأرض } لأنّها لم ترد فى منع الأسر مطلقاً ، وإنّما جاءت فى الحثّ على القتال ، وأنّه ما كان ينبغى أن يكون للمسلمين أسرى قبل الإثخان فى الأرض ، أى المبالغة فى قتل الكفّار .

الحكمة من مشروعيّة الأسر :

٧ – هى كسر شوكة العدوّ ، ودفع شرّه ، وإبعاده عن ساحة القتال ، لمنع فاعليّته وأذاه ، وليمكن افتكاك أسرى المسلمين به .

من يجوز أسرهم ومن لا يجوز :

٨ – يجوز أسر كلّ من وقع فى يد المسلمين من الحربيّين ، صبيّاً كان أو شابّاً أو شيخاً أو امرأةً ، الأصحّاء منهم والمرضى ، إلاّ من لا يخشى من تركه ضررٌ وتعذّر نقله ، فإنّه لا يجوز أسره على تفصيلٍ بين المذاهب فى ذلك .

فمذهب الحنفيّة والحنابلة ، وهو مقابل الأظهر عند الشّافعيّة : أنّه لا يؤسر من لا ضرر منهم ، ولا فائدة فى أسرهم ، كالشّيخ الفانى والزّمن والأعمى والرّاهب إذا كانوا ممّن لا رأى لهم . ونصّ المالكيّة على أنّ كلّ من لا يقتل يجوز أسره ، إلاّ الرّاهب والرّاهبة إذا لم يكن لهما رأىٌ فإنّهما لا يؤسران ، وأمّا غيرهما من المعتوه والشّيخ الفانى والزّمن والأعمى فإنّهم وإن حرم قتلهم يجز أسرهم ، ويجوز تركهم من غير قتلٍ ومن غير أسرٍ .

وذهب الشّافعيّة فى الأظهر إلى أنّه يجوز أسر الجميع دون استثناءٍ .

٩ – ولا يجوز أسر أحدٍ من دار الكفر إذا كان بين المسلمين وبينها عهد موادعةٍ ، لأنّ عقد الموادعة أفاد الأمان ، وبالأمان لا تصير الدّار مستباحةً ، وحتّى لو خرج قومٌ من الموادعين إلى بلدةٍ أخرى ليس بينهم وبين المسلمين موادعةٌ ، فغزا المسلمون تلك البلدة ، فهؤلاء آمنون ، لا سبيل لأحدٍ عليهم ، لأنّ عقد الموادعة أفاد الأمان لهم ، فلا ينتقض بالخروج إلى موضعٍ آخر . وكذا لو دخل فى دار الموادعة رجلٌ من غير دارهم بأمانٍ ، ثمّ خرج إلى دار الإسلام بغير أمانٍ ، فهو آمنٌ لا يجوز أسره ، لأنّه لمّا دخل دار الموادعين بأمانهم صار كواحدٍ منهم . ومثله ما لو وجد الحربىّ بدار الإسلام بأمانٍ فإنّه لا يجوز أسره ، وما لو أخذ الحربىّ الأمان من المسلمين وهو فى حصن الحربيّين .

الأسير فى يد آسره ومدى سلطانه عليه :

١٠ – الأسير فى ذمّة آسره لا يد له عليه ، ولا حقّ له فى التّصرّف فيه ، إذ الحقّ للتّصرّف فيه موكولٌ للإمام ، وعليه بعد الأسر أن يقوده إلى الأمير ليقضى فيه بما يرى ، وللآسر أن يشدّ وثاقه إن خاف انفلاته ، أو لم يأمن شرّه ، كما يجوز عصب عينيه أثناء نقله لمنعه من الهرب . فمن حقّ المسلم أن يمنع الأسير من الهرب ، وإذا لم يجد فرصةً لمنعه إلاّ قتله فلا بأس ، وقد فعل هذا غير واحدٍ من الصّحابة .

١١ – وجمهور الفقهاء على أنّ الأسير إذا صار فى يد الإمام فلا استحقاق للآسر فيه إلاّ بتنفيل الإمام ، لا بنفس الأسر ، وذلك بأن ينادى فى العسكر : من أصاب منكم أسيراً فهو له ، فإن قال ذلك فأعتق الرّجل أسيره فإنّه ينفذ عتقه . ولو أصاب ذا رحمٍ محرمٍ منه عتق ، لأنّه إذا ثبت الاستحقاق لهم بالإصابة صار الأسير مملوكاً لآسره واحداً أو جماعةً . بل قالوا : لو قال الأمير : من قتل قتيلاً فله سلبه . فأسر العسكر بعض الأسرى ، ثمّ قتل أحد الأسراء رجلاً من العدوّ ، كان السّلب من الغنيمة ، إن لم يقسّم الأمير الأسراء ، وإن كان قسمهم أو باعهم فالسّلب لمولى الأسير القاتل . وقد فرّق المالكيّة بين من أسر أسيراً أثناء القتال مستنداً إلى قوّة الجيش ، وبين من أسر أسيراً من غير حربٍ ، وقالوا : إن كان الآسر من الجيش ، أو مستنداً له خمسٌ كسائر الغنيمة ، وإلاّ اختصّ به الآسر .

حكم قتل الآسر أسيره :

١٢ – ليس لواحدٍ من الغزاة أن يقتل أسيره بنفسه ، إذ الأمر فيه بعد الأسر مفوّضٌ للإمام ، فلا يحلّ القتل إلاّ برأى الإمام اتّفاقاً ، إلاّ إذا خيف ضرره ، فحينئذٍ يجوز قتله قبل أن يؤتى به إلى الإمام ، وليس لغير من أسره قتله ، لحديث جابرٍ أنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « لا يتعاطى أحدكم أسير صاحبه فيقتله » .

فلو قتل رجلٌ من المسلمين أسيراً فى دار الحرب أو فى دار الإسلام ، فالحنفيّة يفرّقون بين ما إذا كان قبل القسمة أو بعدها ، فإن كان قبل القسمة فلا شىء فيه من ديةٍ أو كفّارةٍ أو قيمةٍ ، لأنّ دمه غير معصومٍ ، إذ للإمام فيه خيرة القتل ، ومع هذا فهو مكروهٌ ، وإن كان بعد القسمة ، أو بعد البيع فيراعى فيه حكم القتل ، لأنّ دمه صار معصوماً ، فكان مضموناً بالقتل ، إلاّ أنّه لا يجب القصاص لقيام الشّبهة . ولم يفرّقوا فى ذلك بين ما إذا كان هو الآسر أو غيره كما يفيده الإطلاق . والمالكيّة يتّجهون وجهة الحنفيّة من ناحية الضّمان ، غير أنّهم جعلوا التّفرقة فيما إذا كان القتل فى دار الحرب قبل أن يصير فى المغنم ، أو بعد أن صار مغنماً ، وينصّون على أنّ من قتل من نهى عن قتله ، فإن قتله فى دار الحرب قبل أن يصير فى المغنم فليستغفر اللّه ، وإن قتله بعد أن صار مغنماً فعليه قيمته .

والشّافعيّة أيضاً يلزمون القاتل بالضّمان ، فإذا كان بعد اختيار رقّه ضمن قيمته ، وكان فى الغنيمة . وإذا كان بعد المنّ عليه لزمه ديته لورثته . وإن قتله بعد الفداء فعليه ديته غنيمةً ، إن لم يكن قبض الإمام الفداء ، وإلاّ فديته لورثته . وإن قتله بعد اختيار الإمام قتله فلا شىء عليه ، وإن كان قبله عزّر .

وعند الحنابلة : إن قتل أسيره أو أسير غيره قبل الذّهاب للإمام أساء ، ولم يلزمه ضمانه .

معاملة الأسير قبل نقله لدار الإسلام :

١٣ – مبادئ الإسلام تدعو إلى الرّفق بالأسرى ، وتوفير الطّعام والشّراب والكساء لهم ، واحترام آدميّتهم ، لقوله تعالى { ويطعمون الطّعام على حبّه مسكينا ويتيماً وأسيراً } ، وروى أنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه فى أسرى بنى قريظة بعدما احترق النّهار فى يومٍ صائفٍ : « أحسنوا إسارهم ، وقيّلوهم ، واسقوهم » وقال : « لا تجمعوا عليهم حرّ هذا اليوم وحرّ السّلاح ... » وقال الفقهاء : إن رأى الإمام قتل الأسارى فينبغى له ألاّ يعذّبهم بالعطش والجوع ، ولكنّه يقتلهم قتلاً كريماً . ويجوز حبس الأسرى فى أىّ مكان ، ليؤمن منعهم من الفرار ، فقد جاء فى الصّحيحين أنّ « الرّسول حبس فى مسجد المدينة »

التّصرّف فى الأسرى قبل نقلهم لدار الإسلام :

١٤ – يرى جمهور الفقهاء جواز التّصرّف فى الغنائم – ومنها الأسرى فى دار الحرب – وقبل نقلهم لدار الإسلام . قال مالكٌ : الشّأن أن تقسم الغنائم وتباع ببلد الحرب ، وروى الأوزاعىّ أنّ رسول اللّه والخلفاء لم يقسموا غنيمةً قطّ إلاّ فى دار الشّرك ، قال أبو سعيدٍ الخدرىّ رضى الله عنه : « خرجنا مع رسول اللّه

صلى الله عليه وسلم فى غزوة المصطلق ، فأصبنا سبياً من سبى العرب ، فاشتهينا النّساء ، واشتدّت علينا وأحببنا العزل ، فأردنا العزل وقلنا : نعزل ورسول اللّه صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا قبل أن نسأله ، فسألناه عن ذلک فقال : ما عليكم أن لا تفعلوا ، ما من نسمةٍ كائنة إلى يوم القيامة إلاّ وهى كائنةٌ » فإنّ سؤالهم النّبىّ صلى الله عليه وسلم عن العزل فى وطء السّبايا دليلٌ على أنّ قسمة الغنائم قد تمّت فى دار الحرب ، ولما فى ذلک من تعجيل مسرّة الغانمين وغيظ الكافرين ، ويكره تأخيره لبلد الإسلام ، وهذا إذا كان الغانمون جيشاً وأمنوا من كرّ العدوّ عليهم .

وقد نصّ الشّافعيّة على أنّ للغانمين التّملّک قبل القسمة لفظاً ، بأن يقول كلٌّ بعد الحيازة ، وقبل القسمة : اخترت ملک نصيبى ، فتملّک بذلک . وقيل : يملكون بمجرّد الحيازة ، لزوال ملک الكفّار بالاستيلاء . وقيل : الملک موقوفٌ . والمراد عند من قال يملكون بمجرّد الحيازة : الاختصاص ، أى يختصمون .

وصرّح الحنابلة بجواز قسمة الغنائم فى دار الحرب ، وهو قول الأوزاعىّ وابن المنذر وأبى ثورٍ لفعل الرّسول صلى الله عليه وسلم ولأنّ الملک ثبت فيها بالقهر والاستيلاء .

١٥ – وعند الحنفيّة لا تقسم الغنائم إلاّ فى دار الإسلام ، لأنّ الملک لا يتمّ عليها إلاّ بالاستيلاء التّامّ ، ولا يحصل إلاّ بإحرازها فى دار الإسلام ، لأنّ سبب ثبوت الحقّ القهر ، وهو موجودٌ من وجهٍ دون وجهٍ ، لأنّهم قاهرون يداً مقهورون داراً ، فلا ينبغى للإمام أن يقسم الغنائم – ومنها الأسرى – أو يبيعها حتّى يخرجها إلى دار الإسلام ، خشية تقليل الرّغبة فى لحوق المدد بالجيش ، وتعرّض المسلمين لوقوع الدّبرة عليهم ، بأن يتفرّقوا ويستقلّ كلّ واحدٍ منهم بحمل نصيبه . ومع هذا فقالوا : وإن قسم الإمام الغنائم فى دار الحرب جاز ، لأنّه أمضى فصلاً مختلفاً فيه بالاجتهاد . وقد روى أنّ « الرّسول صلى الله عليه وسلم أخّر قسمة غنائم حنينٍ حتّى انصرف إلى الجعرانة » .

تأمين الأسير :

١٦ – يتّفق الفقهاء على أنّه يحقّ للإمام إعطاء الأمان للأسير بعد الاستيلاء عليه ، لأنّ عمر لمّا قدم عليه بالهرمزان أسيراً قال :" لا بأس عليک ، ثمّ أراد قتله ، فقال له أنسٌ : قد أمّنته فلا سبيل لک عليه ، وشهد الزّبير بذلک "فعدّوه أماناً ، ولأنّ للإمام أن يمنّ عليه ، والأمان دون المنّ ، ولا ينبغى للإمام أن يتصرّف على حكم التّمنّى والتّشهّى دون مصلحة المسلمين ، فما عقده أمير الجيش من الأمان جاز ولزم الوفاء به ، وأمّا آحاد الرّعيّة فليس لهم ذلک ، لأنّ أمر الأسير مفوّضٌ إلى الإمام ، فلم يجز الافتيات عليه فيما يمنع ذلک كقتله . وذكر أبو الخطّاب أنّه يصحّ أمان آحاد الرّعيّة ، لأنّ « زينب بنت الرّسول صلى الله عليه وسلم أجارت زوجها أبا العاص بن الرّبيع بعد أسره ، فأجاز النّبىّ صلى الله عليه وسلم أمانها » . وتفصيل ذلک فى مصطلح (أمانٌ) .

حكم الإمام فى الأسرى :

١٧ – يرجع الأمر فى أسرى الحربيّين إلى الإمام ، أو من ينيبه عنه .

وجعل جمهور الفقهاء مصائر الأسرى بعد ذلك ، وقبل إجراء قسمة الغنائم بين الغانمين ، فى أحد أمورٍ : فقد نصّ الشّافعيّة والحنابلة على تخيير الإمام فى الرّجال البالغين من أسرى الكفّار ، بين قتلهم ، أو استرقاقهم ، أو المنّ عليهم ، أو مفاداتهم بمالٍ أو نفسٍ .

أمّا الحنفيّة فقد قصروا التّخيير على ثلاثة أمورٍ فقط : القتل ، والاسترقاق ، والمنّ عليهم بجعلهم أهل ذمّةٍ على الجزية ، ولم يجيزوا المنّ عليهم دون قيدٍ ، ولا الفداء بالمال إلاّ عند محمّد بن الحسن بالنّسبة للشّيخ الكبير ، أو إذا كان المسلمون بحاجةٍ للمال . وأمّا مفاداتهم بأسرى المسلمين فموضع خلافٍ عندهم .

وذهب مالكٌ إلى أنّ الإمام يخيّر فى الأسرى بين خمسة أشياء : فإمّا أن يقتل ، وإمّا أن يسترقّ ، وإمّا أن يعتق ، وإمّا أن يأخذ فيه الفداء ، وإمّا أن يعقد عليه الذّمّة ويضرب عليه الجزية ، والإمام مقيّدٌ فى اختياره بما يحقّق مصلحة الجماعة .

١٨ – ويتّفق الفقهاء على أنّ الأصل فى السّبايا من النّساء والصّبيّة أنّهم لا يقتلون . ففى الشّرح الكبير للدّردير : وأمّا النّساء والذّراريّ فليس فيهم إلاّ الاسترقاق أو الفداء . وتفصيله فى (سبىٌ) . كما يتّفقون على أنّ الأسير الحربىّ الّذى أعلن إسلامه قبل القسمة ، لا يحقّ للإمام قتله ، لأنّ الإسلام عاصمٌ لدمه على ما سيأتى .

١٩ – ويقول الشّافعيّة : إن خفى على الإمام أو أمير الجيش الأحظّ حبسهم حتّى يظهر له ، لأنّه راجعٌ إلى الاجتهاد ، ويصرّح ابن رشدٍ بأنّ هذا ما لا خلاف فيه بين المسلمين ، إذا لم يكن يوجد تأمينٌ لهم .

٢٠ – وقال قومٌ : لا يجوز قتل الأسير ، وحكى الحسن بن محمّدٍ التّميمىّ أنّه إجماع الصّحابة . والسّبب فى الاختلاف تعارض الآية فى هذا المعنى ، وتعارض الأفعال ، ومعارضة ظاهر الكتاب لفعله عليه الصلاة والسلام ، لأنّ ظاهر قول اللّه تعالى : { فإذا لقيتم الّذين كفروا فضرب الرّقاب } أنّه ليس للإمام بعد الأسر إلاّ المنّ أو الفداء . وقوله تعالى { ما كان لنبىٍّ أن يكون له أسرى حتّى يثخن فى الأرض } والسّبب الّذى نزلت فيه يدلّ على أنّ القتل أفضل من الاستبقاء .

وأمّا فعل الرّسول صلى الله عليه وسلم :« فقد قتل الأسارى فى غير موطنٍ »، فمن رأى أنّ الآية الخاصّة بالأسارى ناسخةٌ لفعله قال : لا يقتل الأسير ، ومن رأى أنّ الآية ليس فيها ذكرٌ لقتل الأسير ولا المقصود منها حصر ما يفعل بالأسارى قال بجواز قتل الأسير .

٢١ – ويتّفق الفقهاء على أنّ الأسرى من نساء الحربيّين وذراريّهم ، ومن فى حكمهم كالخنثى والمجنون ، وكذا العبيد المملوكون لهم يسترقّون بنفس الأسر ، ويتّفقون على أنّ من أسلم من الحربيّين قبل الاستيلاء

والأسر لا يسترقّ ، وكذا بالنّسبة للمرتدّين ، فإنّ الحكم بالنّسبة لهم الاستتابة والعودة إلى الإسلام ، وإلاّ فالسّيف .

٢٢ – أمّا الرّجال الأحرار المقاتلون منهم . فقد اتّفقوا أيضاً على جواز استرقاق الأعاجم ، وثنيّين كانوا أو أهل كتابٍ . واتّجه الجمهور إلى جواز استرقاق العرب على تفصيلٍ بينهم . والحنفيّة لا يجيزون استرقاق مشركى العرب .

الفداء بالمال :

٢٣ – المشهور فى مذهب المالكيّة ، وهو قول محمّد بن الحسن من فقهاء الحنفيّة ، ومذهب الشّافعيّة ، والحنابلة فى غير روايةٍ عن الإمام أحمد : جواز فداء أسرى الحربيّين الّذين يثبت الخيار للإمام فيهم بالمال . غير أنّ المالكيّة يجيزونه بمالٍ أكثر من قيمة الأسير ، وعن محمّد بن الحسن – كما نقل السّرخسىّ عن السّير الكبير – تقييد ذلك بحاجة المسلمين للمال ، وقيد الكاسانىّ هذا بما إذا كان الأسير شيخاً كبيراً لا يرجى له ولدٌ . وأجازه الشّافعيّة بالمال دون قيدٍ ، ولو لم تكن ثمّة حاجةٌ للمال ، ونصّوا على أنّه للإمام أن يفدى الأسرى بالمال يأخذه منهم ، سواءٌ ، أكان من مالهم أم من مالنا الّذى فى أيديهم ، وأن نفديهم بأسلحتنا الّتى فى أيديهم . أمّا أسلحتهم الّتى بأيدينا ففى جواز مفاداة أسرانا بها وجهان ، أوجههما عندهم الجواز . واستدلّ المجيزون بظاهر قوله تعالى { فإمّا منّاً بعد وإمّا فداءً } ، و«بفعل الرّسول صلى الله عليه وسلم ، فقد فادى أسارى بدرٍ بالمال وكانوا سبعين رجلاً ، كلّ رجلٍ منهم بأربعمائة درهمٍ »، وأدنى درجات فعله الجواز والإباحة .

٢٤ – ويرى الحنفيّة ، فى غير ما روى عن محمّدٍ ، وهو روايةٌ عن أحمد وقول أبى عبيد القاسم بن سلاّمٍ عدم جواز الفداء بمالٍ . ويدلّ على عدم الجواز أنّ قتل الأسارى مأمورٌ به ، لقوله تعالى { فاضربوا فوق الأعناق } وأنّه منصرفٌ إلى ما بعد الأخذ والاسترقاق ، وقوله تعالى { فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم } والأمر بالقتل للتّوسّل إلى الإسلام ، فلا يجوز تركه إلاّ لما شرع له القتل ، وهو أن يكون وسيلةً إلى الإسلام ، ولا يحصل معنى التّوسّل بالمفاداة بالمال ، كما أنّ فى ذلك إعانةً لأهل الحرب ، لأنّهم يرجعون إلى المنعة ، فيصيرون حرباً علينا ، وقتل المشرك عند التّمكّن منه فرضٌ محكمٌ ، وفى المفاداة ترك إقامة هذا الفرض ، وقد روى عن أبى بكرٍ أنّه قال فى الأسير :" لا تفادوه وإن أعطيتم به مدّين من ذهبٍ " ولأنّه صار بالأسر من أهل دارنا ، فلا يجوز إعادته لدار الحرب ، ليكون حرباً علينا ، وفى هذا معصيةٌ ، وارتكاب المعصية لمنفعة المال لا يجوز ، ولو أعطونا مالاً لترك الصّلاة لا يجوز لنا أن نفعل ذلك مع الحاجة ، فكذا لا يجوز ترك قتل المشرك بالمفاداة .

وعلى القول بأنّ للإمام حقّ المفاداة بالمال ، فإنّ هذا المال يكون للغانمين ، وليس من حقّه أن يسقط شيئاً من المال الّذى يفرضه عليهم مقابل الفداء إلاّ برضى الغانمين .

فداء أسرى المسلمين بأسرى الأعداء :

٢٥ – ذهب الجمهور من المالكيّة ، والشّافعيّة ، والحنابلة ، وصاحبا أبى حنيفة ، وهو إحدى الرّوايتين عن أبى حنيفة إلى جواز تبادل الأسرى ، مستدلّين بقول النّبىّ « أطعموا الجائع وعودوا المريض وفكّوا العانى » وقوله « إنّ على المسلمين فى فيئهم أن يفادوا أسيرهم ، ويؤدّوا عن غارمهم » و « فادى النّبىّ صلى الله عليه وسلم رجلين من المسلمين بالرّجل الّذى أخذه من بنى عقيلٍ » . « وفادى بالمرأة الّتى استوهبها من سلمة بن الأكوع ناساً من المسلمين كانوا قد أسروا بمكّة » ولأنّ فى المفاداة تخليص المسلم من عذاب الكفّار والفتنة فى الدّين ، وإنقاذ المسلم أولى من إهلاك الكافر .

ولم يفرّقوا بين ما إذا كانت المفاداة قبل القسمة أو بعدها . أمّا أبو يوسف فقد قصر جواز المفاداة على ما قبل القسمة ، لأنّه قبل القسمة لم يتقرّر كون أسيرهم من أهل دارنا حتّى جاز للإمام أن يقتله ، وأمّا بعد القسمة فقد تقرّر كونه من أهل دارنا حتّى ليس للإمام أن يقتله . أى فلا يعاد بالمفاداة إلى دار الكفر .

ولأنّ فى المفاداة بعدها إبطال ملك المقسوم له من غير رضاه . ونصّ المالكيّة على مثل قول أبى يوسف أيضاً ، ومحمّد بن الحسن أجازه فى الحالتين لأنّ المعنى الّذى لأجله جوّز ذلك قبل القسمة الحاجة إلى تخليص المسلم من عذابهم ، وهذا موجودٌ بعد القسمة ، وحقّ الغانمين فى الاسترقاق ثابتٌ قبل القسمة ، وقد صار الأسير بذلك من أهل دارنا ، ثمّ تجوز المفاداة به لهذه الحاجة ، فكذلك بعد القسمة .

وقد نقل الحطّاب عن أبى عبيدٍ أنّ النّساء والذّراريّ ليس فيهم إلاّ الاسترقاق ، أو المفاداة بالنّفوس دون المال . وأمّا الرّواية الأخرى عن أبى حنيفة فهى منع مفاداة الأسير بالأسير ، ووجهه : أنّ قتل المشركين فرضٌ محكمٌ ، فلا يجوز تركه بالمفاداة .

٢٦ – ولو أسلم الأسير لا يفادى به لعدم الفائدة ، أى لأنّه فداء مسلمٍ بمسلمٍ ، إلاّ إذا طابت به نفسه وهو مأمونٌ على إسلامه :

٢٧ – ويجوز مفاداة الأكثر بالأقلّ والعكس كما قال الشّافعيّة ، ولم يصرّح بذلك الحنابلة ، لكن فى كتبهم ما يوافق ذلك ، لاستدلالهم بالأحاديث المتقدّمة . أمّا الحنفيّة فقد نصّوا على أنّه لا يجوز أن يعطى لنا رجلٌ واحدٌ من أسرانا ، ويؤخذ بدله أسيران من المشركين .

جعل الأسرى ذمّةً لنا وفرض الجزية عليهم :

٢٨ – اتّفق الفقهاء على أنّه يجوز للإمام أن يضع الجزية فى رقاب الأسرى من أهل الكتاب والمجوس على أن يكونوا ذمّةً لنا ، وفى وجهٍ عند الشّافعىّ أنّه يجب على الإمام إجابتهم إلى ذلك إذا سألوه ، كما

يجب إذا بذلوا الجزية فى غير أسرٍ . واستدلّوا على جواز ذلک بفعل عمر فى أهل السّواد وقالوا : إنّه أمرٌ جوازىٌّ ، لأنّهم صاروا فى يد المسلمين بغير أمانٍ ، وكيلا يسقط بذلک ما ثبت من اختيارٍ . وهذا إن كانوا ممّن تؤخذ منهم الجزية .

وهذا يتّفق مع ما حكاه ابن رشدٍ حيث قال : وقد اتّفق الفقهاء على أنّ الجزية تؤخذ من أهل الكتاب والمجوس ، واختلفوا فيما سواهم من المشركين ، فقال قومٌ : تؤخذ من كلّ مشركٍ ، وبه قال مالکٌ .

وأجاز الحنفيّة ذلک للإمام بالنّسبة للأسارى من غير مشركى العرب والمرتدّين ، ووضعوا قاعدةً عامّةً هى : كلّ من يجوز استرقاقه من الرّجال ، يجوز أخذ الجزية منه بعقد الذّمّة ، كأهل الكتاب وعبدة الأوثان من العجم ، ومن لا يجوز استرقاقه لا يجوز أخذ الجزية منه ، كالمرتدّين وعبدة الأوثان من العرب .

رجوع الإمام فى اختياره :

٢٩ – لم نقف فيما رجعنا إليه من كتبٍ على من تعرّض لهذا ، إلاّ ما قاله ابن حجرٍ الهيتمىّ الشّافعىّ من قولة : لم يتعرّضوا فيما علمت إلى أنّ الإمام لو اختار خصلةً له الرّجوع عنها أوّلاً ، ولا إلى أنّ اختياره هل يتوقّف على لفظٍ أو لا . وقال : والّذى يظهر لى فى ذلک تفصيلٌ لا بدّ منه ، فلو اختار خصلةً وظهر له بالاجتهاد أنّها الأحظّ ، ثمّ ظهر له أنّ الأحظّ غيرها ، فإن كانت رقّاً لم يجز له الرّجوع عنها مطلقاً ، لأنّ الغانمين وأهل الخمس ملكوا بمجرّد ضرب الرّقّ ، فلم يملک إبطاله عليهم ، وإن كان قتلاً جاز له الرّجوع عنه ، تغليباً لحقن الدّماء ما أمكن ، وإن كان فداءً أو منّاً لم يعمل بالثّانى ، لاستلزامه نقض الاجتهاد بالاجتهاد من غير موجبٍ ، إلاّ إذا كان اختياره أحدهما لسببٍ ثمّ زال السّبب ، وتعيّنت المصلحة فى الثّانى عمل بقضيّته . وليس هذا نقض اجتهادٍ باجتهادٍ ، بل بما يشبه النّصّ ، لزوال موجبه الأوّل بالكلّيّة .

ما يكون به الاختيار :

٣٠ – وأمّا توقّف الاختيار على لفظٍ ، فإنّ الاسترقاق لا بدّ فيه من لفظٍ يدلّ عليه ، ولا يكفى فيه مجرّد الفعل ، وكذا الفداء ، نعم يكفى فيه لفظٌ ملتزمٌ البدل مع قبض الإمام له من غير لفظٍ ، بخلاف الخصلتين الأخريين لحصولهما بمجرّد الفعل .

إسلام الأسير :

٣١ – إذا أسلم الأسير بعد أسره وقبل قضاء الإمام فيه القتل أو المنّ أو الفداء ، فإنّه لا يقتل إجماعاً ، لأنّه بالإسلام قد عصم دمه .

أمّا استرقاقه ففيه رأيان : فالجمهور ، وقولٌ للشّافعيّة ، واحتمالٌ للحنابلة أنّ الإمام فيه مخيّرٌ فيما عدا القتل ، لأنّه لمّا سقط القتل بإسلامه بقيت باقى الخصال .

والقول الظّاهر للحنابلة ، وهو قولٌ للشّافعيّة أنّه يتعيّن استرقاقه ، لأنّ سبب الاسترقاق قد انعقد بالأسر قبل إسلامه ، فصار كالنّساء والذّراريّ ، فيتعيّن استرقاقه فقط ، فلا منّ ولا فداء ، ولكن يجوز أن يفادى به لتخليصه من الرّقّ .

أموال الأسير :

٣٢ – الحكم فى مال الأسير مبنىٌّ على الحكم فى نفسه ، فلا عصمة له على ماله وما معه ، فهو فىءٌ لكلّ المسلمين ما دام أسر بقوّة الجيش ، أو كان الأسر مستنداً لقوّة الجيش ، ولو أسلم بعد أسره واسترقّ تبعه ماله ، أمّا لو كان إسلامه فى دار الحرب قبل أخذه ، ولم يخرج إلينا حتّى ظهرنا على الدّار ، عصم نفسه وصغاره وكلّ ما فى يده من مالٍ ، لحديث « من أسلم على مالٍ فهو له » وذلك باتّفاق المذاهب بالنّسبة للمنقول ، وكذا العقار عند المالكيّة ، وهو مذهب الشّافعيّة ، والحنابلة . وقال أبو حنيفة : وخرج عقاره لأنّه فى يد أهل الدّار وسلطانها فيكون غنيمةً . وقيل : إنّ محمّداً جعله كسائر ماله . وإذا قال الأمير : من خرج من أهل العسكر فأصاب شيئاً فله من ذلك الرّبع ، وسمع هذه المقالة أسيرٌ من أهل الحرب ، فخرج فأصاب شيئاً فذلك كلّه للمسلمين ، لأنّ الأسير فىءٌ لهم وكسب العبد لمولاه .

٣٣ – وإذا وقع السّبى فى سهم رجلٍ من المسلمين ، فأخرج مالاً كان معه لم يعلم به ، فينبغى للّذى وقع فى سهمه أن يردّه فى الغنيمة ، لأنّ الأمير إنّما ملّكه بالقسمة رقبة الأسير لا ما معه من المال ، فإنّ ذلك لم يكن معلوماً له ، وهو مأمورٌ بالعدل فى القسمة ، وإنّما يتحقّق العدل إذا كانت القسمة لا تتناول إلاّ ما كان معلوماً . ويروى أنّ رجلاً اشترى جاريةً من المغنم ، فلمّا رأت أنّها قد خلصت له أخرجت حليّاً كان معها ، فقال الرّجل : ما أدرى هذا ؟ وأتى سعد بن أبى وقّاصٍ فأخبره فقال : اجعله فى غنائم المسلمين . لأنّ المال الّذى مع الأسير كان غنيمةً ، وفعل الأمير تناول الرّقبة دون المال ، فبقى المال غنيمةً .

وهذا الحكم يصدق أيضاً على الدّيون والودائع الّتى له لدى مسلمٍ أو ذمّىٍّ . فإن كانت لدى حربىٍّ فهى فىءٌ للغانمين .

٣٤ – وإذا كان على الأسير دينٌ لمسلمٍ أو ذمّىٍّ قضى من ماله الّذى لم يغنم قبل استرقاقه ، فإنّ حقّ الدّين مقدّمٌ على حقّ الغنيمة ، إلاّ إذا سبق الاغتنام رقّه .

ولو وقعا معاً فالظّاهر – على ما قال الغزالىّ من الشّافعيّة – تقديم الغنيمة ، فإن لم يكن مالٌ فهو فى ذمّته إلى أن يعتق .

بم يعرف إسلامه :

٣٥ – روى أنّه لمّا أسر المسلمون بعض المشركين وتكلّم بعضهم بالإسلام دون اعترافٍ جازمٍ ، بيّن اللّه أمرهم بقوله : { يا أيّها النّبىّ قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم اللّه فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً ممّا أخذ منكم ويغفر لكم واللّه غفورٌ رحيمٌ . وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا اللّه من قبل فأمكن منهم } . وإذا كان القرآن كشف نيّات بعض الأسرى لرسوله ، فإنّ المحاربين من المسلمين لم يؤمروا بالبحث عن هذه النّيّات ، ولقد حدّث المقداد بن الأسود أنّه قال :« يا رسول اللّه ، أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفّار فقاتلنى ، فضرب إحدى يدىّ بالسّيف فقطعها ، ثمّ لاذ منّى بشجرةٍ فقال : أسلمت للّه ، أفأقتله يا رسول اللّه بعد أن قالها ؟ قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : لا تقتله . قال فقلت : يا رسول اللّه إنّه قطع يدى ، ثمّ قال ذلک بعد أن قطعها ، أفأقتله ؟ قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : لا تقتله ، فإن قتلته فإنّه بمنزلتک قبل أن تقتله ، وإنّک بمنزلته قبل أن يقول كلمته الّتى قال » .

وبمثل ذلک قال الرّسول صلى الله عليه وسلم لأسامة بن زيدٍ فيما رواه مسلمٌ : « أفلا شققت عن قلبه حتّى تعلم أقالها أم لا » . ولذا فإنّ الفقهاء قالوا : لو أنّ المسلمين أخذوا أسراء من أهل الحرب فأرادوا قتلهم ، فقال رجلٌ منهم : أنا مسلمٌ ، فلا ينبغى لهم أن يقتلوه حتّى يسألوه عن الإسلام ، فإن وصفه لهم فهو مسلمٌ ، وإن أبى أن يصفه فإنّه ينبغى للمسلمين أن يصفوه له ، ثمّ يقولوا له : هل أنت على هذا ؟ فإن قال : نعم ، فهو مسلمٌ ، ولو قال : لست بمسلمٍ ولكن ادعونى إلى الإسلام حتّى أسلم لم يحلّ قتله .

أسرى البغاة :

٣٦ – البغى فى اللّغة : مصدر بغى ، وهو بمعنى علا وظلم وعدل عن الحقّ واستطال . ومنه قوله تعالى : { وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا الّتى تبغى حتّى تفىء إلى أمر اللّه } .

والبغاة فى الاصطلاح : هم الخارجون على الإمام الحقّ بغير حقٍّ ولهم منعةٌ . ويجب قتالهم لردعهم لا لقتلهم وسنتصدّى للكلام عن حكم أسراهم .

٣٧ – أسرى البغاة تعاملهم الشّريعة الإسلاميّة معاملةً خاصّةً ، لأنّ قتالهم لمجرّد دفعهم عن المحاربة ، وردّهم إلى الحقّ ، لا لكفرهم . روى عن ابن مسعودٍ أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال : « يا ابن أمّ عبدٍ ما حكم من بغى على أمّتى ؟ قال : فقلت : اللّه ورسوله أعلم . قال : لا يتبع مدبرهم ، ولا يذفّف على جريحهم ، ولا يقتل أسيرهم ، ولا يقسم فيؤهم » .

٣٨ – وقد اتّفق الفقهاء على عدم جواز سبى نساء البغاة وذراريّهم . بل ذهب بعض الفقهاء إلى قصر الأسر على الرّجال المقاتلين وتخلية سبيل الشّيوخ والصّبية ، وقد روى أنّ عليّاً رضى الله عنه لمّا وقع القتال بينه وبين معاوية ، قرّر علىٌّ عدم السّبى وعدم أخذ الغنيمة ، فاعترض عليه بعض من كانوا فى

صفوفه ، فقال ابن عبّاسٍ لهم : أفتسبون أمّكم عائشة ؟ أم تستحلّون منها ما تستحلّون من غيرها . فإن قلتم ليست أمّكم كفرتم ، لقوله تعالى { النّبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمّهاتهم } وإن قلتم : إنّها أمّكم واستحللتم سبيها فقد كفرتم ، لقوله تعالى { وما كان لكم أن تؤذوا رسول اللّه ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً } . فلا يستباح منهم إلاّ بقدر ما يدفع القتال ويبقى حكم المال والذّرّيّة على أصل العصمة . ولفقهاء المذاهب تفصيلٌ فى حكم أسرى البغاة .

٣٩ – ويتّفق الفقهاء على عدم استرقاق أسرى البغاة ، لأنّ الإسلام يمنع الاسترقاق ابتداءً ، وقد روى عن عليٍّ رضى الله عنه أنّه قال يوم الجمل :" لا يقتل أسيرهم ، ولا يكشف سترٌ ، ولا يؤخذ مالٌ " أى لا يسترقّون ولذا فإنّه لا تسبى نساؤهم ولا ذراريّهم . والأصل أنّ أسيرهم لا يقتل لأنّه مسلمٌ ، وقد نصّ على تحريم ذلک كلٌّ من الشّافعيّة والحنابلة ، حتّى قال الحنابلة : وإن قتل أهل البغى أسارى أهل العدل لم يجز لأهل العدل قتل أساراهم ، لأنّهم لا يقتلون بجناية غيرهم ، ويتّجه المالكيّة وجهة الشّافعيّة والحنابلة فى عدم قتل الأسرى .

غير أنّه جاء فى بعض كتب المالكيّة : أنّه إذا أسر بعد انقضاء الحرب يستتاب ، فإن لم يتب قتل . وقيل : يؤدّب ولا يقتل وإن كانت الحرب قائمةً فللإمام قتله . ولو كانوا جماعةً ، إذا خاف أن يكون منهم ضررٌ . أمّا الحنفيّة فيفرّقون بين ما إذا كان لأسرى البغاة فئةٌ ، وبين ما إذا لم تكن لهم فئةٌ ، فقالوا : لو كان للبغاة فئةٌ أجهز على جريحهم ، واتّبع هاربهم لقتله أو أسره ، فإن لم يكن له فئةٌ فلا ، والإمام بالخيار فى أسرهم إن كان له فئةٌ : إن شاء قتله لئلاّ ينفلت ويلحق بهم ، وإن شاء حبسه حتّى يتوب أهل البغى ، قال الشرنبلالى : وهو الحسن ، لأنّ شرّه يندفع بذلک ، وقالوا : إنّ ما قاله عليٌّ رضى الله عنه من عدم قتل الأسير مؤوّلٌ بما إذا لم يكن لهم فئةٌ ، وقالوا : إنّ عليّاً كان إذا أخذ أسيراً استحلفه ألاّ يعين عليه وخلاّه ، أمّا إذا لم تكن لهم فئةٌ فلا يقتل أسيرهم . والمرأة من أهل البغى إذا أسرت وكانت تقاتل حبست ولا تقتل ، إلاّ فى حال مقاتلتها . وكذا العبيد والصّبيان .

٤٠ – ويتّفق الفقهاء على أنّه لا يجوز فداؤهم نظير مالٍ ، وإنّما إذا تركهم مع الأمن كان مجّاناً ، لأنّ الإسلام يعصم النّفس والمال ، كما أنّه لا يجوز للإمام موادعتهم على مالٍ ، وإن وادعهم على مالٍ بطلت الموادعة ونظر فى المال ، فإن كان من فيئهم أو من صدقاتهم لم يردّه عليهم ، وصرف الصّدقات فى أهلها ، والفىء فى مستحقّيه ، وإن كان من خالص أموالهم وجب ردّه عليهم .

٤١ – ويجوز مفاداتهم بأسارى أهل العدل ، وإن أبى البغاة مفاداة الأسرى الّذين معهم وحبسوهم ، قال ابن قدامة : احتمل أن يجوز لأهل العدل حبس من معهم ، ليتوصّلوا إلى تخليص أساراهم ، ويحتمل ألاّ يجوز حبسهم ويطلقون ، لأنّ المترتّب فى أسارى أهل العدل لغيرهم .

٤٢ – وعلى ما سبق من عدم جواز قتلهم ، فإنّهم يحبسون ولا يخلّى سبيلهم ، إن كان فيهم منعةٌ ، ولو كان الأسير صبيّاً أو امرأةً أو عبداً إن كانوا مقاتلين ، وإلاّ أطلقوا بمجرّد انقضاء الحرب ، وينبغى عرض التّوبة عليهم ومبايعة الإمام . ولو كانوا مراهقين وعبيداً ونساءً غير مقاتلين أو أطفالاً أطلقوا بعد الحرب دون أن نعرض عليهم مبايعة الإمام .

وفى وجهٍ عند الحنابلة يحبسون ، لأنّ فيه كسراً لقلوب البغاة . وقالوا : إن بطلت شوكتهم ويخاف اجتماعهم فى الحال ، فالصّواب عدم إرسال أسيرهم والحالة هذه .

أسرى الحربيّين إذا أعانوا البغاة :

٤٣ – قال الحنفيّة والشّافعيّة والحنابلة : إذا استعان البغاة على قتالنا بقومٍ من أهل الحرب وأمّنوهم ، أو لم يؤمنوهم ، فظهر أهل العدل عليهم ، فوقعوا فى الأسر عند أهل العدل ، أخذوا حكم أسرى أهل الحرب ، واستثنى الشّافعيّة ما إذا قال الأسير : ظننت جواز إعانتهم ، أو أنّهم على حقٍّ ولى إعانة المحقّ ، وأمكن تصديقه فإنّه يبلّغ مأمنه ، ثمّ يقاتل كالبغاة .

الأسرى من أهل الذّمّة إذا أعانوا البغاة :

٤٤ – إذا استعان البغاة على قتالنا بأهل الذّمّة ، فوقع أحدٌ منهم فى الأسر ، أخذ حكم الباغى عند الحنفيّة ، فلا يقتل إذا لم تكن له فئةٌ ، ويخيّر الإمام إذا كانت له فئةٌ ، ولا يجوز استرقاقه . وقال المالكيّة : إذا استعان الباغى المتأوّل بذمّىٍّ فلا يغرم الذّمّىّ ما أتلفه من نفسٍ أو مالٍ ، ولا يعدّ خروجه معه نقضاً للعهد . أمّا إن كان الباغى معانداً – أى غير متأوّلٍ – فإنّ الذّمّىّ الّذى معه يكون ناقضاً للعهد ، ويكون هو وماله فيئاً . وهذا إن كان مختاراً ، أمّا إن كان مكرهاً فلا ينتقض عهده ، وإن قتل نفساً يؤخذ بها ، حتّى لو كان مكرهاً . وقول الشّافعيّة فى ذلك كقول المالكيّة . قالوا : لو أعان الذّمّيّون البغاة فى القتال ، وهم عالمون بالتّحريم مختارون انتقض عهدهم ، كما لو انفردوا بالقتال . أمّا إن قال الذّمّيّون : كنّا مكرهين ، أو ظننّا جواز القتال إعانةً ، أو ظننّا أنّهم محقّون فيما فعلوه ، وأنّ لنا إعانة المحقّ وأمكن صدقهم ، فلا ينتقض عهدهم ، لموافقتهم طائفةً مسلمةً مع عذرهم ، ويقاتلون كبغاةٍ . ومثلهم فى ذلك المستأمنون ، على ما صرّح به الشّافعيّة . وللحنابلة قولان فى انتقاض عهدهم ،

أحدهما : ينتقض عهدهم ، لأنّهم قاتلوا أهل الحقّ فانتقض عهدهم كما لو انفردوا بقتلهم . ويصيرون كأهل الحرب فى قتل مقبلهم واتّباع مدبرهم وجريحهم .

والثّانى : لا ينتقض ، لأنّ أهل الذّمّة لا يعرفون المحقّ من المبطل ، فيكون ذلك شبهةً لهم . ويكون حكمهم حكم أهل البغى فى قتل مقبلهم ، والكفّ عن أسرهم ومدبرهم وجريحهم .

وإن أكرههم البغاة على معونتهم ، أو ادّعوا ذلک قبل منهم ، لأنّهم تحت أيديهم وقدرتهم . وكذلک إن قالوا : ظننّا أنّ من استعان بنا من المسلمين لزمتنا معونته ، لأنّ ما ادّعوه محتملٌ ، فلا ينتقض عهدهم مع الشّبهة . وإن فعل ذلک المستأمنون نقض عهدهم . والفرق بينهما أنّ أهل الذّمّة أقوى حكماً ، لأنّ عهدهم مؤبّدٌ ، ولا يجوز نقضه لخوف الخيانة منهم ، ويلزم الإمام الدّفع عنهم ، والمستأمنون بخلاف ذلک . وإذا أسر من يراد عقد الإمامة له ، وكان لا يقدر على الخلاص من الأسر ، منع ذلک من عقد الإمامة له .

أسرى الحرابة :

٤٥ – المحاربون طائفةٌ من أهل الفساد ، اجتمعت على شهر السّلاح وقطع الطّريق ، ويجوز حبس من أسر منهم لاستبراء حاله ، ومن ظفر بالمحارب فلا يلى قتله ، ويرفعه إلى الإمام . قال المالكيّة : إلاّ أن يخاف ألاّ يقيم الإمام عليه الحكم .

ولا يجوز للإمام تأمينه ، وإن استحقّوا الهزيمة فجريحهم أسيرٌ ، والحكم فيهم للإمام ، مسلمين كانوا أو ذمّيّين عند الحنفيّة والمالكيّة والشّافعيّة ، وأحد قولين عند الحنابلة . وكذلک المستأمن عند أبى يوسف والأوزاعىّ . وموضع بيان ذلک مصطلح (حرابةٌ) .

أسرى المرتدّين وما يتعلّق بهم من أحكامٍ :

٤٦ – الرّدّة فى اللّغة : الرّجوع ، فيقال : ارتدّ عن دينه إذا كفر بعد إسلامٍ .

وتختصّ الرّدّة – فى الاصطلاح الفقهىّ – بالكفر بعد الإسلام . وكلّ مسلمٍ ارتدّ فإنّه يقتل إن لم يتب ، إلاّ المرأة عند الحنفيّة فإنّها تحبس ، ولا يترک المرتدّ على ردّته بإعطاء الجزية ولا بأمانٍ ، ولا يجوز استرقاقه حتّى لو أسر بعد أن لحق بدار الحرب ، بخلاف المرأة فإنّها تسترقّ بعد اللّحاق بدار الحرب ، على تفصيلٍ بين المذاهب موضعه مصطلح (ردّةٌ) .

٤٧ – وإذا ارتدّ جمعٌ ، وتجمّعوا وانحازوا فى دارٍ ينفردون بها عن المسلمين ، حتّى صاروا فيها ذوى منعةٍ وجب قتالهم على الرّدّة بعد مناظرتهم على الإسلام ، ويستتابون وجوباً عند الحنابلة والشّافعيّة ، واستحباباً عند الحنفيّة ، ويقاتلون قتال أهل الحرب ، ومن أسر منهم قتل صبراً إن لم يتب ، ويصرّح الشّافعيّة بأنّنا نبدؤهم بالقتال إذا امتنعوا بنحو حصنٍ .

ولا يجوز أن يسترقّ رجالهم ، ولكن تغنم أموالهم ، وتسبى ذراريّهم الّذين حدثوا بعد الرّدّة ، لأنّها دارٌ تجرى فيها أحكام أهل الحرب فكانت دار حربٍ ، ولا يجوز أن يهادنوا على الموادعة ، ولا يصالحوا على مالٍ يقرّون به على ردّتهم ، بخلاف أهل الحرب .

وقد سبى أبو بكرٍ رضى الله عنه ذراريّ من ارتدّ من العرب من بنى حنيفة وغيرهم ، وسبى علىّ بن أبى طالبٍ رضى الله عنه بنى ناجية . وإن أسلموا حقنت دماؤهم ، ومضى فيهم حكم السّباء على الصّبيان

والنّساء ، فأمّا الرّجال فأحرارٌ لا يسترقّون ، وليس على الرّجال من أهل الرّدّة سبىٌ ولا جزيةٌ ، إنّما هو القتل أو الإسلام . وإن ترك الإمام السّباء وأطلقهم وعفا عنهم وترك لهم أرضهم وأموالهم فهو فى سعةٍ .

٤٨ – ويصرّح المالكيّة بعدم استتابة المرتدّين إن حاربوا بأرض الكفر أو بأرض الإسلام ، يقول ابن رشدٍ : إذا حارب المرتدّ ثمّ ظهر عليه فإنّه يقتل بالحرابة ، ولا يستتاب ، كانت حرابته بدار الإسلام أو بعد أن لحق بدار الحرب إلاّ أن يسلم ، فإن كانت حرابته فى دار الحرب فهو عند مالكٍ كالحربىّ يسلم ، لا تباعة عليه فى شىءٍ ممّا فعل فى حال ارتداده . وأمّا إن كان حرابته فى دار الإسلام فإنّه يسقط إسلامه عنه حكم الحرابة خاصّةً . وعن ابن القاسم قال : إذا ارتدّ جماعةٌ فى حصنٍ فإنّهم يقاتلون ، وأموالهم فىءٌ للمسلمين ، ولا تسبى ذراريّهم . وقال أصبغ : تسبى ذراريّهم وتقسم أموالهم . وهذا الّذى خالفت فيه سيرة عمر سيرة أبى بكرٍ رضى الله عنهما فى الّذين ارتدّوا من العرب ، فقد سبى أبو بكرٍ النّساء والصّغار ، وأجرى المقاسمة فى أموالهم ، فلمّا ولى عمر نقض ذلك .

٤٩ – ويتّفق فقهاء المذاهب على أنّ الأسير المرتدّ يقتل إن لم يتب ويعد إلى الإسلام ، ولا فرق بين رجلٍ وامرأةٍ عند الأئمّة الثّلاثة . وروى ذلك عن أبى بكرٍ وعلىٍّ ، وبه قال الحسن والزّهرىّ والنّخعىّ ومكحولٌ ، لعموم حديث : « من بدّل دينه فاقتلوه » .

٥٠ – ويرى الحنفيّة أنّ المرأة لا تقتل ، وإنّما تحبس حتّى تتوب .

أمّا لو كانت المرأة تقاتل ، أو كانت ذات رأىٍ فإنّها تقتل اتّفاقاً . لكنّها عند الحنفيّة تقتل لا لردّتها ، بل لأنّها تسعى بالفساد .

ويستدلّ الحنفيّة على عدم قتل المرأة المرتدّة إذا أخذت سبياً بما روى من قول الرّسول صلى الله عليه وسلم : « الحق بخالد بن الوليد ، فلا يقتلنّ ذرّيّةً ولا عسيفاً » ، ولا فرق بين الكفر الأصلىّ والكفر الطّارئ ، فإنّ الحربيّة إذا سبيت لا تقتل .

٥١ – ويتّفق فقهاء المذاهب الأربعة على أنّه لا يجوز أخذ الفداء من الأسرى المرتدّين ، ولا المنّ عليهم بأمانٍ مؤقّتٍ أو أمانٍ مؤبّدٍ ، ولا يترك على ردّته بإعطاء الجزية . كما يتّفقون على أنّ المرتدّ من الرّجال لا يجرى فيه إلاّ : العودة إلى الإسلام أو القتل ، لأنّ قتل المرتدّ على ردّته حدٌّ ، ولا يترك إقامة الحدّ لمنفعة الأفراد .

٥٢ – والمالكيّة والشّافعيّة والحنابلة على أنّ الرّقّ لا يجرى على المرتدّة أيضاً ، وإن لحقت بدار الحرب ، لأنّه لا يجوز إمرار أحدٍ من المرتدّين على الكفر بالاسترقاق ، بينما يرى الحنفيّة أنّ المرتدّة تسترقّ بعد اللّحاق بدار الحرب ، ولا تسترقّ فى دار الإسلام ، كما فى ظاهر الرّواية ، وعن أبى حنيفة فى النّوادر : أنّها تسترقّ فى دار الإسلام أيضاً .

وقالوا فى تعليل ذلک : إنّه لم يشرع قتلها ، ولا يجوز إبقاء الكافر على الكفر إلاّ مع الجزية أو مع الرّقّ ، ولا جزية على النّساء ، فكان إبقاؤها على الرّقّ أنفع .

وقد استرق الصّحابة نساء من ارتدّ .

٥٣ – وبالنّسبة لأصحاب الأعذار من الأسرى المرتدّين ، فإنّهم يقتلون أيضاً . ونقل السّرخسىّ قولاً بأنّ حلول الآفة بمنزلة الأنوثة ، لأنّه تخرج به بنيته (هيئته وجسمه) من أن تكون صالحةً للقتال ، فعلى هذا لا يقتلون بعد الرّدّة ، كما لا يقتلون فى الكفر الأصلىّ . وعلى قول من يرى وجوب قتل المرتدّة – إذا كانت الأسيرة المرتدّة ذات زوجٍ ، وهى من ذوات الحيض – فإنّها تستبرأ بحيضةٍ قبل قتلها خشية أن تكون حاملاً ، فإن ظهر بها حملٌ أخّرت حتّى تضع ، فإن كانت ممّن لا تحيض استبرئت بثلاثة أشهرٍ إن كانت ممّن يتوقّع حملها ، وإلاّ قتلت بعد الاستتابة .

أسرى المسلمين فى يد الأعداء :

استئسار المسلم وما ينبغى لاستنقاذه عند تترّس الكفّار به :

أ – الاستئسار :

٥٤ – الاستئسار هو تسليم الجندىّ نفسه للأسر ، فقد يجد الجندىّ نفسه مضطرّاً لذلک .

وقد وقع الاستئسار من بعض المسلمين على عهد رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وعلم به الرّسول صلى الله عليه وسلم فلم ينكر عليهم . روى البخارىّ عن أبى هريرة رضى الله عنه بسنده قال : « بعث رسول اللّه صلى الله عليه وسلم عشرةً رهطاً عيناً ، وأمّر عليهم عاصم بن ثابتٍ الأنصارىّ ، فانطلقوا حتّى إذا كانوا بالهدأة – موضعٌ بين عسفان ومكّة – ذكروا لبنى لحيان ، فنفروا لهم قريباً من مائتى رجلٍ كلّهم رامٍ ، فاقتصّوا أثرهم ، فلمّا رآهم عاصمٌ وأصحابه لجئوا إلى فدفدٍ – موضعٍ غليظٍ مرتفعٍ – وأحاط بهم القوم ، فقالوا لهم : انزلوا وأعطوا بأيديكم ، ولكم العهد والميثاق ألاّ نقتل منكم أحداً ، قال عاصمٌ : أمّا أنا فواللّه لا أنزل اليوم فى ذمّة كافرٍ ، اللّهمّ خبّر عنّا نبيّک ، فرموهم بالنّبل فقتلوا عاصماً فى سبعةٍ ، فنزل إليهم ثلاثة رهطٍ بالعهد والميثاق ، منهم خبيبٌ الأنصارىّ ، وزيد بن الدّثنة ، ورجلٌ آخر . فلمّا استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيّهم فأوثقوهم ، فقال الرّجل الثّالث : هذا أوّل الغدر ، واللّه لا أصحبكم ، إنّ لى فى هؤلاء لأسوةً – يريد القتلى – فجرّوه وعالجوه على أن يصحبهم – أى مارسوه وخادعوه ليتبعهم – فأبى فقتلوه ، وانطلقوا بخبيبٍ وابن الدّثنة حتّى باعوهما بمكّة ... » فعلم رسول اللّه صلى الله عليه وسلم بما حدث ، وعدم إنكاره يدلّ على أنّ الاستئسار فى هذه الحالة مرخّصٌ فيه ، وقال الحسن : لا بأس أن يستأسر الرّجل إذا خاف أن يغلب . وإلى هذا اتّجه كلٌّ من الحنفيّة والمالكيّة والشّافعيّة والحنابلة .

٥٥ – وقد نصّ الشّافعيّة على شروطٍ يلزم توافرها لجواز الاستئسار هى : أن يخاف أن يترتّب على عدم الاستسلام قتله فى الحال ، وألاّ يكون المستسلم إماماً ، أو عنده من الشّجاعة ما يمكنه من الصّمود ، وأن تأمن المرأة على نفسها الفاحشة . والأولى – كما نصّ عليه الحنابلة – إذا ما خشى المسلم الوقوع فى الأسر أن يقاتل حتّى يقتل ، ولا يسلم نفسه للأسر ، لأنّه يفوز بثواب الدّرجة الرّفيعة ، ويسلم من تحكّم الكفّار عليه بالتّعذيب والاستخدام والفتنة ، وإن استأسر جاز ، لما روى عن أبى هريرة فى الحديث المتقدّم .

ب– استنقاذ أسرى المسلمين ومفاداتهم :

٥٦ – إذا وقع المسلم أسيراً فهو حرٌّ على حاله ، وكان فى ذمّة المسلمين ، يلزمهم العمل على خلاصه ، ولو بتيسير سبل الفرار له ، والتّفاوض من أجل إطلاق سراحه ، فإذا لم يطلقوا سراحه تربّصوا لذلك . وقد كان الرّسول صلوات الله وسلامه عليه يتحيّن الفرصة المناسبة لتخليص الأسرى . روت كتب السّيرة أنّ « قريشاً أسرت نفراً من المسلمين ، فلمّا لم يجد الرّسول صلى الله عليه وسلم حيلةً لإنقاذهم كان يدعو اللّه لإنقاذهم دبر كلّ صلاةٍ ، ولمّا أفلت أحدهم من الأسر ، وقدم المدينة ، سأله النّبىّ صلى الله عليه وسلم عن رفيقيه فقال : أنا لك بهما يا رسول اللّه ، فخرج إلى مكّة فدخلها مستخفياً ، فلقى امرأةً علم أنّها تحمل الطّعام لهما فى الأسر فتبعها ، حتّى استطاع تخليصهما ، وقدم بهما على الرّسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة » .« وقد استنقذ رسول اللّه كلاًّ من سعد بن أبى وقّاصٍ وعتبة بن غزوان رضى الله عنهما ، وقد أسرهما المشركون ، بأن فاوض عليهما ، وحبس اثنين منهم حتّى يطلقوا سراحهما »،« وكذلك فعل فى استنقاذ عثمان وعشرةٍ من المهاجرين رضى الله عنهم بعد صلح الحديبية ». وقد روى سعيدٌ بإسناده أنّ رسول اللّه قال : « إنّ على المسلمين فى فيئهم أن يفادوا أسراهم » . ويروى أنّ عمر بن الخطّاب قال : لأن أستنقذ رجلاً من المسلمين من أيدى الكفّار أحبّ إلىّ من جزيرة العرب .

٥٧ – ويجب استنقاذ الأسرى بالمقاتلة ما دام ذلك ميسوراً ، فإذا دخل المشركون دار الإسلام فأخذوا الأموال والذّراريّ والنّساء ، ثمّ علم بهم جماعة المسلمين ، ولهم عليهم قوّةٌ ، فالواجب عليهم أن يتّبعوهم ما داموا فى دار الإسلام ، فإن دخلوا بهم دار الحرب ، فالواجب على المسلمين أن يتّبعوهم إذا غلب على رأيهم أنّهم يقدرون على استنقاذهم ، فإن شقّ عليهم القتال لتخليصهم فتركوه كانوا فى سعةٍ من ذلك ، فإنّا نعلم أنّ فى يد الكفّار بعض أسارى المسلمين ، ولا يجب على كلّ واحدٍ منّا الخروج لقتالهم لاستنقاذ الأسرى .

٥٨ – والاستنقاذ إذا لم يتيسّر عن طريق القتال فإنّه يصحّ أن يكون عن طريق الفداء بتبادل الأسرى ، على ما سبق بيان القول فيه ، كما يصحّ أن يكون بالمال أيضاً ، لقول الرّسول صلى الله عليه وسلم : «

أطعموا الجائع ، وعودوا المريض ، وفكّوا العانى » لأنّ ما يخاف من تعذيب الأسير أعظم فى الضّرورة من بذل المال ، فجاز دفع أعظم الضّررين بأخفّهما . والحنفيّة على وجوب ذلك فى بيت المال ، فإن لم يكن فعلى جميع المسلمين أن يفتدوه . ونقل أبو يوسف عن عمر بن الخطّاب رضى الله عنه أنّه قال : " كلّ أسيرٍ كان فى أيدى المشركين من المسلمين ففكاكه فى بيت مال المسلمين " . وهو ما ذهب إليه المالكيّة ، كما نقله الموّاق عن ابن بشيرٍ من أنّه يجب فى بيت المال ، فإن تعذّر فعلى عموم المسلمين ، والأسير كأحدهم ، فإن ضيّع الإمام والمسلمون ذلك وجب على الأسير من ماله ، وهو ما رواه ابن رشدٍ أيضاً .

وفى المهذّب أنّه وجهٌ عند الشّافعيّة . والوجه الثّانى عند الشّافعيّة : أنّ بذل المال لفكّ أسرى المسلمين – إن خيف تعذيبهم – جائزٌ عند الضّرورة ، ويكون فى مالهم ، ويندب عند العجز افتداء الغير له ، فمن قال لكافرٍ : أطلق هذا الأسير ، وعلىّ كذا ، فأطلقه لزمه ، ولا يرجع على الأسير ما لم يأذن له فى فدائه .

٦١ – وأسر المسلم الحرّ لا يزيل حرّيّته ، فمن اشتراه من العدوّ لا يملكه ، وإن اشتراه مسلمٌ بغير أمره فهو متطوّعٌ فيما أدّى من فدائه ، وإن اشتراه بأمره فإنّه يرجع عليه بالثّمن الّذى اشتراه به ، والقياس لا يرجع عليه إلاّ أن يشترط ذلك نصّاً .

ويرى المالكيّة – كما يروى الموّاق – أنّ للمشترىّ أن يرجع عليه ، شاء أو أبى ، لأنّه فداءٌ ، فإن لم يكن له شىءٌ اتّبع به فى ذمّته . ولو كان له مالٌ وعليه دينٌ ، فالّذى فداه واشتراه من العدوّ أحقّ به من غرمائه . أمّا إن كان يقصد الصّدقة ، أو كان الفداء من بيت المال فلا يرجع عليه ، وكذا إن كان الأسير يرجو الخلاص بالهروب أو التّرك .

٦٢ – ولو خلّى الكفّار الأسير ، واستحلفوه على أن يبعث إليهم بفدائه ، أو يعود إليهم ، فإن كان هذا نتيجة إكراهٍ لم يلزمه الوفاء ، وإن لم يكره عليه وقدر على الفداء لزمه ، وبهذا قال عطاءٌ والحسن والزّهرىّ والنّخعىّ والثّورىّ والأوزاعىّ ، لوجوب الوفاء ، ولأنّ فيه مصلحة الأسارى ، وفى الغدر مفسدةٌ فى حقّهم . وقال الشّافعىّ : لا يلزمه ، لأنّه حرٌّ لا يستحقّون بدله . وأمّا إن عجز عن الفداء ، فإن كانت امرأةً فإنّه لا يحلّ لها الرّجوع إليهم ، لقوله تعالى { فلا ترجعوهنّ إلى الكفّار } ، ولأنّ فى رجوعها تسليطاً لهم على وطئها حراماً .

وإن كان رجلاً ، ففى روايةٍ عند الحنابلة لا يرجع ، وهو قول الحسن والنّخعىّ والثّورىّ والشّافعىّ . وفى الرّواية الثّانية عندهم يلزمه ، وهو قول عثمان والزّهرىّ والأوزاعىّ ،

« لأنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم حين صالح قريشاً على ردّ من جاء منهم مسلماً أمضى اللّه ذلك فى الرّجال ، ونسخه فى النّساء ».

ج – التّترّس بأسارى المسلمين :

٦٣ – التّرس بضمّ التّاء : ما يتوقّى به فى الحرب ، يقال : تترّس بالتّرس إذا توقّى به ، ومن ذلک تترّس المشركين بالأسرى من المسلمين والذّمّيّين فى القتال ، لأنّهم يجعلونهم كالتّراس ، فيتّقون بهم هجوم جيش المسلمين عليهم ، لأنّ رمى المشركين – مع تترّسهم بالمسلمين – يؤدّى إلى قتل المسلمين الّذين نحرص على حياتهم وإنقاذهم من الأسر .

وقد عنى الفقهاء بهذه المسألة ، وتناولوها من ناحية جواز الرّمى مع التّترّس بالمسلمين أو الذّمّيّين ، كما تناولوها من ناحية لزوم الكفّارة والدّية ، وإليک اتّجاهات المذاهب فى هذا :

أ – رمى التّرس :

٦٤ – من ناحية رمى التّرس : يتّفق الفقهاء على أنّه إذا كان فى ترک الرّمى خطرٌ محقّقٌ على جماعة المسلمين ، فإنّه يجوز الرّمى برغم التّترّس ، لأنّ فى الرّمى دفع الضّرر العامّ بالذّبّ عن بيضة الإسلام ، وقتل الأسير ضررٌ خاصٌّ . ويقصد عند الرّمى الكفّار لا التّرس ، لأنّه إن تعذّر التّمييز فعلاً فقد أمكن قصداً ، ونقل ابن عابدين عن السّرخسىّ أنّ القول للرّامى بيمينه فى أنّه قصد الكفّار ، وليس قول ولىّ المقتول الّذى يدّعى العمد .

أمّا فى حالة خوف وقوع الضّرر على أكثر المسلمين فكذلک يجوز رميهم عند جمهور الفقهاء ، لأنّها حالة ضرورةٍ أيضاً ، وتسقط حرمة التّرس .

ويقول الصّاوىّ المالكىّ : ولو كان المسلمون المتترّس بهم أكثر من المجاهدين . وفى وجهٍ عند الشّافعيّة لا يجوز ، وعلّلوه بأنّ مجرّد الخوف لا يبيح الدّم المعصوم ، كما أنّه لا يجوز عند المالكيّة إذا كان الخوف على بعض الغازين فقط .

٦٥ – وأمّا فى حالة الحصار الّذى لا خطر فيه على جماعة المسلمين ، لكن لا يقدر على الحربيّين إلاّ برمى التّرس ، فجمهور الفقهاء من المالكيّة ، والشّافعيّة ، وجمهور الحنابلة ، والحسن بن زيادٍ من الحنفيّة على المنع ، لأنّ الإقدام على قتل المسلم حرامٌ ، وترک قتل الكافر جائزٌ . ألا يرى أنّ للإمام ألاّ يقتل الأسارى لمنفعة المسلمين ، فكان مراعاة جانب المسلم أولى من هذا الوجه ، ولأنّ مفسدة قتل المسلم فوق مصلحة قتل الكافر .

وذهب جمهور الحنفيّة ، والقاضى من الحنابلة إلى جواز رميهم ، وعلّل الحنفيّة ذلک بأنّ فى الرّمى دفع الضّرر العامّ ، وأنّه قلّما يخلو حصنٌ عن مسلمٍ ، واعتبر القاضى من الحنابلة أنّ ذلک من قبيل الضّرورة .

ب – الكفّارة والدّية :

٦٦ – ومن ناحية الكفّارة والدّية عند إصابة أحد أسرى المسلمين نتيجة رمى التّرس ، فإنّ جمهور الحنفيّة على أنّ ما أصابوه منهم لا يجب فيه ديةٌ ولا كفّارةٌ ، لأنّ الجهاد فرضٌ ، والغرامات لا تقرن

بالفروض ، لأنّ الفرض مأمورٌ به لا محالة ، وسبب الغرامات عدوانٌ محضٌ منهيٌّ عنه ، وبينهما منافاةٌ ، فوجوب الضّمان يمنع من إقامة الفرض ، لأنّهم يمتنعون منه خوفاً من لزوم الضّمان ، وهذا لا يتعارض مع ما روى عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم من أنّه « ليس فى الإسلام دمٌ مفرجٌ » – أى مهدرٌ – لأنّ النّهى عامٌّ خصّ منه البغاة وقطّاع الطّريق ، فتخصّ صورة النّزاع ، كما أنّ النّهى فى الحديث خاصٌّ بدار الإسلام ، وما نحن فيه ليس بدار الإسلام .

٦٧ – وعند الحسن بن زيادٍ من الحنفيّة وجمهور الحنابلة والشّافعيّة تلزم الكفّارة قولاً واحداً ، وفى وجوب الدّية روايتان :

إحداهما : تجب ، لأنّه قتل مؤمناً خطأً ، فيدخل فى عموم قوله تعالى : { ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبةٍ مؤمنةٍ وديةٌ مسلّمةٌ إلى أهله إلاّ أن يصّدّقوا } .

الثّانية : لا دية ، لأنّه قتل فى دار الحرب برميٍ مباحٍ ، فيدخل فى عموم قوله تعالى { وإن كان من قومٍ عدوٍّ لكم وهو مؤمنٌ فتحرير رقبةٍ مؤمنةٍ } ولم يذكر ديةً . وعدم وجوب الدّية هو الصّحيح عند الحنابلة .

٦٨ – ويقول الجمل الشّافعىّ : وجبت الكفّارة إن علم القاتل ، لأنّه قتل معصوماً ، وكذا الدّية ، لا القصاص ، لأنّه مع تجويز الرّمى لا يجتمعان . وفى نهاية المحتاج تقييد ذلك بأن يعلم به ، وأن يكون فى الإمكان توقّيه . وينقل البابرتىّ من الحنفيّة عن أبى إسحاق أنّه قال : إن قصده بعينه لزمه الدّية ، علمه مسلماً أو لم يعلمه ، للحديث المذكور . وإن لم يقصده بعينه بل رمى إلى الصّفّ فأصيب فلا دية عليه . والتّعليل الأوّل أنّ الإقدام على قتل المسلم حرامٌ ، وترك قتل الكافر جائزٌ ، لأنّ للإمام أن يقتل الأسارى لمنفعة المسلمين ، فكان تركه لعدم قتل المسلم أولى ، ولأنّ مفسدة قتل المسلم فوق مصلحة قتل الكافر .

٦٩ – ولم نقف للمالكيّة على شىءٍ فى هذا إلاّ ما قاله الدّسوقىّ عند تعليقه على قول خليلٍ : وإن تترّسوا بمسلمٍ ، فقال : وإن تترّسوا بأموال المسلمين فيقاتلون ولا يتركون . وينبغى ضمان قيمته على من رماهم ، قياساً على ما يرمى من السّفينة للنّجاة من الغرق ، بجامع أنّ كلاًّ إتلاف مالٍ للنّجاة .

مدى تطبيق بعض الأحكام الشّرعيّة على أسرى المسلمين

حقّ الأسير فى الغنيمة :

٧٠ – يستحقّ من أسر قبل إحراز الغنيمة فيما غنم قبل الأسر ، إذا علم حياته أو انفلت من الأسر . لأنّ حقّه ثابتٌ فيها ، وبالأسر لم يخرج من أن يكون أهلاً ، لتقرّر حقّه بالإحراز . ولا شىء له فيما غنمه المسلمون بعد أسره ، لأنّ المأسور فى يد أهل الحرب لا يكون مع الجيش حقيقةً ولا حكماً ، فهو لم يشاركهم فى إصابة هذا ، ولا فى إحرازه بالدّار . وإذا لم يعرف مصير هذا الأسير فى يد الحربيّين قسمت

الغنائم ، ولم يوقف له منها شيءٌ . وإن قسمت الغنائم ثمّ جاء بعد ذلك حيّاً لم يكن له شيءٌ ، لأنّ حقّ الّذين قسم بينهم قد تأكّد بالقسمة وثبت ملكهم فيها ، ومن ضرورته إبطال الحقّ الضّعيف .

والمذهب عند الحنابلة أنّه إذا هرب فأدرك الحرب قبل تقضّيها أسهم له ، وفى قولٍ لا شيء له . وإن جاء بعد إحراز الغنيمة فلا شيء له .

٧١ – ومن أسر بعد إخراج الغنائم من دار الحرب أو بيعها ، وكان قد تخلّف فى دار الحرب لحاجة بعض المسلمين ، فإنّه يوقف نصيبه حتّى يجيء فيأخذه ، أو يظهر موته فيكون لورثته ، لأنّ حقّه قد تأكّد فى المال المصاب بالإحراز . وفى بداية المجتهد : أنّ الغنيمة إنّما تجب عند الجمهور للمجاهدين بأحد شرطين : إمّا أن يكون ممّن حضر القتال ، وإمّا أن يكون ردءاً لمن حضر القتال . وتفصيل الكلام فى هذا موضعه مصطلح (غنيمةٌ) .

حقّ الأسير فى الإرث وتصرّفاته الماليّة :

٧٢ – أسير المسلمين الّذى مع العدوّ يرث إذا علمت حياته فى قول عامّة الفقهاء ، لأنّ الكفّار لا يملكن الأحرار بالقهر ، فهو باقٍ على حرّيّته ، فيرث كغيره . وكذلك لا تسقط الزّكاة عنه ، لأنّ تصرّفه فى ماله نافذٌ ، ولا أثر لاختلاف الدّار بالنّسبة له . فقد كان شريحٌ يورّث الأسير فى أيدى العدوّ . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « من ترك مالاً فلورثته ... » فهذا الحديث بعمومه يؤيّد قول الجمهور أنّ الأسير إذا وجب له ميراثٌ يوقف له . وعن سعيد بن المسيّب أنّه لم يورّث الأسير فى أيدى العدوّ ، وفى روايةٍ أخرى عنه أنّه يرث .

٧٣ – والمسلم الّذى أسره العدوّ ، ولا يدرى أحىٌّ هو أم ميّتٌ ، مع أنّ مكانه معلومٌ وهو دار الحرب ، له حكمٌ فى الحال ، فيعتبر حيّاً فى حقّ نفسه ، حتّى لا يورث عنه ماله ، ولا تزوّج نساؤه ، وميّتاً فى حقّ غيره حتّى لا يرث من أحدٍ . وله حكمٌ فى المآل ، وهو الحكم بموته بمضىّ مدّةٍ معيّنةٍ ، فهو فى حكم المفقود . انظر مصطلح (مفقودٌ) .

٧٤ – ويسرى على الأسير فى تصرّفاته الماليّة ما يسرى على غيره فى حال الصّحّة من أحكامٍ ، فبيعه وهبته وصدقته وغير ذلك جائزٌ ، ما دام صحيحاً غير مكرهٍ . قال عمر بن عبد العزيز :" أجيز وصيّة الأسير وعتاقه وما صنع فى ماله ما لم يتغيّر عن دينه ، فإنّما هو ماله يصنع فيه ما يشاء ". أمّا إن كان الأسير فى يد مشركين عرفوا بقتل أسراهم ، فإنّه يأخذ حكم المريض مرض الموت ، لأنّ الأغلب منهم أن يقتلوا ، وليس يخلو المرّة فى حالٍ أبداً من رجاء الحياة وخوف الموت ، لكن إذا كان الأغلب عنده وعند غيره الخوف عليه ، فعطيّته عطيّة مريضٍ ، وإذا كان الأغلب الأمان كانت عطيّته عطيّة الصّحيح . وتفصيل ذلك فى مصطلح (مرض الموت) .

جناية الأسير وما يجب فيها :

٧٥ – يتّجه جمهور الفقهاء : الشّافعيّة والحنابلة ، وهو قولٌ عند المالكيّة ، إلى أنّه إذا صدر من الأسير حال الأسر ما يوجب حدّاً أو قصاصاً وجب عليه ما يجب فى دار الإسلام ، لأنّه لا تختلف الدّاران فى تحريم الفعل ، فلم تختلف فيما يجب من العقوبة . فلو قتل بعضهم بعضاً ، أو قذف بعضهم بعضاً ، أو شرب أحدهم خمراً ، فإنّ الحدّ يقام عليهم إذا صاروا إلى بلاد المسلمين ، ولا تمنع الدّار حكم اللّه . ويقول الحطّاب : إذا أقرّ الأسير أنّه زنى ، ودام على إقراره ولم يرجع ، أو شهد عليه ، قال ابن القاسم وأصبغ : عليّة الحدّ .

وإذا قتل الأسير أحداً منهم خطأً ، وقد كان أسلم ، والأسير لا يعلم ، فعليه الدّية والكفّارة . وقيل الكفّارة فقط . وإذا قتله عمداً ، وهو لا يعلمه مسلماً فعليه الدّية والكفّارة . وإن كان قتله عمداً وهو يعلم بإسلامه قتل به . وإذا جنى الأسير على أسيرٍ مثله فكغيرهما .

٧٦ – وقال الحنفيّة – وهو قولٌ عند المالكيّة ، قاله عبد الملك – فى جريمة الزّنى – بعدم إقامة الحدّ عليه ، لقوله عليه السلام « لا تقام الحدود فى دار الحرب » لانعدام المستوفى ، وإذا لم يجب عليه حين باشر السّبب لا يجب عليه بعد ذلك ، وقالوا : لا حدّ على من زنى وكان أسيراً فى معسكر أهل البغى ، لأنّ يد إمام أهل العدل لا تصل إليهم . وقالوا : لو قتل أحد الأسيرين المسلمين الآخر فلا شىء عليه سوى الكفّارة ، وهذا عند أبى حنيفة ، لأنّه بالأسر صار تبعاً لهم ، لصيرورته مقهوراً فى أيديهم ، ولهذا يصير مقيماً بإقامتهم ومسافراً بسفرهم . وخصّ الخطأ بالكفّارة ، لأنّه لا كفّارة فى العمد ، وبقى عليه عقاب الآخرة .

وقال الصّاحبان بلزوم الدّية أيضاً فى الخطأ والعمد ، لأنّ العصمة لا تبطل بعارض الأسر وامتناع القصاص لعدم المنفعة ، وتجب الدّية فى ماله الّذى فى دار الإسلام .

أنكحة الأسرى :

٧٧ – ظاهر كلام الإمام أحمد بن حنبلٍ أنّ الأسير لا يحلّ له التّزوّج ما دام أسيراً ، وهذا قول الزّهرىّ ، وكره الحسن أن يتزوّج فى أرض المشركين ، لأنّ الأسير إذا ولد له ولدٌ كان رقيقاً لهم ، ولا يأمن أن يطأ امرأته غيره منهم ، وسئل أحمد عن أسيرٍ اشتريت معه امرأته أيطؤها ؟ فقال : كيف يطؤها ؟ فلعلّ غيره منهم يطؤها ، قال الأثرم : قلت له : ولعلّها تعلق بولدٍ فيكون معهم ، قال : وهذا أيضاً . ويقول الموّاق : الأسير يعلم تنصّره فلا يدرى أطوعاً أم كرهاً فلتعتدّ زوجته ، ويوقف ماله ، ويحكم فيه بحكم المرتدّ ، وإن ثبت إكراهه ببيّنةٍ كان بحال المسلم فى نسائه وماله . وتفصيل ذلك فى موضع (إكراهٌ) (وردّةٌ) .

إكراه الأسير والاستعانة به :

٧٨ – الأسير إن أكرهه الكفّار على الكفر ، وقلبه مطمئنٌّ بالإيمان ، لا تبين منه امرأته ، ولا يحرم ميراثه من المسلمين ، ولا يحرمون ميراثهم منه ، وإذا ما أكره على أكل لحم الخنزير أو دخول الكنيسة ففعل وسعه ذلك لقاعدة الضّرورات . ولو أكرهوه على أن يقتل مسلماً لم يكن له ذلك ، كما لا يرخّص له فى أن يدلّ على ثغرةٍ ينفذ منها العدوّ إلى مقاتلتنا ، ولا الاشتراك مع العدوّ فى القتال عند كثيرٍ من العلماء ، وأجاز ذلك الأوزاعىّ وغيره ، ومنعه مالكٌ وابن القاسم . وتفصيل ذلك موضعه مصطلح (إكراهٌ) .

الأمان من الأسير وتأمينه :

٧٩ – لا يصحّ الأمان من الأسير عند الحنفيّة ، لأنّ الأمان لا يقع منه بصفة النّظر منه للمسلمين ، بل لنفسه حتّى يتخلّص منهم ، ولأنّ الأسير خائفٌ على نفسه ، إلاّ أنّه فيما بينهم وبينه إن أمنوه وأمنهم ، فينبغى أن يفى لهم كما يفون له ، ولا يسرق شيئاً من أموالهم ، لأنّه غير متّهمٍ فى حقّ نفسه ، وقد شرط أن يفى لهم ، فيكون بمنزلة المستأمن فى دارهم . وهو ما قاله اللّيث . ووافقهم كلٌّ من : المالكيّة والشّافعيّة والحنابلة ، إذا ما كان الأسير محبوساً أو مقيّداً ، لأنّه مكرهٌ ، وأعطى الشّافعيّة من أمّن آسره حكم المكره ، وقالوا : إنّ أمانه فاسدٌ . أمّا إذا كان مطلقاً وغير مكرهٍ ، فقد نصّ الشّافعيّة على أنّ أسير الدّار – وهو المطلق ببلاد الكفّار الممنوع من الخروج منها – يصحّ أمانه . قال الماوردىّ : وإنّما يكون مؤمّنه آمناً بدارهم لا غير ، إلاّ أن يصرّح بالأمان فى غيرها . وسئل أشهب عن رجلٍ شذّ عن عسكر المسلمين ، فأسره العدوّ ، فطلبهم المسلمون ، فقال العدوّ للأسير المسلم : أعطنا الأمان ، فأعطاهم الأمان ، فقال : إذا كان أمّنهم ، وهو آمنٌ على نفسه ، فذلك جائزٌ ، وإن كان أمّنهم ، وهو خائفٌ على نفسه ، فليس ذلك بجائزٍ ، وقول الأسير فى ذلك جائزٌ .

ويعلّل ابن قدامة لصحّة أمان الأسير إذا عقده غير مكرهٍ ، بأنّه داخلٌ فى عموم الخبر الّذى رواه مسلمٌ بسنده من أنّ الرّسول صلى الله عليه وسلم قال : « ذمّة المسلمين واحدةٌ يسعى بها أدناهم ... » كما أنّه مسلمٌ مكلّفٌ مختارٌ .

صلاة الأسير فى السّفر ، والانفلات ، وما ينتهى به الأسر :

٨٠ – الأسير المسلم فى أيدى الكفّار إن عزم على الفرار من الأسر عند التّمكّن من ذلك ، وكان الكفّار أقاموا به فى موضعٍ يريدون المقام فيه المدّة الّتى تعتبر إقامةً ، ولا تقصر بعدها الصّلاة ، لزمه أن يتمّ الصّلاة ، لأنّه مقهورٌ فى أيديهم ، فيكون المعتبر فى حقّه نيّتهم فى السّفر والإقامة ، لا نيّته . وإن كان

الأسير انفلت منهم ، وهو مسافرٌ ، فوطّن نفسه على إقامة شهرٍ فى غارٍ أو غيره قصر الصّلاة ، لأنّه محاربٌ لهم ، فلا تكون دار الحرب موضع الإقامة فى حقّه ، حتّى ينتهى إلى دار الإسلام .

وتفصيل ذلك موطنه مصطلح (صلاة المسافر) .

٨١ – والأسر ينتهى بما يقرّر الإمام ، من قتلٍ أو استرقاقٍ أو منٍّ أو فداءٍ بمالٍ ، أو عن طريق تبادل الأسرى على ما سبق بيانه ، كما ينتهى الأسر بموت الأسير قبل قرار الإمام فيه ، وكذلك فإنّه قد ينتهى بفرار الأسير ، يقول الكاسانىّ : لو انفلت أسيرٌ قبل الإحراز بدار الإسلام والتحق بمنعتهم يعود حراً ، وينتهى أسره ، ولم يعد فيئاً ، لأنّ حقّ أهل دار الإسلام لا يتأكّد إلاّ بالأخذ حقيقةً ، ولم يوجد .

٨٢ – ويصرّح الفقهاء بأنّه يجب على أسرى المسلمين الفرار إن أطاقوه ، ولم يرج ظهور الإسلام ببقائهم ، للخلوص من قهر الأسر ، وقيّد بعضهم الوجوب بعدم التّمكّن من إظهار الدّين ، لكن جاء فى مطالب أولى النّهى : وإن أسر مسلمٌ ، فأطلق بشرط أن يقيم فى دار الحرب مدّةً معيّنةً ، ورضى بالشّرط لزمه الوفاء ، وليس له أن يهرب لحديث : « المؤمنون عند شروطهم » وإن أطلق بشرط أن يرجع إليهم لزمه الوفاء ، إن كان قادراً على إظهار دينه ، إلاّ المرأة فلا يحلّ لها الرّجوع . واختار ابن رشدٍ – إذا ائتمن العدوّ الأسير طائعاً على ألاّ يهرب ، ولا يخونهم – أنّه يهرب ولا يخونهم فى أموالهم .

وأمّا إن ائتمنوه مكرهاً ، أو لم يأتمنوه ، فله أن يأخذ ما أمكنه من أموالهم ، وله أن يهرب بنفسه . وقال اللّخمىّ : إن عاهدوه على ألاّ يهرب فليوفّ بالعهد ، فإن تبعه واحدٌ منهم أو أكثر بعد خروجه فليدفعهم حتماً إن حاربوه وكانوا مثليه فأقلّ ، وإلاّ فندباً .

أسرةٌ ❊

التعريف :

١ – أسرة الإنسان : عشيرته ورهطه الأدنون ، مأخوذٌ من الأسر ، وهو القوّة ، سمّوا بذلك لأنّه يتقوّى بهم ، والأسرة : عشيرة الرّجل وأهل بيته ، وقال أبو جعفرٍ النّحّاس : الأسرة أقارب الرّجل من قبل أبيه .

الألفاظ ذات الصّلة :

٢ – لفظ الأسرة لم يرد ذكره فى القرآن الكريم ، كذلك لم يستعمله الفقهاء فى عباراتهم فيما نعلم . والمتعارف عليه الآن إطلاق لفظ (الأسرة) على الرّجل ومن يعولهم من زوجه وأصوله وفروعه . وهذا المعنى يعبّر عنه الفقهاء قديماً بألفاظٍ منها : الآل ، والأهل ، والعيال . كقول النّفراوىّ المالكىّ : من قال :

الشّىء الفلانىّ وقفٌ على عيالى ، تدخل زوجته فى العيال . وفى ابن عابدين : أهله زوجته ، وقالا ، يعنى صاحبى أبى حنيفة : كلّ من فى عياله ونفقته غير مماليكه ، لقوله تعالى : { فنجّيناه وأهله أجمعين } .

الحكم الإجمالىّ ومواطن البحث :

٣ – ما يعرف بأحكام الأسرة أو الأحوال الشّخصيّة فهو اصطلاحٌ حادثٌ ، والمراد به مجموعة الأحكام الّتى تنظّم العلاقات بين أفراد الأسرة الواحدة . وقد فصّلها الفقهاء فى أبواب النّكاح والمهر والنّفقات والقسم والطّلاق والخلع والعدد والظّهار والإيلاء والنّسب والحضانة والرّضاع والوصيّة والميراث ونحوها . وتنظر هذه الأحكام تحت هذه العناوين أيضاً ، وتحت عنوان (أبٌ ، ابنٌ ، بنتٌ) إلخ .

أسطوانةٌ ❊

التعريف :

١ – الأسطوانة : السّارية فى المسجد أو البيت أو نحوهما .

ولا يخرج استعمال الفقهاء عن ذلك .

الحكم الإجمالىّ ، ومواطن البحث :

٢ – فى وقوف الإمام بين السّوارى ، وفى صلاته إلى الأسطوانة خلافٌ . فقال أبو حنيفة ومالكٌ بالكراهة ، وذهب الجمهور إلى عدم الكراهة . وتفصيل ذلك فى كتاب الصّلاة ، فى مبحث (صلاة الجماعة) . أمّا المأمومون : فقد اتّفق الفقهاء على أنّه إذا لم تقطع الأسطوانة الصّفّ فلا كراهة لعدم الدّليل على ذلك . أمّا إذا قطعت ففيه خلافٌ . فالحنفيّة والمالكيّة لا يرون به بأساً ، لعدم الدّليل على المنع . والحنابلة يرون الكراهة ،« لما ورد من النّهى عن الصّفّ بين السّوارى »إلاّ أن يكون الصّفّ قدر ما بين السّاريتين ، أو أقلّ فلا يكره . وقد ذكر الفقهاء ذلك أيضاً فى صلاة الجماعة .

إسفارٌ ❊

التعريف :

١ – من معانى الإسفار فى اللّغة : الكشف ، يقال : سفر الصّبح وأسفر : أى أضاء ، وأسفر القوم : أصبحوا ، وسفرت المرأة : كشفت عن وجهها .

وأكثر استعمال الفقهاء للإسفار بمعنى ظهور الضّوء ، يقال : أسفر بالصّبح : إذا صلاّها وقت الإسفار ، أى عند ظهور الضّوء ، لا فى الغلس .

الحكم الإجمالىّ :

٢ – يرى جمهور الفقهاء أنّ الوقت الاختيارىّ فى صلاة الصّبح هو إلى وقت الإسفار ، لما روى : « أنّ جبريل عليه السلام صلّى الصّبح بالنّبىّ صلى الله عليه وسلم حين طلع الفجر ، وصلّى من الغد حين أسفر ، ثمّ التفت وقال : هذا وقتك ووقت الأنبياء من قبلك » .

ويرى الحنفيّة أنّه يستحبّ الإسفار بصلاة الصّبح ، وهو أفضل من التّغليس ، فى السّفر والحضر ، وفى الصّيف والشّتاء ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « أسفروا بالفجر » ، وفى روايةٍ « نوّروا بالفجر فإنّه أعظم للأجر » . قال أبو جعفرٍ الطّحاوىّ : يبدأ بالتّغليس ويختم بالإسفار جمعاً بين أحاديث التّغليس والإسفار .

مواطن البحث :

٣ – يبحث الإسفار فى الصّلاة عند الكلام عن وقت صلاة الصّبح ، والأوقات المستحبّة .

إسقاطٌ ❊

التعريف :

١ – من معانى الإسقاط لغةً : الإيقاع والإلقاء ، يقال : سقط اسمه من الدّيوان : إذا وقع ، وأسقطت الحامل : ألقت الجنين ، وقول الفقهاء : سقط الفرض ، أى سقط طلبه والأمر به . وفى اصطلاح الفقهاء : هو إزالة الملك ، أو الحقّ ، لا إلى مالكٍ ولا إلى مستحقٍّ ، وتسقط بذلك المطالبة به ، لأنّ السّاقط ينتهى ويتلاشى ولا ينتقل ، وذلك كالطّلاق والعتق والعفو عن القصاص والإبراء من الدّين ، وبمعنى الإسقاط : الحطّ ، إذ يستعمله الفقهاء بالمعنى نفسه . ويستعمله الفقهاء أيضاً فى إسقاط الحامل الجنين . وسبق تفصيله فى (إجهاضٌ) .

الألفاظ ذات الصّلة :

أ – الإبراء :

٢ – الإبراء عند الفقهاء : إسقاط الشّخص حقّاً له فى ذمّة آخر أو قبله . وهذا عند من يعتبر الإبراء من الدّين إسقاطاً محضاً ، أمّا من يعتبره تمليكاً فيقول : هو تمليك المدين ما فى ذمّته . وتوسّط ابن السّمعانىّ فقال : هو تمليكٌ فى حقّ من له الدّين ، إسقاطٌ فى حقّ المدين ، وهذا بالنّظر لبراءة الإسقاط لا لبراءة الاستيفاء .

ويلاحظ أنّه إذا لم يكن الحقّ فى ذمّة شخصٍ ولا تجاهه ، كحقّ الشّفعة ، فتركه لا يعتبر إبراءً ، بل هو إسقاطٌ . وبذلك يتبيّن أنّ بينهما عموماً وخصوصاً من وجهٍ . غير أنّ ابن عبد السّلام من المالكيّة يعتبر

الإبراء أعمّ من جهةٍ أخرى ، إذ يقول : الإسقاط فى المعيّن ، والإبراء أعمّ منه ، لأنّه يكون فى المعيّن وغيره .

ب – الصّلح :

٣ – الصّلح اسمٌ بمعنى : المصالحة والتّوفيق والسّلم .

وشرعاً : عقدٌ يقتضى قطع النّزاع والخصومة . ويجوز فى الصّلح إسقاط بعض الحقّ ، سواءٌ أكان عن إقرارٍ أم إنكارٍ أم سكوتٍ . فإذا كانت المصالحة على أخذ البدل فالصّلح معاوضةٌ ، وليس إسقاطاً ، فبينهما عمومٌ وخصوصٌ وجهىٌّ .

ج – المقاصّة :

٤ – يقال تقاصّ القوم : إذا قاصّ كلٌّ منهم صاحبه فى الحساب ، فحبس عنه مثل ما كان له عليه .

والمقاصّة نوعٌ من الإسقاط ، إذ هى إسقاط ما للإنسان من دينٍ على غريمه فى مثل ما عليه . فهى إسقاطٌ بعوضٍ ، فى حين أنّ الإسقاط المطلق يكون بعوضٍ وبغير عوضٍ ، وبذلك تكون المقاصّة أخصّ من الإسقاط . ولها شروطٌ تنظر فى موضعها .

د – العفو :

٥ – من معانى العفو : المحو والإسقاط وترك المطالبة ، يقال : عفوت عن فلانٍ إذا تركت مطالبته بما عليه من الحقّ ، ومنه قوله تعالى : { والعافين عن النّاس } . أى التّاركين مظالمهم عندهم لا يطالبونهم بها . فالعفو الّذى يستعمل فى ترك الحقّ مساوٍ للإسقاط فى المعنى ، إلاّ أنّ العفو على إطلاقه أعمّ لتعدّد استعمالاته .

هـ – التّمليك :

٦ – التّمليك : نقل الملك وإزالته إلى مالكٍ آخر ، سواءٌ أكان المنقول عيناً كما فى البيع ، أم منفعةً كما فى الإجارة ، وسواءٌ أكان بعوضٍ كما سبق ، أم بدونه كالهبة . والتّمليك بعمومه يفارق الإسقاط بعمومه ، إذ التّمليك إزالةٌ ونقلٌ إلى مالكٍ ، فى حين أنّ الإسقاط إزالةٌ وليس نقلاً ، كما أنّه ليس إلى مالكٍ ، لكنّهما قد يجتمعان فى الإبراء من الدّين ، عند من يعتبره تمليكاً ، كالمالكيّة وبعض فقهاء الحنفيّة والشّافعيّة ، ولذلك يشترطون فيه القبول .

صفة الإسقاط : حكمه التّكليفىّ :

٧ – الإسقاط من التّصرّفات المشروعة فى الجملة ، إذ هو تصرّف الإنسان فى خالص حقّه ، دون أن يمسّ ذلك حقّاً لغيره . والأصل فيه الإباحة ، وقد تعرض له الأحكام التّكليفيّة الأخرى . فيكون واجباً ،

كترك وليّ الصّغير الشّفعة الّتى وجبت للصّغير ، إذا كان الحظّ فى تركها ، لأنّه يجب عليه النّظر فى ماله بما فيه حظٌّ وغبطةٌ له . وكالطّلاق الّذى يراه الحكمان إذا وقع الشّقاق بين الزّوجين ، وكذلك طلاق الرّجل إذا آلى من زوجته ولم يفئ إليها .

ويكون مندوباً إذا كان قربةً ، كالعفو عن القصاص ، وإبراء المعسر ، والعتق ، والكتابة . ومن النّصوص الدّالّة على النّدب فى العفو عن القصاص قوله تعالى : { والجروح قصاصٌ ، فمن تصدّق به فهو كفّارةٌ له } . فندب اللّه تعالى إلى العفو والتّصدّق بحقّ القصاص .. وفى إبراء المدين قوله تعالى : { وإن كان ذو عسرةٍ فنظرةٌ إلى ميسرةٍ وأن تصدّقوا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون } يقول القرطبىّ : ندب اللّه تعالى بهذه الألفاظ إلى الصّدقة على المعسر ، وجعل ذلك خيراً من إنظاره . ، ولذلك يقول الفقهاء : إنّ المندوب هنا وهو الإبراء أفضل من الواجب وهو الإنظار . وقد يكون حراماً ، كطلاق البدعة ، وهو طلاق المدخول بها فى حال الحيض من غير حملٍ ، وكذلك عفو وليّ الصّغير عن القصاص مجّاناً .

وقد يكون مكروهاً ، كالطّلاق بدون سببٍ يستدعيه ،

لقول النّبىّ صلى الله عليه وسلم : « أبغض الحلال إلى اللّه الطّلاق » .

الباعث على الإسقاط :

٨ – تصرّفات المكلّفين فيما يملكون التّصرّف فيه لا تأتى عفواً ، بل تكون لها بواعث ، قد تكون شرعيّةً ، فيكون التّصرّف استجابةً لأوامر الشّرع ، وقد تكون لمصالح شخصيّةٍ . والإسقاط من التّصرّفات الّتى يتأتّى فيها الباعث الشّرعىّ والشّخصىّ .

فمن البواعث الشّرعيّة :

العمل على حرّيّة الإنسان الّتى هى الأصل لكلّ النّاس ، وذلك العتق الّذى حثّ عليه الإسلام . ومنها : الإبقاء على الحياة ، وذلك بإسقاط حقّ القصاص ممّن ثبت له هذا الحقّ .

ومنها : معاونة المعسرين ، وذلك بإسقاط الدّين عنهم إن وجد ، وقد سبق ذكر النّصوص الدّالّة على مشروعيّة ذلك .

ومنها : إرادة نفع الجار ، كما فى وضع خشبه على جدار جاره وذلك لقول النّبىّ صلى الله عليه وسلم : « لا يمنع جارٌ جاره أن يغرز خشبه فى جداره » إلى غير ذلك ممّا لا يتّسع المقام لذكره .

أمّا البواعث الشّخصيّة :

فمنها : رجاء حسن العشرة بين الزّوجين ، ممّا يدعو الزّوجة إلى إبراء زوجها من المهر فى نكاح التّفويض بعد الدّخول ، أو إسقاط الزّوجة حقّها فى القسم .

ومنها : الإسراع فى الحصول على الحرّيّة ، وذلک كالمكاتب ، إذا أسقط حقّه فى الأجل فى أداء المال المكاتب ، عليه ، فعجّل أداء النّجوم (الأقساط) ، فإنّ السّيّد يلزمه أخذ المال ، لأنّ الأجل حقّ المكاتب فيسقط بإسقاطه كسائر الحقوق ، حتّى لو أبى السّيّد أخذ المال جعله الإمام فى بيت المال ، وحكم بعتقه .

ومنها : الانتفاع المادّىّ ، كالخلع والعفو عن القصاص على مالٍ .

أركان الإسقاط :

٩ – ركن الإسقاط عند الحنفيّة هو الصّيغة فقط ، ويزاد عليها عند غيرهم : الطّرفان – المسقط وهو صاحب الحقّ ، والمسقط عنه الّذى تقرّر الحقّ قبله – والمحلّ وهو الحقّ الّذى يرد عليه الإسقاط .

الصّيغة :

١٠ – ممّا هو معلومٌ أنّ الصّيغة تتكوّن من الإيجاب والقبول معاً فى العقد ، وهى هنا كذلک باتّفاقٍ فى الجملة فى الإسقاطات الّتى تقابل بعوضٍ كالطّلاق على مالٍ .

وفى غيرها اختلاف الفقهاء بالنّسبة للقبول على ما سيأتى .

الإيجاب فى الصّيغة :

١١ – الإيجاب فى الصّيغة ، هو ما يدلّ على الإسقاط من قولٍ ، أو ما يؤدّى معنى القول ، من إشارةٍ مفهمةٍ أو كتابةٍ أو فعلٍ أو سكوتٍ . ويلاحظ أنّ الإسقاطات قد ميّز بعضها بأسماءٍ خاصّةٍ تعرف بها ، فإسقاط الحقّ عن الرّقّ عتقٌ ، وعن استباحة البضع طلاقٌ ، وعن القصاص عفوٌ ، وعن الدّين إبراءٌ . ولكلّ نوعٍ من هذه الإسقاطات صيغٌ خاصّةٌ سواءٌ أكانت صريحةً ، أم كنايةً تحتاج إلى نيّةٍ أو قرينةٍ . ر : (طلاقٌ ، عتقٌ) .

أمّا غير هذه الأنواع من الإسقاطات ، فإنّ حقيقة اللّفظ الّذى يدلّ عليها هو الإسقاط . وما بمعناه . وقد ذكر الفقهاء ألفاظاً متعدّدةً تؤدّى معنى الإسقاط ، وذلک مثل : التّرک والحطّ والعفو والوضع والإبراء فى براءة الإسقاط والإبطال والإحلال ، والمدار فى ذلک على العرف ودلالة الحال ، ولذلک جعلوا من الألفاظ الّتى تدلّ عليه : الهبة والصّدقة والعطيّة حين لا يراد بهذه الألفاظ حقيقتها وهى التّمليک ، ويكون المقام دالاًّ على الإسقاط ، ففى شرح منتهى الإرادات : من أبرأ من دينه ، أو وهبه لمدينه ، أو أحلّه منه ، أو أسقطه عنه ، أو تركه له ، أو ملّكه له ، أو تصدّق به عليه ، أو عفا عن الدّين ، صحّ ذلک جميعه ، وكان مسقطاً للدّين . وإنّما صحّ بلفظ الهبة والصّدقة والعطيّة ، لأنّه لمّا لم يكن هناک عينٌ موجودةٌ يتناولها اللّفظ انصرف إلى معنى الإبراء . قال الحارثىّ : ولهذا لو وهبه دينه هبةً حقيقيّةً لم يصحّ ، لانتفاء معنى الإسقاط وانتفاء شرط الهبة . وكما يحصل الإسقاط بالقول ، فإنّه يحصل بالكتابة المعنونة المرسومة ، وبالإشارة المفهمة من فاقد النّطق .

كذلك قد يحصل الإسقاط بالسّكوت ، كما إذا علم الشّفيع ببيع المشفوع فيه ، وسكت مع إمكان الطّلب ، فإنّ سكوته يسقط حقّه فى طلب الشّفعة . ويحصل الإسقاط أيضاً نتيجة فعلٍ يصدر من صاحب الحقّ ، كمن يشترى بشرط الخيار ، ثمّ يتصرّف فى المبيع بوقفٍ أو بيعٍ فى زمن الخيار ، فإنّ هذا التّصرّف يعتبر إسقاطاً لحقّه فى الخيار .

القبول :

١٢ – الأصل فى الإسقاط أن يتمّ بإرادة المسقط وحده ، لأنّ جائز التّصرّف لا يمنع من إسقاط حقّه ، ما دام لم يمسّ حقّ غيره .

ومن هنا فإنّ الفقهاء يتّفقون على أنّ الإسقاط المحض الّذى ليس فيه معنى التّمليك ، والّذى لم يقابل بعوضٍ ، يتمّ بصدور ما يحقّق معناه من قولٍ ، أو ما يؤدّى معناه دون توقّفٍ على قبول الطّرف الآخر ، كالطّلاق ، فلا يحتاج الطّلاق إلى قبولٍ .

١٣ – ويتّفقون كذلك على أنّ الإسقاط الّذى يقابل بعوضٍ يتوقّف نفاذه على قبول الطّرف الآخر فى الجملة ، كالطّلاق على مالٍ ، لأنّ الإسقاط حينئذٍ يكون معاوضةً ، فيتوقّف ثبوت الحكم على قبول دفع العوض من الطّرف الآخر ، إذ المعاوضة لا تتمّ إلاّ برضى الطّرفين . وقد ألحق الحنفيّة بهذا القسم الصّلح على دم العمد ، فإنّ الحكم فيه يتوقّف على رضى الجانى ، لقوله تعالى : { فمن عفى له من أخيه شىءٌ فاتّباعٌ بالمعروف وأداءٌ إليه بإحسانٍ } والمراد به الصّلح . ولأنّه حقٌّ ثابتٌ للورثة يجرى فيه الإسقاط عفواً ، فكذا تعويضاً ، لاشتماله على إحسان الأولياء وإحياء القاتل ، فيجوز بالتّراضى .

وما ذهب إليه الحنفيّة هو قولٌ للإمام مالكٍ وبعض أصحابه . وعند الشّافعيّة والحنابلة ، وفى قولٍ آخر للإمام مالكٍ أنّ من له حقّ القصاص ، إذا أراد أخذ الدّية بدل القصاص ، فله ذلك من غير رضى الجانى ، لقوله تعالى : { فمن عفى له من أخيه شىءٌ فاتّباعٌ بالمعروف وأداءٌ إليه بإحسانٍ } ولما روى أبو هريرة رضى الله عنه قال : « قام رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فقال : من قتل له قتيلٌ فهو بخير النّظرين ، إمّا أن يودى ، وإمّا أن يقاد » . وبهذا قال سعيد بن المسيّب وابن سيرين وعطاءٌ ومجاهدٌ وأبو ثورٍ وابن المنذر .

١٤ – ويبقى بعد ذلك الإسقاط الّذى فيه معنى التّمليك ، كإبراء المدين من الدّين .

وهذا النّوع من الإسقاط هو الّذى اختلف فيه الفقهاء على أساس ما فيه من جانبى الإسقاط والتّمليك . فالحنفيّة ، والشّافعيّة فى الأصحّ ، والحنابلة وأشهب من المالكيّة ، نظروا إلى جانب الإسقاط فيه ، فلا يتوقّف تمامه عندهم على القبول ، لأنّ جائز التّصرّف لا يمنع من إسقاط حقّه أو بعضه . ولأنّه إسقاط حقٍّ ليس فيه تمليك مالٍ ، فلم يعتبر فيه القبول ، كالعتق والطّلاق والشّفعة . بل إنّ الخطيب الشّربينىّ قال

: لا يشترط القبول على المذهب ، سواءٌ قلنا : الإبراء تمليكٌ أو إسقاطٌ . ويستوى عند هؤلاء الفقهاء التّعبير بالإبراء أو بهبة الدّين للمدين ، إلاّ ما فرّق به بعض الحنفيّة من أنّ التّعبير بالهبة يحتاج إلى القبول . جاء فى الفتاوى الهنديّة : هبة الدّين من الكفيل لا تتمّ بدون القبول ، وإبراؤه يتمّ بدون قبولٍ .

١٥ – ولمّا كان الإبراء من بدل الصّرف ورأس مال السّلم يتوقّف على القبول عند الحنفيّة ، ممّا يشعر بالتّعارض مع رأيهم فى عدم توقّف الإبراء من الدّين على القبول ، فقد علّلوا ذلك بأنّ التّوقّف على القبول فيهما ليس من جهة أنّه هبة الدّين للمدين ، ولكن لأنّ الإبراء فيهما يوجب انفساخ العقد بفوات القبض المستحقّ بالعقد لحقّ الشّارع ، وأحد العاقدين لا ينفرد بفسخه ، فلهذا توقّف على قبول الآخر . والأرجح عند المالكيّة ، وعند بعض الشّافعيّة أنّ إبراء المدين من الدّين يتوقّف تمامه على القبول ، لأنّ الإبراء – على رأيهم – نقلٌ للملك ، فهو تمليك المدين ما فى ذمّته ، فيكون من قبيل الهبة الّتى يشترط فيها القبول .

والحكمة فى ذلك عندهم هى ترفّع ذوى المروءات عمّا قد يحدث فى الإبراء من منّةٍ ، وما قد يصيبهم من ضررٍ بذلك ، لا سيّما من السّفلة ، فكان لهم الرّفض شرعاً ، نفياً للضّرر الحاصل من المنن من غير أهلها ، أو من غير حاجةٍ .

ردّ الإسقاط :

١٦ – لا يختلف الفقهاء فى أنّ الإسقاطات المحضة الّتى ليس فيها معنى التّمليك ، والّتى لم تقابل بعوضٍ ، كالعتق والطّلاق والشّفعة والقصاص لا ترتدّ بالرّدّ ، لأنّها لا تفتقر إلى القبول ، وبالإسقاط يسقط الملك والحقّ ، فيتلاشى ولا يؤثّر فيه الرّدّ ، والسّاقط لا يعود كما هو معلومٌ . ولا يختلفون كذلك فى أنّ الإسقاطات الّتى تقابل بعوضٍ ، كالطّلاق والعتق على مالٍ ، ترتدّ بالرّدّ ما لم يسبق قبولٌ أو طلبٌ .

١٧ – أمّا ما فيه معنى التّمليك كالإبراء من الدّين ، فعند الحنفيّة والمالكيّة فى الرّاجح عندهم ، وهو رأى بعض الشّافعيّة ، أنّه يرتدّ بالرّدّ ، نظراً لجانب التّمليك فيه ، ولما قد يترتّب على عدم قابليّته للرّدّ من ضرر المنّة الّتى يترفّع عنها ذوو المروءات .

١٨ – هذا مع استثناء الحنفيّة لبعض المسائل الّتى لا يرتدّ فيها الإبراء بالرّدّ وهى :

أ – إذا أبرأ المحال المحال عليه فلا يرتدّ بردّه .

ب – إذا أبرأ الطّالب الكفيل فالأرجح أنّه لا يرتدّ بالرّدّ ، وقيل يرتدّ .

ج – إذا طلب المدين الإبراء فأبرأه الدّائن فلا يرتدّ بالرّدّ .

د – إذا قبل المدين الإبراء ثمّ ردّه لا يرتدّ .

وهذه المسائل فى الحقيقة ليست خروجاً على الأصل الّذى سار عليه الحنفيّة ، ذلک أنّ الحوالة والكفالة من الإسقاطات المحضة ، لأنّ الواجب هو حقّ المطالبة وليس فيه تمليک مالٍ . وأمّا القبول إذا تمّ فلا معنى للرّدّ بعده ، وكذلک طلب المدين البراءة يعتبر قبولاً .

١٩ – ومع اتّفاق الحنفيّة على أنّ الإبراء يرتدّ بالرّدّ إلاّ أنّهم يختلفون من حيث تقييد الرّدّ بمجلس الإبراء وعدم تقييده . قال ابن عابدين : هما قولان . وفى الفتاوى الصّيرفيّة : لو لم يقبل ولم يردّ حتّى افترقا ، ثمّ بعد أيّامٍ ردّ لا يرتدّ فى الصّحيح .

التّعليق والتّقييد والإضافة فى الإسقاطات :

٢٠ – التّعليق هو ربط وجود الشّىء بوجود غيره ، ويستعمل فيه لفظ أداة الشّرط صريحاً ، كإن وإذا ، وانعقاد الحكم فيه يتوقّف على حصول الشّرط .

٢١ – والتّقييد بالشّروط ما جزم فيه بالأصل ، وشرط فيه أمرٌ آخر ، ولا يستعمل فيه لفظ أداة الشّرط صريحاً .

٢٢ – أمّا الإضافة فهى وإن كانت لا تمنع سببيّة اللّفظ للحكم إلاّ أنّها تجعل الحكم يتأخّر البدء به إلى زمنٍ مستقبلٍ يحدّده المتصرّف .

وبيان ذلک بالنّسبة للإسقاطات هو :

أوّلاً : تعليق الإسقاط على الشّرط :

٢٣ – يجوز باتّفاق الفقهاء تعليق الإسقاطات على الشّرط الكائن بالفعل (أى الموجود حالة الإسقاط) ، لأنّه فى حكم المنجز ، كقول الدّائن لغريمه : إن كان لى عليک دينٌ فقد أبرأتک ، وكقول الرّجل لامرأته : أنت طالقٌ إن كانت السّماء فوقنا والأرض تحتنا ، وكمن قال لآخر : باعنى فلانٌ دارک بكذا ، فقال : إن كان كذا فقد أجزته ، وإن كان فلانٌ اشترى هذا الشّقص بكذا فقد أسقطت الشّفعة . كذلک يجوز باتّفاق الفقهاء التّعليق على موت المسقط ، ويعتبر وصيّةً ، كقوله لمدينه : إذا متّ فأنت برىءٌ . وهذا فيما عدا من علّق طلاق زوجته على موته ، إذ فيه الاختلاف بين تنجيز الطّلاق وبين عدم وقوعه .

أمّا فيما عدا ذلک من الشّروط فيمكن تقسيم الإسقاطات بالنّسبة لها فى الجملة إلى الآتى :

٢٤ – أ – إسقاطاتٌ محضةٌ ليس فيها معنى التّمليک ولم تقابل بعوضٍ . وهذه يجوز فى الجملة تعليقها على الشّرط ، غير أنّ الحنفيّة وضعوا هنا ضابطاً فقالوا : إن كانت الإسقاطات ممّا يحلف بها ، كالطّلاق والعتق ، فإنّه يجوز تعليقها بالشّرط ملائماً أم غير ملائمٍ . وإن كانت ممّا لا يحلف بها ، كالإذن فى التّجارة وتسليم الشّفعة ، فإنّه يجوز تعليقها بالشّرط الملائم فقط ، وهو ما يؤكّد موجب العقد .

ويعبّر الحنفيّة أحياناً بالشّرط المتعارف . ويظهر أنّ المراد بهما واحدٌ ، ففى ابن عابدين : وفى البحر عن المعراج : غير الملائم هو ما لا منفعة فيه للطّالب أصلاً ، كدخول الدّار ومجيء الغد ، لأنّه غير متعارفٍ . وفى فتح القدير – بعد الكلام عن اختلاف الرّوايات فى جواز تعليق البراءة من الكفالة بالشّرط – قال : وجه اختلاف الرّوايتين أنّ عدم الجواز إنّما هو إذا كان الشّرط محضاً لا منفعة فيه أصلاً ، لأنّه غير متعارفٍ بين النّاس ، كما لا يجوز تعليق الكفالة بشرطٍ ليس للنّاس فيه تعاملٌ ، فأمّا إذا كان بشرطٍ فيه نفعٌ للطّالب ، وله تعاملٌ ، فتعليق البراءة به صحيحٌ . ولم يتعرّض غير الحنفيّة لهذا التّقسيم ، والّذى يبدو ممّا ذكروه أنّه يجوز عندهم تعليق الإسقاطات المحضة على الشّرط مطلقاً ، دون تفريقٍ بين ما يحلف به وما لا يحلف به ، ويدلّ لذلك الضّابط الّذى وضعه الشّافعيّة وهو : ما كان تمليكاً محضاً لا مدخل للتّعليق فيه قطعاً كالبيع ، وما كان حلاًّ محضاً ، يدخله التّعليق قطعاً كالعتق ، وبينهما مراتب يجرى فيها الخلاف كالفسخ والإبراء . وأمّا المالكيّة والحنابلة فإنّ المسائل الّتى ذكروا أنّها تقبل التّعليق تفيد هذا المعنى . وقد ورد الكثير من هذه المسائل فى فتاوى الشّيخ عليشٍ المالكىّ ، ومنها : إذا طلبت الحاضنة الانتقال بالأولاد إلى مكان بعيدٍ ، فقال الأب : إن فعلت ذلك فنفقتهم وكسوتهم عليك ، لزمها ذلك ، لأنّ للأب منعها من الخروج بهم إلى مكان بعيدٍ ، فأسقط حقّه بذلك . وإذا قال الشّفيع : إن اشتريت ذلك الشّقص فقد سلّمت لك شفعتى على دينارٍ تعطينى إيّاه ، فإن لم يبعه منك فلا جعل لى عليك ، جاز ذلك .

٢٥ – ب – إسقاطاتٌ فيها معنى المعاوضة ، كالخلع والمكاتبة . وما يلحق بهما من الطّلاق والعتق على مالٍ . فالطّلاق على مالٍ وكذا العتق على مالٍ تعليقهما جائزٌ باتّفاقٍ ، لأنّهما إسقاطٌ محضٌ ، والمعاوضة فيهما معدولٌ بها عن سائر المعاوضات .

وأمّا الخلع فقد أجاز تعليقه الحنفيّة والمالكيّة والشّافعيّة فى الصّحيح ، باعتباره طلاقاً ، ومنعه الحنابلة لمعنى المعاوضة .

وأمّا المكاتبة فقد أجاز تعليقها بالشّرط الحنفيّة والمالكيّة ، ومنعها الحنابلة والشّافعيّة ، جاء فى قواعد الزّركشىّ : المعاوضة غير المحضة وهى الّتى يكون المال فيها مقصوداً من جانبٍ واحدٍ (أى كالمكاتبة) لا تقبل التّعليق ، إلاّ فى الخلع من جانب المرأة .

٢٦ – ج – الإسقاط الّذى فيه معنى التّمليك ، كالإبراء من الدّين . وقد أجاز تعليقه على الشّرط الحنفيّة والمالكيّة . غير أنّ الحنفيّة قيّدوه بالشّرط الملائم أو المتعارف على ما سبق تفسيره . ومنع تعليقة الحنابلة والشّافعيّة فى الأصحّ .

وقد استثنى الشّافعيّة ثلاث صورٍ يجوز فيها التّعليق ، وهى :

(١) لو قال : إن رددت ضالّتى فقد أبرأتك عن الدّين الّذى لى عليك صحّ .

(٢) تعليق الإبراء ضمناً ، كما إذا علّق عتق عبده ، ثمّ كاتبه فوجدت الصّفة ، عتق ، وتضمّن ذلك الإبراء من النّجوم (أى الأقساط) .

(٣) البراءة المعلّقة بموت المبرّئ ، وقد سبق بيان ذلك .

ثانياً : تقييد الإسقاط بالشّرط :

٢٧ – يصحّ فى الجملة تقييد الإسقاطات بالشّروط ، فإن كان الشّرط صحيحاً لزم ، وإن كان الشّرط فاسداً فلكلّ مذهبٍ تفصيلٌ فى الحكم على ما يعتبر فاسداً من الشّروط وما لا يعتبر ، وهل يبطل التّصرّف بفساد الشّرط ، أو يبطل الشّرط ويصحّ التّصرّف . ونترك التّفاصيل لمواضعها . لكنّ الحكم الغالب فى الإسقاطات أنّها لو قيّدت بالشّرط الفاسد ، صحّ وبطل الشّرط . ويتبيّن هذا ممّا ذكره بعض الفقهاء من الضّوابط ، ومن الفروع الّتى أوردها غيرهم ، وفيما يلى بيان ذلك .

قال الحنفيّة : كلّ ما جاز تعليقه بالشّرط يجوز تقييده بالشّرط ، ولا يفسد بالشّرط ، الفاسد . وقالوا أيضاً : ما ليس مبادلة مالٍ بمالٍ لا يفسد بالشّرط الفاسد . وذكر صاحب الدّرّ وابن عابدين التّصرّفات الّتى تصحّ ولا تفسد بالشّرط الفاسد ، ومنها : الطّلاق والخلع والعتق والإيصاء والشّركة والمضاربة والكفالة والحوالة والوكالة والكتابة والإذن فى التّجارة والصّلح عن دم العمد والإبراء عنه . أمّا المالكيّة والشّافعيّة فلم يربطوا بين التّعليق والتّقييد ، فقد ذكر القرافىّ فى الفروق أنّ ما يقبل الشّرط والتّعليق : الطّلاق والعتق ، ولا يلزم من قبول التّعليق قبول الشّرط ، ولا من قبول الشّرط قبول التّعليق ، وتطلب المناسبة فى كلّ بابٍ من أبواب الفقه . ومن الأمثلة الّتى وردت عندهم : لو خالعت زوجها واشترطت الرّجعة ، لزم الخلع ، وبطل الشّرط . ولو صالح الجانى ولىّ الدّم على شىءٍ بشرط أن يرحل من البلد ، فقال ابن كنانة : الشّرط باطلٌ والصّلح جائزٌ ، وقال ابن القاسم : لا يجوز الصّلح ، وقال المغيرة : الشّرط جائزٌ والصّلح لازمٌ ، وكان سحنونٌ يعجبه قول المغيرة .

ويقول الشّافعيّة : الشّرط الفاسد قد يترتّب عليه بعض أحكام الصّحيح ، ومثل ذلك فى الإسقاطات الكتابة والخلع . وممّا قاله الحنابلة فى ذلك : إذا قيّد الخلع بشرطٍ فاسدٍ صحّ الخلع ولغا الشّرط . وفى المغنى : العتق والطّلاق لا تبطلهما الشّروط الفاسدة .

ثالثاً : إضافة الإسقاط إلى الزّمن المستقبل :

٢٨ – من التّصرّفات ما يظهر أثرها ويترتّب عليها الحكم بمجرّد تمّام الصّيغة ، ولا تقبل إرجاء حكمها إلى زمنٍ آخر كالزّواج والبيع . ومن التّصرّفات ما تكون طبيعتها تمنع ظهور أثرها إلاّ فى زمنٍ مستقبلٍ ، كالوصيّة . ومن التّصرّفات ما يقع حكمه منجزاً ، كالطّلاق تنتهى به الزّوجيّة فى الحال ، ويصحّ أن يضاف إلى زمنٍ مستقبلٍ لا تنتهى الزّوجيّة إلاّ عند حصوله . وإضافة الطّلاق إلى الزّمن المستقبل جائزٌ عند

الحنفيّة والشّافعيّة والحنابلة . وهو منجزٌ عند المالكيّة ولو أضافه إلى المستقبل ، لأنّه بهذه الإضافة أشبه بنكاح المتعة . وكذلك العتق فإنّه إسقاطٌ يقبل الإضافة . وممّا ذكره الحنفيّة من الإسقاطات الّتى لا تقبل الإضافة إلى زمن مستقبلٍ : الإبراء من الدّين وإسقاط القصاص . والحكم الغالب أنّ الإسقاطات الّتى ليس فيها معنى التّمليك تقبل الإضافة إلى الزّمن المستقبل . هذا فى الجملة ، ولكلّ مذهبٍ تفصيلٌ فى كلّ نوعٍ من أنواع التّصرّفات ، وينظر فى موضعه .

من يملك الإسقاط (المسقط) :

٢٩ – الإسقاط قد يكون من قبل الشّرع أساساً ، كإسقاط العبادات الّتى يكون فى مباشرتها مشقّةٌ وحرجٌ على المكلّف ، وكإسقاط العقوبات الّتى ترد عليها شبهةٌ ، وسيأتى بيان ذلك . وقد يكون الإسقاط من قبل العباد نتيجةً لأمر الشّارع ، إمّا على سبيل الوجوب كالعتق فى الكفّارات ، وإمّا على سبيل النّدب كإبراء المعسر من الدّين ، وكالعفو عن القصاص .

وقد يكون الإسقاط من العباد بعضهم لبعضٍ لأسبابٍ خاصّةٍ ، كإسقاط حقّ الشّفعة لعدم الرّغبة فى الشّراء . على ما سبق بيانه فى الحكم التّكليفىّ .

ما يشترط فى المسقط :

٣٠ – الإسقاط من العباد يعتبر من التّصرّفات الّتى يتنازل فيها الإنسان عن حقّه ، فهو فى حقيقته تبرّعٌ . ولمّا كان هذا التّصرّف قد يعود على المسقط بالضّرر ، فإنّه يشترط أهليّته للتّبرّع ، وذلك بأن يكون بالغاً عاقلاً . فلا يصحّ الإسقاط من الصّبىّ والمجنون وهذا فى الجملة ، لأنّ الحنابلة يقولون بصحّة الخلع من الصّغير الّذى يعقله ، لأنّ فيه تحصيل عوضٍ له . ويشترط كذلك أن يكون غير محجورٍ عليه لسفهٍ أو دينٍ ، وهذا بالنّسبة للتّبرّعات ، لأنّه يجوز أن يطلّق وأن يعفو عن القصاص وأن يخالع ، لكن لا يدفع إليه المال ، ولذلك لا يصحّ الخلع من الزّوجة المحجور عليها لسفهٍ أو صغرٍ ، مع ملاحظة أنّه لا يحجر على السّفيه ، ولا على المدين عند أبى حنيفة . ر : (حجرٌ ، وسفهٌ ، وأهليّةٌ) .

ويشترط أيضاً أن يكون ذا إرادةٍ ، فلا يصحّ إسقاط المكره ، إلاّ ما قاله الحنفيّة من صحّة الطّلاق والعتق من المكره . وللفقهاء تفصيلٌ بين الإكراه الملجئ وغير الملجئ . وينظر فى (إكراهٌ) . ويشترط أن يكون فى حال الصّحّة ، إذا كان إسقاطه لكلّ ماله أو أكثر من الثّلث ، فإن كان مريضاً مرض الموت وقت الإسقاط فتصرّفه فيما زاد على الثّلث للأجنبىّ ، أو بأقلّ للوارث ، يتوقّف على إجازة الورثة . ر : (وصيّةٌ) .

وإذا كان المريض مديناً والتّركة مستغرقةٌ بالدّيون فلا يصحّ منه الإبراء ، لتعلّق حقّ الغرماء . ويشترط أن يكون مالكاً لما يتصرّف فيه . وفى تصرّف الفضولىّ خلافٌ بين من يجيزه موقوفاً على إجازة المالك ،

وهم الحنفيّة والمالكيّة ، وبين من لا يجيزه وهم الشّافعيّة والحنابلة . وفى ذلك تفصيلٌ موضعه مصطلح (فضوليٌّ) .

وقد يكون ملك التّصرّف بالوكالة ، وحينئذٍ يجب أن يقتصر التّصرّف على المأذون به للوكيل . وعلى الجملة فإنّه يصحّ التّوكيل بالخلع ، وبالإعتاق على مالٍ ، وبالصّلح على الإنكار ، وفى إبراءٍ من الدّين ولو للوكيل ، إذا عيّنه الموكّل وقال له : أبرئ نفسك . ويراعى فى كلّ ذلك ما يشترط فى الموكّل والوكيل وما أذن فيه . وينظر تفصيله فى (وكالةٌ) . وقد يكون ملك التّصرّف بالولاية الشّرعيّة كالوليّ والوصىّ ، وحينئذٍ يجب أن يقتصر تصرّفهما على ما فيه الحظّ للصّغير والمولّى عليه ، فلا يجوز له التّبرّع ولا إسقاط المهر ولا العفو على غير مالٍ ولا ترك الشّفعة إذا كان فى التّرك ضررٌ . وهذا فى الجملة (ر : وصايةٌ ولايةٌ) .

المسقط عنه :

٣١ – المسقط عنه هو من كان عليه الحقّ أو تقرّر قبله ، ويشترط فيه أن يكون معلوماً فى الجملة . هذا ، وأغلب الإسقاطات يكون المسقط عنه أو له معروفاً ، كما فى الشّفعة والقصاص والخيار وما شابه ذلك . وإنّما نتصوّر الجهالة فى إبراء المدين وفى الإعتاق والطّلاق وما أشبه ذلك . أمّا الإبراء من الدّين فيشترط فيه أن يكون المبرّأ معلوماً ، وهذا باتّفاقٍ . ولذلك لو قال : أبرأت شخصاً أو رجلاً ممّا لى قبله لا يصحّ . ومثله ما لو قال : أبرأت أحدً غريمىّ ، أمّا لو قال : أبرأت أهالى المحلّة الفلانيّة ، وكان أهل تلك المحلّة معيّنين ، وعبارةً عن أشخاصٍ معدودين ، فإنّه يصحّ الإبراء .

كذلك يشترط أن يكون الإبراء لمن عليه الحقّ ، فلو أبرئ غير من عليه الحقّ لا يصحّ ، ومثال ذلك : إذا أبرئ قاتلٌ من ديةٍ واجبةٍ على عاقلته ، فلا يصحّ الإبراء فى ذلك ، لوقوعه على غير من عليه الحقّ . أمّا لو أبرئت عاقلة القاتل ، أو قال المجنىّ عليه : عفوت عن هذه الجناية ، ولم يسمّ المبرّأ من قاتلٍ أو عاقلةٍ صحّ الإبراء ، لانصرافه إلى من عليه الحقّ . ولا يشترط فى الإبراء من الدّين أن يكون المبرّأ مقرّاً بالحقّ ، حيث يجوز الإبراء من الإنكار . ومثل ذلك يقال فى غير الدّين ممّا يصحّ إسقاطه .

وأمّا بالنّسبة للطّلاق فإنّه يصحّ مع الإبهام ، لكن لا بدّ من التّعيين ، فمن قال لزوجتيه : إحداكما طالقٌ ، فإنّ الطّلاق يقع ، ولكنّه يلزم بتعيين المطلّقة . وهذا عند الحنفيّة والشّافعيّة ، أمّا عند المالكيّة فالمشهور أنّهما تطلقان ، وهو قول المصريّين ، وقال المدنيّون : يختار واحدةً للطّلاق . وعند الحنابلة : يقرع بينهما إن لم يكن نوى واحدةً بعينها .

محلّ الإسقاط :

٣٢ – المحلّ الّذى يجرى عليه التّصرّف يسمّى حقّاً ، وهو بهذا الإطلاق العامّ يشمل الأعيان ، ومنافعها ، والدّيون ، والحقوق المطلقة . وكلّ من ملك حقّاً من هذه الحقوق – بهذا الإطلاق العامّ – يصبح له بحكم الملك ولاية التّصرّف فيه باختياره ، ليس لأحدٍ ولاية الجبر عليه إلاّ لضرورةٍ أو لمصلحةٍ عامّة ، ولا لأحدٍ ولاية المنع عنه إلاّ إذا تعلّق به حقّ الغير ، فيمنع عن التّصرّف من غير رضى صاحب الحقّ .

والإسقاط من هذه التّصرّفات ، إلاّ أنّه ليس كلّ محلٍّ قابلاً للإسقاط ، بل منه ما يقبل الإسقاط لتوفّر شروطه ، ومنه ما لا يقبله لعدم تحقّق شروطه ، ككونه مجهولاً ، أو تعلّق به حقٌّ للغير وهكذا . وبيان ذلك فيما يلى :

ما يقبل الإسقاط

أوّلاً – الدّين :

٣٣ – يصحّ باتّفاقٍ إسقاط الدّين الثّابت فى الذّمّة ، لأنّه حقٌّ ، والحقوق تسقط بالإسقاط ، فكلّ من ثبت له دينٌ على غيره ، سواءٌ أكان ثمن مبيعٍ ، أم كان مسلماً فيه ، أم نفقةً مفروضةً ماضيةً للزّوجة ، أم غير ذلك ، فإنّه يجوز له إسقاطه . وسواءٌ أكان الإسقاط خاصّاً بدينٍ أم عامّاً لكلّ الدّين ، وسواءٌ أكان مطلقاً أم معلّقاً أم مقيّداً بشرطٍ على ما سبق بيانه . وكما يجوز الإبراء عن كلّ الدّين فإنّه يجوز الإبراء عن بعضه .

وكما يصحّ إسقاط الدّين بدون عوضٍ ، يصحّ إسقاطه نظير عوضٍ ، مع الاختلاف فى الصّورة أو الكيفيّة الّتى يتمّ بها ذلك ، ومن هذه الصّور :

أ – أن يعطى المدين الدّائن ثوباً فى مقابلة إبرائه ممّا عليه من الدّين ، فيملك الدّائن العوض المبذول له نظير الإبراء ويبرأ المدين ، وذلك كما يقول الشّافعيّة .

ب – يقول الحنابلة : من وجبت عليه نفقة امرأته ، وكان له عليها دينٌ ، فأراد أن يحتسب عليها بدينه مكان نفقتها ، فإن كانت موسرةً فله ذلك ، لأنّ من عليه حقٌّ فله أن يقضيه من أىّ أمواله شاء ، وهذا من ماله .

ويظهر أنّ هذه الصّورة تعتبر من قبيل المقاصّة ، والمقاصّة بالتّراضى تعتبر إسقاطاً بعوضٍ من الجانبين . مع مراعاة شروطها من اتّحاد الدّين قدراً ووصفاً وغير ذلك من الشّروط .

ت – كذلك يأتى إسقاط الدّين نظير عوض صورة الصّلح . وقد قسّم القرافىّ الإسقاط إلى قسمين : بعوضٍ وبغيره ، وجعل من الإسقاط بعوضٍ الصّلح عن الدّين .

ث – فى حاشية ابن عابدين : إذا أبرأت الزّوجة زوجها من المهر والنّفقة ليطلّقها ، صحّ الإبراء ، ويكون بعوضٍ ، وهو أنّه ملّكها نفسها .

ج – وقد يأتى إسقاط الدّين بعوضٍ فى صور التّعليق ، كمن قال لغيره : إن أعطيتنى سيّارتك أسقطت عنك الدّين الّذى لى عليك .

ح – والإبراء أيضاً فى صورة الخلع يعتبر من قبيل العوض .

ثانياً : العين

٣٤ – الأصل أنّ الأعيان لا تقبل الإسقاط ، على ما سيأتى بيانه فيما لا يقبل الإسقاط ، إلاّ أنّ بعض التّصرّفات تعتبر إسقاطاً للملك . وذلك كالعتق ، فإنّه يعتبر إسقاطاً لملك الرّقبة وهى عينٌ . والعتق مشروعٌ بل مندوبٌ إليه شرعاً ، وقد يكون واجباً كما فى الكفّارات .

كذلك الوقف يعتبر إسقاطاً للملك عند بعض الفقهاء ، ففى قواعد المقرى : وقف المساجد إسقاط ملكٍ إجماعاً ، وفى غيرها قولان .

وقد يأتى إسقاط العين نظير عوضٍ عمّن عقد الصّلح ، والصّلح جائزٌ شرعاً لقول النّبىّ صلى الله عليه وسلم : « الصّلح جائزٌ بين المسلمين إلاّ صلحاً حرّم حلالاً أو أحلّ حراماً » . وسواءٌ أكان عن إقرارٍ ، أم عن إنكارٍ ، أم سكوتٍ ، فإن كان عن إنكارٍ أو سكوتٍ فهو فى حقّ المدّعى معاوضة حقّه فى زعمه ، وهذا مشروعٌ ، فى حقّ المدّعى عليه افتداء اليمين ودفع الخصومة وهذا مشروعٌ . بل إنّ بعض الحنابلة أجاز الصّلح عمّا تعذّر علمه من دينٍ أو عينٍ بمالٍ لئلاّ يفضى إلى ضياع المال .

ويلاحظ أنّ الشّافعيّة لا يجيزون الصّلح عن إنكارٍ . وإن كان الصّلح عن إقرارٍ اعتبر كالبيع ، إن كان مبادلة مالٍ بمالٍ ، أو كالإجارة إن كان مبادلة مالٍ بمنفعةٍ ، أو كالهبة إن كان على ترك بعض العين . ويعتبر فى كلّ حالٍ شروطها . وينظر تفصيل ذلك فى (صلحٌ) .

ثالثاً : المنفعة :

٣٥ – المنافع حقوقٌ تثبت لمستحقّيها ، سواءٌ أكانت نتيجة ملك العين المنتفع بها ، أم كانت نتيجة ملك المنفعة دون الرّقبة (أى العين) بمقتضى عقدٍ ، كالإجارة والعاريّة والوصيّة بالمنفعة ، أو بغير عقدٍ ، كتحجير الموات لإحيائه ، والاختصاص بمقاعد الأسواق ، وما شابه ذلك . والأصل فى المنافع أنّها تقبل الإسقاط بإسقاط مالك العين المنتفع بها أو مستحقّ منفعتها ، إذ كلّ جائز التّصرّف لا يمنع من إسقاط حقّه ، ما لم يكن هناك مانعٌ من ذلك . وهذا باتّفاقٍ . وصور ذلك كثيرةٌ فى مسائل الفقه ومن أمثلتها :

أ – من أوصى لرجلٍ بسكنى داره ، فمات الموصى ، وباع الوارث الدّار ، ورضى به الموصى له ، جاز البيع وبطلت سكناه .

ب – من وصّى بعين دار لزيدٍ ، وبالمنفعة لعمرٍو ، فأسقط الموصى له بالمنفعة حقّه ، سقط بالإسقاط .

ج – من كان له مسيل ماءٍ فى دار غيره ، فقال : أبطلت حقّى فى المسيل ، فإن كان له حقّ إجراء الماء دون الرّقبة بطل حقّه قياساً على حقّ السّكنى .

د – يجوز إسقاط الحقّ فى الانتفاع ببيوت المدارس الموقوفة على الوجه الّذى أسقطه صاحبه .

فإن أسقطه مدّةً مخصوصةً رجع إليه بعد انتهائها ، وإن أطلق فى الإسقاط فلا يعود له .

هـ– أماكن الجلوس فى المساجد والأسواق يجوز إسقاط الحقّ فيها .

هذا بالنّسبة لإسقاط الحقّ فى المنافع بدون عوضٍ .

٣٦ – أمّا إسقاطه بعوضٍ ، فإنّه يرجع إلى قاعدة التّفريق بين ملك المنفعة وملك الانتفاع ، فإنّ الأصل أنّ كلّ من ملك المنفعة ملك المعاوضة عليها ، ومن ملك الانتفاع بنفسه فقط فليس له المعاوضة عليه . وعلى ذلك فكلّ من ملك المنفعة ، سواءٌ أكان مالكاً للرّقبة ، أم مالكاً للمنفعة دون الرّقبة ، فإنّه يجوز له إسقاط حقّه فى المنفعة والاعتياض عنه وهذا عند الجمهور . أمّا الحنفيّة ، فإنّ الاعتياض عن المنافع عندهم لا يجوز إلاّ لمالك الرّقبة والمنفعة ، أو لمالك المنفعة بعوضٍ . والمنافع ليست بأموالٍ عندهم . وكذلك لا يجوز عندهم إفراد حقوق الارتفاق بعقد معاوضةٍ على الأصحّ ، وإنّما يجوز تبعاً .

وينظر تفصيل ذلك فى (إجارةٌ ، ارتفاقٌ ، إعارةٌ ، وصيّةٌ ، وقفٌ) .

٣٧ – ومن الأمثلة على إسقاط الحقّ فى المنافع بعوضٍ : ما لو صالح الورثة من أوصى له مورّثهم بسكنى دارٍ معيّنةٍ من التّركة بدراهم مسمّاةٍ جاز ذلك صلحاً ، لأنّه إسقاط حقٍّ ، ومثل ذلك ما لو أنّ الموصى له بعين الدّار صالح الموصى له بسكناها بدراهم أو بمنفعة عينٍ أخرى لتسلّم الدّار له جاز .

رابعاً : الحقّ المطلق :

٣٨ – ينقسم الحقّ بحسب من يضاف إليه إلى الآتى :

- –حقٌّ خالصٌ للّه سبحانه وتعالى ، وهو كلّ ما يتعلّق به النّفع العامّ ، أو هو امتثال أوامره ونواهيه .

– وحقٌّ خالصٌ للعباد ، وهو مصالحهم المقرّرة بمقتضى الشّريعة .

– وما اجتمع فيه حقّ اللّه وحقّ العبد ، كحدّ القذف والتّعزير .

والأصل أنّ الحقّ للّه سبحانه وتعالى ، لأنّه ما من حقٍّ للعبد إلاّ وفيه حقٌّ للّه تعالى ، وهو أمره بإيصال ذلك الحقّ إلى مستحقّه . وإفراد نوعٍ من الحقوق بجعله حقّاً للعبد فقط ، إنّما هو بحسب تسليط العبد على التّصرّف فيه بحيث لو أسقطه لسقط ، فكلّ واحدٍ من الحقّين (حقّ اللّه وحقّ العبد) موكولٌ لمن هو

منسوبٌ إليه ثبوتاً وإسقاطاً . وبيان ذلک فيما يأتى : حقّ اللّه سبحانه وتعالى :

٣٩ – ذكر حقّ اللّه هنا فيما يقبل الإسقاط إنّما هو باعتبار قبوله للإسقاط من قبل الشّارع ، أمّا من قبل العباد فلا يجوز على ما سيأتى .

وحقوق اللّه : إمّا عباداتٌ محضةٌ ماليّةٌ كالزّكاة ، أو بدنيّةٌ كالصّلاة ، أو جامعةٌ للبدن والمال كالحجّ . وإمّا عقوباتٌ محضةٌ كالحدود . وإمّا كفّاراتٌ وهى مترددّةٌ بين العقوبة والعبادة . ويقول الفقهاء : إنّ حقوق اللّه مبنيّةٌ على المسامحة ، بمعنى أنّه سبحانه وتعالى لن يلحقه ضررٌ فى شيءٍ ، ومن ثمّ قبل الرّجوع عن الإقرار بالزّنى فيسقط الحدّ ، بخلاف حقّ الآدميّين فإنّهم يتضرّرون . وبإيجازٍ نذكر الأسباب الموجبة لإسقاط حقّ اللّه كما اعتبرها الشّارع :

٤٠ –حقوق اللّه سبحانه وتعالى تقبل الإسقاط فى الجملة للأسباب الّتى يعتبرها الشّرع مؤدّيةً إلى ذلک ، تفضّلاً منه ، ورحمةً بالعباد ، ورفعاً للحرج والمشقّة عنهم ، كإسقاط العبادات والعقوبات عن المجنون ، وكإسقاط بعض العبادات بالنّسبة لأصحاب الأعذار كالمرضى والمسافرين ، لما ينالهم من مشقّةٍ . وقد فصّل الفقهاء المشاقّ وأنواعها ، وبيّنوا لكلّ عبادةٍ مرتبةً معيّنةً من مشاقّها المؤثّرة فى إسقاطها ، وأدرجوا ذلک تحت قاعدة : المشقّة تجلب التّيسير ، أخذاً من قوله تعالى : { يريد اللّه بكم اليسر ولا يريد بكم العسر } ، وقوله تعالى : { وما جعل عليكم فى الدّين من حرجٍ } .

والحكم المبنىّ على الأعذار يسمّى رخصةً . ومن أقسام الرّخصة ما يسمّى رخصة إسقاطٍ ، كإسقاط الصّلاة عن الحائض والنّفساء ، وإسقاط الصّوم عن الشّيخ الكبير الّذى لا يقوى عليه . وصلاة المسافر قصراً فرضٌ عند الحنفيّة ، وفى قولٍ للمالكيّة ، وتعتبر رخصة إسقاطٍ ، لقول النّبىّ صلى الله عليه وسلم : « صدقةٌ تصدّق اللّه بها عليكم فاقبلوا صدقته » . وجه الاستدلال : أنّ التّصدّق بما لا يحتمل التّمليک إسقاطٌ لا يحتمل الرّدّ ، وإن كان ممّن لا يلزم طاعته كولىّ القصاص ، فهو من اللّه الّذى تلزم طاعته أولى .

والمذهب عند المالكيّة والشّافعيّة والحنابلة : أنّ قصر الصّلاة سنّةٌ للتّرفيه عن العبد . كذلک يسقط فرض الكفاية عمّن لم يقم به ، إذا قام به غيره ، بل إنّ القرافىّ يقول : يكفى فى سقوط المأمور به على الكفاية ظنّ الفعل ، لا وقوعه تحقيقاً .

ومن ذلک أيضاً إسقاط الحرمة فى تناول المحرّم للضّرورة ، كأكل المضطرّ للميتة ، وإساغة اللّقمة بالخمر لمن غصّ بها ، وإباحة نظر العورة للطّبيب . ويسرى هذا الحكم على المعاملات ، فمن الرّخصة ما سقط مع كونه مشروعاً فى الجملة ، وذلک كما فى السّلم ، لقول الرّاوى : « نهى النّبىّ صلى الله عليه وسلم عن

بيع ما ليس عند الإنسان ، ورخّص فى السّلم » . وأنّ الأصل فى البيع أن يلاقى عيناً ، وهذا حكمٌ مشروعٌ ، لكنّه سقط فى السّلم . ومن التّخفيف : مشروعيّة الطّلاق ، لما فى البقاء على الزّوجيّة من المشقّة عند التّنافر ، وكذا مشروعيّة الخلع والافتداء ، ومشروعيّة الكتابة ليتخلّص العبد من دوام الرّقّ . وكلّ ذلك مفصّلٌ فى أبوابه الخاصّة من كتب الفقه ، وفى بابى : الرّخصة والأهليّة من كتب الأصول .

حقوق العباد :

٤١ – المقصود بحقوق العباد هنا ، ما عدا الأعيان والمنافع والدّيون ، وذلك لحقّ الشّفعة والقصاص والخيار . والأصل أنّ كلّ من له حقٌّ إذا أسقطه – وهو من أهل الإسقاط ، والمحلّ قابلٌ للسّقوط – سقط . فالشّفيع له حقّ الأخذ بالشّفعة بعد البيع ، فإذا أسقط هذا الحقّ وترك الأخذ بالشّفعة سقط حقّه ، ووليّ الدّم فى القتل العمد له حقّ القصاص ، فإذا عفا وأسقط هذا الحقّ كان له ذلك ، والغانم قبل القسمة له حقّ التّملّك ، ويجوز له إسقاط هذا الحقّ ، وإذا ثبت حقّ الخيار للبائع أو للمشترى كان لمن ثبت له منهما هذا الحقّ أن يسقطه . وهكذا متى ثبت لإنسانٍ حقٌّ ، وهو جائز التّصرّف ، كان من حقّه إسقاطه ، إلاّ لمانعٍ من ذلك كما سيأتى ، وهذا باتّفاقٍ .

هذا بالنّسبة لإسقاط الحقوق بدون عوضٍ ، أمّا إسقاطها نظير عوضٍ فبيانه كالآتى :

٤٢ – فرّق الكثير من فقهاء الحنفيّة بين ما يجوز الاعتياض عنه من الحقوق وما لا يجوز بقاعدةٍ هى : أنّ الحقّ إذا كان مجرّداً عن الملك فإنّه لا يجوز الاعتياض عنه ، وإن كان حقّاً متقرّراً فى المحلّ الّذى تعلّق به صحّ الاعتياض عنه . وفرّق البعض الآخر من الحنفيّة بقاعدةٍ أخرى هى : أنّ الحقّ إذا كان شرع لدفع الضّرر فلا يجوز الاعتياض عنه ، وإذا كانت ثبت على وجه البرّ والصّلة فيكون ثابتاً له أصالةً ، فيصحّ الاعتياض عنه .

ومن يرجع إلى الأمثلة الّتى أوردوها يتبيّن له أنّه لا يكاد يوجد فرقٌ بين القاعدتين ، ففى الأشباه لابن نجيمٍ : الحقوق المجرّدة لا يجوز الاعتياض عنها ، كحقّ الشّفعة ، فلو صالح عنه بمالٍ بطلت ورجع به ، ولو صالح المخيّرة بمالٍ لتختاره بطل ولا شىء لها ، ولو صالح إحدى زوجتيه بمالٍ لتترك نوبتها لم يلزم ، ولا شىء لها . هكذا ذكروه فى الشّفعة . وخرج عنها حقّ القصاص وملك النّكاح ، وحقّ الرّقّ ، فإنّه يجوز الاعتياض عنها .

والكفيل بالنّفس إذا صالح المكفول له بمالٍ لم يصحّ ولم يجب ، وفى بطلانها روايتان .

وفى حاشية ابن عابدين : لا يجوز الاعتياض عن الحقوق المجرّدة كحقّ الشّفعة ، ثمّ أورد نفس الأمثلة الّتى جاءت فى الأشباه ، ثمّ قال : وعدم جواز الصّلح عن حقّ الشّفعة وحقّ القسم للزّوجة وحقّ الخيار فى النّكاح للمخيّرة إنّما هو لدفع الضّرر عن الشّفيع والمرأة ، وما ثبت لذلك لا يصحّ الصّلح عنه ، لأنّ

صاحب الحقّ لمّا رضى علم أنّه لا يتضرّر بذلک ، فلا يستحقّ شيئاً . أمّا حقّ القصاص وملک النّكاح وحقّ الرّقّ فقد ثبت على وجه البرّ والصّلة ، فهو ثابتٌ له أصالةً ، لا على وجه رفع الضّرر عن صاحبه . وسار صاحب البدائع على أنّ الحقّ الّذى يجوز الاعتياض عنه ، هو الحقّ الثّابت فى المحلّ أصالةً .

أمّا الجمهور (المالكيّة والشّافعيّة والحنابلة) فلم نعثر لهم على قاعدةٍ يمكن الاستناد إليها فى معرفة الحقوق الّتى يجوز الاعتياض عنها والّتى لا يجوز ، وإنّما يعرف ذلک بالرّجوع إلى المسائل فى أماكنها من أبواب الفقه ، كالحضانة والشّفعة والخيار فى العقود وما شابه ذلک ، ولذلک سنكتفى بذكر بعض الأمثلة . والجمهور أحياناً مع الحنفيّة فى بعض المسائل ، مع اتّفاقهم فى سبب الاعتياض ، وأحياناً يختلفون عنهم . وسيظهر ذلک من الأمثلة .

أ – الاعتياض عن حقّ الشّفعة ، هو غير جائزٍ عند الحنفيّة كما سبق ، ويوافقهم فى الحكم وفى العلّة الشّافعيّة والحنابلة . فى حين أجاز الاعتياض عنها المالكيّة ، وفى روايةٍ عن الإمام أحمد : إذا كان الاعتياض ، من المشترى لا من غيره .

ب – هبة الزّوجة يومها لضرّتها ، لا يجوز الاعتياض عنه عند الحنفيّة ، ووافقهم الشّافعيّة والحنابلة . قال الشّافعيّة : لأنّه ليس عيناً ولا منفعةً فلا يقابل بمالٍ . وقال الحنابلة : إنّ الزّوجة من حقّها كون الزّوج عندها ، وهو لا يقابل بمالٍ . وقال ابن تيميّة : قياس المذهب جواز أخذ العوض عن سائر حقوقها من القسم وغيره . والمالكيّة أجازوا الاعتياض عن حقّها فى ذلک ، لأنّه عوضٌ عن الاستمتاع أو عن إسقاط الحقّ .

ت – إذا تعذّر ردّ المبيع المعيب كان للمشترى الحقّ فى الاعتياض عن العيب . وهذا عند الحنفيّة والمالكيّة ، وهو المذهب عند الشّافعيّة ، لأنّ الرّضى بالعيب يمنع الرّجوع بالنّقصان ،« ولأنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم جعل لمشترى المصرّاة الخيار بين الإمساک من غير أرشٍ وبين الرّدّ ». وعند الحنابلة : يجوز إمساک المبيع والاعتياض عن العيب ، لأنّه فات عليه جزءٌ من المبيع ، فكان له المطالبة بعوضه ، ويخالف المصرّاة ، لأنّ الخيار له بالتّدليس ، وكذلک فى القول الثّانى عند الشّافعيّة .

ث – القصاص يجوز الاعتياض عنه عند جميع الفقهاء .

ج – يصحّ الصّلح عن إسقاط حقّ الدّعوى ، كحقّ الشّفعة والشّرب ، إلاّ ما كان مخالفاً للشّرع كدعوى الحدّ والنّسب ، ولأنّ الصّلح فى الدّعوى لافتداء اليمين ، وهو جائزٌ .

ح – يجوز الصّلح عن التّعزير الّذى هو حقّ العبد ، لكن قال أبو حنيفة : إنّ التّعزير الّذى فيه حقّ اللّه كقبلة الأجنبيّة ، فالظّاهر عدم صحّة الصّلح فيه .

خ – يجوز الاعتياض عن إسقاط حقّ الحضانة عند الحنفيّة والمالكيّة ، على القول بأنّها حقّ الحاضن .

د – يجوز الاعتياض عن إسقاط حقّ الرّجوع فى الهبة عند الحنفيّة ونكتفى بذكر هذه الأمثلة ، إذ من العسير حصر الحقوق الّتى يجوز الاعتياض عنها ، ويرجع فى ذلك إلى المسائل فى أبوابها من كتب الفقه .

ما لا يقبل الإسقاط :

أ – العين :

٤٣ – العين ما يحتمل التّعيين مطلقاً ، جنساً ونوعاً وقدراً وصفةً ، كالعروض من الثّياب ، والعقار من الأرضين والدّور ، والحيوان من الدّوابّ ، والمكيل والموزون .

ومالك العين يجوز له التّصرّف فيها بالنّقل على الوجه المشروع من بيعٍ أو غيره . أمّا التّصرّف فيها بالإسقاط – أى رفع الملك وإزالته ، بأن يقول الشّخص مثلاً : أسقطت ملكى فى هذه الدّار لفلانٍ ، يريد بذلك زوال ملكه وثبوته لغيره – فهذا باطلٌ ، ولا يفيد زوال ملك المسقط عن العين ، وثبوت الملك فيها للمسقط له . وقد اتّفق الفقهاء على أنّ الأعيان لا تقبل الإسقاط . إلاّ ما ورد بالنّسبة للعتق والوقف على ما سبق بيانه .

٤٤ – لكن لو حدث هذا التّصرّف من المالك ، وكانت العين تحت يد المسقط له ، فإن كانت العين مغصوبةً هالكةً صحّ الإسقاط ، لأنّه حينئذٍ يكون إسقاطاً لقيمتها المترتّبة فى ذمّته ، فصار إسقاطاً للدّين ، وإسقاط الدّين صحيحٌ .

وإن كانت العين قائمةً ، فمعنى إسقاطها إسقاط ضمانها لو هلكت ، وتصير بعد البراءة من عينها كالأمانة ، لا تضمن إلاّ بالتّعدّى . وقال زفر رحمه الله : لا يصحّ الإبراء وتبقى مضمونةً . وإن كانت العين أمانةً ، فالبراءة عنها لا تصحّ ديانةً ، بمعنى أنّ مالكها إذا ظفر بها أخذها . وتصحّ قضاءً ، فلا يسمع القاضى دعواه بعد البراءة . وقد قالوا : الإبراء عن الأعيان باطلٌ ديانةً لا قضاءً . ومعناه أنّها تكون ملكاً له بالإبراء ، وإنّما الإبراء عنها صحيحٌ فى سقوط الضّمان ، أو يحمل على الأمانة .

ويقول المالكيّة : إنّ البراءة من المعيّنات يسقط بها الطّلب بقيمتها إذا فاتت ، والطّلب برفع اليد عنها إن كانت قائمةً . وهذا هو المشهور من المذهب ، إلاّ إنّه نقل عن المازرىّ ما ظاهره أنّ الإبراء يشمل الأمانات وهى معيّناتٌ (وهذا فى الإبراء العامّ) . كذلك صرّح ابن عبد السّلام بأنّ الإسقاط فى المعيّن ، والإبراء أعمّ منه يكون فى المعيّن وغيره .

ب – الحقّ :

ذكر فيما سبق ما يقبل الإسقاط من الحقوق ، سواءٌ أكان من حقّ اللّه أم من حقّ العبد ، ونذكر فيما يلى ما لا يقبل الإسقاط منهما .

ما لا يقبل الإسقاط من حقوق اللّه تعالى :

٤٥ – الأصل أنّ حقّ اللّه لا يقبل الإسقاط من أحدٍ من العباد ، وأنّ ذلك موكولٌ إلى صاحب الشّرع لاعتباراتٍ خاصّةٍ ، كالتّخفيف عن العباد على ما سبق . فحقّ اللّه الخالص من العبادات كالصّلاة والزّكاة ، ومن العقوبات كحدّ الزّنى وحدّ شرب الخمر ، ومن الكفّارات وغير ذلك من الحقوق الّتى ثبتت للعبد بمقتضى الشّريعة كحقّ الولاية على الصّغيرة ، حقّ اللّه هذا لا يجوز لأحدٍ من العباد إسقاطه ، لأنّه لا يملك الحقّ فى ذلك ، بل إنّ من حاول ذلك فإنّه يقاتل ، كما فعل أبو بكرٍ رضى الله عنه بمانعى الزّكاة . حتّى إنّ السّنن الّتى فيها إظهار الدّين ، وتعتبر من شعائره ، كالأذان ، لو اتّفق أهل بلدةٍ على تركه وجب قتالهم .

٤٦ – كذلك لا يجوز التّحيّل على إسقاط العبادات ، كمن دخل عليه وقت صلاة ، فشرب خمراً أو دواءً منوّماً حتّى يخرج وقتها – وهو فاقدٌ لعقله – كالمغمى عليه . وكمن كان له مالٌ يقدر به على الحجّ ، فوهبه كيلاً يجب عليه الحجّ .

٤٧ – وتحرم الشّفاعة لإسقاط الحدود الخالصة للّه تعالى . وفى السّرقة كذلك بعد الرّفع للحاكم ، لأنّ الحدّ فيها حقّ اللّه تعالى ، وقد روت عائشة رضى الله تعالى عنها : « أتى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم بسارقٍ قد سرق ، فأمر به فقطع ، فقيل : يا رسول اللّه ما كنّا نراك تبلغ به هذا ، قال : لو كانت فاطمة بنت محمّدٍ لأقمت عليها الحدّ » . وروى عروة قال :« شفع الزّبير فى سارقٍ فقيل : حتّى يأتى السّلطان ، قال : إذا بلغ السّلطان فلعن اللّه الشّافع والمشفّع ». ولقول النّبىّ صلى الله عليه وسلم لصفوان ، حين تصدّق على السّارق : « فهلاّ قبل أن تأتينى به » . وقال النّووىّ فى شرح مسلمٍ : وأجمعوا على تحريم الشّفاعة فى الحدود بعد بلوغه الإمام ، فأمّا قبل بلوغه الإمام فقد أجازه أكثر العلماء ، إذا لم يكن المشفوع فيه صاحب شرٍّ وأذًى للمسلمين ، فإن كان لم يشفع فيه .

٤٨ – ويلاحظ أنّ السّرقة ، وإن كان الحدّ فيها هو حقّ اللّه ، إلاّ أنّ الجانب الشّخصىّ فيها متحقّقٌ ناحية المال ، ولذلك يجوز الإبراء من المال . أمّا الحدّ فإنّه يجوز العفو عنه قبل الرّفع للحاكم ، أمّا بعده فلا يجوز . لكن قال الحنفيّة – غير زفر ، وروايةٌ لأبى يوسف – لو أنّ المسروق منه ملّك المسروق للسّارق سقط الحدّ .

والقذف ممّا يجتمع فيه حقّ اللّه وحقّ العبد ، مع الاختلاف فى تغليب أحدهما ، وعلى الجملة ، فإنّه يجوز العفو فيه (أى الإسقاط) قبل التّرافع وبعده عند الشّافعيّة والحنابلة ، ولا يجوز بعد الرّفع عند

الحنفيّة ، غير أنّ المالكيّة قيّدوا العفو بعد التّرافع بما إذا كان المقذوف يريد السّتر على نفسه ، ويثبت ذلك بالبيّنة . ولا يشترط هذا القيد بين الابن وأبيه . وروى عن الإمام أبى يوسف أنّه يجوز العفو كذلك بعد الرّفع للإمام .

وأمّا التّعزير ، فما كان منه حقّاً للآدميّ جاز العفو عنه ، وما كان حقّاً للّه فهو موكولٌ إلى الإمام . ونقل عن الإمام مالكٍ أنّه يجب على الإمام إقامته إذا كان فى حقّ اللّه .

وعن الإمامين أبى حنيفة وأحمد أنّ ما كان من التّعزير منصوصاً عليه ، كوطء جارية امرأته فيجب امتثال الأمر فيه ، وما لم يكن منصوصاً عليه فهو موكولٌ إلى الإمام .

٤٩ – وما دامت حدود اللّه لا تقبل الإسقاط من العباد ، فبالتّالى لا يجوز الاعتياض عن إسقاطها ، فلا يصحّ أن يصالح سارقاً أو شارباً ليطلقه ولا يرفعه للسّلطان ، لأنّه لا يصحّ أخذ العوض فى مقابلته . وكذا لا يصحّ أن يصالح شاهداً على ألاّ يشهد عليه بحقٍّ للّه أو لآدميٍّ ، لأنّ الشّاهد فى إقامة الشّهادة محتسبٌ حقّاً للّه تعالى ، لقوله تعالى : { وأقيموا الشّهادة للّه } والصّلح عن حقوق اللّه عزّ وجلّ باطلٌ ويجب عليه ردّ ما أخذ ، لأنّه أخذه بغير حقٍّ .

وهناك أيضاً ما يعتبر حقّاً للّه تعالى ممّا شرع أصلاً لمصلحة العباد ، ولذلك لا يسقط بالإسقاط ، لما فى ذلك من منافاة الإسقاط لما هو مشروعٌ . ومن أمثلة ذلك :

الولاية على الصّغير :

٥٠ – من الحقوق الّتى اعتبرها الشّارع وصفاً ذاتيّاً لصاحبها ، ولاية الأب على الصّغير ، فهى لازمةٌ له ولا تنفكّ عنه ، فحقّه ثابتٌ بإثبات الشّرع ، فهى حقٌّ عليه للّه تعالى ، ولذلك لا تسقط بإسقاطه ، لأنّ ذلك يعتبر خلاف المشروع ، وهذا باتّفاقٍ . أمّا غير الأب كالوصىّ ففيه خلافٌ . فعند الحنفيّة والمالكيّة : إذا كان الوصىّ قد قبل الوصاية ، ومات الموصى ، فلا يجوز له عزل نفسه لثبوت هذا الحقّ له . ولأنّها ولايةٌ فلا تسقط بالإسقاط .

أمّا الشّافعيّة والحنابلة : فإنّه يجوز عندهم أن يسقط الوصىّ حقّه ، ولو بعد قبوله بعد موت الموصى ، لأنّه متصرّفٌ بالإذن ، فكان له عزل نفسه كالوكيل .

وينظر تفصيل أنواع الولايات ، كالقاضى وناظر الوقف ، فى مصطلح (ولايةٌ) .

السّكنى فى بيت العدّة :

٥١ – أوجب الشّارع على المعتدّة أن تعتدّ فى المنزل الّذى يضاف إليها بالسّكنى حال وقوع الفرقة أو الموت ، والبيت المضاف إليها فى قوله تعالى { لا تخرجوهنّ من بيوتهنّ } هو البيت الّذى تسكنه . ولا يجوز للزّوج ولا لغيره إخراج المعتدّة من مسكنها . وليس لها أن تخرج وإن رضى الزّوج بذلك ، لأنّ فى

العدّة حقّاً للّه تعالى ، وإخراجها أو خروجها من مسكن العدّة منافٍ للمشروع ، فلا يجوز لأحدٍ إسقاطه . وهذا فى الجملة ، لأنّ المذهب عند الحنابلة : أنّه لا يجب على المطلّقة البائنة قرارها فى مسكن العدّة ، لحديث فاطمة بنت قيسٍ الّذى فيه أنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم قال لها : « لا نفقة لک ولا سكنى » . وإنّما يستحبّ لها ذلک ، خروجاً من الخلاف . وفى ذلک تفصيلٌ كثيرٌ ر : (عدّةٌ ، سكنى) .

خيار الرّؤية :

٥٢ – بيع الشّىء قبل رؤيته يثبت خيار الرّؤية للمشترى ، فله الأخذ وله الرّدّ عند رؤيته ، لقول النّبىّ صلى الله عليه وسلم : « من اشترى شيئاً لم يره فله الخيار إذا رآه » فالخيار هنا ليس باشتراط العاقدين ، وإنّما هو ثابتٌ شرعاً فكان حقّ اللّه تعالى ، ولهذا لا يجوز إسقاطه ، ولا يسقط بالإسقاط ، وهذا متّفقٌ عليه عند من يجيزون بيع الشّىء الغائب ، مع مراعاة شرائط ثبوت الخيار .

ولو أنّ العاقدين تبايعا بشرط إسقاط خيار الرّؤية بطل الشّرط مع الخلاف فى صحّة العقد وفساده ، بناءً على حكم الشّروط الفاسدة فى البيع . وينظر التّفصيل فى : (بيعٌ ، خيارٌ) .

حقّ الرّجوع فى الهبة :

٥٣ – حقّ الرّجوع فى الهبة الّتى يجوز الرّجوع فيها – وهى فيما يهبه الوالد لولده عند الجمهور ، وفيما يهبه الإنسان إذا لم يوجد مانعٌ من موانع الرّجوع فى الهبة عند الحنفيّة – حقٌّ ثابتٌ شرعاً ، لقول النّبىّ صلى الله عليه وسلم : « لا يحلّ لرجلٍ أن يعطى عطيّةً أو يهب هبةً ، فيرجع فيها ، إلاّ الوالد بما يعطى ولده » . وهذا ما استدلّ به الجمهور . واستدلّ الحنفيّة بقول النّبىّ صلى الله عليه وسلم : « الواهب أحقّ بهبته ما لم يثب منها » أى ما لم يعوّض . قالوا : والعوض فيما وهب لذى الرّحم المحرّم هو : صلة الرّحم ، وقد حصل .

وما دام حقّ الرّجوع فى الهبة – فيما يجوز الرّجوع فيه – ثابتاً شرعاً فإنّه لا يجوز إسقاطه ، ولا يسقط بالإسقاط . وهذا ما ذهب إليه الحنفيّة والشّافعيّة والحنابلة فى قولٍ . والقول الآخر للحنابلة أنّ الرّجوع حقّه ، وهو يسقط بإسقاطه . وعند المالكيّة يجوز للأب الرّجوع فيما وهبه لولده ، إلاّ إذا أشهد عليها ، أو شرط عدم الاعتصار (أى الرّجوع) ، فلا رجوع له حينئذٍ على المشهور . وينظر تفصيل ذلک فى : (هبةٌ) .

ما لا يقبل الإسقاط من حقوق العباد :

سبق أنّ كلّ جائز التّصرّف لا يمنع من إسقاط حقّه ما لم يكن هناك مانعٌ ، وفيما يلى بيان بعض ما لا يقبل الإسقاط من الحقوق اتّفاقاً أو عند بعض الفقهاء ، إمّا لفقد شرطٍ من شروط المحلّ ، أو شرطٍ من شروط الإسقاط فى حدّ ذاته .

ما يتعلّق به حقّ الغير :

٥٤ – الإسقاط إذا كان مسّ حقّاً لغير من يباشره فإنّه لا يصحّ ، إذا كان فيه ضررٌ على الغير كحقّ الصّغير ، أو يتوقّف على إجازة من يملك الإجازة كالوارث والمرتهن ، ومن أمثلة ذلك ما يأتى :

حقّ الحضانة :

٥٥ – يرى جمهور الفقهاء – الحنفيّة والشّافعيّة والحنابلة ، وهو أيضاً قولٌ للمالكيّة خلاف المشهور عندهم – أنّ للحاضن أن يسقط حقّه بإسقاطه ، وينتقل الحقّ إلى من بعده ، ولا يجبر على الحضانة إلاّ إذا تعيّن ولم يوجد حاضنٌ غيره ، ثمّ إن عاد الحاضن فطلب الحضانة عاد الحقّ إليه . وخالف ذلك المالكيّة فى المشهور عندهم فقالوا : إنّ الحاضنة إذا أسقطت حقّها من الحضانة لغير عذرٍ ، بعد وجوبها لها ، ثمّ أرادت العود فلا تعود .

وللتّفصيل ر : (حضانةٌ) .

نسب الصّغير :

٥٦ – النّسب حقّ الصّغير ، فإذا ثبت هذا الحقّ فإنّه لا يجوز لمن لحق به إسقاط هذا الحقّ ، فمن أقرّ بابنٍ ، أو هنّئ به فسكت ، أو أمّن على الدّعاء ، أو أخّر نفيه مع إمكان النّفى فقد التحق به ، ولا يصحّ له إسقاط نسبه بعد ذلك .

ولو أنّ امرأةً طلّقها زوجها ادّعت عليه صبيّاً فى يده أنّه ابنه منها ، وجحد الرّجل فصالحت عن النّسب على شىءٍ فالصّلح باطلٌ ، لأنّ النّسب حقّ الصّبىّ لا حقّها .

عزل الوكيل :

٥٧ – الأصل أنّ الموكّل يجوز له عزل الوكيل متى شاء ، لأنّه تصرّف فى خالص حقّه ، لكن لو تعلّق بالوكالة حقٌّ للغير ، فلا يجوز له أن يعزله بغير رضى صاحب الحقّ ، لأنّ فى العزل إبطال حقّه من غير رضاه ، وذلك كالوكيل فى الخصومة لا يجوز عزله ما دامت الخصومة مستمرّةً . وكالعدل المتسلّط على بيع المرهون .

وذلك فى الجملة عند الحنفيّة والمالكيّة ، مع تفصيلٍ كثيرٍ فى شروط العزل وشروط الوكالة فى الخصومة ، وتنظر فى : (وكالةٌ ، رهنٌ) .

تصرّف المفلس :

٥٨ – المحجور عليه للفلس ، يتعلّق حقّ الغرماء بماله ، ولذلک لا يجوز له التّصرّف فی ماله تصرّفاً مستأنفاً ، کوقفٍ ، وعتقٍ ، وإبراءٍ ، وعفوٍ مجّاناً فيما لا قصاص فيه ، وذلک لتعلّق حقّ الغرماء بماله ، فهو محجورٌ عليه فيه ، أشبه الرّاهن يتصرّف فی الرّهن . ر : (حجرٌ ، فلسٌ) .

إسقاط الحقّ قبل وجوبه ، وبعد وجود سبب الوجوب :

٥٩ – يتّفق الفقهاء على عدم صحّة الإسقاط قبل وجوب الحقّ ، وقبل وجود سبب الوجوب ، لأنّ الحقّ قبل ذلک غير موجودٍ بالفعل ، فلا يتصوّر ورود الإسقاط عليه ، فإسقاط ما لم يجب ، ولا جری سبب وجوبه لا يعتبر إسقاطاً ، وإنّما مجرّد وعدٍ لا يلزم منه الإسقاط مستقبلاً ، کإسقاط الشّفعة قبل البيع ، وإسقاط الحاضنة حقّها فی الحضانة قبل وجوبها ، فکلّ هذا لا يعتبر إسقاطاً ، وإنّما هو امتناعٌ عن الحقّ فی المستقبل ، ويجوز الرّجوع فيه والعود إلى المطالبة بالحقّ .

٦٠ – أمّا إذا لم يجب الحقّ ، ولکن وجد سبب وجوبه ، ففی صحّة الإسقاط حينئذٍ اختلاف الفقهاء : فعند الحنفيّة والحنابلة ، وهو المعتمد عند المالکيّة ، ومقابل الأظهر عند الشّافعيّة : أنّه يصحّ الإسقاط بعد وجود السّبب وقبل الوجوب .

فقد جاء فی بدائع الصّنائع : الإبراء عن الحقّ بعد وجود سبب الوجوب قبل الوجوب جائزٌ ، کالإبراء عن الأجرة قبل مضیّ مدّة الإجارة . وفی فتح القدير : الإبراء عن سائر الحقوق بعد وجود سبب الوجوب جائزٌ . وفی شرح منتهی الإرادات ، ومثله فی المغنی : إن عفا مجروحٌ عمداً أو خطأً عن قود نفسه أو ديتها صحّ عفوه ، لإسقاطه حقّه بعد انعقاد سببه .

وفی فتح العلیّ المالک وردت عدّة مسائل : کإبراء الزّوجة زوجها من الصّداق فی نکاح التّفويض قبل البناء وقبل أن يفرض لها ، وإسقاط المرأة عن زوجها نفقة المستقبل ، وکعفو المجروح عمّا يئول إليه الجرح . ثمّ قال نقلاً عن ابن عبد السّلام : وبعض هذه المسائل أقوى من بعضٍ ، فهل يلزم الإسقاط فی ذلک ، لأنّ سبب الوجوب قد وجد أو لا يلزم لأنّها لم تجب ؟ قولان حکاهما ابن رشدٍ . وفی الدّسوقیّ ذکر أنّ المعتمد هو لزوم الإسقاط لجريان السّبب . والأظهر عند الشّافعيّة والقول الثّانی للمالکيّة : أنّه يصحّ إسقاط الحقّ قبل وجوبه ، وإن جری سبب وجوبه .

جاء فی نهاية المحتاج : لو أبرأ المشتری البائع عن الضّمان لم يبرأ فی الأظهر ، إذ هو إبراءٌ عمّا لم يجب ، وهو غير صحيحٍ وإن وجد سببه ، والقول الثّانی : يبرأ لوجود سبب الضّمان . واستثنی الشّافعيّة صورةً يصحّ فيها الإسقاط قبل الوجوب وهی : من حفر بئراً فی ملک غيره بلا إذنٍ ، وأبرأه المالک ، ورضی ببقائها ، فإنّه يبرأ ممّا وقع فيها .

إسقاط المجهول :

٦١ – إسقاط الحقّ المعلوم لا خلاف فيه ، والخلاف إنّما هو فى المجهول ، كالدّين ، والعيب فى المبيع ، وحصّةٍ فى تركةٍ ، وما ماثل ذلک . فهذا النّوع محلّ خلافٍ بين الفقهاء فى صحّة إسقاطه ، بناءً على اختلافهم فى الإبراء من الدّين ، هل هو تمليکٌ أو إسقاطٌ ؟

فعند الحنفيّة والمالكيّة ، وهو المشهور عند الحنابلة ، والقديم عند الشّافعىّ : أنّه يجوز الإبراء من المجهول ، « لقول النّبىّ صلى الله عليه وسلم لمن اختصما فى مواريث قد درست : استهما ، وتوخّيا الحقّ ، وليحلل كلٌّ منكما صاحبه » . ولأنّه إسقاط حقٍّ لا تسليم فيه ، فصحّ فى المجهول ، لأنّ الجهالة فيه لا تفضى إلى المنازعة . ومن ذلک عند الحنابلة : صحّة الصّلح عمّا تعذّر علمه من الدّين ، لئلاّ يفضى إلى ضياع المال .

وفى الجديد عند الشّافعىّ ، وهو روايةٌ عند الحنابلة : أنّه لا يصحّ الإبراء من المجهول ، بناءً على أنّه تمليک ما فى ذمّته ، فيشترط العلم به .

ولا فرق عند الشّافعيّة ، والحنابلة على القول بعدم الصّحّة بين مجهول الجنس والقدر والصّفة . ويستثنى الشّافعيّة من الإبراء من المجهول صورتين :

الأولى : الإبراء من إبل الدّية ، فيصحّ الإبراء منها مع الجهل بصفتها ، لاغتفارهم ذلک فى إثباتها فى ذمّة الجانى . وكذا الأرش والحكومة يصحّ الإبراء منهما مع الجهل بصفتهما . الثّانية : إذا ذكر قدراً يتحقّق أنّ حقّه أقلّ منه . وأضيف إلى هاتين الصّورتين ما لو أبرأه عمّا عليه بعد موته ، فيصحّ مع الجهالة ، لأنّه وصيّةٌ . كذلک الجهل اليسير الّذى يمكن معرفته لا يؤثّر فى الإسقاط عند الشّافعيّة ، كالإبراء من حصّته من مورّثه فى التّركة ، إن علم قدر التّركة ، وجهل قدر حصّته . وإن أجاز الوارث وصيّة مورّثه فيما زاد على الثّلث ، وقال : إنّما أجزت لأنّى ظننت المال قليلاً ، وأنّ الثّلث قليلٌ ، وقد بان أنّه كثيرٌ ، قبل قوله بيمينه ، وله الرّجوع بما زاد على ظنّه ، ما لم يكن المال ظاهراً لا يخفى على المجيز ، أو تقوم بيّنةٌ بعلمه وبقدره ، وهذا فى الجملة .

٦٢ – أمّا الإبراء من العيوب فى البيع ، فالحكم فيه عند الحنفيّة والمالكيّة كالحكم فى الدّين ، مع تفصيلٍ بين الحادث والقائم . وعند الحنابلة : الأشهر فيه عدم صحّة الإبراء .

والرّأى الثّانى : يجوز الإبراء فيه . وأمّا عند الشّافعيّة ففيه طريقان :

أحدهما أنّ المسألة على ثلاثة أقوالٍ : قولٌ بصحّة البراءة من كلّ عيبٍ ، وقولٌ بعدم صحّة البراءة والثّالث أنّه لا يبرأ إلاّ من عيبٍ واحدٍ ، وهو العيب الباطن فى الحيوان الّذى لا يعلم به البائع ، قال الشّافعىّ رحمه

الله : لأنّ الحيوان يفارق ما سواه ، وقلّما يبرأ من عيبٍ يظهر أو يخفى ، فدعت الحاجة إلى التّبرّى من العيب الباطن فيه .

هذه أمثلةٌ لما لا يقبل الإسقاط بالاتّفاق ، أو مع الاختلاف لعدم تحقّق شرطٍ من شروط المحلّ أو شروط الإسقاط فى حدّ ذاته .

٦٣ – وهناك كثيرٌ من الحقوق الّتى لا تقبل الإسقاط لأسبابٍ مختلفةٍ ، ومن العسير حصر هذه الحقوق لتشعّبها فى مسائل الفقه المختلفة . ومن أمثلة ذلك : حقّ الزّوج فى الاستمتاع . وهناك ما لا يسقط لقاعدةٍ عند الشّافعيّة وهى : أنّ صفات الحقوق لا تفرد بالإسقاط كالأجل والجودة ، بينما يجوز إسقاطهما عند الحنفيّة خروجاً عن قاعدة " التّابع تابعٌ " .

كذلك قال الحنفيّة : إنّ الشّرط إذا كان فى عقدٍ لازمٍ فإنّه يلزم ولا يقبل الإسقاط ، فلو قال ربّ السّلم : أسقطت حقّى فى التّسليم فى ذلك المكان أو البلد لم يسقط . وكمن أسقط حقّه فيما شرط له من ريع الوقف لا لأحدٍ ، لأنّ الاشتراط له صار لازماً كلزوم الوقف .

وغير ذلك كثيرٌ ، وينظر فى مواضعه .

تجزّؤ الإسقاط :

٦٤ – من المعلوم أنّ الإسقاط يرد على محلٍّ ، والمحلّ هو الأساس فى بيان حكم التّجزّؤ ، فإذا كان المحلّ يقبل الإسقاط فى بعضه دون البعض الآخر ، قيل : إنّ الإسقاط يتجزّأ .

وإن كان المحلّ لا يمكن أن يثبت بالإسقاط فى بعضه ، بل يثبت فى الكلّ ، قيل : إنّ الإسقاط لا يتجزّأ . ومن القواعد فى ذلك عند الحنفيّة ، كما ذكر ابن نجيمٍ والأتاسىّ شارح المجلّة :" ذكر بعض ما لا يتجزّأ كذكر كلّه " . فإذا طلّق نصف تطليقةٍ وقعت واحدةٌ ، أو طلّق نصف المرأة طلقت ، ومنها العفو عن القصاص : إذا عفا عن بعض القاتل كان عفواً عن كلّه ، وكذا إذا عفا بعض الأولياء سقط القصاص كلّه وانقلب نصيب الباقين مالاً .

وخرج عن القاعدة العتق عند أبى حنيفة ، فإنّه إذا أعتق بعض عبده لم يعتق كلّه . وعند الصّاحبين لا يتجزّأ ، لقول النّبىّ صلى الله عليه وسلم : « من أعتق شركاً له فى مملوكٍ فعليه عتقه كلّه » . وأدخل شارح المجلّة تحت القاعدة أيضاً : الكفالة بالنّفس ، والشّفعة ، ووصاية الأب ، والولاية . وذكر الشّافعيّة هذه القاعدة بتوضيحٍ أكثر فقالوا : ما لا يقبل التّبعيض يكون اختيار بعضه كاختيار كلّه ، وإسقاط بعضه كإسقاط كلّه . وذكروا تحت هذه القاعدة المسائل الّتى سبق إيرادها عن ابن نجيمٍ ، وهى : الطّلاق والقصاص والعتق والشّفعة . فإذا عفا الشّفيع عن بعض حقّه سقط الكلّ . واستثنى الشّافعيّة من القاعدة حدّ

القذف ، فالعفو عن بعضه لا يسقط شيئاً منه . قاله الرّافعيّ . وزاد فى نهاية المحتاج : التّعزير ، فلو عفا عن بعضه لم يسقط منه شىءٌ .

والمسائل المشهورة الّتى وردت من طلاقٍ وعتقٍ وقصاصٍ هى محلّ اتّفاقٍ بين المذاهب ، فى أنّ الطّلاق المبعّض أو المضاف إلى جزءٍ من الزّوجة ، أو العتق المضاف إلى جزءٍ من العبد ، أو عفو أحد المستحقّين عن القصاص ، كلّ هذا يسرى على الكلّ ، ولا يتبعّض المحلّ ، فتطلق المرأة ، ويعتق العبد ، ويسقط القصاص . وهذا فى الجملة فى الأصل العامّ ، إلاّ ما ورد عن أبى حنيفة فى العتق كما سبق . وللفقهاء تفصيلٌ فى فروع كلّ مسألةٍ . فمثلاً إضافة الطّلاق أو العتق إلى الظّفر والسّنّ والشّعر لا يقع به شىءٌ عند الحنابلة ، لأنّ هذه الأشياء تزول ويخرج غيرها فكانت فى حكم المنفصل . وفى الإضافة إلى الشّعر قولان عند المالكيّة ، ويقع بالإضافة إليه الطّلاق عند الشّافعيّة . والشّفعة أيضاً الأصل العامّ فيها أنّها لا تتبعّض ، حتّى لا يقع ضررٌ بتفريق الصّفقة . فالشّفيع إمّا أن يأخذ الكلّ أو يترك ، وإذا أسقط حقّه فى البعض سقط الكلّ . لكن وقع خلافٌ عند الشّافعيّة ، إذ قيل : إنّ إسقاط بعض الشّفعة لا يسقط شيئاً منها . وليس من تبعيض الشّفعة ما إذا كان البائع أو المشترى اثنين ، فإنّ الشّفيع له أن يأخذ نصيب أحدهما دون الآخر ، وإذا تعدّد الشّفعاء فالشّفعة على قدر الأنصباء . والدّين ممّا يقبل التّبعيض ، فللدّائن أخذ بعضه وإسقاط بعضه .

السّاقط لا يعود :

٦٥ – من المعلوم أنّ السّاقط ينتهى ويتلاشى ، ويصبح كالمعدوم لا سبيل إلى إعادته إلاّ بسببٍ جديدٍ يصير مثله لا عينه ، فإذا أبرأ الدّائن المدين فقد سقط الدّين ، فلا يكون هناك دينٌ ، إلاّ إذا وجد سببٌ جديدٌ ، وكالقصاص لو عفى عنه فقد سقط وسلمت نفس القاتل ، ولا تستباح إلاّ بجنايةٍ أخرى ، وهكذا . وكمن أسقط حقّه فى الشّفعة ، ثمّ رجعت الدّار إلى صاحبها بخيار رؤيةٍ ، أو بخيار شرطٍ للمشترى ، فليس له أن يأخذ بالشّفعة ، لأنّ الحقّ قد بطل ، فلا يعود إلاّ بسببٍ جديدٍ .

والإسقاط يقع على الكائن المستحقّ ، وهو الّذى إذا سقط لا يعود ، أمّا الحقّ الّذى يثبت شيئاً فشيئاً ، أى يتجدّد بتجدّد سببه فلا يرد عليه الإسقاط ، لأنّ الإسقاط يؤثّر فى الحال دون المستقبل . ومثال ذلك ما جاء فى خبايا الزّوايا : لو اشترى عبداً فأبق قبل القبض ، ورضى المشترى بترك الفسخ ، ثمّ بدا له ، يمكّن من الفسخ ، لأنّ التّسليم مستحقٌّ له فى الأوقات كلّها ، والإسقاط يؤثّر فى الحال دون ما يستحقّ من بعد .

وقال ابن عابدين : لو أسقطت الزّوجة نوبتها لضرّتها فلها الرّجوع ، لأنّها أسقطت الكائن ، وحقّها يثبت شيئاً فشيئاً ، فلا يسقط فى المستقبل ، ولا يرد أنّ السّاقط لا يعود ، لأنّ العائد غير السّاقط ، وهذه مسألةٌ

متّفقٌ عليها . وقد ذكر ابن نجيمٍ قاعدةً فى ذلک فقال : الأصل أنّ المقتضى للحكم إن كان موجوداً والحكم معدومٌ فهو من باب المانع ، وإن عدم المقتضى فهو من باب السّاقط . فهناک فرقٌ إذن بين وجود المقتضى للحكم ، ثمّ سقط الحكم لمانعٍ ، فإذا زال المانع مع وجود المقتضى عاد الحكم ، بخلاف ما إذا عدم المقتضى فلا يعود الحكم . ومن ذلک حقّ الحضانة . جاء فى منتهى الإرادات : لا حضانة لفاسقٍ ، ولا لكافرٍ على مسلمٍ ، ولا تزويج بأجنبىٍّ من محضونٍ . وبمجرّد زوال المانع من فسقٍ أو كفرٍ ، أو تزوّجٍ بأجنبىٍّ ، وبمجرّد رجوع ممتنعٍ من حضانةٍ يعود الحقّ له فى الحضانة ، لقيام سببها مع زوال المانع . هذا مع الاختلاف بين الفقهاء ، هل الحضانة حقّ الحاضن أو حقّ المحضون . وفى الدّسوقىّ : إذا انتقلت الحضانة لشخصٍ لمانعٍ ، ثمّ زال المانع فإنّها تعود للأوّل ، كما لو تزوّجت الأمّ ودخل بها الزّوج ، وأخذت الجدّة الولد ، ثمّ فارق الزّوج الأمّ ، وقد ماتت الجدّة ، أو تزوّجت ، والأمّ خاليةٌ من الموانع ، فهى أحقّ ممّن بعد الجدّة ، وهى الخالة ومن بعدها . كذا قال المصنّف (الدّردير) ، وهو ضعيفٌ . والمعتمد أنّ الجدّة إذا ماتت انتقلت الحضانة لمن بعدها كالخالة ، ولا تعود للأمّ ولو كانت متأيّمةً (لا زوج لها) .

وفى الجمل على شرح المنهج : لو أسقطت الحاضنة حقّها انتقلت لمن يليها ، فإذا رجعت عاد حقّها . ومثل ذلک عند الحنفيّة كما فى البدائع . وقال ابن نجيمٍ : وفرّعت على " وقولهم : السّاقط لا يعود " قولهم إذا حكم القاضى بردّ شهادة الشّاهد ، مع وجود الأهليّة ، لفسقٍ أو لتهمةٍ ، فإنّه لا يقبل بعد ذلک فى تلک الحادثة .

ومن المسائل الّتى ذكرها ابن نجيمٍ للتّفرقة بين ما هو مسقطٌ وما هو مانعٌ قوله : لا يعود التّرتيب بعد سقوطه بقلّة الفوائت ، بخلاف ما إذا سقط بالنّسيان فإنّه يعود بالتّذكّر ، لأنّ النّسيان كان مانعاً لا مسقطاً ، فهو من باب زوال المانع . ولا تصحّ إقالة الإقالة فى السّلم ، لأنّه دينٌ ساقطٌ فلا يعود . أمّا عود النّفقة – بعد سقوطها بالنّشوز – بالرّجوع ، فهو من باب زوال المانع ، لا من باب عود السّاقط . وتنظر الفروع فى أبوابها .

أثر الإسقاط :

٦٦ – يترتّب على الإسقاط آثارٌ تختلف باختلاف ما يرد عليه . ومن ذلک :

(١) إسقاط رجلٍ الانتقاع بالبضع بالطّلاق ، ويترتّب عليه آثارٌ متعدّدةٌ ، كالعدّة والنّفقة والسّكنى وجواز الرّجعة ، إن كان الطّلاق رجعيّاً ، وعدم جواز ذلک إن كان بائناً ، وغير ذلک من الآثار . ر : (طلاقٌ) .

(٢) الإعتاق وهو : إزالة الرّقّ عن المملوک وإثبات الحرّيّة له ، يترتّب عليه ملكه لماله وكسبه ، وإطلاق يده فى التّصرّفات ، وإثبات حقّ الولاء للمعتق ، وما شابه ذلک من الأحكام . ر : (عتقٌ) .

(٣) قد يترتّب على الإسقاط إثبات حقوقٍ تتعلّق بالمحلّ ، كإسقاط حقّ الشّفعة ، يترتّب عليه استقرار الملك للمشترى ، وإسقاط حقّ الخيار فى البيع يترتّب عليه لزوم البيع ، لأنّ الملك الثّابت بالبيع قبل الاختيار ملكٌ غير لازمٍ . وإجازة بيع الفضولىّ يترتّب عليها لزوم البيع الموقوف وينظر تفصيل ذلك فى : (بيعٌ – خيارٌ – شفعةٌ – فضولىٌّ) .

(٤) ومن الآثار ما يرد تحت قاعدة : الفرع يسقط بسقوط الأصل ، كما إذا أبرئ المضمون أو المكفول عن الدّين برّئ الضّامن والكفيل ، لأنّ الضّامن والكفيل فرعٌ ، فإذا سقط الأصل سقط الفرع ولا عكس ، فلو أبرئ الضّامن لم يبرأ الأصيل ، لأنّه إسقاط وثيقةٍ فلا يسقط بها الدّين . ر : (كفالةٌ – ضمانٌ) .

(٥) وقد يترتّب على الإسقاط الحصول على حقٍّ كان صاحبه ممنوعاً منه ، لتعلّق حقّ الغير ، وذلك مثل صحّة تصرّف الرّاهن فى المرهون ، بنحو وقفٍ أو هبةٍ ، إذا أذن المرتهن ، لأنّ منعه كان لتعلّق حقّ المرتهن به ، وقد أسقطه بإذنه .

(٦) الغريم إذا وجد عين ماله عند المفلس كان له حقّ الرّجوع فيه بشروطٍ منها : ألاّ يتعلّق بالعين حقٌّ للغير كشفعةٍ ورهنٍ . فإذا أسقط أصحاب الحقوق حقوقهم ، بأن أسقط الشّفيع شفعته ، أو أسقط المرتهن حقّه فى الرّهن فلربّ العين أخذها .

(٧) إذا أجّل البائع الثّمن بعد العقد سقط حقّ الحبس على ما جاء فى البدائع ، لأنّه أخّر حقّ نفسه فى قبض الثّمن ، فلا يتأخّر حقّ المشترى فى قبض المبيع ، وكذا لو أبرأ البائع المشترى من الثّمن بطل حقّ الحبس .

(٨) لو أجّلت الزّوجة المهر لوقتٍ معلومٍ ، فليس لها أن تمنع نفسها ، لأنّ المرأة بالتّأجيل رضيت بإسقاط حقّ نفسها ، فلا يسقط حقّ الزّوج . وهذا فى قول أبى حنيفة ومحمّدٍ ، وقال أبو يوسف : لها أن تمنع نفسها ، لأنّ من حكم المهر أن يتقدّم تسليمه على تسليم النّفس ، فلمّا قبل الزّوج التّأجيل كان ذلك رضاً بتأخير حقّ نفسها فى القبض ، بخلاف البائع .

ومن ذلك أيضاً الوصيّة فيما زاد على الثّلث بإجازة الورثة . وينظر تفصيل كلّ ذلك فى : (إفلاسٌ – بيعٌ – حبسٌ – رهنٌ) .

(٩) إسقاط الشّارع العبادات بسبب الأعذار قد يسقط الطّلب بها بعد ذلك ، فلا يطالب بالقضاء ، كالصّوم بالنّسبة للشّيخ الكبير الّذى لا يقدر عليه . وقد يطالب بالقضاء ، كالصّوم بالنّسبة للحائض والمسافر .

(١٠) الإبراء من الدّين أو من الحقّ يترتّب عليه براءة ذمّة المبرأ متى استوفى الإبراء شروطه . وسواءٌ أكان عن حقٍّ خاصٍّ أم حقٍّ عامٍّ ، بحسب ما يرد فى صيغة المبرّئ . ويترتّب كذلك سقوط حقّ المطالبة

، فلا تسمع الدّعوى فيما تناوله الإبراء إلى حين وقوعه ، دون ما يحدث بعده . ولا تقبل الدّعوى بعد ذلک بحجّة الجهل أو النّسيان .

إلاّ أنّ المالكيّة قيّدوا ذلک بما إذا لم يكن الإبراء مع الصّلح . فإذا كان الإبراء مع الصّلح ، أو وقع بعد الصّلح إبراءٌ عامٌّ ، ثمّ ظهر خلافه فله نقضه ، لأنّه إبراءٌ على دوام صفة الصّلح لا إبراءٌ مطلقٌ ، إلاّ إذا التزم فى الصّلح عدم القيام عليه ولو ببيّنةٍ فلا تسمع الدّعوى .

هذا ، مع استثناء الحنفيّة من الإبراء بعض المسائل ، كضمان الدّرک (استحقاق المبيع) ، وكدعوى الوكالة والوصاية ، وكادّعاء الوارث ديناً للميّت على رجلٍ ، وفى ذلک تفصيلٌ كثيرٌ ينظر فى (إبراءٌ – دعوى) .

(١١) الإبراء العامّ يمنع الدّعوى بالحقّ قضاءً لا ديانةً ، إن كان بحيث لو علم بماله من الحقّ لم يبرّئه ، كما فى الفتاوى الولوالجية . لكن فى خزانة الفتاوى : الفتوى على أنّه يبرأ قضاءً وديانةً وإن لم يعلم به .

وعند الشّافعيّة : لو أبرأه فى الدّنيا دون الآخرة برئ فيهما ، لأنّ أحكام الآخرة مبنيّةٌ على أحكام الدّنيا ، وهو أحد قولين عند المالكيّة ، ذكرهما القرطبىّ فى شرح مسلمٍ .

بطلان الإسقاط :

٦٧ – للإسقاط أركانٌ ، ولكلّ ركنٍ شروطه الخاصّة ، فإذا لم يتحقّق شرطٌ من الشّروط الّتى سبق بيانها بطل الإسقاط ، أى بطل حكمه ، فلا ينفذ . ومن أمثلة ذلک : أنّه يشترط فى المسقط أن يكون بالغاً عاقلاً ، فإذا كان المتصرّف بالإسقاط صبيّاً أو مجنوناً فلا يصحّ الإسقاط ولا ينفذ . ولو كان التّصرّف بالإسقاط منافياً للمشروع ، فإنّه يكون تصرّفاً باطلاً ولا يسقط بالإسقاط ، كإسقاط الولاية ، أو إسقاط حدٍّ من حدود اللّه . وكذلک الإسقاط لا يرد على الأعيان ، ويعتبر إسقاطها باطلاً . ولذلک خرّجه الفقهاء على إسقاط الضّمان .

وقد يقع الإسقاط صحيحاً ، لكن يبطل إذا ردّه المسقط عنه ، عند من يقول أنّه يرتدّ بالرّدّ كالحنفيّة . فى قاعدةٍ ذكرها الحنفيّة هى : أنّه إذا بطل الشّىء بطل ما فى ضمنه ، قلو أبرأه ضمن عقدٍ فاسدٍ فسد الإبراء . وأغلب هذه المسائل وردت فيما سبق فى البحث .

إسكارٌ ❊

التعريف :

١ – الإسكار لغةً : مصدر أسكره الشّراب . وسكر سكراً ، من باب تعب ، والسّكر اسمٌ منه ، أى أزال عقله . والإسكار فى اصطلاح الفقهاء : تغطية العقل بما فيه شدّةٌ مطربةٌ كالخمر . ويرى جمهور الفقهاء أنّ

ضابط الإسكار هو أن يختلط كلامه ، فيصير غالب كلامه الهذيان ، حتّى لا يميّز بين ثوبه وثوب غيره عند اختلاطهما ، ولا بين نعله ونعل غيره ، وذلک بالنّظر لغالب النّاس . وقال أبو حنيفة : السّكران الّذى لا يعرف السّماء من الأرض ، ولا الرّجل من المرأة . ر : (أشربةٌ) .

الألفاظ ذات الصّلة :

أ – الإغماء :

٢ – الإغماء آفةٌ تعطّل القوى المدركة عن أفعالها مع بقاء العقل مغلوباً .

ب – التّخدير :

٣ – التّخدير تغشية العقل من غير شدّةٍ مطربةٍ .

ج– التّفتير :

٤ – المفتّر ما من شأنه أن يضعف الأعضاء ويليّن الجسم بشدّةٍ ويسكّن حدّته .

الحكم الإجماليّ :

٥ – تعاطى ما يحدث الإسكار محرّمٌ موجبٌ للحدّ ، حيث لا توجد شبهةٌ مسقطةٌ له . أمّا عند أبى حنيفة فالخمر محرّمةٌ بالنّصّ ، ويحدّ شارب القليل والكثير منها . وأمّا غير الخمر فلا يحرم ، ولا يحدّ شاربه إلاّ بالقدر الّذى أسكر فعلاً . وتفصيل ذلک فى (أشربةٌ) .

كما أنّ للسّكر أثراً فى التّصرّفات القوليّة الفعليّة ، كالطّلاق والبيوع والرّدّة والخطابات وغيرهما . وينظر فى الملحق الأصوليّ ، باعتباره من عوارض الأهليّة ، وفى الحدود .

مواطن البحث :

٦ – يبحث موضوع الإسكار فى حدّ الشّرب ، عند الكلام عن ضابط الإسكار ، وفى أوصاف الخمريّة ، وفى علّة حدّ شارب الخمر ، وفى السّرقة عند أثر الإسكار فى الإحراز .

إسكانٌ ❊

انظر : سكنى .

إسلامٌ ❊

التعريف :

١ – من معانى الإسلام فى اللّغة : الإذعان والانقياد ، والدّخول فى السّلم ، أو فى دين الإسلام . والإسلام يكون أيضاً بمعنى : الإسلاف ، أى عقد السّلم ، يقال : أسلمت إلى فلانٍ فى عشرين صاعاً مثلاً ، أى اشتريتها منه مؤجّلةً بثمنٍ حالٍّ .

أمّا فى الشّرع فيختلف معناه تبعاً لوروده منفرداً ، أو مقترناً بالإيمان .

فمعناه منفرداً : الدّخول فى دين الإسلام ، أو دين الإسلام نفسه . والدّخول فى الدّين هو استسلام العبد للّه عزّ وجلّ باتّباع ما جاء به الرّسول صلى الله عليه وسلم من الشّهادة باللّسان ، والتّصديق بالقلب ، والعمل بالجوارح .

ومعناه إذا ورد مقترناً بالإيمان هو : أعمال الجوارح الظّاهرة ، من القول والعمل كالشّهادتين والصّلاة وسائر أركان الإسلام . وإذا انفرد الإيمان يكون حينئذٍ بمعنى : الاعتقاد بالقلب والتّصديق باللّه تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه مع الانقياد .

الألفاظ ذات الصّلة :

أ – الإيمان :

٢ – سبق تعريف الإسلام منفرداً ومقترناً بالإيمان . وهذا يتأتّى فى تعريف الإيمان أيضاً . فالإيمان منفرداً : هو تصديق القلب بما جاء به الرّسول صلى الله عليه وسلم والإقرار باللّسان والعمل به . أمّا إذا اقترن بالإسلام فإنّ معناه يقتصر على تصديق القلب ، كما جاء فى حديث سؤال جبريل ونصّه : عن عمر بن الخطّاب رضى الله عنه قال : « بينما نحن جلوسٌ عند رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ذات يومٍ ، إذ طلع علينا رجلٌ شديد بياض الثّياب ، شديد سواد الشّعر ، لا يرى عليه أثر السّفر ، ولا يعرفه منّا أحدٌ ، حتّى جلس إلى النّبىّ صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفّيه على فخذيه ، وقال : يا محمّد أخبرنى عن الإسلام ، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : الإسلام : أن تشهد أن لا إله إلاّ اللّه ، وأنّ محمّداً رسول اللّه ، وتقيم الصّلاة ، وتؤتى الزّكاة ، وتصوم رمضان ، وتحجّ البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقت . قال : فعجبنا له يسأله ويصدّقه ، قال : فأخبرنى عن الإيمان ، قال : أن تؤمن باللّه ، وملائكته وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه ، قال : صدقت » . الحديث .

إطلاق الإسلام على ملل الأنبياء السّابقين وأتباعهم :

٣ – اختلف علماء الإسلام فى ذلك ، فبعضهم يرى أنّ الإسلام يطلق على الملل السّابقة . واحتجّ بقوله تعالى : { شرع لكم من الدّين ما وصّى به نوحاً والّذى أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدّين ولا تتفرّقوا فيه } الآية ، وآياتٍ أخرى .

ويرى آخرون : أنّه لم توصف به الأمم السّابقة ، وإنّما وصف به الأنبياء فقط ، وشرّفت هذه الأمّة بأن وصفت بما وصف به الأنبياء ، تشريفاً لها وتكريماً .

ووجه اختصاص الأمّة المحمّديّة بهذا الاسم " الإسلام " هو : أنّ الإسلام اسمٌ للشّريعة المشتملة على العبادات المختصّة بهذه الأمّة ، من الصّلوات الخمس ، وصوم رمضان ، والغسل من الجنابة ، والجهاد ، ونحوها . وذلك كلّه مع كثيرٍ غيره خاصٍّ بهذه الأمّة ، ولم يكتب على غيرها من الأمم ، وإنّما كتب على الأنبياء فقط . ويؤكّد هذا المعنى – وهو اختصاص الأمّة المحمّديّة باسم الإسلام – قوله تعالى : { ملّة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين } . فالضّمير (هو) يرجع لإبراهيم عليه السلام ، كما يراه علماء السّلف لسابقيّة قوله فى الآية الأخرى : { ربّنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذرّيّتنا أمّةً مسلمةً لك } . فدعا بذلك لنفسه ولولده ، ثمّ دعا لأمّةٍ من ذرّيّته ، وهى هذه الأمّة فقال : { ربّنا وابعث فيهم رسولاً منهم } الآية ، وهو سيّدنا محمّدٌ صلى الله عليه وسلم فاستجاب اللّه دعاءه ، فبعث محمّداً إليهم ، وسمّاهم مسلمين . فاتّفق أئمّة السّلف على أنّ اللّه تعالى لم يذكر أمّةً بالإسلام غير هذه الأمّة ، ولم يسمع بأمّةٍ ذكرت به غيرها .

٤ – وقال الإمام ابن تيميّة : وقد تنازع النّاس فيمن تقدّم من أمّة موسى وعيسى هل هم مسلمون أم لا ؟ فالإسلام الحاضر الّذى بعث اللّه به محمّداً صلى الله عليه وسلم المتضمّن لشريعة القرآن ، ليس عليه إلاّ أمّة محمّدٍ صلى الله عليه وسلم والإسلام اليوم عند الإطلاق يتناول هذا .

وأمّا الإسلام العامّ المتناول لكلّ شريعةٍ بعث اللّه بها نبيّاً ، فإنّه إسلام كلّ أمّةٍ متّبعةٍ لنبىٍّ من الأنبياء .

وعلى هذا الأساس يمكن أن تفهم كلّ الآيات الكريمة الّتى تعرّض فيها القرآن الكريم لهذه الكلمة مستعملةً بالنّسبة للأمم الأخرى ، إمّا على أنّها تشير إلى المعنى اللّغوىّ لمادّة أسلم ، أو أنّها تشير إلى المعنى المشترك بين الشّرائع السّماويّة كلّها الّذى بعث اللّه به جميع الرّسل ، وإليه الإشارة فى كثيرٍ من الآيات ، ومنها قوله تعالى : { ولقد بعثنا فى كلّ أمّةٍ رسولاً أن اعبدوا اللّه واجتنبوا الطّاغوت } .

أثر الدّخول فى الإسلام فى التّصرّفات السّابقة :

٥ – الأصل أنّ تصرّفات غير المسلمين مع المسلمين وغيرهم صحيحةٌ إلاّ ما جاء الإسلام بإبطاله ، كما يعلم فى أبواب الفقه المختلفة .

وإذا كان من دخل فى الإسلام متزوّجاً بأكثر من أربعٍ ، أو بمن يحرم الجمع بينهنّ ، كأختين ، فإنّه يجب عليه أن يفارق ما زاد على أربعٍ ، أو إحدى الأختين . واستدلّ له القرافىّ « بقول النّبىّ عليه الصلاة والسلام لغيلان لمّا أسلم على عشر نسوةٍ : أمسك أربعاً وفارق سائرهنّ » . وهل يلزمه فراق من عدا

الأربع الّتى تزوّجهنّ أوّلاً ، أو من شاء ؟ فى ذلك خلافٌ يرجع إليه فى بابه . وكذلك فى مسألة فراق أىّ الأختين شاء .

وإذا أسلم الزّوجان الكافران معاً ، قبل الدّخول أو بعده ، فهما على نكاحهما ، ولا خلاف فى ذلك بين أهل العلم . إذا أسلم زوج الكتابيّة قبل الدّخول أو بعده ، أو أسلما معاً ، فالنّكاح باقٍ بحاله ، سواءٌ أكان زوجها كتابيّاً أو غير كتابىٍّ ، لأنّ للمسلم أن يبتدئ نكاح كتابيّةٍ ، فاستدامته أولى ، ولا خلاف فى هذا بين القائلين بإجازة نكاح الكتابيّة .

وأمّا إن أسلمت الكتابيّة قبله وقبل الدّخول ، تعجّلت الفرقة ، سواءٌ أكان زوجها كتابيّاً أو غير كتابىٍّ ، إذ لا يجوز لكافرٍ نكاح مسلمةٍ . قال ابن المنذر : أجمع على هذا كلّ من نحفظ عنه من أهل العلم ، والصّحيح أنّ فى المسألة خلاف أبى حنيفة ، إذا كان فى دار الإسلام ، فإنّه لا فرقة إلاّ بعد أن يعرض عليه الإسلام فيأبى . وإن كان إسلامهما بعد الدّخول فالحكم فيه كالحكم فيما لو أسلم أحد الزّوجين الوثنيّين على ما يأتى :

٦ – وإذا أسلم أحد الزّوجين الوثنيّين ، أو المجوسيّين ، أو كتابىٌّ متزوّجٌ بوثنيّةٍ ، أو مجوسيّةٌ قبل الدّخول ، تعجّلت الفرقة بينهما من حين إسلامه ، ويكون ذلك فسخاً لا طلاقاً . وهذا مذهب أحمد والشّافعىّ .

وقال الحنفيّة : لا تتعجّل الفرقة ، بل إن كانا فى دار الإسلام عرض الإسلام على الآخر ، فإن أبى وقعت الفرقة حينئذٍ ، وإن أسلم استمرّت الزّوجيّة ، وإن كانا فى دار الحرب وقف ذلك على انقضاء ثلاث حيضٍ ، أو مضىّ ثلاثة أشهرٍ ، وليست عدّةً ، فإن لم يسلم الآخر وقعت الفرقة . وقال مالكٌ : إن كانت هى المسلمة عرض عليه الإسلام ، أسلم وإلاّ وقعت الفرقة ، وإن كان هو المسلم تعجّلت الفرقة .

أمّا إن كان إسلام أحد الزّوجين الوثنيّين أو المجوسيّين أو زوجة الكتابىّ ، بعد الدّخول ، ففى المسألة ثلاثة اتّجاهاتٍ :

الأوّل : يقف الأمر على انقضاء العدّة ، فإن أسلم الآخر قبل انقضائها فهما على النّكاح ، وإن أسلم حتّى انقضت العدّة وقعت الفرقة منذ اختلف الدّينان ، فلا يحتاج إلى استئناف العدّة . وهذا قول الشّافعىّ ، وروايةٌ عن أحمد .

الثّانى . تتعجّل الفرقة . وهذا روايةٌ عن أحمد وقول الحسن وطاووسٍ .

الثّالث : يعرض الإسلام على الآخر إن كان فى دار الإسلام ، وهو قول أبى حنيفة ، كقوله فى إسلام أحدهما قبل الدّخول ، إلاّ أنّ المرأة إذا كانت فى دار الحرب ، فانقضت مدّة التّربّص ، وهى ثلاثة أشهرٍ أو ثلاثة حيضٍ ، وقعت الفرقة ، ولا عدّة عليها بعد ذلك ، لأنّه لا عدّة على الحربيّة . وإن كانت هى المسلمة ، فخرجت إلينا مهاجرةً ، فتمّت الحيض هنا ، فكذلك عند أبى حنيفة . وقال الصّاحبان : عليها العدّة .

ما يلزم الكافر إذا أسلم من التّكاليف السّابقة على الإسلام :

٧ – قال القرافيّ : إنّ أحوال الكافر مختلفةٌ إذا أسلم ، فيلزمه ثمن البياعات ، وأجر الإجارات ، ودفع الدّيون الّتى اقترضها ونحو ذلک ، ولا يلزمه من حقوق الآدميّين القصاص ، ولا الغصب والنّهب إن كان حربيّاً . وأمّا الذّمّيّ فيلزمه جميع المظالم وردّها ، لأنّه عقد الذّمّة وهو راضٍ بمقتضى عقد الذّمّة . وأمّا الحربيّ فلم يرض بشيءٍ ، فلذلک أسقطنا عنه الغصوب والنّهوب والغارات ونحوها .

وأمّا حقوق اللّه تعالى ممّا تقدّم فى كفره ، فلا تلزمه وإن كان ذمّيّاً لا ظهارٌ ولا نذرٌ ولا يمينٌ من الأيمان ، ولا قضاء الصّلوات ، ولا الزّكوات ، ولا شيءٍ فرّط فيه من حقوق اللّه تعالى ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « الإسلام يجبّ ما كان قبله » وضابط الفرق : أنّ حقوق العباد قسمان : منها ما رضى به حالة كفره ، واطمأنّت نفسه بدفعه لمستحقّه ، هذا لا يسقط بالإسلام ، لأنّ إلزامه إيّاه ليس منفّراً له عن الإسلام لرضاه . وما لم يرض بدفعه لمستحقّه ، كالقتل والغصب ونحو ، فإنّ هذه الأمور إنّما دخل عليها معتمداً على أنّه لا يوفّيها أهلها ، فهذا كلّه يسقط ، لأنّ فى إلزامه ما لم يعتقد لزومه تنفيراً له عن الإسلام ، فقدّمت مصلحة الإسلام على مصلحة ذوى الحقوق .

وأمّا حقوق اللّه تعالى فتسقط مطلقاً رضى بها أم لا . والفرق بينها وبين حقوق الآدميّين من وجهين :

أحدهما : أنّ الإسلام حقٌّ للّه تعالى ، والعبادات حقٌّ للّه تعالى ، فلمّا كان الحقّان لجهةٍ واحدةٍ ناسب أن يقدّم أحدهما على الآخر ، ويسقط أحدهما الآخر ، لحصول الحقّ الثّانى لجهة الحقّ السّاقط . وأمّا حقّ الآدميّين فلجهة الآدميّين ، والإسلام ليس حقّاً لهم ، بل لجهة اللّه تعالى ، فناسب ألاّ يسقط حقّهم بتحصيل حقّ غيرهم .

وثانيهما : أنّ اللّه تعالى كريمٌ جوادٌ ، تناسب رحمته المسامحة ، والعبد بخيلٌ ضعيفٌ ، فناسب ذلک التّمسّک بحقّه ، فسقطت حقوق اللّه تعالى مطلقاً ، وإن رضى بها ، كالنّذور والأيمان ، أو لم يرض بها كالصّلوات . ولا يسقط من حقوق العباد إلاّ ما تقدّم الرّضى به ، فهذا هو الفرق بين القاعدتين .

الآثار اللاّحقة لدخول الإسلام :

٨ – إذا أسلم الكافر أصبح كغيره من المسلمين ، له ما لهم من الحقوق ، وعليه ما عليهم من الواجبات . فتلزمه التّكاليف الشّرعيّة ، كالعبادات والجهاد . إلخ . وتجرى عليه أحكام الإسلام ، كإباحة تولّى الولايات العامّة كالإمامة ، والقضاء ، والولايات الخاصّة الواقعة على المسلمين ... إلخ .

الأثر المترتّب على الإسلام فيما يتعلّق بالتّكاليف الشّرعيّة كالعبادات والجهاد وغيرها :

٩ – الكافر فى حال كفره هل هو مخاطبٌ بفروع الشّريعة ومكلّفٌ بها أم لا ؟ قال النّووىّ : المختار أنّ الكفّار مخاطبون بفروع الشّريعة المأمور بها ، والمنهىّ عنها ، ليزداد عذابهم فى الآخرة . ويستوفى المسألة علماء الأصول فى مباحث التّكليف ، فليرجع إليها .

فإذا أسلم الكافر فإنّه يعصم بذلك نفسه وماله وأولاده الصّغار ، كما فى الحديث المعروف : « أمرت أن أقاتل النّاس حتّى يقولوا : لا إله إلاّ اللّه ، فمن قالها فقد عصم منّى ماله ونفسه إلاّ بحقّه ، وحسابه على اللّه » وفى روايةٍ أخرى : « فإذا فعلوا ذلك حرمت علينا دماؤهم وأموالهم ، إلاّ بحقّها ، لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين » فتثبت هذه العصمة للنّفس مباشرةً ، وللمال تبعاً لعصمة النّفس ، وتجرى عليه أحكام الشّريعة الجارية على المسلمين تلك الّتى كانت ممنوعةً عنه بالكفر .

ويحصل التّوارث بينه وبين أقاربه المسلمين ، فيرثهم إن ماتوا ، ويرثونه كذلك . لقول النّبىّ صلى الله عليه وسلم : « لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم » ولانعقاد الإجماع على ذلك . كما أنّه يحرم من إرث أقاربه الكفّار ، ويحلّ له تزوّج المسلمة ، كما يحرم عليه تزوّج المشركة من غير أهل الكتاب ، أى الوثنيّة .

وتبطل – فى حقّ من أسلم – ماليّة الخمر والخنزير بعدما كان له ذلك ، وتلزمه جميع التّكاليف الشّرعيّة وفى مقدّمتها أركان الإسلام : الصّلاة والزّكاة والصّوم والحجّ ، أصولاً وفروعاً ، بالنّسبة لجميع التّكاليف . وكذلك يفرض عليه الجهاد ، بعدما كان غير مطالبٍ به ، لحديث : « من مات ولم يغز ، ولم يحدّث به نفسه ، مات على شعبةٍ من نفاقٍ » وتحلّ الصّلاة خلفه ، والصّلاة عليه إذا مات ، وغسله وكفنه ودفنه فى مقابر المسلمين ، إلى غير هذا من أحكامٍ تعرّضت لها كتب الفقه فى كلّ المذاهب .

١٠ – إذا باع ذمّىٌّ لآخر خمراً وخنزيراً ، ثمّ أسلما ، أو أسلم أحدهما قبل القبض ، يفسخ البيع ، لأنّه بالإسلام حرم البيع والشّراء ، فيحرم القبض والتّسليم أيضاً ، أخذاً من قوله تعالى : { يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا اللّه وذروا ما بقى من الرّبا إن كنتم مؤمنين } .

وقال ابن رشدٍ : لو أسلموا لأحرزوا بإسلامهم ما بأيديهم من الرّبا وثمن الخمر والخنزير ، لقول اللّه تعالى : { فمن جاءه موعظةٌ من ربّه فانتهى فله ما سلف } .

كما يجب على الّذى أسلم أن يهجر بلد الكفر وبلد الحرب . قال ابن رشدٍ : لقد وجب بالكتاب والسّنّة والإجماع على من أسلم ببلد الكفر أن يهجره ، ويلحق بدار المسلمين ، ولا يسكن بين المشركين ، ويقيم بين أظهرهم ، وذلك إذا كان لا يتمكّن من إقامة شعائر دينه ، أو يجبر على أحكام الكفر . وانظر تفصيل ذلك فى مصطلح (هجرةٌ) .

ما يشترط لصحّته الإسلام :

١١ – ممّا يشترط الإسلام لصحّته من التّصرّفات :

(١) العقد على المرأة المسلمة .

(٢) ولاية عقد نكاحها .

(٣) الشّهادة على عقد نكاحها .

(٤) شركة المفاوضة ، وهى أن يتساوى الشّركاء فى المال والدّين والتّصرّف . وأجازها أبو يوسف بين المسلم والذّمّىّ .

(٥) الوصيّة بمصحفٍ أو ما بمعناه ، فلا بدّ من كون الموصى له مسلماً .

(٦) النّذر ، فيشترط إسلام النّاذر ، لأنّ النّذر لا بدّ أن يكون قربةً ، وفعل الكافر لا يوصف بكونه قربةً . وهذا مذهب الحنفيّة والمالكيّة وظاهر مذهب الشّافعيّة . ويصحّ عند الحنابلة . قال صاحب كشّاف القناع : ويصحّ النّذر من كافرٍ ولو بعبادةٍ ، لحديث عمر رضى الله عنه قال : « قلت يا رسول اللّه : إنّى كنت نذرت فى الجاهليّة أن أعتكف ليلةً ، فقال النّبىّ صلى الله عليه وسلم : أوف بنذرك » .

(٧) القضاء بين المسلمين .

(٨) الولايات العامّة كلّها ، وهى الخلافة ، وما تفرّع منها ، من الولاية وإمارة الجيوش ، والوزارة والشّرطة ، والدّواوين الماليّة ، والحسبة ، وذلك لقوله تعالى : { ولن يجعل اللّه للكافرين على المؤمنين سبيلاً } .

(٩) الشّهادة على المسلمين فى غير حال ضرورة الوصيّة فى السّفر ، لقوله تعالى : { واستشهدوا شهيدين من رجالكم } أى من رجال المسلمين . وقال الإمام ابن قيّم الجوزيّة الحنبلىّ : أجاز اللّه سبحانه شهادة الكفّار على المسلمين فى السّفر فى الوصيّة للحاجة بقوله تعالى : { أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم فى الأرض } . ثمّ قال : وقول الإمام أحمد فى قبول شهادته فى هذا الموضع ضرورةٌ حضراً وسفراً ، ولو قيل تقبل شهادتهم مع أيمانهم فى كلّ شىءٍ عدم فيه المسلمون لكان له وجهٌ ، ويكون بدلاً مطلقاً .

ب – الدّين ، أو الملّة :

١٢ – من معانى الدّين لغةً : العادة والسّيرة والحساب والطّاعة والملّة . وقد وردت هذه الكلمة فى القرآن الكريم بمعانٍ متعدّدةٍ .

التّوحيد : كما فى قوله تعالى : { إنّ الدّين عند اللّه الإسلام } .

الحساب : كقوله تعالى : { الّذين يكذّبون بيوم الدّين } .

الحكم : كقوله تعالى : { كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك } .

الملّة : كقوله تعالى : { هو الّذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ } .

وكقوله تعالى : { وذلك دين القيّمة } يعنى الملّة المستقيمة .

واصطلاحاً : يطلق الدّين على الشّرع ، كما يطلق على ملّة كلّ نبيٍّ . وقد يخصّ بملّة الإسلام ، كما قال تعالى : { إنّ الدّين عند اللّه الإسلام } .

١٣ – وعلى ضوء هذه المعانى اللّغويّة ، وعلى ضوء التّوجيه القرآنىّ الّذى سلك فى استعمال هذه الكلمة بالمعانى الّتى ذكرناها ، أو بغيرها الّتى اشتمل عليها القرآن ، لا نكاد نلمس قرقاً جوهريّاً بين مسمّى الإسلام ومسمّى الدّين ، ما عدا العموم والخصوص .

ما يُخْرِج المرء عن الإسلام :

١٤ – كلّ ما يصير الكافر بالإقرار به مسلماً يكفر المسلم بإنكاره . وكذا كلّ ما يقطع الإسلام من نيّة كفرٍ ، أو قول كفرٍ ، أو فعل كفرٍ ، سواءٌ استهزاءً أم اعتقاداً أم عناداً . وقال القاضى أبو بكر بن العربىّ : كلّ من فعل فعلاً من خصائص الكفّار على أنّه دينٌ ، أو ترك فعلاً من أفعال المسلمين يدلّ على إخراجه من الدّين ، فهو كافرٌ بهذين الاعتقادين لا بالفعلين .

وفى الدّرّ المختار : لا يخرج الرّجل من الإيمان إلاّ جحود ما أدخله فيه ، ثمّ ما تيقّن أنّه ردّةٌ يحكم بها ، وما يشكّ أنّه ردّةٌ لا يحكم به ، إذ الإسلام الثّابت لا يزول بالشّكّ ، مع أنّ الإسلام يعلو ولا يعلى عليه . وفى الخلاصة وغيرها ، إذا كان فى المسألة وجوهٌ توجب التّكفير ووجهٌ واحدٌ يمانعه فعلى المفتى أن يميل إلى الوجه الّذى يمنع التّكفير تحسيناً للظّنّ بالمسلم ، إلاّ إذا صرّح بإرادة موجب الكفر فلا ينفع التّأويل . وللتّفصّل يرجع إلى مصطلح (ردّةٌ) .

ما يصير به الكافر مسلماً :

١٥ – ذكر الفقهاء أنّ هناك طرقاً ثلاثةً يحكم بها على كون الشّخص مسلماً وهى :

النّصّ – والتّبعيّة – والدّلالة .

أمّا النّصّ فهو أن يأتى بالشّهادتين صريحاً .

وأمّا التّبعيّة فهى أن يأخذ التّابع حكم المتبوع فى الإسلام ، كما يتّبع ابن الكافر الصّغير أباه إذا أسلم مثلاً ، وسيأتى الكلام عليها مستوفًى .

وأمّا طريق الدّلالة فهى سلوك طريق الفعل للدّخول فى الإسلام .

أوّلاً : الإسلام النّصّ :

وهو النّطق بالشّهادتين وما يقوم مقام النّطق ، والبرء من كلّ دينٍ غير دين الإسلام .

١٦ – يكفى كلّ الكفاية التّصريح بالشّهادة بوحدانيّة اللّه تعالى وتقديسه ، مدعّماً بالتّصديق الباطنىّ والاعتقاد القلبىّ الجازم بالرّبوبيّة والإقرار بالعبوديّة له تعالى ، والتّصريح كذلك بكلمة الشّهادة برسالة

محمّدٍ صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من عند اللّه من أصول العقائد وشرائع الإسلام ، من صلاةٍ وزكاةٍ وصيامٍ وحجٍّ ، فليس هناك عنوانٌ فى قوّته ودلالته على التّحقّق من هذه العقيدة الكاملة أصرح من النّطق بصيغتى الشّهادتين : " أشهد أن لا إله إلاّ اللّه وأشهد أنّ محمّداً رسول اللّه ".

فالكافر الّذى أنار اللّه بصيرته وأشرقت على قلبه أنوار اليقين ، ويريد أن يعتنق الإسلام فلا بدّ له من التّلفّظ بالشّهادتين عند التّمكّن والقدرة على ذلك ، بخلاف غير القادر كالأخرس ، ومن غير المتمكّن كالخائف والشّرق ومن عاجلته المنيّة ، وكلّ من قام به عذرٌ يمنعه النّطق ، فنصدّق عذره إن تمسّك به بعد زوال المانع . ولا لزوم لأن تكون صيغتهما بالعربيّة حتّى بالنّسبة لمن يحسنها . وأمّا من يرى اختصاص رسالة محمّدٍ صلى الله عليه وسلم بالعرب ، فلا بدّ أن يقرّ بعموم رسالته . وأمّا المسلم أصالةً ، أى من كان من أبناء المسلمين ، فهو مسلمٌ تبعاً لوالديه ، ومحمولٌ على ذلك ، ولو لم ينطق بالشّهادتين طوال عمره . وأوجبها عليه بعضهم ولو مرّةً فى العمر .

١٧ – وقد ذهب جمهور المحقّقين إلى أنّ التّصديق بالقلب كافٍ فى صحّة مطلق الإيمان بينه وبين اللّه . وأمّا الإقرار بالشّهادتين فإنّه شرطٌ لإجراء الأحكام الدّنيويّة عليه فقط ، ولا يحكم عليه بكفرٍ إلاّ إن اقترن به فعلٌ يدلّ على كفره كالسّجود للصّنم .

إذن فحكم الإسلام فى الظّاهر يثبت بالشّهادتين ، أو ما يؤدّى معناهما لتقام عليه أحكام الشّريعة فيما له وما عليه كما سيأتى . وقد جاء فى الحديث الشّريف عن الشّريد بن سويدٍ الثّقفىّ قال : « قلت يا رسول اللّه : إنّ أمّى أوصت أن أعتق عنها رقبةً مؤمنةً ، وعندى جاريةٌ سوداء نوبيّةٌ أفأعتقها ؟ قال : ادعها ، فدعوتها فجاءت فقال : من ربّك ؟ قالت : اللّه ، قال : فمن أنا ؟ قالت : رسول اللّه ، قال : اعتقها فإنّها مؤمنةٌ » .

وقد قال الإمام النّووىّ : اتّفق أهل السّنّة من المحدّثين والفقهاء والمتكلّمين على أنّ المؤمن الّذى يحكم بأنّه من أهل القبلة ولا يخلّد فى النّار لا يكون إلاّ من اعتقد بقلبه دين الإسلام اعتقاداً جازماً حاليّاً من الشّكوك ونطق بالشّهادتين .

١٨ – فإن اقتصر على إحداهما لم يكن من أهل القبلة إلاّ إذا عجز عن النّطق لخللٍ فى لسانه ، أو لعدم التّمكّن منه لمعاجلة المنيّة له ، أو لغير ذلك فإنّه يكون مؤمناً ، أمّا إذا أتى بالشّهادتين فلا يشترط معهما أن يقول : أنا برىءٌ من كلّ دينٍ خالف الإسلام ، إلاّ إذا كان من الكفّار الّذين يعتقدون اختصاص رسالة سيّدنا محمّدٍ صلى الله عليه وسلم للعرب ، فإنّه لا يحكم بإسلامه إلاّ بأن يستبرأ . أمّا إذا اقتصر على قوله : لا إله إلاّ اللّه ، ولم يقل : محمّدٌ رسولٌ اللّه ، فالمشهور من مذهب الشّافعىّ ومذاهب العلماء أنّه لا يكون مسلماً ، ومن أصحابنا الشّافعيّة من قال : يكون مسلماً ، ويطالب بالشّهادة الأخرى ، فإن أبى جعل مرتدّاً

، ويحتجّ لهذا القول بقوله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل النّاس حتّى يقولوا لا إله إلاّ اللّه ، فمن قالها فقد عصم منّى ماله ونفسه إلاّ بحقّها ، وحسابه على اللّه » .

وهذا محمولٌ عند الجماهير على قول الشّهادتين ، واستغنى بذكر إحداهما عن الأخرى لارتباطهما وشهرتهما . وجاء فى فتح القدير : سئل أبو يوسف عن الرّجل كيف يسلم ، فقال : يقول أشهد أن لا إله إلاّ اللّه ، وأنّ محمّداً رسول اللّه ، ويقرّ بما جاء من عند اللّه ، ويتبرّأ من الدّين الّذى انتحله . وفيه أنّ النّصرانىّ يقول : أشهد أن لا إله إلاّ اللّه وأنّ محمّداً عبده ورسوله ، ويتبرّأ من النّصرانيّة ، وكذا اليهوديّة وغيرها . وأمّا من فى دار الحرب فيحمل على الإسلام إذا قال : محمّدٌ رسول اللّه ، أو قال : دخلت دين الإسلام ، أو دخلت دين محمّدٍ صلى الله عليه وسلم فهو دليل إسلامه ، فكيف إذا أتى بالشّهادتين . وأمّا توبة المرتدّ فهو أن يتبرّأ من كلّ دينٍ غير دين الإسلام ، بعد أن يأتى بالشّهادتين ، وأن يتبرّأ ممّا انتقل إليه .

أركان الإسلام

أركان الإسلام خمسةٌ :

١٩ – جاءت الآيات القرآنيّة الكريمة مجملةً بالأوامر والأحكام فيما يخصّ هذه الأركان ، وكذلك فى السّنّة النّبويّة أحاديث كثيرةٌ ، فمن ذلك ما رواه عمر بن الخطّاب قال : سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يقول : « بنى الإسلام على خمسٍ : شهادة أن لا إله إلاّ اللّه ، وأنّ محمّداً رسول اللّه ، وإقام الصّلاة ، وإيتاء الزّكاة ، والحجّ ، وصوم رمضان » . رواه البخارىّ ومسلمٌ . وأيضاً الحديث السّابق المشهور بحديث جبريل .

الرّكن الأوّل : شهادة أن لا إله إلاّ اللّه ، وأنّ محمّداً رسول اللّه :

٢٠ – هذه الشّهادة من أوّل ما يدخل به المرء فى الإسلام ، فكانت أوّل واجبٍ على المكلّف يتحتّم عليه أداؤه تصديقاً واعتقاداً ونطقاً . وأئمّة السّلف كلّهم متّفقون على أنّ أوّل ما يؤمر به العبد الشّهادتان . وقد كانت رسالات كلّ الرّسل تدعو إلى التّوحيد الّذى تضمّنته هذه الكلمة ، والإقرار بالألوهيّة والرّبوبيّة للّه سبحانه وتعالى . وقد جاء فى القرآن الكريم : { وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلاّ نوحى إليه أنّه لا إله إلاّ أنا فاعبدون } فكانت هذه الكلمة أوّل ما يدخل به المرء فى الإسلام ، وإذا كانت آخر ما يخرج به المسلم من الدّنيا دخل بها الجنّة ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « من كان آخر كلامه لا إله إلاّ اللّه دخل الجنّة » . والإيمان أيضاً برسالة محمّدٍ صلى الله عليه وسلم هو إيمانٌ بجميع ما جاء به من عند اللّه

وما تتضمّنه رسالته ، وإيمانٌ بجميع الرّسل ، وتصديقٌ برسالاتهم . والجمع بين هذين الأصلين فى هذا الرّكن الرّكين الّذى يسبق كلّ الأركان تتحقّق به باقى الأركان .

الرّكن الثّانى : إقام الصّلاة .

٢١ – الصّلاة لغةً بمعنى الدّعاء ، وقد أضاف الشّرع إلى الدّعاء ما شاء من أقوالٍ وأفعالٍ وسمّى مجموع ذلك الصّلاة ، أو هى منقولةٌ من الصّلة الّتى تربط بين شيئين ، فهى بذلك صلةٌ بين العبد وربّه ، وفرضت ليلة الإسراء بمكّة قبل الهجرة بسنةٍ .

ووجوب الصّلوات الخمس من المعلوم من الدّين بالضّرورة بالكتاب والسّنّة والإجماع . فمن جحدها كلّها أو بعضها فهو كافرٌ مرتدٌّ .

أمّا من أقرّ بوجوبها وامتنع من أدائها ، فقيل : فاسقٌ يقتل حدّاً إن تمادى على الامتناع ، وقيل : من تركها متعمّداً أو مفرّطاً فهو كافرٌ يقتل كفراً .

وقد جاءت الآيات الكثيرة من القرآن الكريم دالّةٌ على ذلك ، منها قوله تعالى : { وأقيموا الصّلاة وآتوا الزّكاة } وقوله تعالى : { إنّ الصّلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً } ، وغيرها كثيرٌ . أمّا الأحاديث النّبويّة فمنها « سئل صلى الله عليه وسلم : أىّ الأعمال أفضل ؟ فقال : الصّلاة لمواقيتها » إلى غير ذلك .

ر : (صلاةٌ) .

الرّكن الثّالث : إيتاء الزّكاة .

٢٢ – الزّكاة لغةً : النّموّ والزّيادة . يقال : زكا الشّىء إذا نما وكثر ، إمّا حسّاً كالنّبات والمال ، أو معنًى كنموّ الإنسان بالفضائل والصّلاح .

وشرعاً : إخراج جزءٍ من مالٍ مخصوصٍ لقومٍ مخصوصين بشرائط مخصوصةٍ ، وسمّيت صدقة المال زكاةً ، لأنّها تعود بالبركة فى المال الّذى أخرجت منه وتنمّيه . وركنيّتها ووجوبها ثابتان بالكتاب والسّنّة والإجماع . فمن جحد وجوبها مرتدٌّ ، لإنكاره ما قام من الدّين ضرورةً . ومن أقرّ بوجوبها وامتنع من أدائها أخذت منه كرهاً ، بأن يقاتل ويؤدّب على امتناعه عن أدائها . وقرنت بالصّلاة فى القرآن الكريم فى اثنين وثمانين آيةً .

وفرضت فى مكّة مطلقةً أوّلاً ، وفى السّنة الثّانية من الهجرة حدّدت الأنواع الّتى تجب فيها ، ومقدار النّصاب فى كلٍّ ر : (زكاةٌ) .

الرّكن الرّابع : الصّيام .

٢٣ – الصّوم لغةً : مطلق الإمساك والكفّ ، فكلّ من أمسك عن شيءٍ يقال فيه : صام عنه . وفى الشّرع : الإمساك عن شهوتى الفرج والبطن يوماً كاملاً بنيّة التّقرّب .

ووجوبها وركنيّتها ثابتان بالكتاب والسّنّة والإجماع . قال اللّه تعالى : { يا أيّها الّذين آمنوا كتب عليكم الصّيام كما كتب على الّذين من قبلكم لعلّكم تتّقون أيّاماً معدوداتٍ } . وقوله تعالى : { فمن شهد منكم الشّهر فليصمه } . ومن السّنّة قوله صلى الله عليه وسلم : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » ر : (صيامٌ) .

الرّكن الخامس : الحجّ .

٢٤ – الحجّ فى اللّغة : القصد . وشرعاً : القصد إلى البيت الحرام بشرائط مخصوصةٍ وفى أيّامٍ مخصوصةٍ . والأصل فى وجوبه قوله تعالى : { وللّه على النّاس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً } وقوله تعالى : { وأتمّوا الحجّ والعمرة للّه } . ومن السّنّة قوله صلى الله عليه وسلم : « إنّ اللّه فرض عليكم الحجّ فحجّوا » .

فركنيّته ووجوبه ثابتان بالكتاب والسّنّة والإجماع ، وهو معلومٌ من الدّين بالضّرورة ، فمن جحد ذلك فهو كافرٌ . ومن أقرّ به وتركه فاللّه حسبه ، لا يتعرّض إليه بشيءٍ ، لتوقّفه على الاستطاعة وسقوطه بعدمها . ر : (حجٌّ) .

ثانياً : الإسلام بالتّبعيّة

إسلام الصّغير بإسلام أحد أبويه :

٢٥ – اتّفق الفقهاء على أنّه إذا أسلم الأب وله أولادٌ صغارٌ ، أو من فى حكمهم – كالمجنون إذا بلغ مجنوناً – فإنّ هؤلاء يحكم بإسلامهم تبعاً لأبيهم .

وذهب الجمهور (الحنفيّة والشّافعيّة والحنابلة) إلى أنّ العبرة بإسلام أحد الأبوين ، أباً كان أو أمّاً ، فيحكم بإسلام الصّغار بالتّبعيّة ، لأنّ الإسلام يعلو ولا يعلى عليه ، لأنّه دين اللّه الّذى ارتضاه لعباده .

وقال مالكٌ : لا عبرة بإسلام الأمّ أو الجدّ ، لأنّ الولد يشرف بشرف أبيه وينتسب إلى قبيلته . وذهب الشّافعيّة إلى أنّ إسلام الجدّ – وإن علا – يستتبع الحكم بإسلام الأحفاد الصّغار ومن فى حكمهم ، ولو كان الأب حيّاً كافراً ، وذلك لقوله تعالى : { والّذين آمنوا واتّبعتهم ذرّيّتهم بإيمانٍ ألحقنا بهم ذرّيّتهم } .

وقال الثّورىّ : إذا بلغ الصّبىّ يخيّر بين دين أبويه ، فأيّهما اختار كان على دينه .

الإسلام بالتّبعيّة لدار الإسلام :

٢٦ – يدخل فى ذلک الصّغير إذا سبى ولم يكن معه أحدٌ من أبويه ، إذا أدخله السّابى إلى دار الإسلام . وكذلک لقيط دار الإسلام ، حتّى لو كان ملتقطه ذمّيّاً . وكذلک اليتيم الّذى مات أبواه وكفله أحد المسلمين ، فإنّه يتّبع كافله وحاضنه فى الدّين ، كما صرّح بذلک ابن القيّم . وانفرد الحنابلة بأنّ الولد يحكم بإسلامه إذا مات واحدٌ من أبويه الذّمّيّين ، واستدلّوا بقول النّبىّ صلى الله عليه وسلم : « كلّ مولودٍ يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه » .

ثالثاً : الإسلام بالدّلالة :

٢٧ – قال ابن نجيمٍ : الأصل أنّ الكافر متى فعل عبادةً فإن كانت موجودةً فى سائر الأديان لا يكون بها مسلماً ، كالصّلاة منفرداً ، والصّوم ، والحجّ الّذى ليس بكاملٍ ، والصّدقة ، ومتى فعل ما اختصّ بشرعنا ، ولو من الوسائل كالتّيمّم . وكذلک ما كان من المقاصد أو من الشّعائر ، كالصّلاة بجماعةٍ والحجّ الكامل والأذان فى المسجد وقراءة القرآن ، يكون به مسلماً ، وإليه أشار فى المحيط وغيره . وقد اعتبر الفقهاء جملةً من الأفعال تقوم دلالةً على كون الشّخص مسلماً ، ولو لم يعرف عنه النّطق بالشّهادتين .

أ – الصّلاة :

٢٨ – يرى الحنفيّة والحنابلة أنّه يحكم بإسلام الكافر بفعل الصّلاة . لكن قال الحنابلة : يحكم بإسلامه بالصّلاة سواءٌ فى دار الحرب أو دار الإسلام ، وسواءٌ صلّى جماعةً أو فرداً ، فإن أقام بعد ذلک على الإسلام ، وإلاّ فهو مرتدٌّ تجرى عليه أحكام المرتدّين .

وإن مات قبل ظهور ما ينافى الإسلام فهو مسلمٌ ، يرثه ورثته المسلمون دون الكافرين ، واحتجّوا بقول النّبىّ صلى الله عليه وسلم : « إنّى نهيت عن قتل المصلّين » وقوله : « العهد الّذى بيننا وبينهم الصّلاة » وقوله : « من صلّى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا فذلک المسلم الّذى له ذمّة اللّه وذمّة رسوله ، فلا تخفروا اللّه فى ذمّته » . فجعلها حدّاً بين الإيمان والكفر ، فمن صلّى فقد دخل فى حدّ الإسلام ، ولأنّها عبادةٌ تختصّ بالمسلمين فالإتيان بها إسلامٌ ، كالشّهادتين .

وقال الحنفيّة : لا يحكم بإسلامه بالصّلاة إلاّ إن صلاّها كاملةً فى الوقت مأموماً فى جماعةٍ ، إلاّ أنّ محمّد بن الحسن يرى أنّه حتّى لو صلّى وحده مستقبل القبلة فإنّه يحكم بإسلامه ، وقال المالكيّة وبعض الشّافعيّة : لا يحكم بإسلام الكافر بمجرّد صلاته ، لأنّ الصّلاة من فروع الإسلام ، فلم يصر مسلماً بفعلها ، كالحجّ والصّيام ، ولأنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « أمرت أن أقاتل النّاس حتّى يشهدوا أن لا إله إلاّ اللّه وأنّى رسول اللّه ، فإذا قالوها عصموا منّى دماءهم وأموالهم إلاّ بحقّها » . وقال بعضهم : إن صلّى فى دار الإسلام فليس بمسلمٍ ، لأنّه قد يقصد الاستتار بالصّلاة وإخفاء دينه ، وإن صلّى فى دار الحرب فهو مسلمٌ ، لأنّه لا تهمة فى حقّه . والدّليل لذلک قوله صلى الله عليه وسلم : « من صلّى صلاتنا ،

واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الّذى له ذمّة اللّه وذمّة رسوله فلا تخفروا اللّه فى ذمّته » . وقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيتم الرّجل يتعاهد المساجد فاشهدوا له بالإيمان » فإنّ اللّه يقول : { إنّما يعمر مساجد اللّه من آمن باللّه واليوم الآخر وأقام الصّلاة وآتى الزّكاة ولم يخش إلاّ اللّه فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين } .

قال ابن قدامة : من صلّى حكمنا بإسلامه ظاهراً ، أمّا صلاته فى نفسه فأمرٌ بينه وبين اللّه تعالى . فالرّجل يتعهّد المساجد ويرتادها لإقامة الصّلوات فى أوقاتها والإنصات فيها لما يتلى من آيات اللّه ، وما يلقى فيها من العبر والعظات ، والأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر ، مع العلم بأنّ المساجد لا يرتادها إلاّ المؤمنون الطّائعون والمخلصون فى إيمانهم للّه ، فلا جرم إن كان هذا الحديث النّبوىّ يشير إلى أنّ هذا الارتياد هو أمارةٌ على الإيمان ، يشهد له قوله تعالى : { إنّما يعمر مساجد اللّه من آمن باللّه واليوم الآخر } . الآية .

ب - الأذان :

٢٩ - ويحكم بإسلام الكافر بالأذان فى المسجد وفى الوقت ، لأنّه من خصائص ديننا وشعار شرعنا ، وليس لمجرّد أنّه يشتمل على الشّهادتين ، بل لأنّه من قبيل الإسلام بالفعل .

ج - سجود التّلاوة :

٣٠ - ويحكم بإسلام الكافر بسجود التّلاوة ، لأنّه من خصائصنا ، فإنّه سبحانه أخبر عن الكفّار فى قوله تعالى : { وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون } .

د - الحجّ :

٣١ - وكذلك لو حجّ ، وتهيّأ للإحرام . ولبّى وشهد المناسك مع المسلمين ، فإنّه يحكم بإسلامه . وإن لبّى ولم يشهد المناسك ، أو شهدها ولم يلبّ ، فلا يحكم بإسلامه .

إسلامٌ ❊

انظر : سلمٌ .

إسلافٌ ❊

انظر : سلفٌ .

إسنادٌ ❊

التعريف :

١ – الإسناد لغةً يكون :

أ – بمعنى إمالة الشّىء إلى الشّىء حتّى يعتمد عليه .

ب – ويأتى أيضاً بمعنى رفع القول إلى قائله ونسبته إليه .

ويأتى اصطلاحاً لمعانٍ :

أ – إعانة الغير ، كالمريض مثلاً ، بتمكينه من التّوكّؤ على المسند ، ونحوه إسناد الظّهر إلى الشّىء .

وتفصيل الكلام فى الإسناد بهذا المعنى يأتى تحت عنوانى : (استنادٌ) (وإعانةٌ) .

ب – ما يذكر لتقوية القضيّة المدّعاة . والكلام فيه تحت عنوانى (إثباتٌ) (وسندٌ) .

ج – الإضافة ، ومنه قولهم : إسناد الطّلاق إلى وقتٍ سابقٍ وتفصيله فى مصطلح (إضافةٌ) .

د – الطّريق الموصّل إلى متن الحديث . وبيانه فيما يلى :

الإسناد بمعنى الطّريق الموصّل إلى متن الحديث :

٢ – هذا الاصطلاح هو للأصوليّين والمحدّثين ، وله عندهم إطلاقان :

الأوّل : أنّ إسناد الحديث هو ذكر سنده ، وهو ضدّ الإرسال . والسّند : سلسلة رواته بين القائل والرّاوى الأخير . وهذا الاصطلاح فى الإسناد هو الأشهر عند المحدّثين .

الثّانى : ونقله ابن الصّلاح عن ابن عبد البرّ ، أنّ الإسناد هو رفع الحديث إلى النّبىّ صلى الله عليه وسلم . فمقابل الحديث المسند – على هذا القول – الحديث الموقوف ، وهو ما لم يرفع إلى النّبىّ صلى الله عليه وسلم . بل هو من قول الصّحابىّ .

والمقطوع : وهو ما انتهى إلى التّابعىّ .

العلاقة بين الإسناد والسّند :

٣ – السّند :

السّند هو الطّريق الموصّل إلى متن الحديث . والمراد بالطّريق : سلسلة رواة الحديث ، والمراد بمتن الحديث : ألفاظ الحديث المرويّة . وأمّا الإسناد فهو ذكر ذلك الطّريق وحكايته والإخبار به . فبين (الإسناد) (والسّند) تباينٌ . وهذا الوجه هو المشهور فى التّفريق بين الاصطلاحين . قال السّخاوىّ : هو الحقّ .

ونقل السّيوطىّ فى التّفريق بين الاصطلاحين خلاف هذا . قال : قال ابن جماعة والطّيبىّ : السّند هو الإخبار عن طريق المتن ، وأمّا الإسناد فهو رفع الحديث إلى قائله . هذا ما نصّوا عليه فى الفرق بين الاصطلاحين ، ولكن باستقراء مواضع من كلام المحدّثين نجدهم يستعملون الإسناد بمعنى السّند كثيراً

بنوعٍ من التّساهل أو المجاز ، حتّى لقد قال ابن جماعة : المحدّثون يستعملون السّند والإسناد بمعنًى واحدٍ .

منزلة الإسناد :

٤ – يقول الأصوليّون : إنّ الاحتجاج بالسّنة موقوفٌ بالنّسبة إلينا على السّند ، بأن يقول المحتجّ بها : حدّثنى فلانٌ من غير واسطةٍ ، أو بواسطةٍ أنّه صلى الله عليه وسلم قال : أو فعل ، أو أقرّ كذا .. وإن لم يكن الاحتجاج موقوفاً على السّند بالنّسبة إلى الصّحابة ، أى لسماعهم الأحاديث من النّبىّ صلى الله عليه وسلم مباشرةً . ومباشرتهم لرؤية أفعاله . وهذا فى غير المتواتر ، أمّا المتواتر فيغنى تواتره عن بيان إسناده . وقد نقل مسلمٌ فى مقدّمة صحيحه عن عبد اللّه بن المبارك رضى الله عنه أنّه قال : الإسناد من الدّين ، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء . وقال الشّافعىّ رضى الله عنه : الّذى يطلب الحديث بلا سندٍ كحاطب ليلٍ يحمل حزمة حطبٍ وفيه أفعى وهو لا يدرى .

٥ – وإنّما احتيج إلى الإسناد للحاجة إلى ضبط المرويّات والتّوثّق منها ، وظهرت تلك الحاجة بعدما شرع أهل الأهواء فى افتراء أحاديث يقوّون بها ما يذهبون إليه .

قال ابن سيرين : لم يكونوا يسألون عن الإسناد ، فلمّا وقعت الفتنة قالوا : سمّوا لنا رجالكم ، فينظر إلى أهل السّنّة فيؤخذ حديثهم ، وإلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم .

الإسناد وثبوت الحديث :

٦ – إن كان إسناد الحديث صحيحاً لم يلزم منه صحّة المتن وثبوته ، لاحتمال كون الحديث شاذّاً ، أو لاحتمال وجود علّةٍ قادحةٍ . فإنّ الحديث إنّما يكون صحيحاً إذا جمع إلى صحّة الإسناد السّلامة من الشّذوذ والعلّة . إلاّ أنّ بعضهم ذكر أنّ أئمّة نقد الحديث إذا قال الواحد منهم فى حديثٍ : إنّه صحيح الإسناد ، ولم يقدح فيه فالظّاهر منه الحكم على الحديث بأنّه صحيحٌ فى نفسه ، لأنّ عدم العلّة والقادح هو الأصل والظّاهر . كذا ذكره ابن الصّلاح فى مقدّمته . ولا يلزم من صحّة الحديث ظاهراً أنّه مقطوعٌ بصحّته فى نفس الأمر ، لجواز الخطّ أو النّسيان على الثّقة . ولكنّ إسناد الحديث ليس بشرطٍ لصحّة الحديث المرسل ، ويحتجّ به إن كان الّذى أرسله ثقةٌ ، وهو قول الأئمّة الثّلاثة : أبى حنيفة ومالكٍ وأحمد ، وقيل فى تعليل ذلك : من أسند فقد أحالك ، ومن أرسل فقد تكفّل لك ، أى بالصّحّة . ولا يقبله الإمام الشّافعىّ إلاّ إن اعتضد بما يقوّيه . وفى المسألة تفصيلاتٌ أخرى . انظر (إرسالٌ) .

والصّحيح أنّ المسند من الأحاديث أقوى من المرسل .

صفات الأسانيد :

٧ – يوصف الإسناد بصفاتٍ مختلفةٍ ، فقد يوصف مثلاً بالعلوّ أو بالنّزول . فإن كانت الوسائط قليلةً فهو إسنادٌ عالٍ ، وإن كانت كثيرةً فهو نازلٌ .

كما يوصف الإسناد بالقوّة والصّحّة ، أو بالحسن أو بالضّعف ، وقد يقال : إسنادٌ معنعنٌ ، أو مدلّسٌ ، أو غريبٌ ، أو غير ذلک . ويعرف ذلک كلّه بالرّجوع إلى مواطنه من كتب علوم الحديث أو أبواب السّنّة من الملحق الأصوليّ .

ما يحتاج إلى الإسناد . والإسناد فى العصر الحديث :

٨ – يحتاج إلى الإسناد كلّ ما يحتجّ به ممّا ليس بمتواترٍ ، ومن ذلک ثبوت القراءات القرآنيّة بالإسناد . ومنه أيضاً ثبوت الأحاديث النّبويّة القوليّة والفعليّة المرويّة بالإسناد . وقد دخل الإسناد فى رواية الكتب المؤلّفة فى علوم الدّين ، حتّى إنّه دخل فى رواية كتب اللّغة والأدب والتّاريخ وغيرها . إلاّ أنّ الإسناد ترک غالباً فى هذه الأعصر الأخيرة ، حتّى فى كتب الحديث . ولعلّ ذلک اكتفاءً من العلماء بتواتر تلک الكتب عن مؤلّفيها ، كالبخاريّ ومسلمٍ وأبى داود ، أو لشهرتها عنهم ، ممّا يغنى عن إيراد الأسانيد ، ونظراً لطول الأسانيد ونزولها بدرجةٍ تضعّفت الثّقة بها ، فلا تكاد تكافئ ما قد يبذل فيها من الجهود . ومع ذلک ففى إحيائها بركة المحافظة على هذه الخصّيصة من خصائص ، الأمّة الإسلاميّة .

إسهامٌ ❊

التعريف :

١ – الإسهام فى اللّغة يأتى بمعنيين : الأوّل : جعل الشّخص صاحب حصّةٍ أو نصيبٍ ، يقال : أسهمت له بألفٍ ، يعنى أعطيته ألفاً . ويصبح الشّخص ذا سهمٍ فى أمورٍ منها : الميراث ، والقسمة ، والغنيمة ، والفىء ، والنّفقة ، والشّرب إن كان له استحقاقٌ فى ذلک .

والثّانى : الإقراع . يقال : أسهم بينهم ، أى أقرع بينهم . ولا يخرج استعمال الفقهاء عن هذين المعنيين .

الإسهام بالمعنى الأوّل : جعل الشّخص صاحب حصّةٍ :

٢ – الإسهام فى جميع حالات الاشتراک ، كالاشتراک فى الهدى ، يجعل لكلٍّ من المشتركين سهماً فيه . والاشتراک فى العمل يجعل لكلٍّ من المشتركين سهماً من الرّبح أو تحمل الخسارة . كما يثبت الإسهام لكلٍّ من الشّركاء نصيباً فى الشّفعة . والاشتراک فى الرّهن – إذا رهن عيناً عند اثنين – يجعل لكلٍّ من المرتهنين حظّاً فى حفظها .

والاشتراك فى الجناية الخطأ يوجب على كلٍّ من الجناة حظّاً من الدّية ، ومن ذلك إسهام العاقلة فى تحمّل الدّية فى جناية الخطأ . وقد فصّل الفقهاء ذلك فى أبوابه الخاصّة به .

الإسهام بالمعنى الثّانى : القرعة :

٣ – اتّفق الفقهاء على جواز القرعة إذا كانت لتطييب القلوب ، بل هى مندوبةٌ فى ذلك ، كإقراع المسافر بين نسائه لإخراج من يسافر بها منهنّ ، والإقراع بينهنّ لتعيين من يبدأ بها فى القسمة ، ونحو ذلك . كما اتّفقوا على مشروعيّة القرعة لتعيين الحقّ فى القسمة بعد الإفراز ، قطعاً للخلاف وتطييباً للقلوب .

ولكنّهم اختلفوا فى مشروعيّة القرعة لإثبات حقّ البعض وإبطال حقّ البعض الآخر ، كمن طلّق إحدى زوجتيه ثمّ مات ولم يعيّن . فأنكر الحنفيّة أن يتمّ التّعيين بالقرعة ، وأقرّ ذلك غيرهم . وقد فصّل الفقهاء ذلك فى أبواب العتق والنّكاح والقسمة والطّلاق .

أسيرٌ ❊

انظر : أسرى .

إشارةٌ ❊

التعريف :

١ – الإشارة لغةً : التّلويح بشىءٍ يفهم منه ما يفهم من النّطق ، فهى الإيماء إلى الشّىء بالكفّ والعين والحاجب وغيرها . وأشار عليه بكذا : أبدى له رأيه ، والاسم الشّورى .

وهى عند الإطلاق حقيقةٌ فى الحسّيّة ، وتستعمل مجازاً فى الذّهنيّة ، كالإشارة بضمير الغائب ونحوه ، فإن عدّى " إلى " تكون بمعنى الإيماء باليد ، ونحوها ، وإن عدّى ب " على " تكون بمعنى الرّأى .

والإشارة فى اصطلاح الفقهاء مثلها فى اللّغة ، ويستعملها الأصوليّون فى مبحث الدّلالات ، ويعرّفون دلالة الإشارة بأنّها : دلالة اللّفظ على ما لم يقصد به ، ولكنّه لازمٌ له . كدلالة قوله تعالى : { لا جناح عليكم إن طلّقتم النّساء ما لم تمسّوهنّ أو تفرضوا لهنّ فريضةً } على صحّة النّكاح بدون ذكر المهر ، لأنّ صحّة الطّلاق فرع صحّة النّكاح .

أمّا عبارة النّصّ فهى المعنى الّذى يتبادر فهمه من صيغته ، ويكون هو المقصود من سياقه ، وسيأتى تفصيل ما يتّصل بذلك فى الملحق الأصولىّ .

الألفاظ ذات الصّلة :

أ – الدّلالة :

٢ – الدّلالة : كون الشّىء بحيث يفهم منه شىءٌ آخر ، كدلالة اللّفظ على المعنى ، وهى أعمّ من الإشارة .

ب – الإيماء :

٣ – الإيماء : مرادفٌ للإشارة لغةً ، وعند الأصوليّين عرّفه بعضهم بأنّه : إلقاء المعنى فى النّفس بخفاءٍ .

صفتها : الحكم الإجمالىّ :

٤ – الإشارة تقوم مقام اللّفظ فى أغلب الأمور ، لأنّها تبيّن المراد كالنّطق ، ولكنّ الشّارع يقيّد النّاطقين بالعبارة فى بعض التّصرّفات كالنّكاح ، فإذا عجز إنسانٌ عنها ، أقام الشّارع إشارته مقام نطقه فى الجملة .

إشارة الأخرس :

٥ – إشارة الأخرس معتبرةٌ شرعاً ، وتقوم مقام عبارة النّاطق فيما لا بدّ فيه من العبارة ، إذا كانت معهودةً فى جميع العقود كالبيع ، والإجارة ، والرّهن ، والنّكاح ، والحلول : كالطّلاق ، والعتاق ، والإبراء . وغير ذلك كالأقارير – ما عدا الإقرار بالحدود ، ففيه خلافٌ كما يأتى قريباً – والدّعاوى " والإسلام .

وهذا القدر متّفقٌ عليه بين الفقهاء فيما نعلم ، وفى اللّعان والقذف خلافٌ . فقد قال الحنفيّة وبعض الحنابلة : إنّ الإشارة لا تقوم مقام النّطق فيهما ، لأنّ فى الإشارة شبهةٌ يدرأ بها الحدّ ، وقال مالكٌ والشّافعىّ وبعض الحنابلة : إشارة الأخرس كنطقه فيهما .

ولا فرق فى اعتبار إشارة الأخرس بين أن يكون قادراً على الكتابة ، أو عاجزاً عنها ، ولا بين أن يكون الخرس أصالةً أو طارئاً عند جمهور الفقهاء .

ونقل عن المتولّى من الشّافعيّة : إنّما تعتبر إشارة الأخرس إذا كان عاجزاً عن الكتابة ، لأنّها أضبط . ولم يفرّق المالكيّة بين إشارة الأخرس وكتابته ، فظاهره أنّه لا يشترط لقبول إشارته العجز عن الكتابة .

ويشترط الحنفيّة لقبول إشارته ما يلى :

أ – أن يكون قد ولد أخرس ، أو طرأ عليه الخرس ودام حتّى الموت . وهذه رواية الحاكم عن أبى حنيفة ، وفى هذا من الحرج ما فيه ، وقدّر التّمرتاشىّ الامتداد لسنةٍ .

وفى التتارخانية : أنّه إذا طرأ عليه الخرس ودام حتّى صارت إشارته مفهومةً اعتبرت إشارته كعبارته وإلاّ لم تعتبر .

ب – ألاّ يقدر على الكتابة . جاء فى تكملة حاشية ابن عابدين : قال الكمال : قال بعض الشّافعيّة : إن كان يحسن الكتابة لا يقع طلاقه بالإشارة ، لاندفاع الضّرورة بما هو أدلّ على المراد من الإشارة ، وهو قولٌ حسنٌ ، وبه قال بعض مشايخنا .

قال ابن عابدين : بل هذا القول تصريحٌ بما هو مفهومٌ من ظاهر الرّواية ، ففى كافى الحاكم الشّهيد ما نصّه : فإن كان الأخرس لا يكتب ، وكان له إشارةٌ تعرف فى طلاقه ، ونكاحه ، وشرائه ، وبيعه فهو جائزٌ ، وإن كان لم يعرف ذلک منه أو شکّ فيه فهو باطلٌ . ثمّ قال : فيفيد أنّه إن كان يحسن الكتابة لا تجوز إشارته .وفى الأشباه والنّظائر : أنّ المعتمد أنّ عدم القدرة على الكتابة ليس شرطاً للعمل بالإشارة .

وقال السّيوطىّ والزّركشىّ من الشّافعيّة : يستثنى من هذه القاعدة المتقدّمة فى إقامة إشارة الأخرس مقام نطقه مسائل لا تقوم فيها إشارة الأخرس مقام النّطق ، منها :

(١) إذا خاطب بالإشارة فى الصّلاة لا تبطل صلاته فى الأصحّ .

(٢) إذا نذر بالإشارة لا ينعقد نذره .

(٣) إذا شهد بالإشارة لا تقبل شهادته فى الأصحّ ، لأنّ إقامتها مقام النّطق للضّرورة ، ولا ضرورة فى شهادته لإمكان شهادة النّاطق .

(٤) إذا حلف لا يكلّم زيداً فكلّمه بالإشارة لا يحنث .

(٥) إذا حلف بالإشارة لا تنعقد يمينه إلاّ فى اللّعان .

إقرار الأخرس بما يوجب الحدّ :

٦ – اختلف الفقهاء فى صحّة إقرار الأخرس بالزّنى وغيره من الحدود . فذهب الشّافعيّة ، والقاضى من الحنابلة ، وابن القاسم من المالكيّة إلى أنّه يحدّ إن أقرّ بالزّنى بإشارته ، قالوا : لأنّ من صحّ إقراره بغير الزّنى صحّ إقراره به . وذهب الحنفيّة إلى أنّه لا يحدّ بإقراره بالزّنى ، لأنّ الإشارة تحتمل ما فهم منها وغيره ، فيكون ذلک شبهةً فى درء الحدّ ، والحدود تدرأ بالشّبهات . وتفصيل ذلک فى مصطلحى : (حدودٌ ، وإقرارٌ) .

إشارة الأخرس بالإقرار بما يوجب القصاص :

٧ – إشارته فى ذلک مقبولةٌ فى قول الفقهاء فى القصاص ، لأنّه من حقوق العباد .

تقسيم إشارة الأخرس :

٨ – صرّح الشّافعيّة بأنّه إذا كانت إشارة الأخرس بحيث يفهمها كلّ من وقف عليها فهى صريحةٌ . وإن كان يختصّ بفهمها ذوو الفطنة والذّكاء ، فهى كنايةٌ وإن انضمّ إليها قرائن . وتعرف نيّة الأخرس فيما إذا كانت إشارته كنايةً بإشارةٍ أخرى أو كتابةٍ . أمّا إذا لم يفهم إشارته أحدٌ فهى لغوٌ . وعند المالكيّة لا تكون إشارة الأخرس كنايةً ، فإن كانت مفهمةً فهى صريحةٌ وإلاّ فلغوٌ . ولم نعثر للحنفيّة والحنابلة على قسمة الإشارة من الأخرس إلى صريحٍ وكنايةٍ ، وتفصيل ما يخصّ الإشارة فى الطّلاق يأتى فى بابه .

إشارة الأخرس بقراءة القرآن :

٩ – للفقهاء فى المسألة اتّجاهان :

الأوّل : يجب تحريك الأخرس لسانه فى تكبير الصّلاة وقراءة القرآن ، لأنّ الصّحيح يلزمه النّطق بتحريك لسانه ، فإذا عجز عن أحدهما لزمه الآخر . وهو قول الحنفيّة والشّافعيّة ، وقول القاضى من الحنابلة .

والثّانى : لا يجب عليه ذلك ، وهو مذهب المالكيّة ، وهو المذهب عند الحنابلة .

وخرج بعض الحنفيّة والشّافعيّة على قولهم بوجوب التّحريك ، تحريم تحريك الأخرس لسانه بالقراءة وهو جنبٌ .

الشّهادة بالإشارة :

١٠ – ذهب جمهور الفقهاء إلى أنّه لا تجوز شهادة الأخرس بحالٍ ، وإن فهم إشارته كلّ أحدٍ . لأنّ المعتبر فى الشّهادة اليقين ، والإشارة لا تخلو عن احتمالٍ . وذهب المالكيّة إلى أنّها تقبل إذا كانت مفهمةً .

معتقل اللّسان :

١١ – مذهب الجمهور ، وهو قولٌ عند الحنابلة صوّبه صاحب الإنصاف أنّ معتقل اللّسان – وهو واسطةٌ بين النّاطق والأخرس – إن كان عاجزاً عن النّطق فهو كالأخرس ، وتقوم إشارته المفهمة مقام العبارة ، فإن أوصى بالإشارة ، أو قرئت عليه الوصيّة ، وأشار أن " نعم " صحّت الوصيّة . والمذهب عند الحنابلة أنّ المعتقل اللّسان لا تصحّ وصيّته .

إشارة النّاطق :

١٢ – من كان مستطيعاً للنّطق ففى إقامة إشارته مقام النّطق اتّجهان :

الأوّل : أنّها لغوٌ فى الجملة . وهو مذهب الحنفيّة والشّافعيّة والحنابلة ، إلاّ فى مسائل معدودةٍ نصّ عليها الحنفيّة والشّافعيّة أقاموا فيها الإشارة مقام النّطق . وإنّما قالوا بإلغائها ، لأنّها مهما قويت دلالتها فإنّها لا تفيد اليقين الّذى تفيده العبارة ،

ومن المسائل الّتى استثنوها :

أ – إشارة المفتى بالجواب .

ب – أمان الكفّار ، ينعقد بالإشارة تغليباً لحقن الدّم ، فلو أشار المسلم إلى الكافر بالأمان ، فانحاز إلى صفّ المسلمين لم يحلّ قتله .

ج – إذا سلّم عليه فى الصّلاة فردّ بالإشارة لم تفسد صلاته .

د – الإشارة بالعدد فى الطّلاق .

هـ– لو أشار المحرم إلى الصّيد فصيد ، حرم عليه الأكل منه . وزاد الحنفيّة الإشارة بالإقرار بالنّسب لتشوّف الشّرع إلى إثباته ، وبالإسلام والكفر .

الثّانى : أنّ إشارة النّاطق معتبرةٌ كنطقه ، ما دامت مفهومةً بين النّاس ومتعارفاً بينهم على مدلولها . وقالوا : إنّ التّعاقد بالإشارة أولى من التّعاقد بالأفعال (التّعاطى) ، لأنّ الإشارة يطلق عليها أنّها كلامٌ . قال اللّه تعالى : { قال : آيتك ألاّ تكلّم النّاس ثلاثة أيّامٍ إلاّ رمزاً } وهذا مذهب المالكيّة إلاّ فى عقد النّكاح خاصّةً ، دون تعيين المنكوحة أو النّاكح .

تعارض عبارة النّصّ مع إشارته :

١٣ – سبق بيان المراد بعبارة النّصّ وبإشارته (ر : ف ١) ، فإذا تعارضت عبارة نصٍّ وإشارة آخر يرجّح مفهوم العبارة فى الجملة ، على خلافٍ وتفصيلٍ ينظر فى الملحق الأصولىّ .

ردّ السّلام فى الصّلاة :

١٤ – اختلف الفقهاء فى جواز ردّ السّلام فى الصّلاة ، فرخّصت طائفةٌ من التّابعين فى الرّدّ بالقول كسعيد بن المسيّب والحسن البصرىّ وقتادة . وروى عن أبى هريرة أنّه كان إذا سلّم عليه وهو فى الصّلاة ردّه حتّى يسمع . وذهب جماعةٌ إلى أنّه يردّ بعد الانصراف من الصّلاة . واتّفق الأئمّة الأربعة على أنّ ردّ السّلام بالقول . فى الصّلاة مبطلٌ لها . على اختلافٍ بينهم فى بعض التّفصيل . فالرّاجح عند المالكيّة : أنّ الرّدّ بالإشارة واجبٌ .

ويرى الشّافعيّة أنّه يستحبّ الرّدّ بالإشارة . وذهب الأحناف إلى أنّه يكره ردّه بالإشارة باليد ، ولا تفسد به الصّلاة ، جاء فى حاشية ابن عابدين : ردّ السّلام بيده لا يفسدها ، خلافاً لمن عزا إلى أبى حنيفة أنّه مفسدٌ ، فإنّه لم يعرف نقله من أحدٍ من أهل المذهب .

وعند الحنابلة يردّ بالإشارة . وقد استدلّ القائلون بالرّدّ بعد الانصراف من الصّلاة بحديث ابن مسعودٍ قال : « كنّا نسلّم على رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وهو فى الصّلاة ، فيردّ علينا ، فلمّا رجعنا من عند النّجاشىّ سلّمنا عليه ، فلم يردّ علينا وقال : إنّ فى الصّلاة شغلاً » . واستدلّ القائلون بالرّدّ بالإشارة بحديث جابرٍ قال : « إنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم بعثنى لحاجةٍ ، ثمّ أدركته وهو يسير فسلّمت عليه فأشار إلىّ ، فلمّا فرغ دعانى فقال : إنّك سلّمت علىّ آنفاً وأنا أصلّى » وفى روايةٍ لمسلمٍ : « فلمّا انصرف قال : إنّه لم يمنعنى أن أردّ عليك إلاّ أنّى كنت أصلّى » . وحديث ابن عمر عن صهيبٍ أنّه قال : « مررت برسول اللّه صلى الله عليه وسلم وهو يصلّى ، فسلّمت عليه فردّ إلىّ إشارةً » .

الإشارة فى التّشهّد :

١٥ – ذهب جمهور الفقهاء إلى أنّه يستحبّ للمصلّى فى التّشهّد الإشارة بسبّابته ، وتسمّى فى اصطلاح الفقهاء " المسبّحة " وهى الّتى تلى الإبهام ، ويرفعها عند التّوحيد ولا يحرّكها ، لحديث ابن الزّبير « أنّه صلى الله عليه وسلم كان يشير بأصبعه إذا دعا ، ولا يحرّكها » وقيل يحرّكها ، لحديث وائل بن حجرٍ « أنّه صلى الله عليه وسلم : رفع أصبعه فرأيته يحرّكها » وتفصيل كيفيّة الإشارة من حيث عقد الأصابع أو بسطها ، والتّحريک وعدمه يأتى فى (الصّلاة) .

إشارة المحرم إلى الصّيد :

١٦ – إذا أشار المحرم إلى صيدٍ ، أو دلّ حلالاً عليه فصاده حرم على المحرم أكله . وهذا القدر لا يعلم فيه خلافٌ بين الفقهاء ، « لحديث أبى قتادة فى قصّة اصطياده وهو غير محرمٍ ، قال : فقال النّبىّ صلى الله عليه وسلم : منكم أحدٌ أمره أن يحمل عليها ، أو أشار إليها ؟ قالوا : لا قال : فكلوا ما بقى من لحمها » . وإن لم تكن منه إعانةٌ على قتله بشىءٍ حلّ له الأكل منه عند جمهور الفقهاء للحديث السّابق .

واختلف الفقهاء فى وجوب الجزاء على المشير ، فذهب الحنفيّة والحنابلة إلى أنّه يجب عليه الجزاء ، لأنّ الإشارة إلى الصّيد من محظورات الإحرام بدليل تحريم الأكل منه ، فتكون جنايةً على الصّيد بتفويت الأمن على وجهٍ ترتّب عليه قتله ، فصارت كالقتل . وعند المالكيّة والشّافعيّة لا جزاء على المشير ، لأنّ النّصّ علّق الجزاء بالقتل . وليست الإشارة قتلاً .

الإشارة إلى الحجر الأسود والرّكن اليمانىّ :

١٧ – اتّفق الفقهاء على استحباب استلام الحجر الأسود والرّكن اليمانىّ باليد أو غيرها عند الطّواف ، لحديث « ابن عمر رضى الله عنهما قال : ما تركت استلام هذين الرّكنين فى شدّةٍ ولا رخاءٍ منذ رأيت النّبىّ صلى الله عليه وسلم يستلمهما » . كما اتّفقوا على استحباب الإشارة إلى الحجر الأسود عند تعذّر الاستلام ، لحديث ابن عبّاسٍ رضى الله عنهما قال : « طاف النّبىّ صلى الله عليه وسلم بالبيت على بعيرٍ ، كلّما أتى على الرّكن أشار إليه » . واختلفوا فى الإشارة إلى الرّكن اليمانىّ عند تعذّر الاستلام . فذهب أبو حنيفة وأبو يوسف والمالكيّة والحنابلة إلى أنّه لا يشير إليه إن عجز عن استلامه ، وذهب الشّافعيّة ومحمّد بن الحسن إلى أنّه يشير إلى الرّكن اليمانىّ قياساً على الحجر الأسود .

التّسليم بالإشارة :

١٨ – لا تحصل سنّة ابتداء السّلام بالإشارة باليد أو الرّأس للنّاطق ، ولا يسقط فرض الرّدّ عنه بها . لأنّ السّلام من الأمور الّتى جعل لها الشّارع صيغاً مخصوصةً ، لا يقوم مقامها غيرها ، إلاّ عند تعذّر صيغتها

الشّرعيّة . وتكاد تتّفق عبارات الفقهاء على القول : بأنّه لا بدّ من الإسماع ، ولا يكون الإسماع إلاّ بقولٍ . وقد ورد فى الحديث : « لا تسلّموا تسليم اليهود ، فإنّ تسليمهم بالأكفّ والرّءوس والإشارة » . وروى علقمة عن عطاء بن أبى رباحٍ قال : « كانوا يكرهون التّسليم باليد » . يعنى الصّحابة رضوان الله عليهم . أمّا الأصمّ ومن فى حكمه ، وغير المقدور على إسماعه كالبعيد ، فالإشارة مشروعةٌ فى حقّه ، وقال بعض الفقهاء : إذا سلّم على أصمّ لا يسمع ينبغى أن يتلفّظ بالسّلام ، لقدرته عليه ، ويشير باليد . ويسقط قرض الرّدّ من الأخرس بالإشارة ، لأنّه مقدوره ، ويردّ عليه بالإشارة والتّلفّظ معاً . وانظر مصطلح : (سلامٌ) .

الإشارة فى أصل اليمين :

١٩ – لا تنعقد يمين النّاطق بالإشارة ، لأنّها لا تنعقد إلاّ بأسماء اللّه وصفاته .

أمّا الأخرس فذهب بعض الفقهاء إلى أنّ يمينه لا تنعقد . وذهب آخرون إلى أنّه إذا كانت له إشارةٌ مفهمةٌ حلف ، وتصحّ يمينه ، وإن كانت غير مفهمةٍ ، ووجبت عليه يمينه ، وقف حتّى تفهم إشارته . ونسب الزّركشىّ هذا للإمام الشّافعىّ . وانظر مصطلح (أيمانٌ) .

إشارة القاضى إلى أحد الخصوم :

٢٠ – لا يجوز للحاكم أن يعمل أعمالاً تسبّب التّهمة وسوء الظّنّ فى مجلس الحكم ، ممّا يوهم أنّه يفضّله على خصمه ، كالإشارة لأحد الخصمين باليد ، أو بالعين أو بالرّأس ، لأنّ ذلك يسبّب انكساراً لقلب الخصم الآخر ، وقد يحمله ذلك على ترك الدّعوى واليأس من العدالة ، ممّا يترتّب عليه ضياع حقّه . وهذا محلّ اتّفاقٍ بين الفقهاء .

وقد روى عمر بن شبّة فى كتاب قضاة البصرة بإسناده عن أمّ سلمة أنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « من ابتلى بالقضاء بين المسلمين ، فليعدل بينهم فى لحظه وإشارته ومقعده ، ولا يرفع صوته على أحد الخصمين ما لا يرفع على الآخر » وفى روايةٍ : « فليسوّ بينهم فى النّظر والإشارة والمجلس » .

إشارة المحتضر إلى الجانى عليه :

٢١ – ذهب جمهور الفقهاء إلى أنّه لا يعتبر قول المحتضر : قتلنى فلانٌ ، ولا يكون ذلك لوثاً ، لأنّه لا يقبل دعواه على الغير بالمال ، فلا يقبل ادّعاؤه عليه بالدّم ، ولأنّه مدّعٍ فلا يكون قوله حجّةً على غيره . لحديث : « لو يعطى النّاس بدعواهم لادّعى ناسٌ دماء رجالٍ وأموالهم » فإذا لم تعتبر أقواله فلا تقبل إشارته من باب أولى . وذهب مالكٌ إلى أنّه إذا قال المحتضر الحرّ المسلم البالغ العاقل : قتلنى فلانٌ عمداً ، ثمّ مات فإنّه يكون لوثاً ، فيثبت القصاص بعد حلف أولياء الدّم يمين القسامة . أمّا إذا قال : قتلنى

خطأً ، ففى ذلک عن الإمام مالکٍ روايتان : إحداهما : لا يقبل قوله ، لأنّه يتّهم على أنّه أراد إغناء ورثته .

والثّانية : أنّ قوله يقبل ، وتكون معه القسامة ، ولا يتّهم ، لأنّه فى حالٍ يصدّق فيه الكاذب ، ويتوب فيه الفاجر ، فمن تحقّق مصيره إلى الآخرة وأشرف على الموت فلا يتّهم فى إراقة دم مسلمٍ ظلماً ، وغلبة الظّنّ فى هذا ينزل منزلة غلبة الظّنّ فى صدق الشّاهد ، والغالب من أحوال النّاس عند الموت التّوبة والاستغفار والنّدم على التّفريط . وتزوّده من دنياه قتل نفسٍ خلاف الظّاهر وغير المعتاد .

إشارة المحتضر إلى تصرّفاتٍ ماليّةٍ :

٢٢ – إذا كان المحتضر قادراً على النّطق فلا تقبل إشارته ، أمّا إذا كان غير قادرٍ على النّطق فإشارته تقوم مقام عبارته . وفى حاشية ابن عابدين : إن لم يكن معتقل اللّسان لم تعتبر إشارته إلاّ فى أربعٍ : الكفر ، والإسلام ، والنّسب ، والإفتاء .

وعند المالكيّة : أنّ الإشارة المفهمة كالنّطق مطلقاً . وعلى هذا فإنّ إشارة المحتضر إلى تصرّفٍ ماليٍّ كعبارته ، سواءٌ أكان قادراً على النّطق أم لا .

إشاعةٌ ❊

التعريف :

١ – الإشاعة مصدر أشاع ، وأشاع ذكر الشّىء : أطاره وأظهره ، وشاع الخبر فى النّاس شيوعاً أى انتشر وذاع وظهر . ولا يخرج استعمال الفقهاء عن هذا المعنى اللّغوىّ .

وقد تطلق الإشاعة على الأخبار الّتى لا يعلم من أذاعها . وكثيراً ما يعبّر الفقهاء عن هذا المعنى بألفاظٍ أخرى غير الإشاعة كالاشتهار ، والإفشاء ، والاستفاضة .

الحكم الإجمالىّ :

٢ – قد تكون الإشاعة حراماً ، إذا كانت إظهاراً لما يمسّ أعراض النّاس كإشاعة الفاحشة ، لقوله تعالى : { إنّ الّذين يحبّون أن تشيع الفاحشة فى الّذين آمنوا لهم عذابٌ أليمٌ فى الدّنيا والآخرة } . هذا هو الحكم الأخروىّ ، وبالنّسبة للحكم المترتّب على الإشاعة الكاذبة فهو حدّ القذف إن توفّرت شروطه ، وإلاّ فالتّعزير . ر : (قذفٌ ، تعزيرٌ) .

أمّا المشاع عنه فلا عقوبه عليه بمجرّد الإشاعة ، قال القليوبىّ : لا يكتفى بالإشاعة – أى شيوع الزّنى – فى جواز القذف ، لأنّ السّتر مطلوبٌ . وقد ورد أنّ فى آخر الزّمان « يجلس الشّيطان بين الجماعة ،

فيتكلّم بالكلمة فيتحدّثون بها ، ويقولون : لا ندرى من قالها » . فمثل هذا لا ينبغى أن يسمع فضلاً عن أن يثبت به حكمٌ .

على أنّ من واجب أولى الأمر قطع دابر الفساد بالطّرق المناسبة .

٣ – وقد تكون الإشاعة طريقاً لثبوت بعض الأحكام ، ومن ذلك : أيمان القسامة ، فإنّها يكتفى لطلبها بالإشاعة ، فالإشاعة هنا تعتبر لوثاً . ومن ذلك : سقوط الحدّ عن الزّوجين إن دخلا بلا شهودٍ وثبت الوطء . إن فشا النّكاح ، أى شاع واشتهر .

٤ – وإذا كان إظهار الشّىء يترتّب عليه منع الوقوع فى الحرام ، فإنّ إشاعته تكون مطلوبةً ، وذلك كإشاعة الرّضاعة ممّن ترضع ، قال ابن عابدين : الواجب على النّساء ألاّ يرضعن كلّ صبىٍّ من غير ضرورةٍ ، وإذا أرضعن فليحفظن ذلك ، وليشهرنه ويكتبنه احتياطاً .

مواطن البحث :

٥ – تنظر مواطن الإشاعة فى أبواب الرّضاع ، والنّكاح ، والشّهادة والقسامة ، والصّيام (فى رؤية الهلال) والقذف ، وأصل الوقف ، وثبوت النّسب .

أشباهٌ ❊

التعريف اللّغوىّ :

١ – الأشباه جمعٌ مفرده شبهٌ ، والشّبه والشّبه : المثل ، والجمع أشباهٌ ، وأشبه الشّىء ماثله ، وبينهم أشباهٌ أى أشياء يتشابهون بها .

التعريف الاصطلاحىّ :

أ – عند الفقهاء :

٢ – لا يخرج استعمال الفقهاء للفظ الأشباه عن المعنى اللّغوىّ .

ب – عند الأصوليّين :

٣ – اختلف الأصوليّون فى تعريف الشّبه ، حتّى قال إمام الحرمين الجوينىّ : لا يمكن تحديده ، وقال غيره : يمكن تحديده . فقيل : هو الجمع بين الأصل والفرع بوصفٍ يوهم اشتماله على الحكمة المقتضية لحكمٍ من غير تعيينٍ ، كقول الشّافعىّ فى النّيّة فى الوضوء والتّيمّم : طهارتان فأنّى تفترقان . وقال القاضى أبو بكرٍ : هو أن يكون الوصف لا يناسب الحكم بذاته ، لكنّه يكون مستلزماً لما يناسبه بذاته . وحكى

الأبياريّ فى " شرح البرهان " عن القاضى أنّه : ما يوهم الاشتمال على وصفٍ مخيّلٍ . وقيل : الشّبه هو الّذى لا يكون مناسباً للحكم ولكن عرف اعتبار جنسه القريب فى الجنس القريب .

وأوضح تعريفٍ له هو ما قاله شارح مسلمٍ الثّبوت : الشّبه هو ما ليس بمناسبٍ لتراثه ، بل يوهم المناسبة ، وذلك التّوهّم إنّما هو بالتفات الشّارع إليه فى بعض الأحكام ، فيتوهّم فيه المناسبة ، كقولك : إزالة الخبث طهارةٌ تراد للصّلاة فتعيّن فيها الماء ، ولا يجوز مائعٌ آخر ، كإزالة الحدث يتعيّن فيها الماء .

وفى المستصفى : قياس الشّبه هو الجمع بين الفرع والأصل بوصفٍ ، مع الاعتراف بأنّ ذلك الوصف ليس علّةً للحكم ، وذلك كقول أبى حنيفة مسح الرّأس لا يتكرّر تشبيهاً له بمسح الخفّ والتّيمّم ، والجامع أنّه مسحٌ ، فلا يستحبّ فيه التّكرار قياساً على التّيمّم ومسح الخفّ . وفى الرّسالة يقول الشّافعىّ فى قياس الشّبه : يكون الشّىء له فى الأصول أشباهٌ ، فذلك يلحق بأولاها به وأكثرها شبهاً فيه ، فقد يختلف القايسون فى هذا .

صفته : الحكم الإجمالىّ :

أوّلاً : عند الفقهاء :

٤ – إذا نيط الحكم بأصلٍ فتعذّر انتقل إلى أقرب شبهٍ له . ولذلك اعتبر جمهور الفقهاء الشّبه طريقاً من طرق الحكم فى أبوابٍ معيّنةٍ ، من ذلك جزاء صيد المحرم ، قال اللّه تعالى : { ومن قتله منكم متعمّداً فجزاءٌ مثل ما قتل من النّعم يحكم به ذوا عدلٍ منكم } أى يحكمان فيه بأشبه الأشياء ، ومن ذلك فى النّسب ما روى أنّ عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : « دخل علىّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وهو مسرورٌ تبرق أسارير وجهه فقال : أى عائشة . ، ألم ترى إلى مجزّزٍ المدلجىّ دخل فرأى أسامة وزيداً وعليهما قطيفةٌ قد غطّيا رءوسهما وبدت أقدامهما ، فقال : إنّ هذه الأقدام بعضها من بعضٍ » .

وذلك يدلّ على أنّ إلحاق القافة يفيد النّسب لسرور النّبىّ صلى الله عليه وسلم به ، وهو لا يسرّ بباطلٍ . وقد أخذ بهذا جمهور الفقهاء خلافاً للحنفيّة .

٥ – ويشترط فى القضاء بالشّبه قول أهل الخبرة والمعرفة فى الأمر الّذى يكون فيه التّخاصم ، كاعتبار مجزّزٍ المدلجىّ من أهل الخبرة فى القيافة .

٦ – لكنّ الاعتماد على الشّبه بقول أهل الخبرة يكون فيما لم يرد فيه نصٌّ أو حكمٌ ، ولذلك يعتبر اللّعان مانعاً من إعمال الشّبه ، وقد « قال النّبىّ صلى الله عليه وسلم فى قصّة المتلاعنين : إن جاءت به أكحل العينين ، سابغ الأليتين ، مدلج السّاقين ، فهو لشريك ابن سحماء ، فجاءت به كذلك ، فقال النّبىّ صلى الله عليه وسلم : لولا ما مضى من كتاب اللّه لكان لى ولها شأنٌ » . وهذا بالنّسبة للنّصّ ، أمّا بالنّسبة للحكم فقد قال اللّه تعالى فى جزاء الصّيد : { يحكم به ذوا عدلٍ منكم } وقد قضى الصّحابة رضوان الله

عليهم فى بعض الحيوانات ، كقول عمر وعثمان وعليٍّ وزيد بن ثابتٍ وابن عبّاسٍ ومعاوية : فى النّعامة بدنةٌ . وما لم يقض فيه الصّحابة فيرجع فيه إلى قول عدلين من أهل الخبرة .

٧ – ويلاحظ أنّ الإمام أبا حنيفة وأصحابه يخالفون الجمهور فى الاعتماد على الشّبه فى النّسب . كما أنّ الشّبه فى حزّاء الصّيد هو عند الجمهور من حيث الخلقة ، وعند الحنفيّة المثل هو القيمة . وتفصيل ذلك يرجع إليه فى مواضعه .

٨– كذلك يعتمد على الشّبه فى الاختلاف الواقع بين المتداعيين عند المالكيّة .

جاء فى تبصرة الحكّام : إن اختلف البائع والمشترى فى ثمن السّلعة ، فإن ادّعى أحدهما ثمناً يشبه ثمن السّلعة ، وادّعى الآخر مالاً يشبه أن يكون ثمناً لها ، فإن كانت السّلعة فائتةً (أى قد خرجت من يد المدّعى عليه بهلاكٍ أو بيعٍ أو نحوهما) فالقول قول مدّعى الأشبه منهما اتّفاقاً (أى عند المالكيّة) ، لأنّ الأصل عدم التّغابن ، والشّراء بالقيمة وما يقاربها . وإن كانت السّلعة قائمةً فالمشهور أنّه لا يراعى الأشبه ، لأنّهما قادران على ردّ السّلعة . وفى المنثور فى القواعد للزّركشىّ فى باب الرّبا : إذا كان المبيع لا يكال ولا يوزن فيعتبر بأقرب الأشياء شبهاً به على أحد الأوجه . والصّلح مع الإقرار يحمل على البيع أو الإجارة أو الهبة . والأصل فيه أنّ الصّلح يجب حمله على أقرب العقود إليه وأشبهها به ، لتصحيح تصرّف العاقد ما أمكن . ر : (صلحٌ) .

ثانياً : عند الأصوليّين

٩ – اختلف الأصوليّون هل الشّبه حجّةٌ أم لا ؟ فقيل : إنّه حجّةٌ وإليه ذهب الأكثرون ، وقيل : إنّه ليس بحجّةٍ وبه قال أكثر الحنفيّة . وقيل غير ذلك .

وينظر تفصيل ذلك فى الملحق الأصولىّ (القياس) .

المراد بفنّ الأشباه والنّظائر فى علم الفقه :

١٠ – المراد بفنّ الأشباه والنّظائر – كما ذكر الحموىّ فى تعليقه على أشباه ابن نجيمٍ – : المسائل الّتى يشبه بعضها بعضاً مع اختلافها فى الحكم لأمورٍ خفيّةٍ أدركها الفقهاء بدقّة أنظارهم . وفائدته كما ذكر السّيوطىّ أنّه فنٌّ به يطّلع على حقائق الفقه ومداركه ومأخذه وأسراره ، ويتمهّر فى فهمه واستحضاره ، ويقتدر على الإلحاق والتّخريج ، ومعرفة أحكام المسائل الّتى ليست بمسطورةٍ ، والحوادث والوقائع الّتى لا تنقضى على مرّ الزّمان .

وقد كتب عمر بن الخطّاب إلى أبى موسى الأشعرىّ : اعرف الأمثال والأشباه ، ثمّ قس الأمور عندك ، فاعمد إلى أحبّها إلى اللّه وأشبهها بالحقّ فيما ترى .

اشتباهٌ ❊

التعريف :

١ – الاشتباه مصدر : اشتبه ، يقال اشتبه الشّيئان وتشابها : أشبه كلّ واحدٍ مهما الآخر . والمشتبهات من الأمور : المشكلات . والشّبهة اسمٌ من الاشتباه وهو الالتباس .

والاشتباه فى الاستعمال الفقهىّ أخصّ منه فى اللّغة ، فقد عرّف الجرجانىّ الشّبهة بأنّها : ما لم يتيقّن كونه حراماً أو حلالاً . وقال السّيوطىّ : الشّبهة ما جهل تحليله على الحقيقة وتحريمه على الحقيقة . ويقول الكمال بن الهمام : الشّبهة ما يشبه الثّابت وليس بثابتٍ ، ولا بدّ من الظّنّ لتحقّق الاشتباه .

الألفاظ ذات الصّلة

أ – الالتباس :

٢ – الالتباس هو : الإشكال ، والفرق بينه وبين الاشتباه على ما قال الدّسوقىّ : أنّ الاشتباه معه دليلٌ (يرجّح أحد الاحتمالين) والالتباس لا دليل معه .

ب – الشّبهة :

٣ – يقال : اشتبهت الأمور وتشابهت : التبست فلم تتميّز ولم تظهر ، ومنه اشتبهت القبلة ونحوها ، والجمع فيها شبهٌ وشبهاتٌ . وقد سبق أنّها ما لم يتعيّن كونه حراماً أو حلالاً نتيجة الاشتباه . وللفقهاء فى تقسيمها وتسميتها اصطلاحاتٌ ، فجعلها الحنفيّة نوعين : الأوّل : شبهةٌ فى الفعل ، وتسمّى شبهة اشتباهٍ أو شبهة مشابهةٍ ، أى شبهةٌ فى حقّ من اشتبه عليه فقط ، بأن يظنّ غير الدّليل دليلاً ، كما إذا ظنّ جارية امرأته تحلّ له ، فمع الظّنّ لا يحدّ ، حتّى لو قال : علمت أنّها تحرم علىّ حدّ .

النّوع الثّانى : شبهةٌ فى المحلّ ، وتسمّى شبهةٌ حكميّةٌ أو شبهة ملكٍ ، أى شبهةٌ فى حكم الشّرع بحلّ المحلّ . وهى تمنع وجوب الحدّ ، ولو قال علمت أنّها حرامٌ علىّ . وتتحقّق بقيام الدّليل النّافى للحرمة فى ذاته ، لكن لا يكون الدّليل عاملاً لقيام المانع كوطء أمة الابن ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « أنت ومالك لأبيك » ، ولا يتوقّف هذا النّوع على ظنّ الجانى واعتقاده ، إذ الشّبهة بثبوت الدّليل قائمةٌ . وجعلها الشّافعيّة ثلاثة أقسامٍ :

–١ – شبهةٌ فى المحلّ ، كوطء الزّوجة الحائض أو الصّائمة ، لأنّ التّحريم ليس لعينه بل لأمرٍ عارضٍ كالإيذاء وإفساد العبادة .

– ٢ – وشبهةٌ فى الفاعل ، كمن يجد امرأةً على فراشه فيطؤها ، ظانّاً أنّها زوجته .

– ٣ – وشبهةٌ فى الجهة ، كالوطء فى النّكاح بلا وليٍّ أو بلا شهودٍ . وتفصيل ذلك فى مصطلح شبهةٌ .

والمقصود هنا بيان أنّ الشّبهة أعمّ من الاشتباه ، لأنّها قد تنتج نتيجة الاشتباه ، وقد تنتج دون اشتباهٍ .

ج – التّعارض :

٤ – التّعارض لغةً : المنع بالاعتراض عن بلوغ المراد . واصطلاحاً : تقابل الحجّتين المتساويتين على وجهٍ توجب كلّ واحدةٍ منهما ضدّ ما توجبه الأخرى . وسيأتى أنّ التّعارض أحد أسباب الاشتباه .

د – الشّكّ :

٥ – الشّكّ لغةً : خلاف اليقين ، وهو التّردّد بين شيئين ، سواءٌ استوى طرفاه ، أو رجّح أحدهما على الآخر ، وقد استعمله الفقهاء كذلك . وهو عند الأصوليّين : التّردّد بين أمرين بلا ترجيحٍ لأحدهما على الآخر عند الشّاكّ ، فالشّكّ سببٌ من أسباب الاشتباه .

هـ – الظّنّ :

٦ – الظّنّ خلاف اليقين . وقد يستعمل بمعنى اليقين ، كما فى ، قوله تعالى : { الّذين يظنّون أنّهم ملاقو ربّهم } .

وفى الاصطلاح : هو الاعتقاد الرّاجح مع احتمال النّقيض ، وهو طريقٌ لحدوث الاشتباه . – و – الوهم :

٧ – الوهم : ما سبق القلب إليه مع إرادة غيره .

وفى الاصطلاح : هو إدراك الطّرف المرجوح ، أو كما قال عنه ابن نجيمٍ : رجحان جهة الخطأ ، فهو دون كلٍّ من الظّنّ والشّكّ ، وهو لا يرتقى إلى تكوين اشتباهٍ .

أسباب الاشتباه :

٨ – قد ينشأ الاشتباه نتيجة خفاء الدّليل بسببٍ من الأسباب ، كالإجمال فى الألفاظ واحتمالها التّأويل ، ودوران الدّليل بين الاستقلال بالحكم وعدمه ، ودورانه بين العموم والخصوص ، واختلاف الرّواية بالنّسبة للحديث ، وكالاشتراك فى اللّفظ ، أو التّخصيص فى عامّه ، أو التّقييد فى مطلقه ، كما ينشأ الاشتباه عند تعارض الأدلّة دون مرجّحٍ . كما أنّ النّصوص فى دلالتها ليست على وضعٍ واحدٍ ، فمنها ما دلالته على الأحكام ظنّيّةٌ ، فيجتهد الفقهاء للتّعرّف على ما يدلّ عليه النّصّ ، وقد يتشابه الأمر عليهم نتيجة ذلك ، إذ من الحقائق الثّابتة اختلاف النّاس فى تفكيرهم ، وتباين وجهات نظرهم .

والاشتباه النّاشئ عن خفاءٍ فى الدّليل يعذر المجتهد فيه ، بعد بذله الجهد واستفراغه الوسع ، ويكون فيما انتهى إليه من رأيٍ قد اتّبع الدّليل المرشد إلى تعرّف قصد الشّارع .

وبيان ذلك فيما يلى :

أ – اختلاف المخبرين :

٩ – ومن ذلک ما لو أخبره عدلٌ بنجاسة الماء ، وأخبره آخر بطهارته . فإنّ الأصل عند تعارض الخبرين وتساويهما تساقطهما ، وحينئذٍ يعمل بالأصل وهو الطّهارة ، إذ الشّيء متى شکّ فى حكمه ردّ إلى أصله ، لأنّ اليقين لا يزول بالشّکّ ، والأصل فى الماء الطّهارة .

ومن هذا القبيل ما لو أخبر عدلٌ بأنّ هذا اللّحم ذبحه مجوسيٌّ ، وأخبر عدلٌ آخر أنّه ذكّاه مسلمٌ ، فإنّه لا يحلّ لبقاء اللّحم على الحرمة الّتى هى الأصل . إذ حلّ الأكل متوقّفٌ على تحقّق الذّكاة الشّرعيّة .

وبتعارض الخبرين لم يتحقّق الحلّ ، فبقيت الذّبيحة على الحرمة .

ب – الإخبار المقتضى للاشتباه :

١٠ – وهو الإخبار الّذى اقترنت به قرائن توقع فى الاشتباه . مثال ذلک : أن يعقد على امرأةٍ ، ثمّ تزفّ إليه أخرى بناءً على أنّها زوجته ، ويدخل بها على هذا الاعتقاد ، ثمّ يتبيّن أنّها ليست المرأة الّتى عقد عليها . فإن وطئها فإنّه لا حدّ عليه اتّفاقاً ، لأنّه اعتمد دليلاً شرعيّاً فى موضع الاشتباه ، وهو الإخبار .

وقد أورد الفقهاء فروعاً كثيرةً مثل هذا الفرع ، وهى مبنيّةٌ على هذا الأساس .

ت – تعارض الأدلّة ظاهراً :

١١ – لا يوجد بين أدلّة الأحكام الشّرعيّة فى واقع الأمر تعارضٌ ، لأنّها جميعها من عند اللّه تعالى . أمّا ما يظهر من التّعارض بين الدّليلين فلعدم العلم بظروفهما وشروط تطبيقهما ، أو بما يراد بكلٍّ منهما على سبيل القطع ، أو لجهلنا بزمن ورودهما ، وغير ذلک ممّا يرتفع به التّعارض . فمن الاشتباه بسبب تعارض الأدلّة فى الظّاهر ما إذا سرق الوالد من مال ولده ، إذ أنّ نصوص العقاب على السّرقة تشمل فى عمومها هذه الواقعة . فاللّه سبحانه وتعالى يقول : { والسّارق والسّارقة فاقطعوا أيديهما ... } . غير أنّه قد جاء فى السّنّة ما يفيد حلّ مال الابن لأبيه . فقد روى أنّ الرّسول صلى الله عليه وسلم قال : « أنت ومالک لأبيک » وقوله : « إنّ أطيب ما أكل الرّجل من كسبه ، وإنّ ولده من كسبه » ووجود مثل هذا ينتج اشتباهاً فى الحكم يترتّب عليه إسقاط الحدّ ، لأنّ من أعظم الشّبهات أخذ الرّجل من مالٍ جعله الشّرع له ، وأمره بأخذه وأكله . وقال أبو ثورٍ وابن المنذر بإقامة الحدّ .

وتفصيل ذلک فى مصطلح (سرقةٌ) .

ومن الاشتباه النّاشئ عن تعارض الأدلّة فى الظّاهر ما ورد بالنّسبة لطهارة سؤر الحمار ، فقد روى عن عبد اللّه بن عبّاسٍ أنّه كان يقول :" الحمار يعتلف القتّ والتّبن فسؤره طاهرٌ وعن جابرٍ « أنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم سئل : أنتوضّأ بما أفضلت الحمر ؟ قال : نعم ، وبما أفضلت السّباع كلّها » ، وروى عن

عبد اللّه بن عمر أنّه كان يقول :" إنّه رجسٌ" والتّوقّف فى الحكم عند تعارض الأدلّة واجبٌ . فلذلك كان مشكوكاً فيه ، والمراد بالشّكّ التّوقّف عن إعطاء حكمٍ قاطعٍ ، لتعارض الأدلّة . قال ابن عابدين : الأصحّ أنّ سؤر الحمار مشكوكٌ فى طهوريّته (أى كونه مطهّراً ، لا فى طهارته فى ذاته) وهو قول الجمهور . وسببه تعارض الأخبار فى لحمه ، وقيل : اختلاف الصّحابة فى سؤره ، وقد استوى ما يوجب الطّهارة والنّجاسة فتساقطا للتّعارض ، فيصار إلى الأصل ، وهو هنا شيئان : الطّهارة فى الماء ، والنّجاسة فى اللّعاب ، وليس أحدهما أولى من الآخر ، فبقى الأمر مشكلاً ، نجساً من وجهٍ ، طاهراً من وجهٍ .

ث – اختلاف الفقهاء :

١٢ – من ذلك ما قاله الفقهاء من عدم وجوب الحدّ بالوطء فى نكاحٍ مختلفٍ فيه ، كالنّكاح بلا وليٍّ ، فالحنفيّة يجيزونه . وسقوط الحدّ بسبب ذلك قول أكثر أهل العلم ، لأنّ الاختلاف فى إباحة الوطء فيه شبهةٌ ، والحدود تدرأ بالشّبهات ويرجع فى تفصيل ذلك إلى باب (حدّ الزّنى) . ومن ذلك المصلّى بالتّيمّم إذا رأى سراباً ، وكان أكبر رأيه أنّه ماءٌ ، فإنّه يباح له أن ينصرف ، وإن استوى الأمران لا يحلّ له قطع الصّلاة ، وإذا فرغ من الصّلاة ، إن ظهر أنّه كان ماءً يلزمه الإعادة ، وإلاّ فلا . نصّ على ذلك الحنفيّة . والشّافعيّة والحنابلة على أنّ من تيمّم لفقد الماء فوجده أو توهّمه بطل تيمّمه إن لم يكن فى صلاةٍ . ويحصل هذا التّوهّم برؤية سرابٍ . ومحلّ بطلانه بالتّوهّم إن بقى من الوقت زمنٌ لو سعى فيه إلى ذلك لأمكنه التّطهّر به والصّلاة فيه . وإذا بطل التّيمّم بتوهّم وجود الماء فإنّه بطلانه بالظّنّ أو الشّكّ أولى ، سواءٌ أتبيّن له خلاف ظنّه أم لم يتبيّن ، لأنّ ظنّ وجود الماء مبطلٌ للتّيمّم . وعند المالكيّة : إن وجد الماء بعد الدّخول فى الصّلاة فيجب عليه إتمامها . ونصّ الحنابلة على أنّ من خاف على نفسه أو ماله إذا ما طلب الماء ساغ له التّيمّم ، ولو كان خوفه بسبب ظنّه فتبيّن عدم السّبب . مثل من رأى سواداً باللّيل ظنّه عدوّاً ، فتبيّن أنّه ليس بعدوٍّ بعد أن تيمّم وصلّى لم يعد لكثرة البلوى . وقيل : يلزمه الإعادة ، لأنّه تيمّم من غير سببٍ مبيحٍ للتّيمّم .

ج – الاختلاط :

١٣ – يقصد به اختلاط الحلال بالحرام وعسر التّمييز بينهما . كما لو اختلطت الأوانى الّتى فيها ماءٌ طاهرٌ بالأوانى الّتى فيها ماءٌ نجسٌ ، واشتبه الأمر ، بأن لم يمكن التّمييز بينهما ، فإنّه يسقط استعمال الماء ، ويجب التّيمّم عند الحنفيّة والحنابلة ، وهو قول سحنونٍ من المالكيّة ، لأنّ أحدهما نجسٌ يقيناً ، والآخر طاهرٌ يقيناً ، لكن عجز عن استعماله لعدم علمه فيصار إلى البدل . وتفصيل ذلك يرجع فيه إلى مصطلح (ماءٌ) .

ومن هذا القبيل ما إذا اشتبهت عليه ثيابٌ طاهرةٌ بنجسةٍ ، وتعذّر التّمييز بينها ، ولم يجد ثوباً طاهراً بيقينٍ ، وليس معه ما يطهّرهما به ، واحتاج إلى الصّلاة ، فالحنفيّة ، وهو المشهور عند المالكيّة ، ومذهب الشّافعيّة خلافاً للمزنيّ ، أنّه يتحرّى بينها ، ويصلّى بما غلب على ظنّه طهارته . وقال الحنابلة وابن الماجشون من المالكيّة : لا يجوز التّحرّى ويصلّى فى ثياب منها بعدد النّجس منها ، ويزيد صلاةً فى ثوبٍ آخر . وقال أبو ثورٍ والمزنيّ : لا يصلّى فى شيءٍ منها كالأوانى . وإنّما يتحرّى – عند من قال بذلك – إذا لم يجد ثوباً طاهراً ، أو ما يطهّر به ما اشتبه عليه من الثّياب . وإذا تحرّى فلم يترجّح أحدهما على الآخر صلّى فى أحدهما . والقائلون بالتّحرّى هنا قالوا : لأنّه لا خلف للثّوب فى ستر العورة ، بخلاف الاشتباه فى الأوانى ، لأنّ التّطهّر بالماء له خلفٌ وهو التّيمّم .

ح – الشّكّ (بالمعنى الأعمّ يشمل أيضاً الظّنّ والوهم) :

١٤ – ومن ذلك ما قالوه فيمن أيقن بالوضوء وشكّ فى الحدث من أنّه لا وضوء عليه ، إذ اليقين لا يزول بالشّكّ ، وهو ما ذهب إليه فقهاء المذاهب ، غير أنّه نقل عن مالكٍ أنّه قال : من أيقن بالوضوء وشكّ فى الحدث ابتدأ الوضوء ، وقد روى ابن وهبٍ عن مالكٍ أنّه قال : أحبّ إلىّ أن يتوضّأ ، وهذا يدلّ على أنّ الوضوء عند مالكٍ فى ذلك إنّما هو استحبابٌ واحتياطٌ ، كما أجمعوا على أنّ من أيقن بالحدث وشكّ فى الوضوء أنّ شكّه لا يعتبر وعليه الوضوء ، لأنّه المتيقّن . والمراد بالشّكّ هنا مطلق التّردّد سواءٌ أكان على السّواء أم كان أحد طرفيه أرجح . وعلى هذا فلا فرق بين أن يغلب على ظنّه أحدهما أو يتساوى الأمران عندهما ، لأنّ غلبة الظّنّ إذا لم تكن مضبوطةً بضابطٍ شرعىٍّ لا يلتفت إليها ، ولأنّه إذا شكّ تعارض عنده الأمران ، فيجب سقوطهما كالبيّنتين إذا تعارضتا ، ويرجع إلى اليقين وقالوا : من تيقّن الطّهارة والحدث معاً واشتبه عليه الأمر فلم يعلم الأخير منهما والأسبق فيعمل بضدّ ما قبلهما ، فإن كان قبل ذلك محدثاً فهو الآن متطهّرٌ ، لأنّه تيقّن الطّهارة بعد ذلك الحدث وشكّ فى انتقاضها ، لأنّه لا يدرى هل الحدث الثّانى قبلها أو بعدها . وإن كان متطهّراً وكان يعتاد التّجديد فهو الآن محدثٌ ، لأنّه متيقّنٌ حدثاً بعد تلك الطّهارة وشكّ فى زواله ، لأنّه لا يدرى هل الطّهارة الثّانية متأخّرةٌ عنه أم لا . ومن هذا القبيل ما قالوه فى الصّائم لو شكّ فى غروب الشّمس ، فإنّه لا يصحّ له أن يفطر مع الشّكّ ، لأنّ الأصل بقاء النّهار . ولو أفطر وهو شاكٌّ ولم يتبيّن الحال بعد ذلك فعليه القضاء اتّفاقاً .

أمّا إذا شكّ الصّائم فى طلوع الفجر فالمستحبّ له ألاّ يأكل لاحتمال أن يكون الفجر قد طلع ، فيكون الأكل إفساداً للصّوم فيتحرّز عنه ، لما روى أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال : « الحلال بيّنٌ والحرام بيّنٌ وبينهما أمورٌ مشتبهاتٌ » . وقوله صلى الله عليه وسلم : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك »

. ولو أكل وهو شاكٌّ فإنّه لا يحكم بوجوب القضاء عليه ، لأنّ فساد الصّوم مشكوكٌ فيه ، إذ الأصل بقاء اللّيل فلا يثبت النّهار بالشّكّ ، وإلى هذا اتّجه فقهاء الحنفيّة والشّافعيّة والحنابلة .

وقال المالكيّة : من أكل شاكّاً فى الفجر فعليه القضاء مع الحرمة ، وإن كان الأصل بقاء اللّيل ، هذا بالنّسبة لصوم الفرض . وقيل : وفى النّفل أيضاً . كما قيل مع الكراهة لا الحرمة . ومن أكل معتقداً بقاء اللّيل أو حصول الغروب ثمّ طرأ الشّكّ ، فعليه القضاء بلا حرمةٍ .

د – الجهل :

١٥ – ومن ذلك الأسير فى دار الحرب ، إذا لم يعرف دخول رمضان ، وأراد صومه ، فتحرّى وصام شهراً عن رمضان فتبيّن أنّه أخطأ . فإذا كان صام قبل حلول شهر رمضان فعلاً لم يجزئه ، لأنّه أدّى الواجب قبل وجوبه ووجود سببه ، وهو مشاهدة الشّهر ، ونقل الشّيرازىّ عن الأصحاب من الشّافعيّة قولاً آخر بالإجزاء ، لأنّه عبادةٌ تفعل فى السّنة مرّةً ، فجاز أن يسقط فرضها بالفعل قبل الوقت عند الخطأ ، كالوقوف بعرفة إذا أخطأ النّاس ووقفوا قبل يوم عرفة ، ثمّ قال : والصّحيح أنّه لا يجزئه ، لأنّه تيقّن الخطأ فيما يؤمن مثله فى القضاء ، فلم يعتدّ بما فعله ، كما لو تحرّى فى وقت الصّلاة فصلّى قبل الوقت .

وإن تبيّن أنّ الشّهر الّذى صامه كان بعد رمضان صحّ .

وإذا كان الشّهر الّذى صامه ناقصاً ، ورمضان الّذى صامه النّاس تامّاً صام يوماً ، إذ لا بدّ من موافقة العدد ، لأنّ صوم شهرٍ آخر بعده يكون قضاءً ، والقضاء يكون على قدر الفائت . وعند الشّافعيّة وجهٌ آخر اختاره أبو حامدٍ الإسفراييّنىّ بالإجزاء ، لأنّ الشّهر يقع على ما بين الهلالين ، ولهذا لو نذر صوم شهرٍ ، فصام شهراً نقاصاً بالأهلّة أجزأه . ثمّ قال الشّيرازىّ : والصّحيح عندى أنّه يجب عليه صوم يومٍ .

ومن ذلك الاشتباه فى القبلة بالنّسبة لمن يجهلها . فقد نصّ فقهاء المذاهب على أنّ من اشتبهت عليه جهة القبلة ، ولم يكن عالماً بها ، سأل من بحضرته ممّن يعلمها من أهل المكان . وحدّ الحضرة أن يكون بحيث لو صاح به سمعه . فإذا تحرّى بنفسه وصلّى دون سؤالٍ ، وتبيّن له بعد ذلك أنّه لم يصب القبلة ، أعاد الصّلاة ، لعدم إجزاء التّحرّى مع القدرة على الاستخبار ، لأنّ التّحرّى دون الاستخبار ، إذ الخبر ملزمٌ له ولغيره ، بينما التّحرّى ملزمٌ له دون غيره ، فلا يصار إلى الأدنى مع إمكان الأعلى ، أمّا إذا لم يكن بحضرته أحدٌ يرجع إليه فى ذلك ، أو كان وسأله ولم يجبه ، أو لم يدلّه ثمّ تحرّى ، فإنّ صلاته تصحّ ، حتّى لو تبيّن له بعد ذلك أنّه أخطأ ، لما روى عن عامر بن ربيعة أنّه قال : « كنّا مع رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فى ليلةٍ مظلمةٍ ، فلم ندر أين القبلة ، فصلّى كلّ رجلٍ منّا على حياله – أى قبالته – فلمّا أصبحنا ذكرنا ذلك لرسول اللّه صلى الله عليه وسلم فنزل قول اللّه سبحانه { فأينما تولّوا فثمّ وجه اللّه } » . ولأنّ العمل بالدّليل الظّاهر واجبٌ إقامةً للواجب بقدر الوسع ، وإقامةً للظّنّ مقام اليقين لتعذّره . ولما

روى عن عليٍّ رضى الله عنه أنّ " قبلة المتحرّى جهة قصده إن تحرّى ثمّ قبل الصّلاة أخبره عدلان من أهل الجهة أنّ القبلة إلى جهةٍ أخرى ، أخذ بقولهما ولا عبرة بالتّحرّى .

ذ – النّسيان :

١٦ – ومن ذلك المرأة إذا نسيت عادة حيضها ، واشتبه عليها الأمر بالنّسبة للحيض والطّهر ، بأن لم تعلم عدد أيّام حيضها المعتادة ، ولا مكان هذه الأيّام من الشّهر فإنّها تتحرّى ، فإن وقع تحرّيها على طهرٍ تعطى حكم الطّاهرات ، وإن كان على حيضٍ أعطيت حكمه ، لأنّ غلبة الظّنّ من الأدلّة الشّرعيّة .

وإن تردّدت ولم يغلب على ظنّها شيءٌ فهى المحيّرة ، وتسمّى المضلّلة ، لا يحكم لها بشيءٍ من الطّهر أو الحيض على التّعيين ، بل تأخذ بالأحوط فى حقّ الأحكام ، لاحتمال كلّ زمانٍ يمرّ عليها من الحيض والطّهر والانقطاع ، ولا يمكن جعلها حائضاً دائماً لقيام الإجماع على بطلانه ، ولا طاهراً دائماً لقيام الدّم ، ولا التّبعيض لأنّه تحكّمٌ ، فوجب الأخذ بالأحوط فى حقّ الأحكام للضّرورة . وتفصيل أحكامها فى مصطلح (استحاضةٌ) .

س – وجود دليلٍ غير قويٍّ على خلاف الأصل :

١٧ – ومن ذلك ما قاله فقهاء الحنفيّة وابن شبرمة والثّورىّ وابن أبى ليلى فى إثبات الشّفعة بسبب الجواز ، أو بسبب الشّركة فى مرافق العقار ، ووافقهم الشّافعيّة فى الصّحيح عندهم بالنّسبة للشّريك فى ممرّ الدّار ، بأن كان للمشترى طريقٌ آخر إلى الدّار ، أو أمكن فتح بابٍ لها إلى شارع . وأمّا جمهور الفقهاء فيقصرونها على الشّركة فى نفس العقار المبيع فقط ، فإذا وقعت الحدود فلا شفعة ، لأنّ الشّفعة تثبت على خلاف الأصل ، إذ هى انتزاع ملك المشترى بغير رضاءٍ منه ، وإجبارٌ له على المعاوضة ، ولما روى جابرٌ من قول النّبىّ صلى الله عليه وسلم : « الشّفعة فيما لم يقسم ، فإذا وقعت الحدود وصرفت الطّرق فلا شفعة » وبما روى عن سعيد بن المسيّب أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قسمت الأرض وحدّت فلا شفعة فيها » .

ومقتضى الأصل أن لا يثبت حقّ الأخذ بالشّفعة أصلاً ، لكنّها ثبتت فيما لا يقسم بالنّصّ الصّريح غير معقول المعنى ، فبقى الأمر فى المقسوم على الأصل ، أو ثبت معلولاً بدفع ضررٍ خاصٍّ وهو ضرر القسمة .

وما استدلّ به الحنفيّة ومن معهم من أحاديث ، فإنّ فى أسانيدها مقالاً . قال ابن المنذر : الثّابت عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم حديث جابرٍ – السّابق ذكره – وما عداه من الأحاديث الّتى استدلّ بها الحنفيّة ومن معهم ، كالحديث الّذى رواه أبو رافعٍ « الجار أحقّ بسقبه » ، والحديث الّذى رواه سمرة أنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « جار الدّار أحقّ بالدّار » . فإنّ فيها مقالاً . على أنّه يحتمل أنّه أراد

بالجار الشّريک ، فإنّه جارٌ أيضاً . فكلّ هذا أورث شبهةً عند الجمهور ، لأنّ ما استدلّ به الحنفيّة غير قويٍّ ، وجاء على خلاف الأصل ، ولذا لم يثبتوا الشّفعة بسبب الجوار والشّركة فى مرافق العقار ، وقصروها على الشّركة فى العقار نفسه . وبناءً على هذا الاشتباه : لو قضى قاضٍ بها لا يفسخ قضاؤه .

ومن الاشتباه النّاجم عن وجود دليلٍ غير قويٍّ على خلاف الأصل : ما قاله الحنفيّة من أنّ دلالة العامّ الّذى لم يخصّص قطعيّه ، فيدلّ على جميع الأفراد الّتى يصدق عليها معناه . فإذا دخله التّخصيص كانت دلالته ظنّيّةً . بينما يرى جمهور الأصوليّين أنّ دلالة العامّ فى جميع أحواله ظنّيّةٌ ، إذ الأصل أنّه ما من عامٍّ إلاّ وخصّص . وما دام العامّ لا يكاد يخلو من مخصّصٍ ، فإن هذا يورث شبهةً قويّةً تمنع القول بقطعيّته فى إفادة الشّمول والاستغراق ، ويترتّب على هذا الخلاف أنّ الحنفيّة يمنعون تحصيص عامّ الكتاب والسّنّة المتواترة ابتداءً بالدّليل الظّنّىّ ، خلافاً للجمهور .

وعلى هذا فقد ذهب الحنفيّة إلى تحريم أكل ذبيحة المسلم ، إذا تعمّد ترک التّسمية عليها ، لعموم قوله تعالى : { ولا تأكلوا ممّا لم يذكر اسم اللّه عليه } ولم يخصّصوا هذا العموم بحديث : « ذبيحة المسلم حلالٌ ، ذكر اسم اللّه أو لم يذكره » ، لأنّه خبر آحادٍ ، وقد وافقهم المالكيّة والحنابلة فى تحريم ذبيحة المسلم إذا ترک التّسمية عمداً ، بينما الشّافعيّة يجيزون أكلها ، لأنّ دلالة العامّ عندهم ظنّيّةٌ ، فيجوز تحصيصه بما هو ظنّىٌّ ، وإن كرهوا تعمّد التّرک . وتفصيل ذلک فى (تذكيةٌ ، وتسميةٌ) .

ومن هذا القبيل أيضاً : اختلاف الفقهاء فى سرقة ما قيمته نصابٌ من الماء المحرّز ، فالأصل فى الماء المحرّز أنّه مالٌ متقوّمٌ ، وأنّه ملكٌ لمن أحرزه ، ولا شركة فيه ولا شبهة الشّركة ، وقد ورد النّهى عن « بيع الماء إلاّ ما حمل » . ولهذا قال جمهور الفقهاء بوجوب القطع ، يقول ابن رشدٍ : اختلف الفقهاء فى الأشياء الّتى أصلها مباحٌ ، هل يجب فى سرقتها القطع ؟ فذهب الجمهور إلى أنّ القطع فى كلّ متموّلٍ يجوز بيعه وأخذ العوض فيه ، وعمدتهم عموم الآية الموجبة للقطع ، يقول اللّه تعالى : { والسّارق والسّارقة فاقطعوا أيديهما } وعموم الآثار الواردة فى اشتراط النّصاب ، ومنها ما ثبت عن السّيّدة عائشة رضى الله عنها أنّ الرّسول صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقطع يد السّارق إلاّ فى ربع دينارٍ فصاعداً » .

ويقول الدّسوقىّ : ويجب القطع وإن كان المسروق محقّراً كماءٍ وحطبٍ ، لأنّه متموّلٌ ما دام محرّزاً ، ولو كان مباح الأصل . وهذا مذهب الشّافعيّة ، والقول المشهور عن أبى يوسف . لكنّ أبا حنيفة ومحمّد بن الحسن ، والحنابلة يرون عدم القطع ، لأنّه لا يتموّل عادةً ، ولأنّ الإباحة الأصليّة تورث شبهةً بعد الإحراز ، ولأنّ التّافه لا يحرّز عادةً ، أو لا يحرّز إحراز الخطير ، وينتهون إلى أنّ الاعتماد على معنى التّفاهة دون إباحة الأصل ، وإن كان منهم من يرى أنّ السّبب شبهة الشّركة .

ش – الإبهام مع عدم إمكان البيان :

١٨ – ومن ذلک ما إذا طلّق الرّجل إحدى زوجتيه ، دون تعيين واحدةٍ منهما ، ثمّ مات قبل البيان ، فيحدث الاشتباه بسبب ذلک فيمن وقع عليها الطّلاق . فالحنفيّة يفصّلون فى هذه المسألة أحكام المهر المسمّى ، وحكم الميراث ، وحكم العدّة . فأمّا حكم المهر فإن كانتا مدخولاً بهما فلكلّ واحدةٍ منهما جميع المهر ، لأنّ كلّ واحدةٍ منهما تستحقّ جميع المهر ، منكوحةً كانت أو مطلّقةً . وإن كانتا غير مدخولٍ بهما فلهما مهرٌ ونصف مهرٍ بينهما ، لكلّ واحدةٍ . منهما ثلاثة أرباع المهر ، لأنّ كلّ واحدةٍ منهما يحتمل أن تكون زوجةً متوفّى عنها ، ويحتمل أن تكون مطلّقةً . فإن كانت زوجةً متوفّى عنها تستحقّ جميع المهر ، لأنّ الموت بمنزلة الدّخول ، وإن كانت مطلّقةً تستحقّ النّصف فقط ، لأنّ النّصف سقط بالطّلاق قبل الدّخول ، فلكلّ واحدةٍ منهما كلّ المهر فى حالٍ ، والنّصف فى حالٍ ، وليست إحداهما بأولى من الأخرى ، فيتنصّف ، فيكون لكلّ واحدةٍ ثلاثة أرباع مهرٍ .

وأمّا حكم الميراث ، فهو أنّهما يرثان منه ميراث امرأةٍ واحدةٍ ، ويكون بينهما نصفين فى الأحوال كلّها ، لأنّ إحداهما منكوحةٌ بيقينٍ ، وليست إحداهما بأولى من الأخرى ، فيكون قدر ميراث امرأةٍ واحدةٍ بينهما بالسّويّة . وأمّا حكم العدّة ، فعلى كلّ واحدةٍ منهما عدّة الوفاة وعدّة الطّلاق ، أيّهما أطول ، لأنّ إحداهما منكوحةٌ والأخرى مطلّقةٌ ، وعلى المنكوحة عدّة الوفاة ، وعلى المطلّقة عدّة الطّلاق ، فدارت كلّ واحدةٍ من العدّتين فى حقّ كلّ واحدةٍ من المرأتين بين الوجوب وعدم الوجوب ، والعدّة يحتاط فى إيجابها ، ومن الاحتياط القول بوجوبها على كلّ واحدةٍ منهما . والمالكيّة يوافقون الحنفيّة فى حكم الميراث والصّداق . ولم نقف على نصٍّ لهم بالنّسبة للعدّة . ولهم فى الصّداق تفصيلٌ يرجع إليه فى مصطلح (صداقٌ) . أمّا الشّافعيّة فإنّهم بالنّسبة للميراث يرون أنّه يوقف للزّوجتين من ماله نصيب زوجةٍ إلى أن يصطلحا ، لأنّه قد ثبت إرث إحداهما بيقينٍ ، وليست إحداهما بأولى من الأخرى ، فإن قال وارث الزّوج : أنا أعرف الزّوجة منهما ففيه قولان :

أحدهما : يرجع إليه ، لأنّه لمّا قام مقامه فى استلحاق النّسب قام مقامه فى تعيين الزّوجة . والثّانى : لا يرجع إليه ، لأنّ كلّ واحدةٍ منهما زوجةٌ فى الظّاهر ، وفى الرّجوع إلى بيانه إسقاط وارثٍ مشاركٍ ، والوارث لا يملک إسقاط من يشاركه فى الميراث . وقيل : إنّه فى صورة ما إذا طلّق إحدى زوجتيه دون تعيينٍ لا يرجع إلى الوارث قولاً واحداً ، لأنّه اختيار شهوةٍ . وبالنّسبة للعدّة فإنّهم قالوا : إن لم يدخل بهما اعتدّت كلّ واحدةٍ منهما أربعة أشهرٍ وعشراً ، لأنّ كلّ واحدةٍ منهما يجوز أن تكون هى الزّوجة ، فوجبت العدّة عليهما ليسقط الفرض بيقينٍ . وإن دخل بهما ، فإن كانتا حاملين اعتدّتا بوضع الحمل ، لأنّ عدّة الطّلاق والوفاة فى الحمل واحدةٌ . وإن كانتا من ذوات الشّهور اعتدّتا بأربعة أشهرٍ وعشرٍ ، لأنّها تجمع عدّة الطّلاق والوفاة ، وإن كانتا من ذوات الأقراء اعتدّتا بأقصى الأجلين .

وأمّا المهر فلم نجد نصّاً فى المسألة .

وأمّا الحنابلة فقد نصّوا على أنّ من طلّق واحدةً من نسائه ، ومات قبل البيان ، أخرجت بالقرعة ، فمن تقع عليها القرعة فلا ميراث لها . وقد روى ذلک عن علىٍّ رضى الله عنه ، وهو قول أبى ثورٍ ، لأنّه إزالة ملکٍ عن الآدمىّ فتستعمل فيه القرعة عند الاشتباه ، کالعتق . ولأنّ الحقوق تساوت على وجهٍ تعذّر تعيّن المستحقّ فيه من غير قرعةٍ ، فينبغى أن تستعمل فيه القرعة ، کالقسمة بين النّساء فى السّفر . فأمّا قسمة الميراث بين الجميع ففيه إعطاء من لا تستحقّ وإنقاض المستحقّ ، وفى وقف قسمة الميراث إلى غير غايةٍ تضييعٌ لحقوقهنّ ، وحرمان الجميع منع الحقّ عن صاحبه يقيناً .

ومن ذلک ما قالوه فى ميراث الغرقى والهدمى والحرقى ، لأنّ من شروط الإرث تحقّق حياة الوارث وقت وفاة المورّث . وبالنّسبة للغرقى والهدمى والحرقى الّذين بينهم توارثٌ ماتوا معاً أو متعاقبين ، ولم يعلم أيّهم أسبق موتاً ، فإنّ ذلک يترتّب عليه اشتباهٌ عند التّوريث ، إذ لا يدرى أيّهم أسبق موتاً ، ولذا فإنّ جمهور الفقهاء قالوا : يمتنع التّوارث بينهم ، وإنّما توزّع ترکة کلٍّ منهم على ورثته الأحياء دون اعتبارٍ لمن مات معه ، إذ لا توارث بالشّکّ ، وهو المعتمد ، لاحتمال موتهم معاً أو متعاقبين ، فوقع الشّکّ فى الاستحقاق ، واستحقاق الأحياء متيقّنٌ ، والشّکّ لا يعارض اليقين . وتفصيله فى (إرثٌ) .

طرق إزالة الاشتباه :

١٩ – من اشتبه عليه أمرٌ ما فإنّ إزالة الاشتباه تکون عن طريق التّحرّى ، أو الأخذ بالقرائن ، أو استصحاب الحال ، أو الأخذ بالاحتياط ، أو بإجراء القرعة ونحوها .

وفيما يلى بيان ما تقدّم .

أ – التّحرّى :

٢٠ – وهو عبارةٌ عن طلب الشّىء بغالب الرّأى عند تعذّر الوقوف على حقيقته ، وقد جعل التّحرّى حجّةً حال الاشتباه وفقد الأدلّة ، لضرورة العجز عن الوصول إلى المتحرّى عنه . وحکمه وقوع العمل صواباً فى الشّرع . فمن اشتبهت عليه القبلة مثلاً ، ولم يجد سبيلاً لمعرفتها تحرّى . لما روى عن عامر بن ربيعة أنّه قال : « کنّا مع رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فى ليلةٍ مظلمةٍ ، فلم ندر أين القبلة ، فصلّى کلّ رجلٍ منّا على حياله ، فلمّا أصبحنا ذکرنا ذلک لرسول اللّه صلى الله عليه وسلم فنزل قول اللّه سبحانه : { فأينما تولّوا فثمّ وجه اللّه } » . وقال علىٌّ رضى الله عنه : قبلة المتحرّى جهة قصده ، ولأنّ العمل بالدّليل الظّاهر واجبٌ وإقامةٌ للواجب بقدر الوسع . والفروض إصابة عين الکعبة أو جهتها بالاجتهاد والتّحرّى ، على تفصيلٍ واختلافٍ بيانه فى مصطلح (استقبالٌ) .

ب – الأخذ بالقرائن :

٢١ – القرينة : هى الأمارة الّتى ترجّح أحد الجوانب عند الاشتباه . جاء فى فواتح الرّحموت : أنّ القرينة ما يترجّح به المرجوح . وقد تكون القرينة قطعيّةً ، وقد عرّفت مجلّة الأحكام العدليّة القرينة القاطعة بأنّها : الأمارة البالغة حدّ اليقين . ولا خلاف فى أصل اعتبار القرينة على ما هو مبيّنٌ فى مصطلح (إثباتٌ) (ف ٣١) .

ومن هذا القبيل حكم رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وخلفائه من بعده بالقيافة (اتّباع الأثر وتعرّف الشّبه) وجعلها دليلاً يثبت به النّسب عند الاشتباه .

وإذا تداعى رجلان شيئاً ، وقدّم كلٌّ منهما بيّنة قبوله ، وتساويا فى العدالة ، واشتبه الأمر على القاضى ، فإن كان المدّعى به فى يد أحدهما كان ذلك قرينةً ترجّح جانبه . وهذا معنى قولهم : تقدّم بيّنة الدّاخل على بيّنة الخارج عند التّكافؤ على ما هو المشهور .

ج – استصحاب الحال :

٢٢ – المراد به استبقاء حكمٍ ثبت فى الزّمن الماضى على ما كان ، واعتباره موجوداً مستمرّاً إلى أن يوجد دليلٌ يغيّره . وقد عرّفوه بأنّه استدلالٌ بالمتحقّق فى الماضى على الوقوع فى الحال . وقال الشّوكانىّ : المراد استصحاب الحال لأمرٍ وجودىٍّ أو عدمىٍّ ، عقلىٍّ أو شرعىٍّ . فمن علم أنّه متوضّئٌ ، ثمّ شكّ فى طروء الحدث ، فإنّه يحكم بطهارته وبقاء وضوئه ما لم يثبت خلاف ذلك ، لأنّ الطّهارة الثّابتة بيقينٍ لا يحكم بزوالها بالشّكّ .

وتفصيل الكلام فى حجّيّة الاستصحاب والتّرجيح به عند الاشتباه وانعدام الدّليل سبق بيانه فى مصطلح (استصحابٌ) .

د – الأخذ بالاحتياط :

٢٣ – جاء فى اللّغة : الاحتياط طلب الأحظّ والأخذ بأوثق الوجوه . ومنه قولهم : افعل الأحوط . وقد نصّ الفقهاء على أنّه عند الاشتباه مثلاً ، فيما إذا وجد الزّوجان فى فراشهما المشترك منيّاً ، ولم يذكر كلٌّ منهما مصدره ، وقال الزّوج : إنّه من المرأة ولعلّها احتلمت ، وقالت الزّوجة : إنّه من الرّجل ولعلّه احتلم ، فالأصحّ أنّه يجب الغسل عليهما احتياطاً . كما نصّوا فى باب العدّة على أنّ المرأة المعقود عليها ، واختلى بها زوجها ثمّ فارقها ، فإنّها تعتدّ احتياطاً ، وإن لم يدخل بها ، لأنّ الخلوة مثار الشّبهة ، وهذا للمحافظة على الأعراض والأنساب .

هـ – الانتظار لمضىّ المدّة :

٢٤- وهذا يكون فيما له مدّةٌ محدّدةٌ ، كدخول شهر رمضان ، فإنّ اللّه سبحانه يقول : { فمن شهد منكم الشّهر فليصمه } .

فإن اشتبه الأمر وغمّ الهلال وجب إكمال شعبان ثلاثين يوماً ، لخبر « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته ، فإن غمّ عليكم فأكملوا عدّة شعبان ثلاثين يوماً » .

و - إجراء القرعة :

٢٥ - يقول القرافىّ : متى تعيّنت المصلحة أو الحقّ فى جهةٍ فلا يجوز الإقراع ، لأنّ فى القرعة ضياع ذلك الحقّ المعيّن والمصلحة المتعيّنة ، ومتى تساوت الحقوق والمصالح ، واشتبه فى المستحقّ فهذا هو موضع القرعة عند التّنازع ، منعاً للضّغائن . وتفصيلة فى (إثباتٌ) (ف) وفى (قرعةٌ) .

الأثر المترتّب على الاشتباه :

٢٦ - درء الحدّ : من أظهر ما يترتّب على الاشتباه من آثارٍ : درء الحدّ عن الجانى . فقد روت السّيّدة عائشة رضى الله عنها أنّ النّبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم » . وروى عن ابن مسعودٍ ادرءوا الحدود بالشّبهات . إلخ . وعن عمر بن الخطّاب رضى الله عنه أنّه قال : لأن أعطّل الحدود بالشّبهات أحبّ إلىّ من أن أقيمها بالشّبهات . ويقول الكاسانىّ : إنّ الحدّ عقوبةٌ متكاملةٌ فيستدعى جنايةً متكاملةً ، فإذا كانت هناك شبهةٌ كانت الجناية غير متكاملةٍ .

٢٧ - وممّا يترتّب على الاشتباه من آثارٍ عمليّةٍ عند اشتباه المصلّى : وجوب سجود السّهو جبراً ، لترك الواجب الأصلىّ فى الصّلاة أو تغييره ، أو تغيير فرضٍ منها عن محلّه الأصلىّ ساهياً ، فيجب جبره بالسّجود .

فقد روى أبو سعيدٍ الخدرىّ قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : « إذا شكّ أحدكم فى صلاته فلم يدر كم صلّى ثلاثاً أم أربعاً ؟ فليطرح الشّكّ ، وليبن على ما استيقن ، ثمّ يسجد سجدتين قبل أن يسلّم . فإن كان صلّى خمساً شفعن له صلاته وإن كان صلّى إتماماً لأربعٍ كانتا ترغيماً للشّيطان » . ولأنّ الأصل عدم الإتيان بما شكّ فيه ، فلزمه الإتيان به . كما لو شكّ هل صلّى أو لا . وتفصيل ذلك فى (سجود السّهو) .

٢٨ - وممّا يترتّب على اشتباه القاضى فيما ينبغى أن يحكم به فى الدّعوى الّتى ينظرها : مشاورة الفقهاء للاستئناس برأيهم ، وذلك ندباً عند جمهور الفقهاء ، ووجوباً فى قولٍ عند المالكيّة ، وقد كان عثمان رضى الله عنه إذا جلس أحضر أربعةً من الصّحابة ثمّ استشارهم ، فإن رأوا ما راه أمضاه . يقول ابن قدامة : إذا نزل بالقاضى الأمر المشكل عليه مثله شاور فيه أهل العلم والأمانة . ثمّ قال : لأنّه قد ينتبه بالمشاورة ، ويذكر ما نسيه بالمذاكرة . والمشاورة هنا لاستخراج الأدلّة ، ويعرف القاضى الحقّ بالاجتهاد

، ولا يجوز أن يقلّد غيره ما دام مجتهداً . ومن أجل تيسير أمر المشورة على القاضى ، فإنّه يستحبّ أن يحضر مجلس الماضى أهل العلم من كلّ مذهبٍ ، حتّى إذا حدثت حادثةٌ يفتقر إلى أن يسألهم عنها ، سألهم ليذكروا أدلّتهم فيها وجوابهم فيها .

٢٩ – كما قد يترتّب على الاشتباه وقف قسمة التّركة ، أو الاحتفاظ بقدرٍ منها ، كما إذا كان ضمن الورثة حملٌ عند وفاة المورّث ، ولا يدرى أذكرٌ هو أم أنثى ، حتّى يعلم نصيبه ، أو أصل استحقاقه فى الإرث ، وكذلك بالنّسبة للمفقود والأسير ، فإنّه يجعل حيّاً بالنّسبة لماله حتّى يقوم الدّليل على وفاته ، ويجعل ميّتاً فى مال غيره ، لكن يوقف له نصيبه كما يوقف نصيب الحمل حتّى يتبيّن حاله أو يقضى باعتباره ميّتاً . وتفصيل كلّ ذلك وبيانه فى مصطلح : (إرثٌ) .

اشتراطٌ ❊

التعريف :

١ – الاشتراط لغةً : مصدرٌ للفعل اشترط ، واشترط معناه : شرط . تقول العرب : شرط عليه كذا أى ألزمه به ، فالاشتراط يرجع معناه إلى معنى الشّرط .

والشّرط (بسكون الرّاء) له عدّة معانٍ ، منها : إلزام الشّىء والتزامه . قال فى القاموس : الشّرط إلزام الشّىء والتزامه فى البيع ونحوه ، كالشّريطة ، ويجمع على شرائط وشروطٍ . والشّرط (بفتح الرّاء) معناه العلامة ، ويجمع على أشراطٍ . والّذى يعنى به الفقهاء هو الشّرط (بسكون الرّاء) وهو إلزام الشّىء والتزامه . فإن اشترط الموكّل على الوكيل شرطاً فلا بدّ للوكيل أن يتقيّد به . وكذلك سائر الشّروط الصّحيحة الّتى تكون بين المتعاقدين ، فلا بدّ من التزامها وعدم الخروج عنها .

أمّا الاشتراط فى الاصطلاح ، فقد عرّف الأصوليّون الشّرط بأنّه : ما يلزم من عدمه العدم ، ولا يلزم من وجوده وجودٌ ولا عدمٌ لذاته ، ولا يشتمل على شىءٍ من المناسبة فى ذاته بل فى غيره . والشّرط بهذا المعنى يخالف المانع ، إذ يلزم من وجوده العدم . ويخالف السّبب ، إذ يلزم من وجوده الوجود ، ومن عدمه العدم . ويخالف جزء العلّة ، لأنّه يشتمل على شىءٍ من المناسبة ، لأنّ جزء المناسب مناسبٌ .

٢ – والشّرط عند الأصوليّين قد يكون عقليّاً ، أو شرعيّاً ، أو عاديّاً ، أو لغويّاً ، باعتبار الرّابط بين الشّرط ومشروطه ، إن كان سببه العقل ، أو الشّرع ، أو العادة ، أو اللّغة . وهناك أقسامٌ أخرى للشّرط يذكرها الأصوليّون فى كتبهم .

وللتّفصيل ينظر الملحق الأصولىّ .

٣ – أمّا الشّرط عند الفقهاء فهو نوعان : أحدهما : الشّرط الحقيقىّ (الشّرعىّ) .

وثانيها : الشّرط الجعلىّ . وفيما يلى معنى كلٍّ منهما :

أ – الشّرط الحقيقىّ :

٤ – الشّرط الحقيقىّ هو ما يتوقّف عليه وجود الشّىء بحكم الشّرع ، كالوضوء بالنّسبة للصّلاة ، فإنّ الصّلاة لا توجد بلا وضوءٍ ، لأنّ الوضوء شرطٌ لصحّتها . وأمّا الوضوء فإنّه يوجد ، فلا يترتّب على وجوده وجود الصّلاة ، ولكن يترتّب على انتفائه انتفاء صحّة الصّلاة .

ب – الشّرط الجعلىّ :

٥ – الشّرط الجعلىّ نوعان :

أحدهما : الشّرط التّعليقىّ ، وهو ما يترتّب عليه الحكم ولا يتوقّف عليه ، كالطّلاق المعلّق على دخول الدّار ، كما إذا قال لها : إن دخلت الدّار فأنت طالقٌ ، فإنّ الطّلاق مرتّبٌ على دخولها الدّار ، فلا يلزم من انتفاء الدّخول انتفاء الطّلاق ، بل قد يقع الطّلاق بسببٍ آخر . وثانيها : الشّرط المقيّد ، ومعناه التزام أمرٍ لم يوجد فى أمرٍ وجد بصيغةٍ مخصوصةٍ . والاشتراط عند الفقهاء هو فعل المشترط ، بأن يعلّق أحد تصرّفاته ، أو يقيّدها بالشّرط ، فمعنى الاشتراط لا يتحقّق إلاّ فى الشّرط الجعلىّ . وسيأتى التّفصيل فى مصطلح : (شرطٌ) .

الألفاظ ذات الصّلة :

التّعليق :

٦ – فرّق الزّركشىّ فى قواعده بين الاشتراط والتّعليق ، بأنّ التّعليق ما دخل على أصل الفعل بأداته ، كإن وإذا ، والشّرط ما جزم فيه بالأصل ، وشرط فيه أمرٌ آخر . وقال الحموىّ فى حاشيته على ابن نجيمٍ فى الفرق بينهما : إنّ التّعليق ترتيب أمرٍ لم يوجد على أمرٍ يوجد ، بإن أو إحدى أخواتها ، والشّرط التزام أمرٍ لم يوجد فى أمرٍ وجد بصيغةٍ مخصوصةٍ .

الاشتراط الجعلىّ وأثره على التّصرّفات :

٧ – الاشتراط الجعلىّ قد يكون تعليقيّاً ، وقد يكون تقييديّاً ، فالاشتراط التّعليقىّ . هو عبارةٌ عن معنًى يعتبره المكلّف ، ويعلّق عليه تصرّفاً من تصرّفاته ، كالطّلاق ، والبيع وغيرهما . وقد سبق أنّ التّعليق هو عبارةٌ عن ترتيب أمرٍ لم يوجد على أمرٍ يوجد ، بإن أو إحدى أخواتها . فالاشتراط التّعليقىّ هو فعل المشترط ، كأن يعلّق أحد تصرّفاته على الشّرط .

هذا ، ولصحّة التّعليق شروطٌ يذكرها الفقهاء فى كتبهم .

منها : أن يكون المعلّق عليه معلوماً يمكن الوقوف عليه ، ولهذا لو علّق الطّلاق بمشيئه اللّه تعالى لا يقع عند الحنفيّة والشّافعيّة ، لأنّ مشيئة اللّه سبحانه وتعالى لا يمكن الوقوف عليها . ومنها : أن يكون المعلّق

عليه أمراً مستقبلاً ، بخلاف الماضى ، فإنّه لا مدخل للتّعليق فيه ، فهو تنجيزٌ حقيقةً ، وإن كان تعليقاً فى الصّورة .

ومنها : ألاّ يفصل بين الشّرط وجوابه بما يعتبر فاصلاً فى العادة ، فإن فعل ذلك لم يصحّ التّعليق .

وللاشتراط التّعليقىّ أثره على التّصرّفات إذا اشترطه المشترط ، فإنّ من التّصرّفات ما يقبل التّعليق ، ومنها ما لا يقبله .

التّصرّفات الّتى لا تقبل التّعليق :

٨ – منها : البيع ، وهو من التّمليكات ، لا يقبل الاشتراط التّعليقىّ عند الحنفيّة والمالكيّة والشّافعيّة والحنابلة ، لأنّ البيع فيه انتقالٌ للملك من طرفٍ إلى طرفٍ ، وانتقال الأملاك إنّما يعتمد الرّضا ، والرّضا يعتمد الجزم ، ولا جزم مع التّعليق .

ومنها : النّكاح ، فإنّه لا يصحّ تعليقه على أمرٍ فى المستقبل عند الحنفيّة والمالكيّة والشّافعيّة والحنابلة . وتفصيل ذلك فى باب النّكاح .

التّصرّفات الّتى تقبل الاشتراط التّعليقىّ :

٩ – منها : الكفالة ، فإنّها تقبل الاشتراط التّعليقىّ عند الحنفيّة والمالكيّة والحنابلة والشّافعيّة على الوجه الأصحّ . وتفصيل ذلك يأتى فى موضعه .

هذا ، وبالنّظر إلى ما قاله العلماء فى التّصرّفات على اختلاف أنواعها من التّمليكات والمعاوضات والالتزامات والإطلاقات والإسقاطات والتّبرّعات والولايات ، فإنّنا نجدهم متّفقين على أنّ بعض هذه التّصرّفات لا يقبل الاشتراط التّعليقىّ مطلقاً ، كالتّمليكات ، والمعاوضات ، والأيمان باللّه تعالى ، والإقرار . وبعضها يقبل الاشتراط التّعليقىّ مطلقاً ، كالولايات والالتزام ببعض الطّاعات ، كالنّذر مثلاً والإطلاقات . وبعضها فيه الخلاف من حيث قبوله الاشتراط التّعليقىّ أو عدم قبوله له ، كالإسقاطات وبعض عقود التّبرّعات وغيرها .

وسيأتى تفصيل ذلك كلّه فى مصطلح : (شرطٌ) .

الاشتراط التّقييدىّ وأثره :

١٠ – سبق أنّ الاشتراط التّقييدىّ عند الفقهاء معناه : التزام أمرٍ لم يوجد فى أمرٍ وجد بصيغةٍ مخصوصةٍ . أو أنّه : ما جزم فيه بالأصل وشرط فيه أمرٌ آخر . فالشّرط بهذين المعنيين يتحقّق فيه معنى الاشتراط ، لأنّ التزام أمرٍ لم يوجد فى أمرٍ وجد ، أو اشتراط أمرٍ آخر بعد الجزم بالأصل هو الاشتراط . ولهذا الشّرط

أثره على التّصرّفات إذا اشترط فيها من حيث الصّحّة والفساد أو البطلان . وبيان ذلك أنّ التّصرّف إذا قيّد بشرطٍ فلا يخلو هذا الشّرط إمّا أن يكون صحيحاً أو فاسداً أو باطلاً .

فإن كان الشّرط صحيحاً ، كما لو اشترط فى البقرة كونها حلوباً فالبيع جائزٌ ، لأنّ المشروط صفةٌ للمبيع أو الثّمن ، وهى صفةٌ محضةٌ لا يتصوّر انقلابها أصلاً ، ولا يكون لها حصّةٌ من الثّمن بحالٍ . وإن كان الشّرط باطلاً أو فاسداً ، كما لو اشترى ناقةً على أن تضع حملها بعد شهرين ، كان البيع فاسداً . وكما لو قال : بعتك دارى على أن تزوّجنى ابنتك ، أو على أن أزوّجك ابنتى لم يصحّ ، لاشتراطه عقداً آخر ، ولشبهه بنكاح الشّغار . وإنّ الحنفيّة الّذين يفرّقون بين الفاسد والباطل يذكرون له ثلاثة أقسامٍ : صحيحٌ ، وفاسدٌ ، وباطلٌ . والمالكيّة والشّافعيّة والحنابلة الّذين لا يفرّقون بين الفاسد والباطل ، ويقولون بأنّهما واحدٌ ، يذكرون له قسمين : صحيحٌ ، وفاسدٌ أو باطلٌ . كما أنّ الفقهاء يذكرون للشّرط الصّحيح أنواعاً وللشّرط الفاسد أنواعاً ، وإنّ من الشّروط الفاسدة ما يفسد التّصرّف ويبطله ، ومنها ما يبقى التّصرّف معه صحيحاً . وسيأتى تفصيل ذلك إن شاء اللّه فى مصطلح (شرطٌ) .

ضوابط الاشتراط التّقييدىّ عند الفقهاء :

١١ – الاشتراط التّقييدىّ قسمان : صحيحٌ ، وفاسدٌ أو باطلٌ .

القسم الأوّل : الاشتراط الصّحيح :

١٢ – الاشتراط الصّحيح ضابطه عند الحنفيّة : أنّه اشتراط صفةٍ قائمةٍ بمحلّ العقد وقت صدوره ، أو اشتراط ما يقتضيه العقد أو ما يلائم مقتضاه ، أو اشتراط ما ورد فى الشّرع دليلٌ بجواز اشتراطه ، أو اشتراط ما جرى عليه التّعامل بين النّاس . وضابطه عند المالكيّة : أنّه اشتراط صفةٍ قائمةٍ بمحلّ العقد وقت صدوره ، أو اشتراط ما يقتضيه العقد ، أو اشتراط ما لا يقتضيه العقد ولا ينافيه . وضابطه عند الشّافعيّة : أنّه اشتراط صفةٍ قائمةٍ بمحلّ العقد وقت صدوره ، أو اشتراط ما يقتضيه العقد ، أو اشتراط ما يحقّق مصلحةً مشروعةً للعاقدين ، أو اشتراط العتق لتشوّف الشّارع إليه . وضابطه عند الحنابلة : أنّه اشتراط صفةٍ قائمةٍ بمحلّ العقد وقت صدوره ، أو اشتراط ما يقتضيه العقد أو يؤكّد مقتضاه ، أو اشتراط ما أجاز الشّارع اشتراطه ، أو اشتراط ما يحقّق مصلحةً للعاقدين .

القسم الثّانى : الاشتراط الفاسد أو الباطل :

وهذا النّوع ضربان : أحدهما : ما يفسد التّصرّف ويبطله ،

وثانيهما : ما يبقى التّصرّف معه صحيحاً . وهاك ضابط كلٍّ منهما .

الضّرب الأوّل : ما يفسد التّصرّف ويبطله :

١٣ – ضابطه عند الحنفيّة : اشتراط أمرٍ يؤدّى إلى غدرٍ غير يسيرٍ ، أو اشتراط أمرٍ محظورٍ ، أو اشتراط ما لا يقتضيه العقد ، وفيه منفعةٌ لأحد المتعاقدين أو لغيرهما ، أو للمعقود عليه (إذا كان هذان الأخيران من أهل الاستحقاق) ، أو اشتراط ما لا يلائم مقتضى العقد ، ولا ممّا جرى عليه التّعامل بين النّاس ، ولا ممّا ورد فى الشّرع دليلٌ بجوازه . وضابطه عند المالكيّة : اشتراط أمرٍ محظورٍ ، أو أمرٍ يؤدّى إلى غدرٍ ، أو اشتراط ما ينافى مقتضى العقد . وضابطه عند الشّافعيّة : اشتراط أمرٍ لم يرد فى الشّرع ، أو اشتراط أمرٍ يخالف مقتضى العقد ، أو اشتراط أمرٍ يؤدّى إلى جهالةٍ . وضابطه عند الحنابلة : اشتراط عقدين فى عقدٍ ، أو اشتراط شرطين فى عقدٍ واحدٍ ، أو اشتراط ما يخالف المقصود من العقد .

الضّرب الثّانى : ما يبطل ويبقى التّصرّف معه صحيحاً :

١٤ – وضابطه عند الحنفيّة : كلّ ما لا يقتضيه العقد ولا يلائم مقتضاه ، ولم يرد فى الشّرع أو العرف دليلٌ بجوازه ، وليس فيه منفعةٌ لأحد المتعاقدين ، أو للمعقود عليه إذا كان من أهل الاستحقاق . فإذا اقترن بالعقد كان العقد صحيحاً والشّرط باطلاً .

وضابطه عند المالكيّة : اشتراط البراءة من العيوب ، أو اشتراط الولاء لغير المعتق ، أو اشتراط ما يخالف مقتضى العقد دون الإخلال بمقصوده .

وضابطه عند الشّافعيّة : اشتراط ما لا غرض فيه ، أو ما يخالف مقتضى العقد دون الإخلال بمقصوده .

وضابطه عند الحنابلة : اشتراط ما ينافى مقتضى العقد ، أو اشتراط أمرٍ يؤدّى إلى جهالةٍ ، أو أمرٍ غير مشروعٍ . هذا ، وقد ذكر المالكيّة أنّ من الشّروط الفاسدة شروطاً تسقط إذا أسقطها المشترط . وضابطها عندهم : اشتراط أمرٍ يناقض المقصود من البيع ، أو يخلّ بالثّمن فيه ، أو يؤدّى إلى غدرٍ فى الهبة .

اشتراكٌ ❊

التعريف :

١ – يطلق الاشتراك فى اللّغة على الالتباس ، يقال : اشترك الأمر : التبس ، ويأتى الاشتراك بمعنى التّشارك . ورجلٌ مشتركٌ : إذا كان يحدّث نفسه كالمهموم ، أى أنّ رأيه مشتركٌ ليس بواحدٍ ، ولفظٌ مشتركٌ له أكثر من معنًى .

ويطلق الاشتراك فى عرف العلماء ، كأهل العربيّة والأصول والميزان (المنطق) على معنيين : أحدهما : الاشتراك المعنوىّ . وهو كون اللّفظ المفرد موضوعاً لمفهومٍ عامٍّ مشتركٍ بين الأفراد ، وذلك اللّفظ يسمّى مشتركاً معنويّاً .

ثانيهما : الاشتراک اللّفظیّ . وهو کون اللّفظ المفرد موضوعاً لمعنیین معاً علی سبیل البدل من غیر ترجیحٍ ، وذلک اللّفظ یسمّی مشترکاً لفظیّاً . أمّا الاشتراک عند الفقهاء : فلا یخرج عن معناه فی اللّغة بمعنی التّشارک .

الألفاظ ذات الصّلة :

الخلطة :

٢ – الخلطة هی الشّرکة ، وهی نوعان : خلطة أعیانٍ ، وهی ما إذا کان الاشتراک فی الأعیان . وخلطة أوصافٍ : وهی أن یکون مال کلّ واحدٍ من الخلیطین متمیّزاً فخلطاه ، واشترکا فی عددٍ من الأوصاف ، کالمراح (المأوی) والمرعی والمشرب والمحلب والفحل والرّاعی . وللخلطة أثرٌ عند بعض الفقهاء فی اکتمال نصاب الأنعام واحتساب الزّکاة . وتفصیله فی (زکاةٌ) .

المشترک عند الأصولیّین وأقسامه :

٣ – المشترک ما کان اللّفظ فیه موضوعاً حقیقةً فی معنیین أو أکثر ، وینقسم المشترک عند الأصولیّین إلی قسمین : معنویٍّ ولفظیٍّ .

الأوّل : المشترک المعنویّ . وهو اللّفظ المفرد الموضوع لمفهومٍ عامٍّ مشترکٍ بین الأفراد ، وینقسم إلی المتواطئ والمشکّک .

أ – المتواطئ : وهو الکلّیّ الّذی تساوی المعنی فی أفراده ، کالإنسان ، فإنّه متساوی المعنی فی أفراده من زیدٍ وعمرٍو وغیرهما . وسمّی متواطئاً من التّواطؤ (التّوافق) لتوافق أفراد معناه فیه .

ب – المشکّک : وهو الکلّیّ الّذی تفاوت معناه فی أفراده ، کالبیاض ، فإنّ معناه فی الثّلج أشدّ منه فی العاج .

الثّانی : المشترک اللّفظیّ . وهو اللّفظ الموضوع لمعنیین معاً علی سبیل البدل . أو هو أن یتّحد اللّفظ ویتعدّد المعنی علی سبیل الحقیقة فیهما ، کالقرء ، فإنّه حقیقةٌ فی الحیض والطّهر .

عموم المشترک :

٤ – اختلفوا فی عموم المشترک ، وهو أن یراد باللّفظ المشترک فی استعمالٍ واحدٍ جمیع معانیه ، بأن تتعلّق النّسبة بکلّ واحدٍ منها ، بأن یقال : رأیت العین ویراد بها الباصرة والجاریة والذّهب وغیرها من معانیها ، ورأیت الجون ، ویراد به الأبیض والأسود ، وأقرأت هندٌ ، ویراد بها حاضت وطهرت .

فذهب الإمام أبو حنيفة إلى منع عموم المشترك ، وعليه الكرخىّ وفخر الدّين الرّازىّ والبصرىّ والجبّائىّ وأبو هاشمٍ من المعتزلة . وذهب مالكٌ والشّافعىّ والقاضى أبو بكرٍ الباقلاّنىّ المالكىّ والقاضى عبد الجبّار المعتزلىّ إلى جواز عموم المشترك .

مواطن الاشتراك :

٥ – يرد الاشتراك كثيراً فى الفقه فيما نجمل بعض أحكامه مع الإحالة إلى موطنها فى كتب الفقه .

أ – الشّركة : وهى نوعان جبريّةٌ واختياريّةٌ .

– ١ – الجبريّة : وهى بأن يختلط مالان لرجلين اختلاطاً لا يمكن التّمييز بينهما ، أو يرثا مالاً .

– ٢ – الاختياريّة : بأن يشتريا عيناً ، أو يتّهبا ، أو يوصى لهما فيقبلان ، أو يستوليا على مالٍ ، أو يخلطا مالهما . وفى جميع ذلك كلّ واحدٍ منهما أجنبىٌّ فى نصيب الآخر ، لا يتصرّف فيه إلاّ بإذنه . والشّركة فى العقود نوعان أيضاً : فهى إمّا شركةٌ فى المال ، أو شركةٌ فى الأعمال . فالشّركة فى الأموال أنواعٌ : مفاوضةٌ وعنانٌ ووجوهٌ ، وشركةٌ فى العروض . والشّركة فى الأعمال نوعان : جائزةٌ ، وهى شركة الصّنائع ، وفاسدةٌ وهى الشّركة فى المباحات . وهناك اختلافٌ بين الفقهاء فى مشروعيّة بعض الشّركات .

وفى تفصيل أنواع الشّركات راجع مصطلح (شركةٌ) .

ب – الاشتراك فى الجناية :

بأن يشترك اثنان فصاعداً فى قتلٍ عمدٍ أو شبه عمدٍ أو خطأٍ أو قطع عضوٍ أو جرحٍ ، فاختلف فى الانتقال إلى الدّية ، أو قتل الجماعة بالواحد على تفصيلٍ يرجع إليه فى مصطلح (جناياتٌ ، قصاصٌ) .

ج– الاشتراك فى الإرث :

وهو اشتراكٌ جبرىٌّ كما تقدّم . وفى كيفيّة توزيع الأنصبة وإعطاء كلّ ذى حقٍّ حقّه انظر مصطلح (إرثٌ) .

د – الطّريق المشترك :

وهو أن تشترك عدّة دورٍ فى طريقٍ واحدٍ . وهذا الطّريق إمّا أن يكون مفتوحاً وهو الشّارع ، أو يكون مسدوداً . وفى البناء الزّائد على البيت إلى الدّرب تفصيلٌ فى الجواز والحرمة . انظر مصطلح (طريقٌ) .

هـ – زوال الاشتراك :

يزول الاشتراك بالقسمة بين الشّركاء بأنفسهم بالتّراضى ، لأنّ الحقّ لهم ، ومن نصّبوه للقسمة وكيلٌ لهم . انظر مصطلح (قسمةٌ) . وكما تقسم الأعيان المشتركة تقسم المنافع المشتركة أيضاً مهايأةً ، أى مناوبةً فى الزّمن . وينظر مصطلح : (قسمةٌ) (ومهايأةٌ) .

اشتغال الذّمّة ❊

التّعريف :

١ – الاشتغال فى اللّغة : التّلهّى بشىءٍ عن شىءٍ ، وهو ضدّ الفراغ ، والذّمّة فى اللّغة : العهد والضّمان والأمان . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : « وذمّة المسلمين واحدةٌ يسعى بها أدناهم ، فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة اللّه والملائكة والنّاس أجمعين » . ولا يخرج استعمال الفقهاء للاشتغال عن المعنى اللّغوىّ .

أمّا الذّمّة فهى عند بعضهم : وصفٌ يصير الشّخص به أهلاً للإيجاب له وعليه ، وهو ما يعبّر عنه الفقهاء والأصوليّون بأهليّة الوجوب . وبعضهم عرّفها بأنّها : نفسٌ لها عهدٌ ، فإنّ الإنسان يولد وله ذمّةٌ صالحةٌ للوجوب له وعليه . فهى محلّ الوجوب لها وعليها .

ولعلّ تسمية النّفس بالذّمّة من قبيل تسمية المحلّ (أى النّفس) بالحال (أى الذّمّة) . فمعنى اشتغال الذّمّة بالشّىء عند الفقهاء هو وجوب الشّىء لها أو عليها ، ومقابله فراغ الذّمّة وبراءتها ، كما يقولون : إنّ الحوالة لا تتحقّق إلاّ بفراغ ذمّة الأصيل ، والكفالة لا تتحقّق مع براءة ذمّته .

الألفاظ ذات الصّلة :

أ – براءة الذّمّة :

٢ – هى فراغ الذّمّة وضدّ الاشتغال ، وهى أصلٌ من الأصول المسلّمة الفقهيّة . يحال عليه ما لم يثبت خلافه ، والقاعدة الكلّيّة تقول : الأصل براءة الذّمّة . ولذا لم يقبل شغلها إلاّ بدليلٍ ، وموضع تفصيله مصطلح (براءة الذّمّة) .

ب – تفريغ الذّمّة :

٣ – ومعناه جعل الذّمّة فارغةً ، وهو يحصل بالأداء مطلقاً ، أو بالإبراء فى حقوق العباد الّتى تقبل الإبراء ، كما يحصل بالموت فى حقوق اللّه تعالى على خلافٍ وتفصيلٍ يذكر فى موضعه . ويحصل أيضاً بالكفالة بعد الموت فيما يتعلّق بحقوق العباد . وعبّر الأصوليّون عن وجوب تفريغ الذّمّة بوجوب الأداء ، كما يقول صاحب التّوضيح : إنّ وجوب الأداء هو لزوم تفريغ الذّمّة عمّا تعلّق بها .

صفتها : الحكم الإجمالىّ :

٤ – الغالب استعمال هذا المصطلح فى الدّيون من حقوق العباد الماليّة ، ولهذا يعرّف الفقهاء الدّين بأنّه ما ثبت فى الذّمّة ، كمقدارٍ من الدّراهم فى ذمّة رجلٍ ، ومقدارٍ منها ليس بحاضرٍ . وفى هذه الحالة يلزم تفريغها بالأداء أو الإبراء . وتظلّ الذّمّة مشغولةً وإن مات ، ولذا يوفّى الدّين من مال المدين المتوفّى إذا ترك مالاً . وموضع تفصيله مصطلح (دينٌ) . والحقّ أنّ الذّمّة كما تشتغل بحقوق النّاس الماليّة ، تشغلها

الأعمال المستحقّة ، كالعمل فى ذمّة الأجير فى إجارة العمل ، وتشغلها أيضاً الواجبات الدّينيّة من صلاةٍ وصيامٍ ونذورٍ ، لأنّ الواجب فى الذّمّة قد يكون مالاً ، وقد يكون عملاً من الأعمال ، كأداء صلاةٍ فائتةٍ ، وإحضار شخصٍ أمام القضاء ونحو ذلک ، وحين اشتغال الذّمّة بشيءٍ من هذه الأمور يجب تفريغها ، إمّا بالأداء ، وإمّا بالإبراء إذا كانت حقّاً للعباد .

الوجوب فى الذّمّة ، وتفريغها :

٥ – عبّر الفقهاء عن اشتغال الذّمّة بالوجوب ، كما يقولون : إنّ الوجوب هو اشتغال ذمّة المكلّف بالشّىء ، ووجوب الأداء هو لزوم تفريغ الذّمّة عمّا تعلّق بها .

والأصل أنّ الإيجاب هو سبب اشتغال الذّمّة ، لأنّ اشتغال الذّمّة يحصل بالوجوب عليها . يقول صاحب التّوضيح فيما يتعلّق بالأداء والقضاء : إنّ الشّرع شغل الذّمّة بالواجب ثمّ أمر بتفريغها ويقول الغزالىّ فى مستصفاه : اشتغلت الذّمّة بالأداء ، وبقيت بعد انقضاء الوقت ، فأمر بتفريغها بإتيان المثل ، فالوجوب الّذى ثبت فى الذّمّة واحدٌ .

مواطن البحث :

٦ – يتكلّم الفقهاء عن اشتغال الذّمّة فى الكلام عن القواعد الفقهيّة ، وفى عقد الكفالة ، والحوالة ، وفى بحث الدّين . والقرض .

والأصوليّون يتكلّمون عنه فى بحوث الأهليّة ، والأداء ، والقضاء ، والمأمور به ، وفى بحث القدرة كشرطٍ للتّكليف . وللتّفصيل يرجع إلى الملحق الأصولىّ .

اشتمال الصّمّاء ❊

التعريف :

١ – فى اللّغة : اشتمل بالثّوب إذا أداره على جسده كلّه حتّى لا تخرج منه يده ، واشتمل عليه الأمر : أحاط به ، والشّملة الصّمّاء : الّتى ليس تحتها قميصٌ ولا سراويل . قال أبو عبيدٍ : اشتمال الصّمّاء هو أن يشتمل بالثّوب حتّى يجلّل به جسده ، ولا يرفع منه جانباً ، فيكون فيه فرجةٌ تخرج منها يده ، وهو التّلفّع .

أمّا فى الاصطلاح : فيرى جمهور الفقهاء أنّه لا يخرج عن المعنى اللّغوىّ . ويرى بعضهم أنّ اشتمال الصّمّاء هو ما يطلق عليه : الاضطباع ، وهو أن يضع طرفى ثوبه على عاتقه الأيسر . كما أنّ الكثرة من

الفقهاء يرون أنّ اشتمال الصّمّاء لا يكون فى حالة وجود إزارٍ . ويرى بعضهم أنّه لا مانع من أن يكون متّزراً أو غير متّزرٍ .

ومنشأ الخلاف فى هذا مبنىٌّ على الثّوب .

صفتها : الحكم الإجمالىّ :

٢ – مع اختلافهم فى التعريف على ما تقدّم فقد اتّفقوا على أنّ اشتمال الصّمّاء – إن انكشفت معه العورة – كان حراماً ومفسداً للصّلاة . وأمّا إذا لم يؤدّ إلى ذلك فقد اتّفقوا أيضاً على الكراهة ، ولكن حملها بعضهم على كراهة التّنزيه ، وبعضهم على أنّها كراهةٌ تحريميّةٌ . والأصل فى ذلك ما رواه البخارىّ عن أبى هريرة وأبى سعيدٍ رضى الله عنهما عن النّبىّ صلى الله عليه وسلم : « أنّه نهى عن لبستين : اشتمال الصّمّاء ، وأن يحتبى الرّجل بثوبٍ ليس بين فرجه وبين السّماء شىءٌ » .

مواطن البحث :

٣ – ينظر تفصيل الموضوع فى : (لباسٌ ، وصلاةٌ ، وعورةٌ ، ومكروهات الصّلاة) .

اشتهاءٌ ❊

التعريف :

١ – الاشتهاء فى اللّغة : حبّ الشّىء واشتياقه ، والرّغبة فيه ونزوع النّفس إليه ، سواءٌ أكان ذلك خاصّاً بالنّساء أم بغير ذلك . والشّهوة كذلك ، وقد يقال للقوّة الّتى تشتهى الشّىء شهوةً . ولا يخرج استعمال الفقهاء له عن المعنى اللّغوىّ ، وأغلب ما يعنون باستعمالهم للفظى اشتهاءٍ وشهوةٍ إنّما هو بالنّسبة لرغبة الرّجل فى المرأة ورغبتها فيه ، وهو ما يجده أحدهما أو كلاهما من لذّةٍ نفسيّةٍ ، بتحريك القلب وميله ، أو لذّةٍ حسّيّةٍ بتحرّك أعضاء التّناسل ، وذلك عند النّظر أو المسّ ، أو المباشرة ، وما يترتّب على ذلك من أحكامٍ .

الألفاظ ذات الصّلة :

٢ – الشّبق : وهو هياج شهوة النّكاح ، فالشّبق أخصّ من الاشتهاء .

صفتها : الحكم الإجمالىّ :

٣ – الاشتهاء الطّبيعىّ الّذى لا إرادة فى إيجاده لا يتعلّق به حكمٌ ، لقوله تعالى : { لا يكلّف اللّه نفساً إلاّ وسعها } ولقوله عليه الصلاة والسلام : « اللّهمّ هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما لا أملك » ولكنّ الحكم يتعلّق بالاشتهاء الإرادىّ .

وما تشتهيه النّفس : إمّا مباحٌ أو محرّمٌ .

أمّا المباح : فقد حكى الماوردىّ فى إعطاء النّفس حظّها من الشّهوات المباحة مذاهب . أحدها : منعها وقهرها حتّى لا تطغى .

الثّانى : إعطاؤها تخيّلاً على نشاطها .

الثّالث ، وهو الأشبه : التّوسّط . أمّا اشتهاء المحرّم فحرامٌ ، وأكثر ما يذكره الفقهاء فى ذلك هو اشتهاء الرّجل المرأة الأجنبيّة ، أو العكس ، ويرتّبون على ذلك أحكاماً منها :

أ – النّظر :

٤ – القاعدة العامّة فى ذلك أنّ النّظر بشهوةٍ حرامٌ قطعاً لكلّ منظورٍ إليه من أجنبيّةٍ أو محرّمٍ ، لا زوجته وأمته ، لقول النّبىّ صلى الله عليه وسلم : « من نظر إلى محاسن امرأةٍ أجنبيّةٍ عن شهوة صبّ فى عينيه الآنک يوم القيامة » وخوف الشّهوة أو الشّکّ فى الاشتهاء يحرم معه النّظر أيضاً ، والمرأة كالرّجل فى ذلک يحرم نظرها إلى الرّجل إذا كان بشهوةٍ ، أو خافت ، أو شكّت فى الاشتهاء . وهذا بالنّسبة لمن يشتهى من رجلٍ أو امرأةٍ . أمّا الصّغيرة الّتى لا تشتهى ، ومثلها العجوز فإنّه يحلّ النّظر والمسّ ، لانعدام خوف الفتنة ، أمّا عند خوف الفتنة فلا يجوز أيضاً . ويستثنى من حرمة النّظر ما إذا كانت هناک ضرورةٌ كالعلاج ، أو الشّهادة ، أو القضاء ، أو الخطبة للنّكاح ، فإنّه يباح النّظر حينئذٍ ولو مع الاشتهاء . وهذا باتّفاق الفقهاء مع تفصيلاتٍ تنظر فى مصطلحى (النّظر ، واللّمس) وغيرهما .

ب – حرمة المصاهرة :

٥ – يرى الحنفيّة أنّ من مسّته امرأةٌ بشهوةٍ حرمت عليه أمّها وبنتها ، وكذلک من مسّ امرأةً بشهوةٍ أو نظر إلى فرجها الدّاخل ، . لأنّ المسّ والنّظر سببٌ داعٍ للوطء ، فيقام مقامه فى موضع الاحتياط (والمسّ بشهوةٍ أن تنتشر الآلة أو تزداد انتشاراً) وهو رأى المالكيّة أيضاً ، خلافاً للشّافعيّة وللحنابلة ، وفى الموضع تفصيلاتٌ كثيرةٌ تنظر فى (حرمةٌ – نكاحٌ – زنًى) .

مواطن البحث :

٦ – الاشتهاء أو الشّهوة تتعلّق به أحكامٌ عدّةٌ كنقض الوضوء ، وبطلان الصّلاة ، وإيجاب الغسل ، وحدّ الزّنى إن أدّى إلى مباشرةٍ فى الفرج ، وتنظر فى (وضوءٌ ، وطهارةٌ ، وصلاةٌ ، وزنى) .